حائز على
جائزة نيبولا
2000

أوكتافيا بَتلر

مثَل الوزنات

ترجمة: رنيم العامري





مرايا



مكتبة | 1259   مثَل الوزنات

الكاتب: **أوكتاڤيا بَتلر**

عنوان الكتاب: **مثَل الوزنات**

ترجمة: **رنيم العامري**

العنوان باللغة الأصلية: **Parable of the Talents**

الكاتب: **Octavia E. Butler**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-37-2

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

أوكتافيا بَتلر

مثَل الوزنات

رواية

ترجمة

رنيم العامري



مقدمة

عادة ما تأتي الأمثال في الكتاب المقدّس على هيئة قصص تبدو بسيطة في ظاهرها، إلا أنها تحمل في طيّاتها رسائل معيّنة، الغاية منها توضيح وتفسير حقائق ما، من خلال تشبيهها بأمور مألوفة من صميم الحياة اليومية لتكون قريبة من الأذهان. وقد سأل تلامذة المسيح، لماذا يستخدم المسيح الأمثال في تعاليمه، «فَقَالُوا لَهُ: لِمَاذَا تُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَال؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: لأَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا لأُولَئِكَ فَلَمْ يُعْطَ. فَإِنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى وَيُزَادُ، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ سَيُؤْخَذُ مِنْهُ. مِنْ أَجْلِ هذَا أُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَال، لأَنَّهُمْ مُبْصِرِينَ لاَ يُبْصِرُونَ، وَسَامِعِينَ لاَ يَسْمَعُونَ وَلاَ يَفْهَمُونَ». (متّى ١٣: ١٠-١٣).

ولقد ذُكرت في الكتاب المقدس الكثير من الأمثال التي ضربها يسوع المسيح، ومنها: مثَل الوزنات، مثل الزارع، مثل الثوب العتيق والزقاق العتيقة، مثل حبة الخردل، مثل الابن الضال.. إلخ.

مثل الوزنات

ضرب المسيح هذا المثل (تجده في نهاية الكتاب) لكي يعطي درساً في أهمية الأمانة والاجتهاد وتحمّل المسؤولية. ويحكي المثل قصة تاجر أراد السفر فجمع عبيده وسلّمهم أمواله، واضعاً ثقته فيهم، وفي هذا اختبار لهم ليرى من منهم سيكون على قدر الأمانة، وقد وزع المال (وزنات الفضّة) لكل واحدٍ من عبيده على حسب قدرته، ثم سافر. فلما آب من سفره، اجتمع بعبيده ليسوّي حسابه معهم، فوجدَ أن العبدين الأولين كانا أمينين ومجتهدَين، لأنهما تاجرا وربحا وكثّرا من وزناتهما، ففرح السيد بهما أيّما فرح، لأنهما كانا عند حسن ظنه بهما، أما العبد الثالث فقد اعترف أنه دفن الفضة في الأرض، ولم يستفد من وزنتِه. فغضب منه السيد ودعاه بالشرير الكسلان، وأمر أن تؤخذ وزنته وتُعطى للعبد المجتهد.

الوزنات هي «المواهب» أو العطايا التي يمنحها الله للبشر. وقد تختلف من شخصٍ لآخر، فقد تكون مؤهلات أو قدرات أو طاقات جسدية أو عقلية أو اجتماعية أو مهنية أو أدبية أو روحية ونحو ذلك، كالذكاء، أو الفصاحة، أو الصحة، أو المال، أو السُلطة أو الوقت أو الفرص. والله يُعطي لكل أمرئ وزنته على قدر طاقته وإمكانيته وقدرته، لا أكثر ولا أقل، لكي لا تكون حجّة الذي أخفق في مضاعفة وزنته بأنه حُمّل أكثر مما يحتمل، فلا يكون سبب إخفاقه غير انعدام الأمانة والكسل، والكسل باب الهلاك. مع ذلك، وبالرغم من انعدام المساواة في توزيع الوزنات،

إلا أن المكافأة جاءت متساوية، فقد بشّر السيد العبدين المُجتهدين بنفس البُشرى وأثنى عليهما بنفس القدر وبنفس الكلمات، ذلك لأن الله لا يُجازي الناس بالحُكم على مقدار ربحهم ونجاحهم، بل بالحُكم على مقدار اجتهادهم ومثابرتهم في سبيل إنماء هذه المواهب واكتشافها، ولأنه لا يريد منهم أكثر من طاقتهم. أما العبد الكسول الذي دفن وزنته في الأرض، فستؤخذ منه وتُعطى للذي له عشر وزنات، وهذه سُنّة الحياة، لأن من لا يُنمّي مواهبه بالاجتهاد والعمل سيفقدها، لأنه خان أمانته ونكر الجميل، في حين أن كل من يجتهد يُنعم عليه الله ويزيده من فضله. إن الله يوكلنا بهذه الهِبات، ويجعلنا أمناء عليها، ويأمرنا باستغلالها لننتفع بها وننفع الآخرين حتى يحين يوم المعاد، حين يحاسبنا على ما فعلناه بها وكيف استخدمناها، فهل كنّا على قدر المسؤولية وحفظنا الأمانة وكثّرنا من وزناتنا ونمّيناها، أم أننا أمضينا حيواتنا عاطلين كسولين، ودفنّاها في الأرض؟

رواية مثل الوزنات

تقول بطلة روايتنا (لورِن أويا أولامينا)، إن وزنتها أو موهبتها هي «بذرة الأرض»، وهي العقيدة أو الحركة الدينية التي جاءت بها لمواجهة العالم المنكوب الذي تعيش فيه. نتابع في (مثل الوزنات) قصة أولامينا، التي بدأناها في (مثل الزارع)؛ الجزء السابق لهذه الرواية. ومما يجدر الإشارة إليه رغم أن الجزأين يكملان بعضهما، فهذا لا يمنع من القول إن بالإمكان قراءة كلّ جزء بشكل

منفصلٍ، لأنه يعدّ عملاً قائماً بذاته يأتي ليمثّل مرحلة معيّنة من حياة أولامينا.

تدور أحداث هذا الجزء في ثلاثينات القرن الحالي. ترى لورِن أن العالم لن ينصلح إلا بنشر رسالتها (بذرة الأرض)، التي تعتبرها حقيقة أو مجموعة من الحقائق التي تكمّل بعضها بعضاً، والتي يجب تعلّمها لمواجهة الأوقات العصيبة.

نُشرت الرواية التي كتبتها المؤلفة الأمريكية (أوكتافيا بتلر) لأول مرة عام ١٩٩٨. ليس من السهل تصنيفها على أنها رواية خيال علمي فحسب. لأن حبكتها تجمع بين السياسية واللاهوت -كما يشير العنوان- وفيها انتقاد شديد للتوجّهات الدينية المتعصبة. كما أن كثيرين قالوا عنها إنها عمل تنبؤي، فأمريكا في الرواية تنتخب لرئاستها ديكتاتوراً ديماغوجياً شعار حملته الرئاسية «لنجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى»، وهو ذات الشعار الذي رفعته حملة الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب «Make America Great Again» بعد أكثر من عقدين من الزمن. رأى كثيرون في هذه الرواية عملاً له صلة بواقعنا اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى. لذا عادت الرواية لتتصدّر قائمة أكثر الكتب مبيعاً في نيويورك تايمز بعد ٢٧ عاماً من نشرها. لدرجة ظهور صفحات في الإنترنت تحمل عنوان «Octavia Tried to Tell Us».

تصف بتلر نهاية العالم (Apocalypse) في كتابها بطريقة مُنذرة، لأن الأبوكاليبس بالنسبة لها لم يكن عبارة عن حدث واحد فريد

ومدوٍّ كما يحدث عادة في روايات وأفلام الخيال العلمي، كوقوع انفجار نووي أو غزو فضائي وما شابه، بل كان عبارة عن سلسلة من الأحداث والمشاكل التي تتطور إلى أزمات بمرور الزمن؛ كالفقر، الحروب، التدهور البيئي، انتشار المخدرات والأسلحة، العنصرية، التشدّد الديني، عمالة الأطفال، التميز الجنسي.. إلخ.

لا تقدّم بتلر رؤيا تنبّوئية عن المستقبل فقط، بل تطرح أيضاً اقتراحات للتعامل مع التغييرات. وربما كان جوهر الرواية كلّها هو «التغيير». ترى أوكتافيا بتلر في التغيير ضرورة حتمية في الحياة، وما يترتب على ذلك من الحاجة إلى أن نكون قابلين للتكيّف ومرنين في الاستجابة للتغيير. لم تكن بتلر طوباوية، كانت تعتقد أن البشر كائنات تمتلك غريزة شُحذت بمرور الزمن، هي الحفاظ على الذات. وتقول إن هذا ما سيكون عليه مستقبلنا إذا لم نتصرّف الآن. إن سؤالها الدائم في كل أعمالها: هل نتعلّم من أخطاء الماضي؟ هل نستطيع أن نتغيّر لكي ننقذ أنفسنا؟ هل نستطيع أن نتبنّى ممارسات جديدة في التضامن الاجتماعي في ظل أنظمة تحتضر؟

تقول الكاتبة: «دارت أحداث رواية (مثل الزارع) حول المشاكل. ونويتُ أن تكون (مثل الوزنات) رواية عن الحلول». فهي الجزء الثاني من ثلاثية لم تكتمل، كان يجب أن تنتهي عند الجزء الثالث (مثل وكيل الظلم)، لكن الظروف المؤسفة حالت دون أن تكتمل السلسلة. كل ما تركته أوكتافيا بتلر خلفها عن الجزء الثالث هو مجموعة من المسودات والملاحظات، لكنها أُصيبت بالاكتئاب

لعدم قدرتها على الخروج ممّا يُدعى بحالة «حبسة الكاتب»، كما أنها أُصيبت بأمراضٍ في القلب وارتفاع في ضغط الدم، أدّت إلى وفاتها المأساوية في عام ٢٠٠٦ عن عمر ناهز الـ ٥٨ عاماً.

رنيم العامري

تمهيد

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

بقلم: لورِن أويا أولامينا

نحنُ هنا:

طاقةٌ،

جرمٌ،

حياةٌ،

ونصوّرُ الحياةَ.

عقلٌ،

ونُصوّر العقلَ.

ربٌّ،

ونصوّر الربّ.

تأمّل:

نحن لا نُولد من أجلِ غايةٍ

بل مع قوةٍ كامنة.

سيجعلون منها إلهة.

وأظن أن هذا سيسعدُها، لو علِمَت به. فبالرغم من كلّ احتجاجاتها وإنكارها، إلّا أنّها كانت دائماً بحاجة إلى أتباع مخلصين ومطيعين -حواريين- يستمعون إليها ويصدّقون كلّ ما تقوله لهم. كما أنّها كانت بحاجة إلى أحداثٍ كبيرة لكي تتلاعب بها. يبدو أن كلّ الآلهة بحاجة إلى مثل هذهِ الأمور.

اسمها رسمياً لورِن أويا أولامينا بانكول. وبالنسبة إلى أولئك الذين أحبّوها أو أبغضوها، فقد كانت ببساطة «أولامينا».

كانت أُمّي البيولوجية.

لقد ماتت.

أردت أن أحبّها، وأردتُ أن أصدّق أن ما حصل بيني وبينها لم يكن ذنبها. أردتُ هذا حقاً. ولكن بدلاً من ذلك، كرهتُها، وخشيتُها، واحتجتُها. بيدَ أنني لم أثق بها إطلاقاً، لأنني لم أفهم قطّ كيف يمكنُها أن تكون على ما هي عليه- مُركّزة للغاية، ومع ذلك، مُضلَّلة للغاية، حاضِرة من أجل العالم بأسره، ولكن ليس من أجلي أبداً. وما زلتُ لا أفهم. والآن، بعد أن ماتت، لن يمكنني أبداً أن أفهم. ولكن يجب عليّ المحاولة لأنني بحاجة إلى فهم نفسي، وهي جزءٌ مني. أتمنى لو أنّها لم تكن جزءاً مني، لكنها كذلك. ولكي أفهم من أنا، يجب أن أبدأ بفهم مَنْ كانت. هذا هو السبب خلف قيامي بكتابة وجمع هذا الكتاب.

لطالما كانت الكتابة هي طريقتي لفهم مشاعري. كان هذا هو القاسم المشترك بيني وبينها. وإلى جانب حاجتها إلى الكتابة، فقد تبنَّت أيضاً حاجة إلى الرسم. لو أنّها وُلدَت في زمن أكثر عقلانية، لربما كانت ستصبح كاتبة مثلي، أو رسامة.

لقد جمعتُ بعضاً من لوحاتها، بالرغم من أنّها وزَّعَت معظمها عندما كانت على قيد الحياة. كما أنني أمتلك نسخاً من كلّ ما حُفظ من كتاباتها. حتّى دفاترها الورقية الأولى التي نُسِخت على قرص أو كريستال وحُفظت. لقد اعتادت في شبابها على أن تدّخر مستودعات طعام ومال وأسلحة، وتخفيها في أماكن متفرقة أو تؤمّنها عند أشخاص تثقُ بهم، وكانت تعود إلى هذه المستودعات بعد مضيّ سنوات. هذهِ المخابئ أنقذَت حياتها عدّة مرّات، كما أنّها حفظَت كلماتها ومذكراتها ودفاترها وكتابات أبي. لقد تمكّنَت أُمّي من دفع أبي إلى الكتابة قليلاً. كان يُحسن الكتابة، بالرغم من أنه لم يحبّ ذلك. أنا سعيدة لأنها دفعَته ليكتب. فقد سُعدت بالتعرّف عليه على الأقل من خلال كتاباته. أتساءل لماذا لم أكن سعيدة بالتعرّف عليها من خلال كتاباتها.

«الرب هو التغيير»، هذا ما آمنَت به أمي. وهذا ما كتبَته في أول آياتها من (بذرة الأرض: كتاب الأحياء الأول):

كُلّ شيء تلمسه
تُغيّره.

كلُّ شيءٍ تُغيّره
يُغيّرك.
وحده التغيير
الحقيقةُ الباقية.
الربّ إلهُنا هو التغيير[1].

أفترض أنّها كلمات بريئة، وصحيحة مجازياً. لقد بدأَت على الأقل بشكل من أشكال الحقيقة. والآن، لقد أثّرَت بي أُمي للمرة الأخيرة، بذكرياتها وحياتها وبذرة الأرض اللعينة خاصتها.

(١) بالنسبة إلى العبارات والنصوص -كهذا النصّ- التي وردت في مثَل الزارع (الجزء الأول) وتكررت في مثَل الوزنات (الجزء الثاني) فقد اعتمدنا في هذا الجزء على الترجمة العربية لتلك النصوص كما وردت في الجزء الأول، حفاظاً على التناسق والانسجام بين الجزأين.

٢٠٣٢

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

نمنح موتانا

إلى البساتين

والرياض.

نمنح موتانا

إلى الحياة.

١
بذرة الأرض: كتُب الأحياء

العتمة
تُصوّر الضوء
فيما الضوءُ
يُصوّر العتمةَ.
الموتُ
يُصوّر الحياةَ،
فيما الحياةُ
تُصوّر الموتَ.
الكون
والربّ
يتشاركان هذا التكامل
كلٌّ منهما
يعرّف الآخر.

الربّ
يصوّر الكون
فيما الكونُ
يصوّر الرب.

من: ذكريات عوالم أخرى

بقلم: تايلور فرانكلين بانكول

قرأتُ أن فترة الاضطرابات التي بدأ الصحفيون يشيرون إليها باسم «نهاية العالم» أو بالاسم الأكثر شيوعاً والأكثر مرارة، «البلاء»، قد استمرّت من العام ٢٠١٥ حتّى العام ٢٠٣٠ – أي عقداً ونصف عقد من الفوضى. وهذا غير صحيح. لقد استمر عذاب «البلاء» لفترة أطول بكثير. فقد بدأ قبل عام ٢٠١٥ بوقت طويل، ربما قبل مطلع الألفيّة. ولم ينتهِ.

قرأتُ أيضاً أن «البلاء» نتج عن أزمات متصادفة مناخية واقتصادية واجتماعية. ولكن القول الأصدق، هو أن «البلاء» قد حلّ علينا بسبب رفضنا التعامل مع المشاكل الجليّة في هذهِ المجالات. لقد تسبّبنا بهذهِ المشاكل، ثم جلسنا وشاهدناها وهي تتحول إلى أزمات. لقد سمعت أناساً يُنكرون ذلك، لكنني وُلدت عام ١٩٧٠. لذا رأيتُ ما يكفي لأعرف الحقيقة. شاهدتُ التعليم يتحول من حاجة أساسية يجب على المجتمعات المتحضرة أن

تحظى بها إذا أرادت النجاة إلى امتياز للأثرياء. وشاهدت وسائل الراحة والربح والعطالة وهي تُجيز تدهوراً بيئياً أكبر وأخطر. وشاهدت كيف يغدو الفقرُ والجوع والمرض محتوماً على المزيد من البشر.مكتبة .. سُر مَن قرأ

عموماً، كان للـ «بلاء» تأثير حرب عالمية ثالثة تدريجيّ. في الحقيقة، لقد حدثَت حروبٌ صغيرة دامية حول العالم في فترة «البلاء». كانت تلك أحداثاً غبيّة- مضيعة للأرواح والموارد. فقد شُنّت هذهِ الحروب في الظاهر للدفاع ضدّ أعداءٍ أجانبَ أشرار. ولكنها في الحقيقة شُنّت في كثير من الأحيان بسبب قادة غير أكفّاء لم يعرفوا ماذا يفعلون غير الحروب. لقد أدرك هؤلاء القادة أنّ بإمكانهم التعويل على الخوف والشك والكراهية والحاجة والطمع لإيقاظ الحس الوطني لتأييد الحرب.

وسط كلّ هذا، وبطريقة ما، أصابت الولايات المتحدة الأمريكية هزيمة كبرى غير عسكرية. فبالرغم من أنّها لم تنهزم في أيّة حرب مهمّة، إلّا أنّها لم تنجُ من «البلاء». ربما ببساطة لأنها فقدت بصيرتها لِما كانت تنوي أن تكون عليه، وراحت تتخبّط بعماء دون هدف، إلى أن استنفدت نفسها.

ما بقي منها الآن، وما أصبحَت عليه، هذا ما لا أعرفه.

تايلور فرانكلين بانكول هو أبي. يبدو من كتاباته أنه رجلٌ رزين ورسمي إلى حدٍ ما، وقد انتهى به المطاف مع أُمّي الغريبة والعنيدة،

بالرغم من أنّها كانت صغيرة للحدّ الذي تبدو فيه كواحدة من أحفاده.

يبدو أن أُمّي أحبّته، ويبدو أنّها كانت سعيدة معه. تقابلا في فترة «البلاء» عندما كان كلاهما هائمَين بلا مأوى. لكنه كان طبيباً يبلغ من العمر ٥٧ عاماً -طبيب أُسرة- بينما كانت هي فتاة بعمر الثمانية عشر عاماً. كان القاسم المشترك بينهما هو الذكريات الفظيعة التي تسبب بها «البلاء». فقد شهد كلاهما تدمير دياره - منزله في سان دييغو ومنزلها في روبليدو، إحدى ضواحي لوس أنجلوس. ويبدو أن هذا كان قاسماً مشتركاً كافياً بالنسبة لهما. في عام ٢٠٢٧، تقابلا لأول مرة، وأحب أحدهما الآخر، وتزوجا. من قراءتي لما بين السطور لبعض كتابات أبي، أظن أنه أراد أن يعتني بهذه الشابة الغريبة التي عثر عليها. أراد أن يحميها من الفوضى السائدة في ذلك الوقت، ويحميها من العصابات والمخدرات والعبوديّة والأمراض. وبالتأكيد، فقد شعر بالإطراء لأنها أرادته. إنه مجرد إنسان، ولا ريب أنه سئم الوحدة. لقد ماتت زوجته الأولى قبل عامين من لقائهما.

وبالطبع، لم يكن باستطاعته حماية أمي. ليس باستطاعة أيّ أحد فعل ذلك. لأنها اختارت طريقها قبل وقت طويل من لقائهما. كان خطؤه أنه رآها مجرد فتاة صغيرة. لأنها غدت بحلول ذلك الوقت، صاروخاً مسلّحاً ومُستهدِفاً.

من يوميات لورِن أويا أولامينا
الأحد، ٢٦ سبتمبر، ٢٠٣٢

اليوم هو يوم الوصول، الذكرى الخامسة لتأسيسنا لمجتمعٍ سمّيناه (أيكورن)، هنا في جبال مقاطعة هومبولت.

وكاحتفالٍ مشوّه بهذا الحدث، رأيتُ في المنام واحداً من كوابيسي المتكرّرة. لم تعُد تراودني هذه الكوابيس إلّا نادراً في السنوات الأخيرة الماضية- إنها عدوّ قديم ذو طباع قذرة ومألوفة. أنا أعرفها. عادة ما تبدأ بداياتٍ ناعمة وسهلة... وهذا الكابوس كان كذلك أيضاً في البداية، زيارة إلى الماضي، رحلة إلى الديار، فرصة لقضاء بعض الوقت مع أطياف الأحبة.

رأيتُ بيتي القديم وقد نهض من الرماد. بطريقة ما، هذا لا يفاجئُني، رغم أنني رأيته يحترق قبل سنوات. لأنني مشيتُ بين الركام الذي بقِي منه. ولكن ها هو ذا، عاد كما كان ويعجّ بالناس- كل الناس الذين عرفتهم في صغري. إنهم يجلسون في غرفة المعيشة في صفوف من الكراسي المعدنية القابلة للطيّ، وكراسي المطبخ الخشبية، وكراسي غرفة الطعام، وكراسيّ بلاستيكية، محفل صامت للموتى والمشتّتين.

بدأ القدّاس، وأبي هو من يُقيمه بالطبع. كان يبدو كما هي عادته في أردية الكنيسة: طويل القامة، عريض المنكبين، صارماً، مستقيماً- رجلاً أسود ذا صوت لا تسمعُه فحسب بل وتشعر به داخل جلدك وعظامك. ما من زاوية في الغرفة لا يستطيع صوت أبي بلوغها. لم

نملك نظاماً صوتياً قطّ- لم نكن بحاجة له إطلاقاً. وها أنا أسمع ذلك الصوت وأشعر به مرّة أخرى.

ولكن، كم سنة مرّت على اختفاء أبي؟ أو بالأحرى، كم سنة مرّت على مقتله؟ لا بدّ من أنه قُتِل. لأنه لم يكن من طينة الرجال الذين يمكن أن يتخلّوا عن عائلتهم ومجتمعهم وكنيستهم. في الفترة التي اختفى فيها، كان الموت بسبب العنف أسهل ممّا هو عليه اليوم. أما الحياة، من الناحية الأخرى، فكانت شبه مستحيلة.

لقد غادر المنزل في أحد الأيام للذهاب إلى مكتبه في الكُلّية. كان يُدرّس فصوله بواسطة الكومبيوتر، ولم يكن يتوجب عليه الذهاب إلى الكلّية إلّا مرّة واحدة فقط في الأسبوع، ولكن حتّى هذه المرة الواحدة أسبوعياً كانت مخاطرة شديدة. قضى الليلة في الكُلّية كما العادة. لأن الصباح الباكر هو الوقت الآمن لتنقّل الموظفين. أقفل عائداً إلى المنزل في صباح اليوم التالي، ولم يُر بعد ذلك قطّ.

بحثنا عنه. حتّى أنّنا دفعنا مالاً مقابل بحث الشرطة. لم ينفع شيء.

حدث هذا قبل عدّة شهور من احتراق منزلنا، وتدمير حيّنا. كان عمري سبعة عشر عاماً. اليوم أبلغ من العمر ٢٣ عاماً. وأنا على بعد مئات الأميال من ذلك المكان الميت.

ومع ذلك، فجأة، في أحلامي، عادت الأمور إلى نصابها الصحيح ثانية.

أنا في المنزل، وأبي يلقي العِظة. خلفه زوجته جالسة على جانبٍ من البيانو. يجلس أمامه المصلّون من جيراننا في المساحة الكبيرة غير المفتوحة تماماً التي تتألف من غرفة المعيشة وغرفة الطعام وغرفة جلوس العائلة. وهي مساحة واسعة على شكل حرف (L) حُشِر فيها ٣٠ أو ٤٠ شخصاً لحضور قدّاس يوم الأحد. هؤلاء أشخاص أهدأ بكثير من أن يكونوا مصلّين معمدانيين- أو على الأقل، أهدأ بكثير من أن يكونوا ذات المصلّين المعمدانيين الذين عرفتُهم في صغري. إنهم هنا، ولكن بطريقة ما ليسوا هنا. إنهم أطياف بشر. أشباح.

وحدهم أفراد عائلتي من كنتُ أشعر بهم كأشخاص حقيقيين. مع أنهم موتى كالبقية، لكنّهم أحياء! أشقائي هنا يبدون على الهيئة التي كانوا عليها عندما كان عمري أربع عشرة سنة تقريباً. كيث، أكبرهم، وأسوأ واحدٍ من بينهم وأول من يموت منهم، يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة فقط. هذا يعني أن ماركوس، أخي المفضّل وأوسم شخص في العائلة، يبلغ من العمر عشر سنوات. بينما بين وغريغ، كأنهما توأمان، في الثامنة والسابعة من العمر. نجلس جميعنا في الصف الأول، بالقرب من زوجة أبي، لكي تتمكّن من مراقبتنا. أجلس بين كيث وماركوس لكي أمنعَهما من قتل بعضهما بعضاً أثناء القدّاس.

عندما لا يكون أيّ من والديّ منتبهاً، يمدّ كيث يده متجاوزاً إياي ليضرب ماركوس بقوة على فخذه. فيردّ ماركوس الضربة،

مع أنه أصغر سنّاً وأقل حجماً، لكنه عنيد وقويّ. أُمسك بيدي الصبيّين، وأعصرهما. أنا أكبر حجماً وأقوى منهما كليهما، ولطالما كانت ذراعاي قويّتين. يتلوى الصبيّان من الألم فيحاولان سحب يديهما. بعد لحظة، أُطلق سراحهما. لقد تعلّما الدرس. سيترك كلّ منهما الآخر وشأنه لمدة دقيقة أو دقيقتين على الأقل.

في حلمي، آلامُهما لا تؤذيني كما كان يحصل دائماً في صغرنا. لقد كنتُ مسؤولة عن سلوكهما آنذاك، لأنني أكبرهما سناً. كان يتوجب عليّ السيطرة عليهما رغم أنني لم أستطع الهرب من آلامهما. لأن أبي وزوجته لم يتهاونا معي في ما يخصّ إصابتي بمتلازمة فرط التقمّص العاطفي. لم يسمحا لي بأن أكون مُعاقة. كنتُ الأخت الكبرى في نهاية المطاف. وعندي مسؤولياتي.

مع ذلك، كنتُ أشعر بكل كدمة لعينة، وكل جرح وكل حرق، أصاب اخوتي. كنتُ في كلّ مرّة رأيتهم يُصابون فيها بأي أذى، أشاركهم الألم وكأنني أنا التي أُصبت. حتّى الآلام التي تظاهروا بها، شعرتُ بها. في نهاية المطاف، متلازمة فرط التقمص العاطفي هي اضطراب وهميّ. ليس هناك من تخاطر، ولا سحر، ولا وعي روحي عميق. إنه فقط الوهم الناجم عن الكيمياء العصبية هو ما يجعلني أشعر بالوجع أو اللذّة عندما أرى الآخرين يشعرون بها. اللذّة نادرة، الوجع كثير، وسواءٌ أكان وهماً أم لم يكن، فهو مؤلم حدّ اللعنة.

إذن، لماذا أفتقدُ هذا الإحساس الآن؟

يا له من شيء مجنون ليفتقده المرء. إن انعدام الشعور يجب أن يكون مشابهاً لاختفاء ألم الأسنان. يجدر بي أن أكون مندهشة وسعيدة. ولكنني خائفة بدلاً من ذلك. لقد اختفى جزءٌ مني. إن انعدام قدرتي على الشعور بآلام أخويّ يشبه عدم قدرتي على سماعهما عندما يصرخان، وهذا يخيفني.

بدأ الحلم يتحول إلى كابوس.

من دون سابق إنذار، اختفى أخي كيث. اختفى ببساطة. كان أول من يرحل -أول من يموت- قبل سنوات. والآن، اختفى ثانية. حلّت محله في مقعده بجانبي امرأة طويلة وجميلة سوداء، بُنّية البشرة، نحيفة الجسد، ذات شعر طويل لامع أسود سواد الغُراب. ترتدي فستاناً ناعماً حريرياً أخضر اللون، يتدلى ويلتوي حول جسدها، يلفّها في نمط معقّد من الطيّات، ملموماً من العنق إلى القدمين. إنّها امرأة غريبة.

إنها أمي.

إنها ذات المرأة من الصورة الوحيدة التي أعطاني إياها أبي وقال إنّها صورة أُمّي البيولوجية. سرقها كيث من غرفة نومي عندما كان في التاسعة من عمره وكنتُ في الثانية عشرة. لفّها بقطعة من مفرش طاولة بلاستيكي قديم ودفنها في حديقتنا بين صف القرع وصف مختلط من الذرة والفاصوليا. ادّعى لاحقاً أنه لم يكن خطأه عندما أُتلفت الصورة بسبب الماء والدوس بالأرجل عليها. لأنه أخفاها على سبيل المزاح فحسب. كيف يُفترض به أن يخمّن أن شيئاً كهذا يمكن

أن يحدث لها؟ هذه هي طبيعة كيث. لقد أوسعتُه ضرباً. وبالطبع، آذيت نفسي أيضاً، لكن الأمر كان يستحقّ ذلك. وهذهِ المرة، على غير عادته، لم يُخبر والدينا إطلاقاً أنني ضربتُه.

لكن الصورة أُتلفت وانقضى الأمر. لم تبق لي منها غير الذكرى. والآن، ها هي تلك الذكرى جالسةٌ إلى جانبي.

أُمّي طويلة القامة، أطول مني، أطول من كثير من الناس. ليست جميلة فحسب. بل حسناء. أنا لا أشبهها. بل أشبه أبي، وقد اعتاد أن يقول إن ذلك أمرٌ مؤسف. لم أنزعج. لكنّها امرأة فاتنة.

أُحدّق فيها، لكنها لا تلتفت لتنظر إلي. وهذا، على الأقل، أقرب للحقيقة. لأنها لم ترَني قطّ. لقد ماتت وهي تلِدُني. لقد كانت تتعاطى قبل ولادتي بسنتين «المخدّر الذكيّ» الشهير في زمنها. كان عقاراً طبّياً جديداً، يُسمّى باراسيتكو، وكان مثل المعجزة للمصابين بالزهايمر. لأنه أوقف تدهور وظائفهم الفكرية ومكّنهم بنحوٍ ممتاز من الاستفادة ممّا تبقى من ذاكراتهم وقدراتهم الفكرية. كما أنه نشّط من فعّاليات الشباب الأصحاء العاديين. عندما يتعاطونه كانوا يقرأون أسرع، ويحفظون أكثر، ويستطيعون القيام باتصالات وحسابات واستنتاجات بشكل أسرع وأدق. ونتيجة لذلك، أصبح عقار باراسيتكو شائعاً بين الطلاب مثله مثل القهوة، وإذا كانوا يخططون للتنافس على الوظائف ذات المرتبات العالية، فقد كان هذا العقار ضرورياً مثل ضرورة الإلمام بالكومبيوترات.

ربما ساعد تعاطي أُمّي لهذا المخدّر في قتلها. لا أعرف على وجه

اليقين. ولم يكن أبي يعرف أيضاً. لكنني متأكّدة من أن تعاطيها لهذا المخدّر قد ترك بصمة واضحة عليّ- إصابتي بمتلازمة فرط التقمص العاطفي. بفضل خصائص الباراسيتكو التي تسبب الإدمان -مات بضعة آلاف من الأشخاص وهم يحاولون الإقلاع عن تعاطيه- كان هنالك ذات يوم عشرات الملايين منا.

لقد أطلقوا علينا اسم المتعاطفين بإفراط، أو الحسّاسين بإفراط، أو المتقمّصين أو المشاركين. وهذه بعض من الألقاب المهذّبة التي أُطلقت علينا. وعلى الرغم من ضعفنا ومعدل الوفيات المرتفع بيننا، فلا يزال هنالك عددٌ غير قليل منّا.

أمدّ يدي نحو أمي. بغضّ النظر عمّا اقترفَته، ما زلت أريد معرفتها. لكنّها لا تنظر إلي. حتّى أنّها لا تُدير رأسها نحوي. ولسبب ما، لا يمكنني الوصول إليها، لا يمكنني لمسها. أحاول النهوض من مقعدي، لكنّي لا أستطيع التحرّك. جسدي يأبى أن يطيعني. ليس بوسعي غير الجلوس والاستماع إلى أبي وهو يلقي العِظة.

والآن بدأت أعرف ما كان يقول. لقد كان صوته طوال الوقت أشبه بخلفيّة غير واضحة المعالم، والآن بإمكاني سماعه وهو يقرأ من إنجيل متّى، الإصحاح الخامس والعشرين: «وَكَأَنَّمَا إِنسَانٌ مُسَافِرٌ دَعَا عَبِيدَهُ وَسَلَّمَهُم أَموَالَهُ. فَأَعطَى وَاحِدًا خَمسَ وَزَنَاتٍ، وَآخَرَ وَزنَتَينِ، وَآخَرَ وَزنَةً. كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى قَدرِ طَاقَتِهِ. وَسَافَرَ لِلوَقتِ»[1].

---

(١) الآيتان ١٤، ١٥.

لقد أحبّ والدي الأمثال- القصص التي تُعلّم، والقصص التي تُقدّم أفكاراً وعِبَراً بطرق تخلق صوراً في أذهان الناس. وقد استخدم الأمثال التي وجدها في الكتاب المقدس، والتي اقتطفها من التاريخ، أو من الحكايات الشعبية، وبالطبع الأمثال التي رآها في حياته أو حيوات الناس الذين عرفهم. كان ينسج القصص في قدّاس يوم الأحد، وفي فصول الكتاب المقدس التي يُدرّس فيها، وفي محاضرات التاريخ التي يقدّمها عبر الكومبيوتر. ولأنه كان يؤمن أن القصص وسيلة تعليمية مهمّة للغاية، فقد تربّيتُ على إيلائها اهتماماً كبيراً. يُمكنني اقتباس المثل الذي يقرأه الآن، مَثَلِ الوَزناتِ. كما ويُمكنني تلاوة العديد من أمثال الكتاب المقدس عن ظهر قلب. ربما لهذا السبب بوسعي سماع وفهم الكثير مما يقوله الآن. إنه يعِظُ أثناء قراءته لأجزاء من المثل، ولكن لا يمكنني فهمه تماماً. بوسعي تمييز الإيقاع وهو يعلو وينخفض، يتكرّر ويتنوّع، صياحاً وهمساً. أسمع العِظة كما اعتدتُ سماعها دائماً، ولكن لا يمكنني فهم الكلمات- باستثناء كلمات المثل.

«فَمَضَى ٱلَّذِي أَخَذَ ٱلخَمسَ وَزَنَاتٍ وَتَاجَرَ بِهَا، فَرَبِحَ خَمسَ وَزَنَاتٍ أُخَرَ. وَهَكَذَا ٱلَّذِي أَخَذَ ٱلوَزنَتَينِ، رَبِحَ أَيضًا وَزنَتَينِ أُخرَيَينِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي أَخَذَ ٱلوَزنَةَ فَمَضَى وَحَفَرَ فِي ٱلأَرضِ وَأَخفَى فِضَّةَ سَيِّدِهِ»[1].

(١) الآيات ١٦، ١٧، ١٨.

كان أبي من أشدّ المؤمنين بالتعليم، والعمل الجاد، والمسؤولية الشخصية. «هذهِ هي وزناتنا؛ مواهبنا»، اعتاد أن يقول بينما تلمع عيون أخوتي، حتّى أنا كنتُ أحاول ألّا أتنهد. «الربّ قد منحها لنا. وسيحاسبُنا وفقاً لكيفية استخدامنا لها».

يستمرّ المثل. لكل واحد من العبدين اللذين أحييا التجارة وحقّقا الربح لسيدهما، يقول السيد «نِعِمَّا أَيُّهَا العَبدُ الصَّالِحُ الأَمِينُ! كُنتَ أَمِينًا فِي القَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الكَثِيرِ. أُدخُل إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ»[1].

أما العبد الذي لم يفعل شيئاً بوزنات الفضة سوى أنه دفنها في الأرض لأنه حرص عليها، فقد وجّه له سيّده أقسى الكلمات، فقال له «أَيُّهَا العَبدُ الشِّرِّيرُ والكَسلانُ..». ثم أمر رجاله قائلاً: «فخُذوا مِنهُ الوَزنَة وأعطوها لِلَّذي معَهُ العَشر وَزَناتُ. لأَنَّ كُلَّ مَن لَهُ يُعطَى فَيَزدادُ، وَمَن لَيسَ لَهُ فَالَّذِي عِندَهُ يُؤخَذُ مِنهُ»[2].

ما أن قال أبي هذهِ الكلمات حتّى اختفت أمي. حتّى أنني لم أتمكّن من رؤية وجهها بالكامل، والآن اختفت.

لستُ أفهم ما يحدث. وهذا يخيفني. أرى الآن أن الآخرين بدأوا يختفون هم أيضاً. معظمهم اختفوا بالفعل. أطياف الأحبة...

---

(١) الآيتان ٢١، ٢٣.

(٢) إنجيل متى، ٢٥: [٢٨-٢٩].

اختفى أبي. نادَته زوجته بالإسبانية كما اعتادت أن تفعل أحياناً عندما تكون منفعلةً، «لا! كيف سنعيش الآن؟ إنهم يقتحمون السور. سيقتلوننا جميعاً! يجب أن نُزيد من ارتفاع السور!».

ثم اختفت. اختفى اخوتي. أنا وحيدة الآن- كما كنتُ وحيدة في تلك الليلة قبل خمس سنوات. المنزل استحال رماداً وركاماً من حولي. إنه لا يحترق ولا يتداعى ولا حتّى يتلاشى إلى رماد، مع ذلك بطريقة ما، وفي لحظة، استحال إلى خرابة، بلا سقف، مفتوحة على السماء ليلاً. أرى نجوماً، نصف قمر، وشعاعاً من النور، يتحرّك، يرتفع إلى السماء كأنه طاقة حياة تهرب. بواسطة هذهِ الأضواء الثلاثة، يمكنني أن أرى ظلالاً كبيرة متحرّكة متوعدة. ينتابُني الخوف من هذهِ الظلال، ولكنّي لا أرى أيّة طريقة للهرب منها. لا يزال السور قائماً، يحيط بحيِّنا، يتراءى لي أعلى بكثير ممّا كان عليه في الحقيقة. أعلى بكثير... كان يُفترض به أن يحمينا من الخطر. وقد أخفق في مهمته قبل سنوات. والآن هو يخفق مجدّداً. يُحيط بي الخطر. أُريد أن أركض، أن أهرب، أن أختبئ، ولكن يداي ورجلاي بدأت الآن بالتلاشي. أسمع رعداً. أرى شعاع النور وهو يرتفع أعلى فأعلى إلى السماء، ويزداد سطوعاً.

ثم أصرخ. أسقط. وقد اختفى معظم جسدي. تلاشى. لا يُمكنني البقاء منتصبةً، لا يُمكنني تدارك نفسي فيما أسقط وأسقط وأسقط و...

ثم استيقظتُ هنا في كوخي في أيكورن، ملتفّة بلحافي، نصفي

على السرير ونصفي الآخر على الأرض. هل صرختُ عالياً؟ لا أعرف. لا تراودني هذهِ الكوابيس عندما يكون بانكول معي، لذا لا يمكنه إخباري بمدى الجلَبة التي أسبّبها. أحسن. لأن عيادته تُحرمه أصلاً من النوم، ولا بدّ أن هذهِ الليلة أسوأ بكثير بالنسبة له من سواها.

الساعة تُشير إلى الثالثة صباحاً الآن. في الأمس، بعد أن حلّ الظلام بقليل، قامت مجموعةٌ أو ربما عصابةٌ ما بمهاجمة مزرعة آل دوفيتري، التي تقع شمالاً من مكاننا. في مثل هذا الوقت، يوم أمس، كان هنالك حوالي ٢٢ شخصاً يعيشون في مزرعة آل دوفيتري- الرجلُ العجوز، وزوجته، وابنتاه الصغيرتان، وأولاده الخمسة وزوجاتهم وأولادهم. مات هؤلاء جميعاً باستثناء زوجتَي الابنين الأصغرين سناً وثلاثة أطفال تمكّنتا من الإمساك بهم بينما كانتا تهمّان بالفرار من المكان. أُصيب اثنان من الأطفال، وأُصيبت إحدى المرأتين بنوبة قلبية من بين كلّ الأشياء. لقد عالجها بانكول من قبل. يقول إنّها وُلدت بعيبٍ خَلقيّ في القلب كان يجب معالجته عندما كانت طفلة. لكنّها في العقد الثالث من عمرها، وهذا يعني أنه في الوقت الذي وُلدت فيه، لم يكن لدى عائلتها الكثير من المال، أو لا مال مطلقاً، كحال أغلب الناس. لقد كدح الأبوان وأفنيا نفسيهما بالعمل، وفرضا على الأصحّاء والأقوياء من أولادهما العمل في سن الثامنة أو العاشرة. وفيما يخصّ مرض ابنتهما القلبيّ فإما أنه سيقتلها أو سيدعُها تعيش. ولكن لن تتمّ معالجته.

والآن كاد أن يقتلها. كان بانكول نائماً -أو بالأحرى يحاول البقاء مستيقظاً- في الغرفة التي صارت عيادته في المدرسة، وقد قضى ليلته في مراقبتها هي والطفلين المصابين. بسبب متلازمة فرط التقمص العاطفي التي أُعاني منها، ليس بإمكانه أن يُقيم عيادته هنا في المنزل. لأنني ألتقط ما يكفيني من آلام الآخرين أصلاً، الأمر الذي يثير قلقه. ظلّ يحاول أن يعطيني أدوية تمنعني من التقمّص العاطفي بأن تُبقيني ناعسة وخاملة وبليدة. لا، شكراً!

لذا استيقظتُ وحيدة، مبلّلة بالعرق، ولم أستطع معاودة النوم. مضت سنوات منذ أن دهمتني ردّة فعل شديدة كهذهِ على حلُم. بحسب ما أذكر، فأن آخر مرّة كانت قبل خمس سنوات بعد أن استقرينا هنا مباشرة، وكان نفس هذا الحلُم اللعين. أعتقد أنه عاودني ثانية بسبب الهجوم على مزرعة آل دوفيتري.

لم يكن ينبغي لهذا الهجوم أن يحدث. لأن الأمور بدأت تهدأ على مدى السنوات القليلة الماضية. بالطبع، ما زالت هنالك جرائم، سرقات، سطو، خطف مقابل فدية أو من أجل تجارة الرقيق. والأسوأ من ذلك، لا يزال يُلقى القبض على الفقراء ويُجبرون على العمل بتهمة التهرّب من الديون أو التشرّد أو التسكّع، و«جرائم» أخرى. ولكن لقد انتهى عهد الهجوم على مجتمعٍ ما وقتل وحرق كلّ ما لا يُمكن حمله وسرقته. لم أسمع بأي شيء يُشبه الغارة التي شُنّت على آل دوفيتري منذ قرابة ثلاث سنوات على الأقل.

صحيح أن آل دوفيتري زوّدوا المنطقة بالويسكي المقطّر منزلياً

والماريجوانا المزروعة محلياً، ولكنهم يقومون بذلك منذ عهد بعيد، حتّى من قبل أن نأتي إلى هنا. في الحقيقة، كانوا أفضل عائلة مزارعةٍ تسليحاً في المنطقة، لأن عملهم لم يكن غير مشروع فحسب، بل كان مربحاً أيضاً. حاول كثيرون سرقتهم، ولكن لم ينجح في ذلك سوى اللصوص السريعين والهادئين. حتّى الآن.

استجوبتُ أوبري، زوجة ابن آل دوفيتري السليمة، فيما كان بانكول يُعالج ابنها. لقد أخبرها بانكول أنّ الفتى الصغير سيكون على ما يرام، وشعرتُ أنّنا يجب أن نعرف ما تعرفُه، بغضّ النظر عن مدى اضطرابها. اللعنة! مزرعة آل دوفيتري لا تبعد عن مكاننا أكثر من ساعة سيراً على الأقدام أسفل طريق احتطاب الأشجار القديم. لذا، أياً يكن من هاجموا مزرعة آل دوفيتري، قد نكون تالياً على قائمتهم.

أخبرَتني أوبري أن المهاجمين كانوا يرتدون ملابس غريبة، تحدّثنا أنا وهي في الغرفة الرئيسية في المدرسة، بيني وبينها مصباح زيتيّ مدخن وحيد على إحدى الطاولات. جلسنا متقابلتين عبر الطاولة، أوبري تسترق النظر بين الحين والآخر للعيادة، حيث كان بانكول يُعالج خدوش وحروق وكدمات طفلها. قالت إن المُهاجمين كانوا رجالاً، لكنّهم كانوا يلبسون أرديةً طويلة سوداً بأحزمة -فساتين سوداً، على حدّ تعبيرها- يصل طولها إلى أفخاذهم. يرتدون تحتها سراويل عادية- إما من الجينز أو من القماش المموّه الذي يرتديه العسكر عادة.

«كانوا مثل الجنود»، قالت، «تسلّلوا، بهدوء شديد. لم نرهم إلّا عندما شرعوا في إطلاق النار علينا. ومن ثم، بانغ! ضربوا جميع منازلنا بغتة. كان الأمر أشبه بانفجار- ربما كان هناك ثلاثون أو أربعون سلاحاً فتح النار علينا في نفس الوقت».

ولم تكن هذهِ طريقة عمل العصابات في العادة. رجال العصابات يطلقون النار برعونة، من دون اتّساق. كما سيطلقون على أنفسهم أسماء، وسيحاول كلّ واحد منهم اختطاف أجمل النساء من بين الموجودات أو سرقة أفضل الأشياء لنفسه قبل أن يقدِم على ذلك أصدقاؤه.

«لم يسرقوا ولم يحرقوا شيئاً إلى أن ضربونا وأطلقوا النار علينا»، قالت أوبري، «ثم أخذوا وقودنا وتوجّهوا مباشرة إلى حقولنا وأحرقوا محاصيلنا. بعدها، داهموا المنازل والحظائر. كانوا جميعهم يرتدون صلباناً بيضاً على صدورهم – مثل صلبان الكنيسة. لكنهم قتلونا. حتّى أنهم أطلقوا النار على الأطفال. قتلوا كلّ من وجدوه أمامهم. اختبأتُ مع طفلي وإلا كانوا سيقتلونني ويقتلون طفلي». ثم حدّقت باتجاه العيادة ثانية.

قتلُ الأطفال... هذا أمرٌ لعين. أغلب المجرمين -باستثناء المصابين بالذهان- سيُبقون الأطفال على قيد الحياة لاغتصابهم ثم بيعهم. أما بالنسبة للصلبان، حسناً، قد يرتدي رجال العصابات الصلبان في سلاسل حول أعناقهم، ولكن ليس هذا بالشيء الذي يمكن لضحاياهم أن يقتربوا منه بما يكفي لملاحظته. كما أنه من غير

المرجّح أن يتجول رجال العصابات مرتدين قمصاناً موحّدة وصلباناً بيضاً على صدورهم. هذا شيءٌ جديد.

أو شيءٌ قديم.

لم أفكّر في ما قد يعنيه هذا الأمر إلّا بعد أن تركت أوبري تعود إلى العيادة لتنام بجانب طفلها. أعطاه بانكول دواء يساعده على النوم. وفعل الشيء نفسه من أجلها، لذا لن أستطيع الاستفسار منها أكثر من ذلك حتّى تستيقظ لاحقاً هذا الصباح. ولكن لم يسعْني إلّا التساؤل ما إذا كانت لهؤلاء الأشخاص، بصلبانهم، أيّة علاقة مع المرشح الرئاسيّ الحالي، الأبغض بالنسبة لي، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية تكساس، أندرو ستيل جاريت. يبدو هذا كشيء قد ترتكبه جماعته إحياءً لشيء قذر من الماضي. ألم يرتدِ أعضاء جماعة (كو كلوكس كلان) الصلبان- وحرقوها أيضاً؟ وارتدى النازيّون السواستيكا، وهو نوع من الصلبان، ولكني لا أظن أنهم ارتدوه على صدورهم. وكانت هنالك صلبان في كلّ مكان خلال فترة محاكم التفتيش، وقبل ذلك خلال الحروب الصليبية. والآن لدينا جماعة أخرى ترتدي الصلبان وتذبح الناس. قد يكون أتباع جاريت خلف ما حصل. يصرّ جاريت على أن يُعيد الزمن الماضي «البسيط». لأن الزمن الحالي لا يناسبه. التسامح الدينيّ لا يناسبه. الوضع الحالي للبلد لا يناسبه. يُريد أن يعيدنا جميعاً إلى زمنٍ ساحر عندما آمن الناس كلّهم بنفس الرب، وعبدوه بنفس الطريقة، وأجمعوا أن سلامتهم في الكون تعتمد على ممارسة نفس الشعائر

الدينية، وسحقِ أيّ شخص يختلف عنهم. لم يمرّ على البلد مثل هذا الزمن قطّ. ولكن في أيامنا هذه حيث يعاني أكثر من نصف سكان البلاد من الأُميّة، فالتاريخ بالنسبة إليهم مجرّد عدمٍ مجهول آخر.

من المعروف أن أنصار جاريت يشكّلون بين الحين والآخر عصابات تصلب وتحرق الناس بتهمة ممارسة السحر. سحرة! في عام ٢٠٣٢! السحرة، من وجهة نظرهم، أما مسلمون أو يهود أو هندوسيون أو بوذيّون، أو في أماكن معيّنة من البلد مورمونيون، أو شهود يهوه، أو حتّى كاثوليكيّون. السحرة قد يكونون أيضاً، ملحدين أو «طائفيين» أو أثرياء غرباء الأطوار. ليس عند الثريّ غريب الأطوار عادة من يحميه أو لا يملك الكثير ممّا يستحق السرقة. و«الطائفيون» مصطلح فضفاض يضمّ أي شخص لا يندرج ضمن الفئات الكبيرة الأخرى، ولا يتوافق مع نسخة جاريت من المسيحيّة. عُرف عن جماعة جاريت قيامُهم بضرب وطرد حتّى الموحّدين، بحق السماء! يدين جاريت الحرق، لكنّه يفعل ذلك بنبرة متسامحة لدرجة أن جماعته يسمعون ما يُريدون سماعه فقط. أما بالنسبة للضرب، والتقيير والتريش[1]، وتدمير «بيوت الوثنيين وعبَدَة الشيطان»، فعنده إجابة بسيطة عن ذلك: «انضموا النا! أبوابنا مفتوحة لكل الأجناس والأعراق! تخلّوا عن ماضيكم الآثم، كونوا

---

(١) tarring and feathering: التقيير والتريش، شكلٌ من أشكال الإذلال العلني في أوروبا والغرب القديم، يُجرّد فيه الشخص من ملابسه، ويُصبّ عليه القار المغليّ (القطران) ثم يُمرّغ في كومة من الريش، ليُطاف به في المدينة للتشهير به.

منّا. ساعدونا لنجعل أمريكا عظيمة مرّة أخرى». وقد حقّق نجاحاً ملحوظاً بمنهج العصا والجزرة الذي يتّبعه هذا؛ انضم لنا تُفلح، وإلا فأن كلّ ما يحدث لك نتيجة لعنادك الآثم هو مشكلتك. يصفُه خصمه نائب الرئيس إدوارد جاي سميث بأنه ديماغوجي، ومُحرّك رعاع ومنافق. سميث محقّ بالطبع، لكن سميث رجل مسنّ أشيب ومُنهك. فيما جاريت من الناحية الأخرى، رجل ضخم ووسيم، أسود الشعر، بعينين زرقاوين زرقة داكنة صافية، تُغريان الناس وتستحوذان عليهم. يمتلك صوتاً يشعر به الجسد كاملاً، مثل أبي. في الحقيقة، وأنا آسفة على قول هذا، كان جاريت سابقاً قسّاً معمدانياً، مثل أبي. لكنّه ترك الكنيسة المعمدانية خلفه منذ سنوات ليؤسس طائفة (أمريكا المسيحيّة). لم يعُد يلقي عِظات (أ. م)[1] العادية في كنائس (أ. م) أو على الشبكات، ولكن لا يزال يُعترف به زعيماً للكنيسة.

يبدو أنه لا مفرّ من أن الأشخاص الأُميّين سيميلون نحو الحُكم على المرشّح من خلال مظهره وهيئته بدلاً من الحكم عليه على أساس ما يدّعي أنّه يمثّله. وأن حتّى غير الأُميّين والمتعلّمين عُرضة أكثر من اللازم للانتباه إلى المظهر الجميل والأكاذيب المغرية. ولا شكّ أن طريقة الاقتراع الجديدة بالاعتماد على الصور على الشبكات ستُعطي جاريت الأفضلية.

---

(١) Christian America –(CA): (أ. م) اختصار أمريكا المسيحيّة.

يرى جماعة جاريت أن الكحول والمخدرات هي أدوات الشيطان. قد يكون بعض أتباعه الأكثر تعصباً هم ذاتهم عصابة الأردية والصلبان الذين دمّروا مزرعة آل دوفيتري.

ونحن بذرة الأرض. نحن تلك «الطائفة»، الغرباء الذين يسكنون التلال، «الحمقى المجانين الذين يعبدون إلهاً ما، ربَّ تغيير». نحن أيضاً، بحسب بعض الشائعات التي سمعتُها، «عبَدةُ شيطان وثنيّون يسكنون التلال ويستقبلون الأطفال. وماذا يفعلون بهم يا ترى؟». لا يهمّ أن تجارة الأطفال المختطَفين أو الأيتام أو الذين يبيعهم آباؤهم اليائسون هي تجارةٌ سائدة في كلّ أنحاء البلاد والكل يعرف بشأنها. هذا لا يهمّ. فالتلميح لوجود طائفة ما تأخذ الأطفال «لأغراض مُريبة» كافٍ لجعل بعض الناس غير عقلانيين.

مثل هذهِ الشائعات يمكن أن تؤذينا حتّى لو سمعها أشخاص ليسوا من أنصار جاريت. مع أني سمعتُ بها مرّة أو مرتين فقط، لكنها لا تزال مخيفة.

في هذه المرحلة، آملُ فقط أن يكون الأشخاص الذين هاجموا مزرعة آل دوفيتري مجرد عصابة جديدة، مدرَّبة ومخيفة، ولكن لا تسعى لغير المكاسب. أنا آمل فحسب...

لكنّي لا أصدق ذلك. أظن أن أنصار جاريت خلف هذا الأمر. وأعتقد أنه من الأفضل مناقشة ذلك في اجتماع اليوم. لأن ما حدث مؤخراً لآل دوفيتري لا يزال عالقاً في أذهان الجميع، لذا سيكون الناس على استعداد للتعاون، والقيام بالمزيد من التدريبات

على الطوارئ، وبناء المزيد من مخابئ الأموال والطعام والأسلحة والسجلّات والممتلكات الثمينة، وتوزيعها في أماكن متفرقة. يمكننا مقاومة العصابات. لقد فعلنا ذلك سابقاً عندما كنّا أقل استعداداً ممّا نحن عليه الآن. ولكن لا يمكننا قتال جاريت. الرئيس جاريت، إذا كانت البلاد مجنونة بما يكفي لانتخابه رئيساً للبلاد، سيدمّرنا من دون حتّى أن يعرف أنّنا موجودون.

نحن الآن ٥٩ فرداً - ٦٤ فرداً مع امرأتي وأطفال آل دوفيتري، إذا قرّروا البقاء. برقم كهذا، نحن بالكاد موجودون. أفترضُ أن هذا سببٌ إضافي لحلمي.

«موهبتي»، بالعودة إلى مثَل الوزنات، هي بذرة الأرض. ومع أنني لم أدفنها في الأرض، إلّا أنني دفنتُها هنا في هذه الجبال الساحلية، حيث يمكن أن تنمو بنفس سرعة نمو أشجار الخشب الأحمر لدينا. ولكن ماذا بيدي؟ لو كنتُ أُجيد تحريك الحشود مثل جاريت، لكانت بذرة الأرض بحلول الآن حركةً كبيرة بما يكفي بحيث تكون هدفاً حقيقياً. ولكن هل سيكون ذلك أفضل؟

إنني أستبِق الأحداث، وأقوم باستنتاجات غير مبرّرة. أو على الأقل آمل أنّها غير مبرّرة. فبين رعبي ممّا حدث في مزرعة آل دوفيتري وبين آمالي وخوفي على جماعتي، أشعر بالضيق والحيرة، وربما أتخيّل أموراً فقط.

٢
بذرة الأرض: كتُب الأحياء

الفوضى
أخطرُ وجوهِ الربّ:
إنّها غيرُ متبلورةٍ، عكرةٌ، جائعةٌ.
صوّر الفوضى
لتصوّرَ الربّ.
تصرّف.
غيّر السرعةَ
أو اتجاهَ التغيير.
نوِّع مدى التغيير.
أشب بذور التغيير.
عدّل وقع التغيير.
اغتنم التغيير.
استغلّه.
تكيّف لتنمو.

المستوطنون الثلاثة عشر الأوائل الذين سكنوا أيكورن، وبالتالي الأعضاء الثلاثة عشر الأوائل في بذرة الأرض، هم: أُمّي طبعاً، وهاري بالتر وزهرا موس، اللذان كانا أيضاً لاجئَين من حيّ روبليدو الذي عاشت فيه أُمّي في صغرها. وأيضاً، آل دوغلاس: ترافيس وناتيفيداد ودومينيك، وهم عائلة شابة، أول الأفراد الذين التقطَتهم أُمّي من الطريق السريع وحوّلَتهم إلى أعضاء. التقَت بهم عندما سارت المجموعتان عبر سانتا باربرا، كاليفورنيا. أحبَّتهم، وأدركَت ضعفهم الخطير -كان دومينيك يبلغ من العمر بضعة شهور فقط في ذلك الوقت- وأقنعَتهم بالسير برفقتهم هي وهاري وزهرا في رحلتهم الطويلة إلى الشمال حيث كانوا يأملون جميعاً بالحصول على حياة أفضل.

بعدها جاءت آليسون غيلكريست وأختها جوليان- آلي وجيل. لكن جيل قُتلت على الطريق السريع لاحقاً. وفي نفس الوقت تقريباً، تقابَل أُمّي وأبي. لم يكن أيّ منهما خجولاً وكانا كلاهما واعيين للتصرف وفقاً لما كانا يشعران به حيال أحدهما الآخر. انضمّ أبي إلى المجموعة المتنامية. جاستن رور الذي أصبح جاستن غيلكريست عندما عثرت عليه المجموعة وهو يبكي جوار جثّة أمه. كان في الثالثة من عمره آنذاك، وانتهى به الأمر مع آلي في عائلة صغيرة أخرى. وأخيراً جاءت العائلتان من العبيد السابقين الذين كوّنوا معاً عائلة واحدة من المتقمّصين. وهم غرايسون مورا وابنته دو، وإيميري سوليس وابنتها توري.

هذا هو التعداد بالكامل: أربعة أطفال، أربعة رجال، وخمس نساء.

كان يجب أن يموتوا. إن بقاءهم على قيد الحياة في عالم «البلاء» الذي لا يرحم يمكن وصفه بمعجزة- بالرغم من أنّ بذرة الأرض لا تشجّع بالطبع على الإيمان بالمعجزات.

لا شكّ من أن موقع المجموعة المعزول -البعيد عن البلدات والطرق المعبّدة- قد ساعد في حمايتهم من كثير من العنف الذي ساد في ذلك الوقت. تعود ملكية الأرض التي استقروا عليها لأبي. عندما وصلَت المجموعة إلى الأرض كان هنالك بئر يمكن الاعتماد عليه، وحديقة نصف خربة، وعدد من أشجار الفاكهة والجوز، وبساتين من أشجار البلّوط والصنوبر والخشب الأحمر. ما أن جمع أعضاء المجموعة أموالهم معاً لشراء عربات يدوية، وبذور، وماشية، وأدوات عمل يدوية، وغيرها من الاحتياجات؛ حتّى صاروا شبه مستقلّين. اختفوا بين التلال وزادوا من أعدادهم بالولادة وتبنّي الأيتام وتحويل البالغين المعوزين إلى أعضاء. نبشوا المزارع والأحياء المهجورة وانتشلوا كلّ ما يمكنهم انتشاله منها، وتاجروا في أسواق «البالة»[1]، وتاجروا مع جيرانهم. وكانت المعرفةُ واحدةً من أهمّ الأشياء التي تاجروا بها.

(١) أسواق البالة: هي أسواق الشوارع والأرصفة لبيع السلع المستخدمة.

تعلّم كلّ عضو من أعضاء بذرة الأرض القراءة والكتابة، وأغلبهم كانوا يُتقنون لُغتين على الأقل - عادةً الإسبانية والإنجليزية، على اعتبار أنهما الأكثر فائدة. يجب على كلّ من ينضمّ إلى المجموعة، سواء أكان طفلاً أم بالغاً، أن يبدأ على الفور في تعلّم هذه الأساسيّات ويحصل على مهنة. وتوجّب على كلّ من أتقن أيّة حرفة أن يعلّمها لشخص آخر. أصرّت أُمّي على هذا، ويبدو أمراً منطقياً بالفعل. فقد غدت المدارس الحكومية نادرة في تلك الأيام، لأن الأطفال كانوا يمارسون العمل من عمر العاشرة. لم يعُد التعليم مجانياً، لكنه ظل إلزامياً وفقاً للقوانين. لكن المشكلة أنّ لا أحد كان يطبّق القوانين، مثلما أنّ لا أحد كان يحمي الأطفال الشغيلة.

امتلك أبي المهارات الأكثر قيمة في المجموعة. بحلول الوقت الذي تزوّج فيه من أمي، كان قد مضى على ممارسته للطب قرابة ٣٠ عاماً. كان رجلاً يندر وجودُ مثله في موقعهم فهو متعلّم، مهنيّ، وأسود البشرة. يندر وجود السود، على وجه الخصوص، في الجبال. تساءل الناس بخصوصه. لماذا كان هناك؟ كان بوسعه أن يحظى بمستوى معيشي أفضل في أيّة بلدة صغيرة عريقة. كانت المنطقة مليئة بالعديد من البلدات الصغيرة التي سيسعدُها وجود طبيب بين سكانها. هل كان طبيباً كفؤاً؟ هل كان صادقاً؟ هل كان شريفاً؟ هل يُؤتمن على رعاية الزوجات والبنات؟ كيف يمكنهم التأكّد من أنه كان طبيباً من الأصل؟ لم يكتب أبي عن هذا الأمر قط، لكن أُمّي كتبت عن كلّ شيء.

كتبَت في إحدى المرّات:

«سمع بانكول نفس الإشاعات والأقاويل التي سمعتُها في أسواق البالة وفي اللقاءات العرضية مع الجيران، لكنّه تجاهلها. كان عليه أن يحافظ علينا أصحّاء ويعالج إصابتنا الناجمة عن العمل. كان عند الآخرين عدّة إسعافات أولية، وشبكات هواتف عبر الأقمار الصناعية، وإذا كانوا محظوظين، فعندهم أيضاً سياراتهم وشاحناتهم. عادة ما تكون هذه المركبات قديمة ولا يمكن الاعتماد عليها، لكن بعض الناس امتلكوها. وسواء استدعوا بانكول أم لا، فهذا أمر عائد لهم.

ثم تحسّنت الأوضاع بفضل سوء حظ شخص آخر. ذات يوم، عانت جين هولي من التهاب الزائدة الدودية وكادت تنفجر، لكن آل هولي، جيراننا من جهة الشرق، قرّروا أنه من الأفضل أن يجربوا حظهم مع بانكول.

بمجرد ما أنقذ بانكول حياة المرأة تحدّث مع العائلة. ووبّخهم لأنهم انتظروا وقتاً طويلاً قبل أن يستدعوه، لأنهم كادوا أن يتركوا أماً لخمسة أطفال تموت. تحدّث معهم بأسلوبه المهذب الهادئ الوقور الذي يجعل الناس يخجلون. تقبّل آل هولي ما قاله. وأصبح طبيبهم.

ثم قام آل هولي بتزكية بانكول أمام أصدقائهم آل سوليفان، وبدورهم قام آل سوليفان بتزكيته لابنتهم التي تزوجت من أحد أبناء آل غاما، وآل غاما قاموا بتزكيته لآل دوفيتري، لأن

السيدة دوفيتري العجوز -كبيرة العائلة- كانت من آل غاما قبل الزواج. وهكذا تعرّفنا على أقرب جيراننا، آل دوفيتري».

وبمناسبة الحديث عن التعرّف على الناس، أتمنى من كلّ قلبي لو أنني عرفتُ أبي. يبدو أنه كان رجلاً مذهلاً، ولربما كان أمراً جيداً لي أن أتعرف على هذهِ النسخة من أمي، المكافحة، المُركّزة، والشابة التي في منتهى الإنسانية. ربما كنتُ سأحبّ هذين الشخصين.

من يوميات لورِن أويا أولامينا
الاثنين، ٢٧ سبتمبر، ٢٠٣٢

لستُ متأكّدة كيف يمكنني الحديث عن هذا اليوم. كان يُفترض به أن يكون يوماً هادئاً للنبش وتجميع النباتات بعد اجتماع البارحة المثير للضيق والمقرّر فيه إقامة احتفال الذكرى السنوية. يبدو أن هناك أعضاء من بيننا يظنّون أن جاريت هو ما يحتاجه البلد بالضبط- بصرف النظر عن هرائه الديني. المشكلة هي أنه لا يمكنك فصل جاريت عن «الهراء الديني». انت تأخذ جاريت وتأخذ معه أيضاً الضرب، والحرق، والتقيير والتريش. إنّها باقة. وربما تكون هناك أشياء أخرى أسوأ في هذهِ الباقة. أنصار جاريت مسحورون بحديث جاريت عن جعل أمريكا عظيمةً ثانيةً. يبدو أنه منزعج من بعض البلدان الأخرى. قد ينتهي بنا المطاف إلى الحرب. لأنه لا شيء يحشد الناس حول العلَم والبلاد والقائد العظيم كالحرب.

مع هذا، قد يغادرنا بعض الأشخاص من جماعتنا قريباً- بالأخص آل بيرالتا وآل فيركلوث.

«لقد بقي عندي أربعة أطفال على قيد الحياة»، قال راميرو بيرالتا في اجتماع البارحة، «ربما ستكون أمامهم فرصة للبقاء على قيد الحياة بوجود قائد قويّ مثل جاريت في إدارة أمور البلاد».

راميرو رجل طيب، لكنّه بحاجة ماسة إلى الحلول والنظام والاستقرار. أنا أفهم ذلك. كان عنده سبعة أطفال وزوجة. لقد فقد ثلاثةً من أطفاله وزوجته في حريق أشعلَته عصابة غوغائية غاضبة وخائفة وجاهلة، قرروا القضاء على وباء الكوليرا اللعين المتفشي في لوس أنجلوس بحرق مناطق من المدينة ظنّوا أن الوباء بدأ منها. أبقيتُ هذا نصب عينيّ عندما أجبتُه، «فكّر يا راميرو»، قلتُ، «لا يملك جاريت الحلول! هل أن قتلَ الناس وحرق كنائسهم وشنّ الحروب عليهم سيساعد أطفالك على العيش؟».

لكن راميرو بيرالتا أشاح بوجهه عني بغضب. تبادل هو وآلان فيركلوث النظر عبر غرفة الاجتماع- غرفة المدرسة. كانا خائفيَن. ثم تطلّعا في أطفالهما -لدى آلان أربعة أطفال أيضاً- كانا خائفين، ويشعران بالعار من خوفهما ومن عجزهما. وكانا متعبيَن. هنالك الملايين مثلهما- أناسٌ خائفون ومتعبون فحسب من كلّ هذه الفوضى. يريدون أن يقوم أحدهم بشيء ما. وإصلاح الوضع. الآن!

على أيّة حال، كان اجتماعنا صاخباً، وكان الاحتفال بالذكرى

السنوية مضطرباً. من المثير للاهتمام أنهم يخافون من عدم كفاءة إدوارد جاي سميث أكثر ممّا يخافون من استبداد جاريت الواضح.

لذا كنتُ هذا الصباح مستعدّة ليومٍ من المشي والتفكير وجمع النباتات مع الأصدقاء. ما زلنا نتنقل في مجموعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص عندما نترك أيكورن لأن الجبال يمكن أن تكون خطيرة، سواء على الطرق أم خارجها. ولكن مضى ما يقارب خمسة أشهر إلى الآن دون أن تصادفنا أيّة متاعب أثناء قيامنا بالنبش. وأفترضُ أن هذا بحدّ ذاته قد يكون خطيراً. إنه أمرٌ مؤسف. الغارات والعصابات خطيرة لأنها تقتل مباشرة. أما السلام فهو خطير لأنه يشجّع على التهاون واللامبالاة- وهذان يقتُلان عاجلاً أم آجلاً.

بالرغم من الغارة على مزرعة آل دوفيتري، إلّا أنّنا بصراحة كنّا أكثر اطمئناناً من المعتاد لأننا كنّا متّجهين إلى مكان نعرفه. كانت عزبةً محترقة ومهجورة وبعيدة عن مكان آل دوفيتري، اكتشفنا فيها نباتات مفيدة. بالأخصّ، الألوفيرا الذي يُستخدم في تخفيف الحروق ولدغات الحشرات، وكانت هناك أيضاً أكوام كبيرة من صبّار الأغاف. نبات الأغاف جميل ومتنوّع المظهر ذو أوراق خضرٍ مزرقّة محدّدة بلون أبيض مصفرّ. لا بدّ أنه كان ينمو وينتشر دون رعاية منذ سنوات في ما كان سابقاً الفناء الأمامي للعزبة. كان هذا أحد أنواع الأغاف الكبيرة والشرسة، كلّ نبتة منفردة عبارة عن وردة مقلوبة من الأوراق الصُلبة الليفية اللحمية، بعضها يزيد

طولها على المتر في النباتات الكبيرة. كلّ ورقة في قمتها أسلةٌ طويلة، صلبة، حادة كالخنجر، وزيادة على ذلك، كانت كلّ ورقة محدّدة بأشواك خشنة مسنّنة قويّة بما يكفي لاختراق لحم البشر. وكنا نعتزم استخدامها لهذا الغرض بالضبط.

في زيارتنا الأولى، حملنا معنا بعضاً من النباتات صغيرة الحجم، الفسائل. والآن، نعتزم أن نأخذ معنا قدر ما تستطيع عربتنا اليدوية حملَه. العربة نصف مملوءة أصلاً بالأغراض التي انتشلناها من سقيفة التخزين المتداعية في أحد الأكواخ المنهارة على مبعدة ميلين من المكان الذي نما فيه الأغاف. عثرنا على قدور مغبرّة، ومقالٍ، ودلاء، وكتب قديمة ومجلات، وأدوات يدوية صدئة، ومسامير، وسلاسل، وأسلاك. كلّها متضررة بسبب الماء والوقت، ولكن يمكن تنظيف أغلبها وإصلاحها أو تفكيكها، أو على الأقل نسخها. نحن نتعلّم من العمل الذي نقوم بها. أصبحنا صنّاع ومصلّحي أدوات وعُدد صغيرة أكفّاء للغاية. لقد تمكّنا من النجاة لأننا نواصل التعلّم. وعملاؤنا يدركون أنهم إذا ابتاعوا غرضاً منا، فأنّ أموالهم لن تذهب هباء.

النبش في الحدائق والمزارع المهجورة مفيدٌ أيضاً. نحن نجمع الخضروات والنباتات العشبية وأشجار الفواكه وأشجار الجوز، وكل النباتات التي نعلم أو نفترض أنّها مفيدة. لدينا حاجة قائمة إلى نباتات صحراوية شوكية مكتفية ذاتياً يمكن أن تتحمّل مناخنا. لأننا نستخدمها كجزء من سورنا الشائك.

صبّارة بعد صبّارة، نبات شوكيّ بعد نبات شوكيّ، زرعنا سوراً حيّاً في التلال المحيطة بأيكورن. وبالطبع لن يُبعد سورُنا الأشخاصَ العنيدين العازمين على الدخول. ما من سور يمكنه فعل ذلك. ستدخل السيارات والشاحنات إذا كان أصحابها مستعدين لتحمّل الأضرار القليلة التي ستصيب مركباتهم، لكن السيارات والشاحنات التي لا تزال تعمل نادرةٌ ونفيسة في الجبال، والوقود بأنواعه مكلِّف.

وحتى المتسلّلين الراجلين بإمكانهم الدخول إذا كانوا على استعداد لبذل بعض الجهد. لكن السور سيعرقلهم ويزعجهم. سيجعلهم غاضبين، وربما أيضاً صاخبين. وسيدفع السور -إذا قام بعمله كما ينبغي- أولئك المتسللين إلى الدنوّ منا من خلال أسهل المنافذ، وهذه نحرسها على مدار ٢٤ ساعة في اليوم.

دائماً يُستحسن مراقبة الزوار.

لذا عزمنا على حصاد نبات الأغاف.

توجّهنا إلى ما بقي من العزبة. بُنيت على رابية خفيضة مطلّة على حقول وحدائق. كان يُفترض بها أن تكون محطّتنا الأخيرة قبل أن نعود إلى المنزل. لكنّها كادت أن تكون نهايتنا.

كانت هناك شاحنة منزلية مركونة بالقرب من أنقاض المنزل. لم نرَ الشاحنة في البداية. كانت مخفيّة خلف المدخنة الكبرى من بين المدخنتين اللتين لا تزالان منتصبتين كشاهدتي قبر، إكراماً لذكرى

المنزل المحترق. ذكرتُ أمام خورخي شو بِمَ ذكّرني شكل المدختين. خورخي كان يرافقنا لأنّه على صغر سنه كان ماهراً في التقاط الخردة المفيدة التي قد يرفضها الآخرون على أنّها نفايات.

«وما هي شواهد القبور؟»، سألني. وكان جاداً في سؤاله. إنه بعمر الثامنة عشرة، وهاربٌ من منطقة لوس أنجلوس مثلي، لكن تجربته كانت مختلفة تماماً عنّي. فبينما كنت أتلقى الرعاية والاهتمام والتعليم على يد أبوين متعلّمين، كان يعيش بمفرده. إنه يتحدّث اللغة الإسبانية والقليل من اللغة الكورية، ولكنه لا يعرف الإنجليزية. كان في السابعة من عمره عندما توفّيت أمه بسبب الإنفلونزا، وفي الثانية عشرة من عمره عندما قتل زلزالٌ أباه. تسبّب الزلزال بانهيار المبنى القديم المبني من الطوب الذي سكنَته العائلة. لذا صار خورخي وحده مسؤولاً عن أخته وأخيه الصغيرين، وهو في الثانية عشرة من عمره فقط. اعتنى بهما، وعلّم نفسه القراءة والكتابة بالإسبانية بمساعدة من عجوز سكّير من معارفهم بين الحين والآخر. مارس أعمالاً شاقّة وخطيرة وغير شرعية في كثير من الأحيان. كان ينبش، كما ويسرق عند الحاجة. تمكّن من العيش، هو وأخته وأخوه، مجرّد ثلاثة أطفال كوريين يعيشون في حيّ فقير يقطنه لاجئون من المكسيك وأمريكا الوسطى، ولكن لم يكن عندهم وقت لتعلّم الأمور غير الضرورية. والآن نحن نعلّمهم القراءة والكتابة والتحدّث باللغة الإنجليزية، لأن هذا سيُمكّنهم من التواصل مع المزيد من الناس. ونعلّمهم أيضاً التاريخ والزراعة

والنجارة وبعض الأشياء العرضية الأخرى- على سبيل المثال: ما هي شواهدُ القبور.

العضوان الآخران في فريق النبش والانتشال هما ناتيفيداد دوغلاس ومايكل كاردوس. أنا وخورخي متقمّصان. مايك وناتيفيداد ليسا كذلك. من الخطير جداً إرسال فريق أغلبُ أعضائه متقمّصون. المتقمّصون ضعفاء للغاية. نحن نتعذّب بغض النظر عمّن يتأذى. لكنّ فريقاً من اثنين واثنين فريقٌ جيد، ونحن الأربعة نُحسن العمل سوية. من غير المعتاد أن نكون أربعتنا في ذات الوقت مهملين، لكنّنا اليوم كنّا كذلك.

كانت المدفأة والمدخنة اللتان أخفَتا الشاحنة المنزلية عن أنظارنا تقعان عند الجدار الأخير لما كان سابقاً غرفة معيشة كبيرة. كانت المدفأة كبيرة بما يكفي لشواء بقرة كاملة. المكان بأكمله كان كبيراً بما يكفي لإخفاء شاحنة منزلية متوسطة الحجم.

لم نرَ الشاحنة إلّا قبل لحظة فقط من إطلاق النار علينا.

كُنا مسلّحين كالعادة، ببنادقنا الآلية ومسدساتنا، ولكن كلّ أسلحتنا لا تساوي شيئاً أمام دروع وقوة نيران أسلحة حتّى شاحنةٍ منزلية من نوع متواضع.

هوينا على الأرض تحت وابل من التراب والصخور التي تطايرت بسبب ضرب الرصاص على الأرض من حولنا. انكفأنا للوراء، أسفل الرابية التي بُني عليها المنزل. كانت قمّة الرابية هي

غطاؤنا الوحيد. كلّ ما كان بأيدينا فعلُه هو التمدّد تحت سفح المنحدر ومحاولة إبقاء أجسادنا بعيداً عن الأنظار. لم نجرؤ على الوقوف أو الجلوس حتّى. لم يكن أمامنا مكان نلجأ إليه. مزّق الرصاص الأرض الممتدة أمامنا، ومن ثم الممتدة وراءنا، الواقعة خارج حماية المرتفع.

لم تكن هنالك أشجار في الجوار- ولا حتّى أجمةٌ كبيرة تفصلنا عن الشاحنة. كنّا في الجزء الهزيل من بقايا حديقة صحراوية. لم نصل إلى أجمات نباتات الأغاف بعد- ولن نتمكّن من الوصول إليها الآن. لن يمكنها حمايتنا على أيّة حال. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخفينا وراءه هو نخلة واشنطونيا يانعة، تجاوزناها في طريقنا إلى هنا، وهي غير مضادّة للرصاص أصلاً. كانت سعفاتها منتشرات حولها، خفيضاتٍ وخضراً مثل أجمة كبيرة، لكنها كانت في الطرف الشمالي من المنزل، بينما كنّا مُسمّرين في الطرف الجنوبي. كانت الشاحنة مركونة في الطرف الجنوبي أيضاً. لذا لن تكون للشجرة أيّة فائدة لنا. أقرب شيء لنا كان مجموعةً من نباتات الألوفيرا، والتين الشوكي، وشجيرات يوكا صغيرة، وبعض الحشائش والأعشاب.

ولن تنفعنا هذهِ النباتات بشيء. لو قرر الأشخاص الذين في الشاحنة أن يستفيدوا أقصى استفادة من معدّاتهم، فلن تنفعنا حتّى قمّة الرابية بشيء. سنموت. تساءلتُ كيف لم يصيبونا عندما وصلنا. أم كانوا يحاولون فقط ترويعنا لنهرب من المكان؟ لا أظن ذلك. لقد استمر إطلاق النار فترة طويلة.

ثم توقّف أخيراً.

قبعنا في أماكننا بهدوء، متظاهرين بالموت، نُصغي لعلّنا نسمع عويل محرك الشاحنة، أو وقع خطوات أقدام، أو أصوات بشر، أو أي دليل على أنّنا مطاردون- أو أنّ مهاجمينا قد رحلوا. ولكن لم يكُ هناك سوى أنين الرياح الخفيض وحفيف بعض النباتات. استلقيتُ في مكاني وأنا أفكّر بأشجار الصنوبر التي رأيتُها على الجروف المرتفعة خلف المنزل. كان بوسعي تخيّلها، وبطريقة ما، كان هذا كلّ ما بوسعي فعله لمنع نفسي من رفع رأسي لإلقاء نظرة عليهم، لأتأكد ما إذا كانوا بالفعل بعيدين كما ظننت. اجتاحت الحقول المليئة بالحشائش الأرضَ التي كانت يوماً ما مزرعة وصولاً إلى التلال من أعلاها إلى أسفلها. أعلاها كانت أشجار الصنوبر التي كان يُمكن أن تحمينا وتخفينا، لكنها كانت بعيدة جداً عن المنال. تنهّدتُ.

ثم سمعنا صوت بكاءِ طفل.

كلّنا سمعناه- بضع شهقات قصيرة، ثم لا شيء. بدا صوت طفل صغير- ليس رضيعاً، بل طفلاً صغيراً، مرهقاً، وعاجزاً، وقانطاً.

نظرنا نحن الأربعة إلى بعضنا البعض. كنّا جميعاً نهتمّ بالأطفال. كان لدى مايكل طفلان. ولدى ناتيفيداد ثلاثة. أنا وبانكول نحاول الإنجاب. ويسعدُني قول إن خورخي لم يتسبّب بحمل امرأة إلى الآن، لكنه كان بمثابة أبٍ لكلّ من أخته وأخيه لمدة ست سنوات. لذا كان يُدرك تماماً مثلنا جميعاً المخاطرَ التي تحيق بطفلٍ بلا حماية.

رفعتُ رأسي بما يكفي لإلقاء نظرة سريعة على الشاحنة والمنطقة حولها. لا ينبغي لشاحنة منزلية مسلّحة ومدرعة ومقفولة بإحكام

أن تدع صوت طفل يتسرّب من داخلها. كما أن الصوت بدا طبيعياً، لم يتمّ تضخيمه أو تعديله بواسطة مكبّرات الصوت في الشاحنة.

بناءً على هذا، لا بدّ أن أحد أبواب الشاحنة كان مفتوحاً. بل مفتوحاً على اتّساعه.

لم يكن بوسعي رؤية الكثير بسبب كلّ الحشائش والأعشاب، ولم أجرؤ على رفع رأسي فوقها. كلّ ما أمكنني رؤيتُه هي الأشكال التي أضيئت بنور الشمس؛ المدخنة، والشاحنة بجانبها، والحشائش في الحقول خلف المدخنة والشاحنة، والأشجار البعيدة و...

حركة؟

حركة بعيدة بين الحشائش في الحقول، لكنّها كانت تقترب.

جذبتني ناتيفيداد إلى الأسفل. «ما خطبك؟». همسَت بالإسبانية. من المستحسن التحدّث بالإسبانية من أجل خورخي إذا كنّا واقعين في ورطة. «هناك مجانين في تلك الشاحنة! هل ترغبين بالموت؟».

«أحدهم قادم»، قلت، «ربما أكثر من شخص واحد، أراهم قادمين عبر الحقول».

قالت: «لا يهمّني! ابقي تحت!».

ناتيفيداد واحدة من أصدقائي المقرّبين، ولكن أحياناً تكون مرافقَتُها أشبه بمرافقتك لوالدتك.

«ربما كان البكاء مقصوداً لإغرائنا بالخروج»، قال مايكل، «لطالما

استخدم الناسُ الأطفالَ كفخاخٍ من قبل». مايكل رجل شكّاك بطبيعته. إنه يشكّك في كلّ شيء. لقد أمضى وعائلته قرابة العامين معنا، وأعتقد أنه استغرق ستة أشهر لكي يتقبَّلنا ويقتنع أخيراً أنّنا لا نُضمر أيّة نوايا سيئة تجاه زوجته أو ابنتيه التوأمين. علماً أنّنا آويناهم وساعدناهم عندما وجدنا زوجته بمفردها، تلد التوأمين في كوخ خرِب سكناه. كان المكان قرب جدول ماء، لذا كان عندهما ماء، وكانت عندهما بعض الأواني والقدور. لكنّهما كانا مسلّحين بمسدس رماية قديم فارغ من عيار ٢٢ وسكين. كانا يتضوران جوعاً، يأكلان الصنوبر والنباتات البريّة وأحياناً أيّ حيوان صغير عابر يتمكّن مايكل من إيقاعه في الشراك أو قتله بصخرة. في الحقيقة، كان في الخارج يبحث عن الطعام عندما أتى زوجتَه نوريكو المخاضُ.

وافق مايكل على الانضمام إلينا لأنه كان خائفاً من أن يتضور هو وطفلتاه وزوجته جوعاً بالرغم من قيامه بالكثير من الوظائف الغريبة والتسول والسرقة والنبش. لم نطلب منهم قطّ أكثر من قيامهم بنصيبهم من العمل للحفاظ على ديمومة المجتمع وأن يحترموا بذرة الأرض بألّا يقوموا بالتبشير بعقائد أخرى. لكن بالنسبة لمايكل بدا كلّ هذا أشبه بالإيثار، ومايكل لا يؤمن بالإيثار. فقد ظلّ يترقب القبض علينا ونحن نبيع الناس للعبوديّة أو الدعارة. لم يطمئن لنا إلّا عندما أدرك أنّنا كنّا حقاً نفعل ما نقول. بذرة الأرض كانت وما زالت مفتاحنا. كان يعتقد أن أسلوب حياتنا منطقيّ وهادف، ويعتقد أن المصير أمرٌ جنونيّ، لكنّه عرف أنّنا لم نكن نضمر أي سوء

لعائلته. وكانت عائلته مفتاحه. ما أن تقبّلَنا، حتّى استقر معنا هو ونوريكو والفتاتان، وصارت أيكورن بمثابة دياره. إنهما شخصان طيّبان. حتّى شكوك مايكل يمكن أن تكون نافعة. لأنها في معظم الأحيان تساعدنا على البقاء متيقّظين.

«لا أظن أن البكاء فخّ للإيقاع بنا»، قلتُ، «ولكن ثمّة خطب ما هنا. هذا واضح. كان يُفترض بالأشخاص في الشاحنة أن يقتلونا أو يدفعونا للمغادرة».

«ولا ينبغي أن نسمعهم»، قال خورخي، «مهما صرخ ذلك الطفل عالياً، لم يكن ينبغي أن نسمع شيئاً».

أدلت ناتيفيداد برأيها. «لم يكن ينبغي لأسلحتهم أن تُخطئ إصابتنا»، قالت، «في شاحنة مثل هذه تعمل الأسلحة بواسطة الكومبيوتر. استهداف آلي. لذا فأن الطريقة الوحيدة لأن تُخطئ الهدف هي إذا كُنت مصرّاً على القيام بالأمر بنفسك. قد تنسى وضع أسلحتك تحت سيطرة الكومبيوتر أو قد تطفئ الكومبيوتر إذا كان هدفك تخويف الناس فقط. ولكن لو كنتَ جادّاً، فلا ينبغي أن تُخطئ التصويب». لقد علّمها أبوها عن الأسلحة أكثر ممّا يعرفه معظمُ أفراد مجتمعنا.

«لا أظنّهم أخطأوا إصابتنا عمداً»، قلتُ، «لم أشعر بأن الأمر كان كذلك».

«أتّفق معكِ»، قال مايكل، «إذن، ما الخطب؟».

«خراء!»، همس خورخي، «الخطب هو أن هؤلاء الأوغاد سيقتلوننا ما أن نتحرّك!».

أطلقَت الأسلحة النار ثانية. تمددّتُ على الأرض وتسمّرتُ في مكاني بعينين مغلقتين. يعتزم الأغبياء في الشاحنة قتلنا سواء تحرّكنا أم لا، وكانت فرصهم في النجاح ممتازة.

ثم أدركتُ أنهم لم يكونوا يطلقون النار علينا هذه المرة.

أحدٌ ما كان يصرخ. بين دوي إطلاق العيارات النارية سمعتُ أحدهم يصرخ من الألم. لم أتحرّك. عندما يكون هناك من يتألم، فأن الطريقة الوحيدة أمامي لأتجنّب مشاركته ألمهُ هي ألّا أنظر.

خورخي، الذي كان يجدر به أن يكون أفطنَ من ذلك، رفع رأسه ونظر.

وما هي إلّا لحظة حتّى راح يتقلّب ويتلوى على الأرض متعذّباً بألم شخص آخر. لم يصرخ. المتقمّصون الناجون يتعلّمون من عمر مبكر أن يتحمّلوا الألم ويلزموا الهدوء. نحن نحافظ على ضعفنا سرّاً قدر الإمكان. أحياناً نكون قادرين على البقاء ساكنين دون أن نعطي أيّة علامة على ألمنا. لكن خورخي كان يتعذّب بشدة بحيث لم يُطق إبقاء جسده ثابتاً. انقبض على نفسه وأحاط بطنه بذراعيه. فجأة، أحسستُ بصدى خفيف لألمِهِ في وسط جسدي. لا أفهم كيف يرى بعضُهم التقمّصَ كقدرة أو قوّة– كشيءٍ مرغوبٌ فيه.

«أيها الأحمق»، قلتُ لخورخي، ثم ضممتُه إلى أن تجاوزنا نوبة

الألم. أخفيتُ ألمي قدر ما أمكنني كي لا نخلقَ دائرة ألم لعينة من ردود الأفعال نعلقُ فيها، لأنني أعلم أنّنا نحن المتقمصين قادرون على خلقها. نحن لا نموت من الآلام التي نراها ونشاركها. نتمنّى لو نموت أحياناً، وهنالك أيضاً خطر في مشاركة الكثير من الألم أو الكثير من الوفيات. هذه مسائل فردية. قبل خمس سنوات تشاركتُ ثلاث أو أربع وفيّات بسرعة، واحدة تلو الأخرى. لقد فاق الألم في شدّته كلّ ألم آخر. ثم طرحني غائبة عن الوعي. عندما عدتُ لوعيي، كنتُ مخدّرة وأشعر بالغثيان والدوار بعد فترة طويلة من اختفاء أيّ ألم أتقمّصُه. مع الآلام الأقلّ أذى، يكفي إشاحة النظر. ينتهي الألم بالنسبة لنا في غضون دقائق. لكن حالات الموت تستغرق وقتاً أطول لتجاوزها.

هنالك حسنةٌ واحدة في مشاركة الألم، أنه يجعلنا نتوانى عن تسبّب الألم للآخرين. نحن نكره الألم أكثر ممّا يكرهه الجميع.

«أنا على ما يرام»، قال خورخي بعد برهة. ثم أردف قائلاً: «هؤلاء الأشخاص هناك.. أظن أنهم ماتوا. لا شكّ من أنهم أموات».

«لقد سقطوا على أيّة حال»، همس مايكل وهو ينظر إلى نفس المكان الذي نظر إليه خورخي، «بوسعي رؤية ثلاثة منهم على الأقل مطروحين في الحقل وراء المدخنة والشاحنة». ثم زحف متراجعاً لكي يأخذ راحته فلا يَرى ولا يُرى من المرتفع. أحياناً أحاول تخيّل كيف هو الحال عندما ينظر المرء إلى الألم دون الشعور بشيء.

كابوسي المتكرّر الحاليّ هو أقرب ما وصلتُه لهذا النوع من الحرية، ولا يعني هذا أنه جعلني أشعر بالحرية. ولكن بالنسبة لمايكل فأن عدم الشعور لا بدّ وأنه أمر... حسناً... طبيعيّ.

ساد الهدوءُ المكان. لم تتحرّك الشاحنة. لم تفعل شيئاً.

«يبدو أنهم بحاجة لهدفٍ متحرّك»، قلتُ.

«ربما كانوا منتشين من إثر تعاطي مخدّر ما»، قالت ناتيفيداد، «أو ربما أنهم مجانين فحسب. هل أنتَ متأكّد من أنك بخير يا خورخي؟».

قال خورخي: «نعم. أودّ فقط الرحيل من هنا».

هززتُ رأسي وقلتُ: «نحن عالقون هنا، حتّى يحلّ الظلام على الأقل».

قال مايكل: «الظلام لن يحمينا إذا كانت الشاحنة مزوّدة حتّى لو بأرخص معدّات الرؤية الليلية».

فكّرت في ذلك، ثم أومأتُ برأسي، قلتُ: «نعم، ولكنها أطلقَت النار علينا وأخطأَتنا. كما أنّها لم تتحرّك، رغم أن مجموعتين من الأشخاص قد عثروا على مخبئها. وبرأيي إما أن الخلل في الشاحنة أو في الأشخاص بداخلها. سنمكث في مكاننا إلى أن يحلّ الظلام ثم نهرب. وإذا كنّا محظوظين، فلن يأتي أحد ليتفقّدنا قبل ذلك ويوقعنا في المتاعب أو يلفت انتباه الشاحنة مرّة أخرى تجاهنا. ولكن مهما يكن ما سيحدث، سننتظر».

«لقد مات ثلاثة أشخاص»، قال مايكل، «ينبغي أن نكون نحن أيضاً موتى. وربما سنموت نحن أيضاً قبل أن تنقضيَ هذهِ الليلة».

تنهّدتُ. «اخرس يا مايك»، قلت.

انتظرنا في هذا اليوم الخريفيّ البارد. كنّا محظوظين لأنه قبل يومين صار الجوّ بارداً. وكنّا محظوظين أيضاً لأنها لم تمطر. طقسٌ مثالي لنعلق في أماكننا بسبب مجانين مسلّحين.

لم تتحرّك الشاحنة قطّ. لم يأتِ أي أحد ليتسبب لنا بالمتاعب أو ليجذب النيران باتجاهنا. أكلنا الطعام الذي جلبناه معنا للغداء وشربنا ما تبقى من الماء. فكّرنا أن مطاردينا لا بدّ وأنهم يظنّوننا موتى. حسناً، ارتضينا بالتظاهر بالموت إلى أن تغيب الشمس. انتظرنا.

ثم تحرّكنا. تحت ستار الظلام. بدأنا نزحف نحو الحافة الشمالية من الرابية التي كانت تحمينا. كنّا نأمل بهذهِ الطريقة أن المدخنة الكبيرة ستفصلنا عن الشاحنة بحيث لا يكون لدى الأشخاص في الشاحنة وقت كافٍ لرؤيتنا وفتح النار علينا قبل أن نحتمي خلف المدخنة الثانية. وعندما نصل إلى المدخنة الثانية، كنّا نأمل أن نُبقي على المدخنتين بيننا وبين الشاحنة الساكنة فيما نهمّ بالهرب. هذه خطّة جيدة بشرط أن تبقى الشاحنة ساكنة. إذا تحرّكَت فنحن في عداد الأموات. وحتى لو لم تتحرّك، ستكون هنالك لحظة نصبح فيها أهدافاً سهلة، عندما يتوجّب علينا الركض عبر الأرض المكشوفة.

«يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!»، همس خورخي وقد أطبق أسنانه فيما كان يحدّق في الأرض المكشوفة الممتدة أمامه. لو تمكّنَت الشاحنة من إطلاق النار على أي واحد منا، ورأى الشخص المُصابَ، سينهار. وسأنهار أنا أيضاً.

«لا تتطلّع حولك»، أوصيتُه، «حتى لو سمعتَ صوت عيارات نارية، انظر أمامك مباشرة، وتابع الركض!».

ولكن قبل أن نشرع بالركض، عاد صوت البكاء ثانية. لم يكن ثمّة أيّ مجال لسوء الفهم. كان صوت نحيب طفلٍ بوضوح، وهذهِ المرة، لم يتوقّف.

ركضنا. ربما سيساعد صوت البكاء على تغطية أيّة أصوات سنُحدثها بركضنا على الأرض غير المستوية - بيد أنّنا كنّا هادئين. لقد تعلّمنا أن نكون كذلك.

وصل خورخي أولاً إلى المدخنة الأصغر. وكنت أنا التالية. ومن ثم وصل مايكل وناتيفيداد سوية. مايكل قصير القامة ونحيفٌ وسريع الحركة مثلما يوحي مظهره. ناتيفيداد ممتلئة الجسم وقويّة ولا يبدو عليها أنّها سريعة الحركة، لكنّها تُفاجئ الناس في العادة.

وصلنا كلنا. لم تكن هناك عيارات نارية. وفي الوقت الذي استغرقناه للوصول إلى المدخنة الأصغر، وجدتُ أنني غيّرتُ رأيي حول الطريقة التي سارت بها الأمور.

لم يتوقف البكاء طوال الوقت. عندما تطلّعتُ من خلف المدخنة

الصغيرة باتجاه الشاحنة، رأيت ضوءاً- مسحة عريضة من ضوء رمادي مزرقّ خافت. لم أرَ أشخاصاً، ولكن من الواضح أن تخميننا كان صحيحاً. كان الباب الجانبي للشاحنة مفتوحاً على وسعه.

تجمعنا عند المدخنة الصغيرة، تطلّع البقية باتجاه المنحدر السفلي شمالنا. فهذا هو المكان الذي كانوا قد قرّروا الذهاب إليه. لا تزال ثمّة بقية من ضوء النجوم كافية لإنارة الطريق، رأيت خورخي منحنياً واضعاً يديه على فخذيه كأنه على وشك خوض سباق.

لم يعُد الطفل يبكي الآن، بل ينتحبُ بصوتٍ رقيق ومرهق. يُستحسن التحرّك قبل أن يتوقف البكاء تماماً. ويُستحسن أيضاً التحرّك قبل أن يدرك الآخرون ما أنوي فعله- ما أعلم الآن أنه يتوجّب عليّ فعله. سيتبعونني ويدعمونني ما دمتُ أتحرّك بسرعة دون أن أمنحهم أيّة فرصة للتفكير أو الجدال.

«فلننطلق»، قال مايكل.

لم أكترث. أدركتُ أن الهواء يحمل رائحة سيّئة، تزداد وتتلاشى مع نسيم المساء. بدت وكأنها قادمة من الشاحنة.

«هيّا بنا»، ألح مايكل.

«لا»، قلت، وانتظرتُ إلى أن نظر إليّ ثلاثتهم. حان الوقت، الآن، «أريد أن أعرف ما خطبُ ذلك الطفل»، قلتُ، «وأريد تلك الشاحنة».

ثم تقدّمتُ قبل أن تردعَني كلماتهم وأياديهم.

ثم شرعتُ بالركض. ركضتُ حول المنزل الخرِب، وقد انتقلتُ للحظة من الواقع إلى حلمي. كنت أركض أمام المنزل الخرب، أمام مدخنتيه، أمام ما بقي من هيكله المتفحّم المرئيّ تحت ضوء النجوم.

ولوهلة خُيّل إليّ أنني رأيتُ هيئات ظلال من الأحلام. ظلال تنهض، تتحرّك...

نبذتُ عني هذا الشعور وتوقّفت عن الركض حالما بلغت المدخنة الكبيرة. تسللت حولها بحذر، آملة ألّا يراني ركّاب الشاحنة فيُطلقون النار عليّ، ومرعوبة من أنهم سيطلقون النار عليّ، تحرّكتُ بسرعة بالرغم من رعبي.

صار الضوء الرمادي المزرقّ أشدّ سطوعاً الآن، وميّزتُ الرائحة الكريهة للتفسخ التي وجدتُها مألوفة للغاية.

جثَوتُ على أمل أن أكون بعيدة عن كاميرات الشاحنة، وعبرتُ من أمام الشاحنة- قريبة منها بما يكفي بحيث يمكنني لمسها لو مددتُ يدي. ثم وصلت إلى الجانب الآخر منها، حيث الضوء، وحيث يجب أن يكون الباب مفتوحاً.

بينما كنتُ أتقدّم كدتُ أتعثر بالطفل الباكي. كانت بنتاً صغيرة بعمر السادسة أو السابعة. كانت قذرة بما يفوق قدرة كلماتي على وصف القذارة. كانت جالسة على الأرض، تبكي، وتمسح بيديها الدموع والوحل الذي غطى وجهها.

رفعَت نظرها ورأتني في نفس اللحظة التي تفاديتُ التعثر بها

والسقوط عليها. حدّقَت بي، فاغرة فاها، فيما أتخطّاها لأعدّل من بندقيتي في الضوء الرمادي المزرقّ المنبعث من داخل الشاحنة.

لا أعرف ماذا كنتُ أتوقع أن أرى: أسُكارى مطروحين في الأرجاء؟ معربدين؟ مزيداً من القذارة؟ أناساً يصوبون أسلحتهم باتجاهي؟ موتاً؟

هنالك موت. أنا متأكّدة. رائحتُه لا لبس فيها.

لكن ما رأيتُه في الضوء الرمادي المزرقّ كان طفلة أخرى. بنتاً صغيرة نائمة على إحدى شاشات الشاحنة. وضعَت رأسها على حافة لوحة التحكّم، وكانت تشخر قليلاً. كان الضوء الرمادي المزرقّ ينبعث من الشاشات الثلاث التي كانت قيد التشغيل. لم تُظهر الشاشات الثلاث غير «ثلج» إلكتروني رماديّ محبّب.

كان هناك أيضاً ثلاثة موتى في الشاحنة.

هذا إذا كانوا موتى بالفعل كما ظننتُ. من الواضح أنهم أصيبوا عدّة مرّات- بعيارات نارية على ما أظن. في الحقيقة، لا بدّ من أنهم أصيبوا قبل مدة، ربما عدّة أيام. لأن الدماء كانت قد تيبّست واسودّت على جثثهم.

يسعدُني قول إنني لا أشارك مشاعر الموتى أو الغائبين عن الوعي. مهما كان منظرهم ورائحتهم، إنهم لا يزعجونني كثيراً. وقد رأيتُ الكثير من الموتى.

صعدتُ إلى الشاحنة، تاركة الطفلة الباكية خارجاً في عهدة

الآخرين. سمعتُ ناتيفيداد وهي تتحدّث معها. تحبّ ناتيفيداد الأطفال، ويبدو أنهم يثقون بها ما أن يقابلوها.

وبينما كنتُ أهم بركوب الشاحنة جاء من خلفي مايكل وخورخي. تسمّر كلاهما ما أن رأيا منظر الطفلة النائمة والجثث المطروحة. ثم تقدّمني مايكل ليتفقد الجثث. لقد تعلّم هو وناتيفيداد وآلي غيلكريست وزهرا بالتر مساعدة بانكول. لم يحظوا بتدريب طبّي أو تمريضيّ رسميّ، لكن بانكول درّبهم -لا يزال يدرّبهم- وهم حريصون وجادّون في عملهم.

تفقّد مايكل الجثث واكتشف أن رجلاً واحداً فقط كان ميتاً، وهو رجل نحيل داكن البشرة في منتصف العمر. أُصيب بعيارات نارية في منطقة الصدر والبطن. والاثنان الآخران، امرأة شقراء ضخمة عارية في منتصف العمر مصابة بعيارات نارية في منطقة الساقين والفخذين، وفتى أشقر مكسو بالملابس بعمر الخامسة عشرة تقريباً مصاب في ساقيه وكتفه الأيسر. كان الدم المتيبّس يغطي هؤلاء الأشخاص. ومع ذلك، وجد مايكل دقّاتِ قلب خافتةً في المرأة والصبي.

«علينا نقلهم إلى بانكول»، قال، «هذا فوق مقدرتي».

«أوه، خراء!»، تأوّه خورخي وهرع للخارج لكي يتقيأ. لا ألومه. لقد لاحظ للتوّ اليرقات في عيني الرجل وفمه وجروحه، وفي جروح المصابَين الآخرَين. أشحتُ النظر. بوسعنا جميعنا التعامُل مع هذا النوع من الأمور، لكن هذا لا يعني أنّنا نستمتع بالقيام بها. في الحقيقة، كنتُ أكثر قلقاً من أن يستعيد وعيه أحد المصابَين أو كلاهما. اتخذتُ

مكاناً بحيث لا أضطر للنظر إليهما. بالطبع، لم يكونا في حالة تسمح لهما بمهاجمتنا، لكنّهما سيقومان بجرّي إلى عذابهما إذا استعادا وعيهما.

أدرتُ ظهري لمايكل ومريضيه، وأيقظت الطفلة النائمة. لم تكن قذرة مثل الطفلة الأخرى التي وجدناها في الخارج، لكنّها مع ذلك كانت بحاجة إلى الاستحمام.

تطلّعَت فيّ ملياً، دائخة، مشوّشة. ثم راحت تصرخ، وفجأة انطلقَت بسرعة السهم محاولة تجاوزي لتخرج من الباب.

أمسكتُ بها واحتضنتُها فيما كانت تقاوم وتصرخ. كلّمتها، همستُ لها، حاولت طمأنتها، فعلتُ كلّ ما بوسعي لإخراجها من حالة الهستيريا. «كل شيء على ما يرام يا عزيزتي، كلّ شيء على ما يرام. سنعتني بكِ. لا تخافي. سنعتني بكِ...». ثم هدهدتُها ودندنتُ لها بصوتٍ هادئ كما لو أنّها طفلة رضيعة.

لا شكّ أن القتلى والمصابين كانوا عائلتها. منذ متى هي والطفلة الأخرى بمفرديهما هنا؟ ستحتاجان لكل الرعاية التي يُمكننا أن نقدمها لهما. بعد المزيد من الصراخ والمقاومة، بدأَت تلتجئ لأحضاني، تتشبّث بي بدلاً من محاولة الهرب. ثم راحت تحدّق إلى الآخرين بعينيها الكبيرتين وهي بين ذراعيّ.

راقب خورخي الشاشات ما أن استقرّت معدته. هدّأت ناتيفيداد من روع الطفلة الأخرى، ووجدَت خرقة نظيفة وبعض الماء. فغسلَت وجه الطفلة ويديها وذراعيها. ترك مايكل المرأة والفتى

المصابين ليتفحّص لوحة التحكم في الشاحنة. كان هو الوحيد من بيننا نحن الأربعة الذي يعرف قيادة المركبات.

«هل هنالك أيّة مشاكل؟»، سألتُه.

هزّ رأسه نافياً، ثم قال: «ولا حتّى أيّة علامة على وجود كمين متفجّر. أظن أنّهم خافوا أن يعبث بها الأطفال ويفجروها».

سألتُه: «هل تستطيع قيادتها؟».

قال: «بالتأكيد».

قلتُ: «إذن، قُدها. إنّها ملكنا. فلنعُد أدراجنا».

كانت الشاحنة تشتغل بشكل حسن. بطّارياتها مشحونة جيداً، ولم يواجه مايكل أيّة مشكلة في استخدام معدّات الرؤية الليلية. كانت مجهزة بحسّاس ضوئي محيطيّ يعمل بالأشعة تحت الحمراء، وجهاز رادار. كلّ هذه المعدات كانت أجهزة ذات جودة عالية وكلّها تعمل بصورة جيدة. لا بدّ أن الطفلتين كانتا تجهلان طريقة استخدام هذه الأجهزة- بما أنهما لم تعرفا كيفية قيادة السيارات. أو ربما كانتا تعرفان طريقة عمل الشاحنة وأجهزتها، لكنهما لم تعرفا إلى أين تذهبان. في نهاية المطاف، إلى أين تلجأ طفلتان طلباً للمساعدة؟ إذا لم يكن عندهما أقاربُ بالغون، فحتى الشرطة ستبيعهما بشكل غير قانوني أو تقوم باسترقاقهما بعقدِ عملٍ قانوني. أصبح إلزام المعوزين، صغاراً وكباراً، بالعمل بالسخرة أمراً شائعاً جداً هذه الأيام. التعديلان الدستوريان الثالث عشر والرابع عشر -إلغاء

العبوديّة وضمان حقوق المواطنة- ما زالا قائمين، ولكن أصابهما الضعف بسبب الأعراف والكونغرس والمجالس التشريعية المختلفة للولايات وقرارات المحكمة العليا مؤخراً، لدرجة أنهما لم يعودا يشكّلان فرقاً. يُفترض أن التعاقد الإلزامي يحافظ على وظائف المعوزين ويعلّمهم مهنة ويطعمهم ويأويهم ويحميهم من المشاكل. لكنّه في الحقيقة مجرّد طريقة أخرى لجعل الناس يعملون بلا مقابل أو مقابل أجر زهيد. والفتيات الصغيرات يمتلكن قيمة عالية، نظراً لإمكانية استخدامهن بطرق عديدة، ولأنه يمكن إجبارهن على أن يكن عاملات سريعات سهلات القياد وسهلات الاستبدال.

لا شكّ أن هاتين الفتاتين قد تعلّمتا الخوف من الغرباء. ومع غياب والديهما وشقيقهما فقد تُركتا وحيدتين للدفاع عن عائلتهما وبيتهما. لا بدّ من أن خوفهما الأعمى هو ما دفعهما لإطلاق النار علينا وعلى ثلاثة رجال آخرين لم يحملوا أيّة علامة على كونهم أخطر من مجرّد هائمين أو ربما نبّاشين. خرج مايكل وناتيفيداد للتحقق من هؤلاء الرجال قبل مغادرتنا، فيما قمنا أنا وخورخي بتحميل عربة اليد بمحتوياتها إلى الشاحنة.

لقي الرجال الثلاثة مصارعهم. كانت بحوزتهم عملة صعبة ومسدسات في جراباتها، أخذها مايكل وناتيفيداد. غطّيناهم بالحجارة وتركناهم. لكنّهم لم يشكّلوا خطراً على الشاحنة أكثر منا. وحتى لو أنهم مشوا باتجاه الشاحنة مباشرة، فأن الباب المقفل كان سيُبقيهم خارجاً. ولم تكن لمسدساتهم القديمة نصف الأوتوماتيكية

من عيار تسعة مليمترات أيّة فرصة أمام دروع الشاحنة. لكن الفتاتين الصغيرتين تجهلان ذلك. مكتبة .. سُر مَن قرأ

أخذناهما معنا إلى أيكورن. تحمّمتا وأكلتا وارتاحتا ونامتا. ظلّ بانكول يعالج أمهما وشقيقهما. لم يُسعده وجود مرضى جدد. عيادتنا ممتلئة، وكان معه لمساعدته كلّ متدرّبيه ومتطوعين آخرين. يقول إنه لا يعرف ما إذا سيتمكّن من إنقاذ الأم والولد. فليس معه غير أدوات طبيّة بسيطة ووحدة تشخيص صغيرة معقدة تمكّن من انتشالها عندما فرّ من منزله في سان دييغو قبل خمس سنوات. ولديه القليل من الأدوية- عقاقير لتخفيف الألم، ولمكافحة العدوى، والمحافظة على صحتنا. يقول بانكول إنه ليس متأكداً ما إذا كان الصبي سيمشي ثانية حتّى لو تمكّن من النجاة.

سيبذل بانكول قصارى جهده من أجلهما. وستعتني آلي غيلكريست وماي بالطفلتين. الفتاتان محظوظتان لأننا عثرنا عليهما. ستكونان بأمان معنا.

الآن وأخيراً صار بحوزتنا شيء كنّا بحاجته لسنوات. لدينا شاحنة.

الأربعاء، ٢٩ سبتمبر، ٢٠٣٢

بسبب كلّ العمل الذي تعيّن على بانكول القيام به لمساعدة الأم والصبي المُصابَين وجرحى آل دوفيتري، لم يتسنَ له الوقت ليصرخ

في وجهي بشأن حادثة الشاحنة، حتّى البارحة. لكنّه بالطبع لم يصرخ. ليس هذا من طبعه. وهذا مؤسف. لأنّه سيكون من السهل تقبّل اعتراضاته إذا كانت سريعة وصاخبة. لكنّه، كالعادة، كان هادئاً وصارماً.

«من المؤسف أن الكثير من مجازفاتك غير الضرورية تؤتي أُكلها»، قال لي ليلة البارحة عندما كنّا ممدّدين في سريرنا، «تعلمين أنكِ حمقاء. كأنك تعتقدين أنه لا يُمكن قتلك. رباه، يا بنت، أنتِ كبيرة بما يكفي لمعرفة الصواب».

«أردتُ الشاحنة»، قلت، «وعرفتُ أن بمقدورنا الحصول عليها. وربما بمقدورنا أيضاً إنقاذ طفل. ظللنا نسمع صوت بكاء طفل».

أدار رأسه ناحيتي ونظر إليّ لعدة ثوانٍ، كان فمه مطبقاً. «سبق وأن رأيتِ أطفالاً يُقتادون على الطرقات وهم مقيدون بالسلاسل والأطواق»، قال، «ورأيتِهم أيضاً وهم معروضون كإغراءات أمام بيوت الدعارة. هل تريدين إقناعي أنّكِ فعلتِ كلّ هذا لأنّكِ سمعتِ صوت بكاء طفل؟».

«أنا أفعل كلّ ما بوسعي»، قلتُ، «وإذا كان بوسعي فعل المزيد، فأنا لا أتوانى. أنت تعرفني».

ظلّ يتطلّع في وجهي فحسب. لو لم أكن أحبّه، لأبغضتُه في مثل هذهِ الأوقات. أمسكتُ بيده وقبّلتُها واحتضنتُها، «أنا أفعل ما بوسعي»، كرّرتُ، «كما أنني أردتُ الشاحنة».

قال: «بما يكفي للمجازفة ليس فقط بحياتك بل بحياة فريقك بأكمله، أربعة أشخاص؟».

قلتُ: «كانت المجازفة بالهروب خاليي الوفاض مساوية لمجازفة التقدّم نحو الشاحنة».

صدر منه صوتٌ يدلّ على اشمئزازه وسحَب يده. تمتم قائلاً: «والآن بات عندكِ شاحنة قديمة متداعية».

أومأتُ برأسي وقلتُ: «بات عندنا شاحنة. ونحن بحاجتها. أنت تعلم ذلك. إنّها بداية».

قال: «إنها لا تستحق المجازفة بحياة أي أحد!».

قلتُ: «لم تكلّفنا أية خسائر بالأرواح!»، جلستُ ونظرتُ إليه. كنتُ بحاجة لأن يراني بوضوحٍ قدر الإمكان في ضوء النافذة الخافت. أردتُ أن أجعله يدرك أنني جادة في ما أقوله، «إذا توجّب أن أموت»، قلتُ، «إذا أطلق الغرباءُ النار عليّ، ألا ينبغي أن يحدث ذلك وأنا أساعد المجتمع، وليس فيما أنا أحاول الهرب؟».

رفع يديه وطفق يصفّق لي تصفيقاً ساخراً. قال: «عرفتُ أنك ستقولين شيئاً من هذا القبيل. حسناً، لم أحسبكِ غبيّة قطّ. ربما مهووسة، ولكن ليس غبية. في هذه الحالة، عندي اقتراح لكِ».

جلس واقتربتُ منه ولففتُ اللحاف حولنا. اتكأتُ عليه وجلستُ أنتظر. أياً كان ما سيقوله، شعرتُ أنني عبّرت عن موقفي بوضوح. إذا أراد أن يصف تفكيري بالمهووس، فلا يهمّني.

«كنتُ أستقصي عن بعض البلدات في المنطقة»، قال، «سايلورفيل، هالستيد، كوي. البلدات التي تقع على مبعدة بضعة أميال من الطريق السريع. ولا واحدة منها بحاجة إلى طبيب الآن، ولكن ربما سيحصل ذلك في وقتٍ ما قريباً. ما رأيك بالانتقالِ للسكن في واحدة من هذه البلدات؟».

قبعتُ في مكاني بهدوء. كان جاداً. سايلورفيل؟ هالستيد؟ كوي؟ إنّها مجتمعات صغيرة جداً لدرجة أنني لا أظن أنّ كلمة بلدات تنطبق عليها. كلّ واحدة منها لا تحتوي إلّا على عدد قليل من العائلات والأعمال التجارية المتكدسة بين الطريق السريع U.S. 101 والبحر. نحن نتاجر في أسواق البالة في شوارعهم، لكنّهم مجتمعات مغلقة، هذه البلدات. يتحمّلون الزوار «الأجانب»، لكنّهم لا يحبوننا. لقد احترقَت منازلهم على يد غرباء عابرين مرّات عديدة، على يد أشخاص تبيّن أنهم لصوصٌ أو أسوأ. إنهم لا يثقون إلّا بناسِهم والمزارعين الذين جاوروهم فترات طويلة. كيف يظن بانكول أنهم سيرحّبون بنا؟ كلّ البلدات المجاورة لنا يسكنها البيض فقط، باستثناء بلدة كبيرة تدعى براتا. وبلدة براتا يسكنها البيض واللاتينيون والقليل من الآسيويين. أما نحن فخليط من كلّ ما يخطر بالبال: سود، بيض، لاتينيّون، آسيويّون، نوعية المجتمعات التي تتوقّع أن تراها في العادة في المدن الكبيرة. الأطفال الذين تبنّيناهم والذين وُلدوا داخل المجتمع يظنّون أن هذا الخليط المتنوّع شيء طبيعي. تخيّل!

أنا وبانكول أسودان كلانا، ومع ذلك، اعتدنا أن نثير اللغط بسبب فارق العمر بيننا. يحسبه الناس أبي. وعندما يصحّح لهم خطأهم إما يغمزون له أو يتجهّمون أو يبتسمون. هنا في أيكورن، حتّى إذا كان الناس لا يفهموننا، فعلى الأقل يتقبلوننا.

«أنا راضيةٌ هنا»، قلتُ، «الأرض ملكك. المجتمع لنا. بعملنا معاً، تحت قيادة بذرة الأرض، نحن نبني شيئاً جيداً هنا. سينمو وينتشر. سنحرص على ذلك. ولكن في الوقت الحالي، لا شيء في تلك البلدات يخصّنا».

«قد يكون فيها ما يخصّنا»، قال، «أنتِ لا تدركين مدى أهمية وجود طبيبٍ في مجتمع منعزل».

قلتُ: «بلى. أنا أدرك كم أنت مهمّ بالنسبة لنا».

أدار رأسه نحوي، ثم قال: «أكثر أهمية من الشاحنة؟».

«أحمق!»، قلتُ، «هل تريد مديحاً؟ طيب. اعتبر نفسك ممدوحاً. أنت تعرف كم حياة أنقذتَ، بما في ذلك حياتي».

بدا كأنه يُمعن التفكير في ذلك للحظة. «إنهم مجموعة من الشباب الأصحاء»، قال، «باستثناء المرأتين من آل دوفيتري، وحتى أولئك الذين تبنّيتِهم مؤخّراً هم أشخاصٌ أصحاء ولكن مُصابون، ليسوا مرضى. ليس بيننا من شيوخ». ثم ابتسم وتابع: «باستثنائي. ولا واحد فيهم مصابٌ بمرض مزمن باستثناء إصابة كاتارينا دوفيتري بمرضٍ قلبيّ. ولا حتّى حالة حمل مهدّدة أو طفل مصاب

بالديدان. كلّ البلدات في المنطقة تقريباً بحاجة إلى طبيب أكثر مما تحتاجه أيكورن».

قلتُ: «إنهم بحاجة لطبيب. أما نحن فبحاجتك أنت. وأيضاً، لديهم كلّ ما يحتاجونه».

قال: «كما قلتُ لكِ، لن يكونوا كذلك دائماً».

قلتُ: «لا يهمّني». جلستُ قبالته، وقلتُ: «أنت تنتمي إلى هنا. إيّاك وحتى مجرّد التفكير بالرحيل».

قال: «التفكير هو كلّ ما يمكنني فعله حيال هذا الأمر. أنا أفكّر بمكان آمن لنا، مكان آمن لكِ عندما أموت».

جفلتُ.

قال: «أنا عجوز يا بنت. لن أكذب على نفسي بهذا الخصوص».

قلت: «بانكول...».

قال: «عليّ التفكير في هذا الأمر. وأريد منكِ التفكير فيه أيضاً. افعلي ذلك من أجلي. فقط فكّري في الأمر».

٣

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

الربُّ هو التغييرُ
وفي النهايةِ
الربّ سينتصرُ.
لكن، في غضون ذلك...
الطيبةُ تُيسِّر التغييرَ.
والحبّ يهدّئُ الخوفَ.
والهاجسُ الإيجابيُّ
الحُلو والعارِم
يُسكّن الألمَ،
ويُصرّف الغيظَ
ويُشركُ كلّاً منّا
في أعظمِ
وأعتى

من: ذكريات عوالم أخرى

لا أعرف ما هي نهاية أحلام أولامينا وسعيها ويقينها. لا أذكر أنني كنتُ يوماً على يقين من أي شيء مثلما هي على يقين من بذرة الأرض، عقيدة هي ابتدعتها بنفسها- أو، كما تقول، شبكة حقائق أدركَتها ببساطة. لطالما كنتُ مشكّكاً عندما يتعلّق الأمر بالدين. فيا له من تصرف غير عقلاني أن أحبّ امرأة متعصبة دينياً. ولكن، في النهاية، الحبّ والتعصّب حالتان ذهنيتان غير عقلانيّتين.

تؤمن أولامينا بربٍّ لا يحبّها إطلاقاً. في الواقع، إلهها عبارة عن عملية أو مجموعة من العمليات، وليس كياناً. وهو غير مُدركٍ لوجودها عن وعي -أو لوجود أيّ شيء. إنه لا يملك وعياً إطلاقاً. «الربّ هو التغيير»، تقول هذا وتعنيه. بعضُ وجوه إلهها هي التطوّر البيولوجي، نظرية الفوضى، نظرية النسبية، مبدأ اللايقين، وبالطبع، القانون الثاني للديناميكية الحرارية. «الربّ هو التغيير، وفي النهاية، الربّ سينتصر».

مع ذلك، فأن بذرة الأرض ليست عقيدة قَدَرية. يُمكن توجيه الربّ، تركيزه، تسريعه، إبطاؤه، تصويره. كلّ الأشياء تتغير، ولكن لا تحتاج كلّ الأشياء إلى التغيير بكل الطرق. الربّ غير رحيم، ومع ذلك فهو مطواع. غريب. يكاد ألّا يكون دينياً. وحتى مصير بذرة الأرض يبدو وكأن لا علاقة له بالدين.

«نحن بذرة الأرض»، تقول أولامينا، «نحن أبناء الرب، مثلما أن كلّ أشطر الكون هم أبناء الربّ. لكننا أولاً وقبل كلّ شيء أبناء أرضنا هذه». يكمن أصل المصير بين هذهِ الكلمات. إنه ذلك الجزء الواعي من البشرية، الذي يعرف أنّه هو بذرة الأرض، والذي يقبل أن مصيره بكل بساطة هو أن يحاول ترك رحِم أمّه، الأرض، ليولد، كما ينبغي على كلّ صغار الكائنات الحية أن تفعل في النهاية.

بذرة الأرض هي مساهمة أولامينا التي تشعر أنّها يجب أن تكون جهداً جماعياً على مستوى البشرية لتجنّب أو على الأقل لإطالة دورة التخصص -النمو- الموت التطوّرية التي تواجهها البشرية، التي تواجهها كلّ الكائنات الحية.

تقول: «إما أن نصبح نجاحاً طويل الأمد، وآباء لمجموعة واسعة التنوع من الشعوب الجديدة، والأجناس الجديدة. أو نصبح مجرد جهيض آخر. يمكننا، بل يجب علينا، نثر الجوهر الحيّ للأرض -البشر، النباتات، الحيوانات- في عوالم خارج نظامنا الشمسي: لأن مصير بذرة الأرض أن تمدّ جذورها بين النجوم».

كلمات كبيرة.

إنها تأمل وتحلم وتكتب وتؤمن، وربّما سيدعها العالم تعيش لفترة، يتسامح معها باعتبارها غريبة أطوار لا تحمل الضرر. آمل أن يكون كذلك. ولكن أخشى العكس.

لقد عرّف أبي في هذا المقطع بذرة الأرض بنحو ممتاز، وبعدد أقل من الكلمات ممّا كنتُ سأفعل. عندما كانت أُمّي طفلة، محمية ومسجونة داخل سور حيّها، حلمَت بالنجوم. حرفياً، كانت تحلم بها في الليل. وكانت تحلم بالطيران. لقد رأيتُها تذكر أحلامها عن الطيران في كتاباتها المبكّرة. كانت تحلم بهذِهِ الأشياء، سواء أكانت نائمة أم مستيقظة. بحسب اعتقادي، هذا ما كانت تفعله عندما ابتدعت مصير بذرة الأرض وآيات بذرة الأرض خاصّتها: لقد كانت تحلم. كلنا بحاجة إلى الأحلام -خيالاتنا- لتُعيننا على اجتياز الأوقات الصعبة. لا ضرر في هذا طالما أنّنا لا نبدأ في الخلط بين الخيال والواقع كما حصل معها. يبدو أنّها كانت تشكّك في نفسها بين الحين والآخر، لكنّها لم تشكّك في الأحلام قط، لم تشكّك في بذرة الأرض قطّ. أما أنا فمِثل أبي، لا أستطيع الشعور بالأمان تجاه أي دين. وهذا شيء غريب بالنظر إلى نشأتي، ولكن هذه هي الحقيقة.

لكنني رأيتُ العاطفة الدينية في أناس آخرين؛ حبّ ربّ رحيم، الخوف من ربّ غاضب، الصلوات الجزيلة والتوسلات الحرّى لربّ يُجازي ويعاقِب. كلّ هذا يجعلني أتساءل كيف يمكن لنظام عقائدي كبذرة الأرض -متطلّب جدّاً وفي نفس الوقت لا يقدّم غير عزاء شحيح من هذا الإله غير المبالي تماماً- أن يُلهم الولاء أصلاً.

في بذرة الأرض ما من حياة آخروية موعودة. جنّة بذرة الأرض حرفية، مادية؛ عوالم أخرى تدور حول النجوم. إن بذرة الأرض تعِد أتباعها بخلود يأتي فقط من خلال أولادهم، من خلال عملهم،

من خلال ذكرياتهم. بالنسبة للجنس البشري، يمكن الفوز بالخلود فقط من خلال زرع بذرة الأرض في عوالم أخرى. إنّها لا نعِد بقصورٍ للعيش فيها، ولا أنهارٍ من اللبن والعسل لشربها، ولا السلوان الأبدي في نيرفانا ما. إنّها تعِد بعملٍ شاقّ وإمكانيات وصعوبات وتحديات وتغييرات جديدة كُلياً. ويبدو أنّ هذا مغرٍ جداً لبعضهم. كانت أُمّي شخصية مغوية جداً.

ثمة آية في بذرة الأرض تقول:

الربّ إلهنا هو التغيير.
الربّ لا نهائي
لا يُقاوَم
لا يرحم
لا يُبالي.
الرب مخادع
معلّم
فوضى
صلصال
الربّ إلهنا هو التغيير.
حذارِ:
الربّ موجود حتّى يصوِّر
ويَصَّوَّر.

هذا ربّ مرعبٌ، لا يعرف الصفح، بلا ملامح، ومع ذلك فهو مرنٌ وديناميكي للغاية. أفترض أنه سيتخذ ملامح أمّي قريباً. اسمها الثاني هو «أويا». أتساءل ماذا جرى لعقل جديّ القسّ المعمداني ليسمّيها بهذا الاسم. ماذا رأى فيها؟ «أويا» هو اسم أوريشا نيجرية -إلهة نيجرية- عند شعب اليوروبا. في الحقيقة، أويا هي الإلهة الراعية لنهر النيجر، وهي كيان ديناميكي خطير. وهي أيضاً إلهة الريح والنار والموت، التي تجلب التغييرات الكبرى.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الاثنين، ٤ أكتوبر، ٢٠٣٢

توفّيت كريستا نوير اليوم.

هذا هو اسمها: كريستا كوسلو نوير. لم تستعِد وعيها إطلاقاً. ظلت في غيبوبة عميقة منذ أن عثرنا عليها مضروبة ومغتصَبة ومصابة بأعيرةٍ نارية وممدّدة عارية في الشاحنة. أبقيناها وابنها الجريح معاً في العيادة. انتقل آل دوفيتري خمستهم للعيش مع جيف كينغ وأطفاله، ولكن بدا أن من الأفضل إبقاء كريستا نوير وابنها في العيادة.

زهرا بَيكر وآلي غيلكريست قدّمتا يد المساعدة في تنظيفهما، وعاونتا بانكول في نزع خمس رصاصات من جسديهما؛ رصاصتين من الأم وثلاث من الابن. عملت زهرا وآلي مع بانكول لفترة أطول من مايك وناتيفيداد. ليستا طبيبتين، بالطبع، لكنهما تعرفان الكثير. يقول بانكول إنهما الآن يمكن أن تعملا ممرّضتين ممارستين.

لقد بذل قصارى جهده من أجل آل نوير، هو، وأربعة من معاونيه، وآخرون قدّموا رعاية تمريضية تطوعية. بعد العملية الجراحية التي أجرتها كريستا نوير، تناوبَت على رعايتها وتلبية كلّ احتياجاتها كلّ من زهرا وناتيفيداد وآلي ونوريكو كاردوس وشانا رايان وتيريزا لين. أوصى بانكول أن تتولى رعايتها النساء فقط، في حال استعادت وعيها. لأنه ظن أن وجود رجال غرباء بقربها سيثير رعبها.

أظن أنه مصيب. يا للمرأة المسكينة.

على الأقل كان ابنها بقربها عندما توفيت. كان يرقد في السرير المجاور لها، وأحياناً يمدّ يده ليلمسها. لم يكن يفصل بينهما غير ستارة مخاطةٍ يدوياً نلجأ لها عندما يتعيّن القيام بأمر خصوصي لأحدهما. لم تكن الستارة تفصل بينهما عندما توفيت كريستا.

اسم الصبي دانتون نوير، الابن. كان يرغب بمناداته دان. أحرقنا جثمان دانتون نوير، الأب، حالما جئنا به إلى أيكورن. والآن يتوجّب علينا إحراق جثمان زوجته. سنقيم تأبيناً من أجلهما كليهما عندما يتعافى دان.

الأحد، ١٧ أكتوبر، ٢٠٣٢

أقمنا تأبيناً مزدوجاً اليوم من أجل دانتون نوير الأب وزوجته كريستا.

تحت رعاية بانكول، بدأ دان نوير يتعافى. ساقاه وكتفه في طور الشفاء، ويمكنه المشي قليلاً. قال له بانكول إن الفضل لليرقات في ذلك. فهذهِ الكائنات الصغيرة المقززة حافظت على نظافة جروحه لأنها أكلت كلّ الأنسجة الميتة، كما أنّها لم تسبب أي ضرر. هذا النوع من اليرقات بالذات لا تأكل الأنسجة الحيّة السليمة. بل تأكل الأنسجة الميتة التي تتعفّن وتسبب الغنغرينا، ومن ثم، إذا لم تتمّ إزالتها فأنها تتحول وتطير.

أما الطفلتان الصغيرتان كاسيا وميرسي، فقد توجّب علينا في البداية إبقاؤهما في الداخل لكي لا تهربا. لم يكن عندهما مكان لتذهبا إليه، لكنهما كانتا خائفتين ومشوّشتين لذا ظلتا تحاولان الهرب. وعندما سُمح لهما بزيارة شقيقهما توجّب علينا أن نُبقيهما بعيداً عنه كي لا تؤذيانه. ولولا أن ماي وآلي أوقفتاهما، لركضتا نحوه وتكوّمتا فوقه على السرير طلباً للطمأنينة والأمان. يبدو أن ماي هي أفضل من يتفاهم معهما. وبدا أنّهما تبنّيتا المرأتين -والعكس صحيح- ولكن يبدو أنهما تكنّان مودّة خاصة حيال ماي.

عزيزتنا ماي كأنها لغزٌ. أنا أعلّمها الكتابة لكي تتمكّن يوماً ما من إخبارنا بقصّتها. تبدو كأنها لاتينية، لكنها لا تعرف اللغة الإسبانية. تفهم اللغة الإنجليزية، لكنّها لا تحسن الحديث بها فيه الكفاية لكي نفهمها معظم الأحيان. ذلك لأن أحدهم قطع لسانها قبل أن تنضمّ إلينا.

لا نعرف من فعل ذلك. سمعتُ أن قمع النساء يزداد تطرفاً في

البلدات ذات الميول الدينية المتعصبة. المرأة التي تعبّر عن رأيها، التي «تتذمر»، التي تعصي أوامر زوجها، أو التي «تدوس على أنوثتها» و«تتصرف كالرجال»، تُعاقب بحلق شعر رأسها، أو بوسم جبينها، أو بقطع لسانها، أو في أسوأ الأحوال برجمِها حتّى الموت أو أن تُحرق. سمعتُ عن هذهِ الأمور. لكن ماي أول مثال أصادفه؛ هذا إذا كانت مثالاً. يسعدني قول إن جرحها الفظيع قد تماثل للشفاء بحلول الوقت الذي قدِمت به إلينا. نحن لسنا متيقّنين أن اسمها الحقيقي هو ماي. ولكن يمكنها نطق كلمة «ماي»، وتسمح لنا بمناداتها بهذا الاسم. كان من الجليّ أنّها تحبّ الأطفال وتنسجم معهم. أما الآن مع طفلتَي آل نوير، يبدو الأمر كما لو أن عندها عائلة. تشاركَت كوخاً مع آلي غيلكريست وابن آلي بالتبنّي جاستن لمعظم السنة. لذا أعتقدُ أنه ينبغي علينا الآن إما توسعة كوخ آلي أو بناء كوخ جديد. في الحقيقة، يتعيّن علينا بناء كوخين جديدين أو ثلاثة. آل سكولاري سيحظون أولاً بكوخٍ جديد. لأنهم قضوا وقتاً طويلاً محشورين مع آل فيغارو في نفس الكوخ. يليهم آل دوفيتري، يليهم طفلتَي آل نوير وماي.

يقيم دان نوير مع هاري وزهرا بالتر وأطفالهما، بعد أن تعافى بقدرٍ كافٍ يسمح له بالحركة بمفرده. كان من الأفضل إخراجه من العيادة في أسرع وقت ممكن بعد وفاة أمه. ماي تتشارك غرفتها مع الطفلتين، لذا بحث بانكول عن مكان آخر من أجل دان. وقد تطوّع آل بالتر. أضف إلى ذلك، ماي متقمّصة، ودان لا يزال يشعر

بنوبات من الألم. إنه لا يشتكي، لكن ماي ستنتبه لألِمِه. أنا أنتبه لألِمِه عندما أكون بالقرب منه. ما من أحد من آل بالتر مصاب بمتلازمة فرط التقمّص العاطفي، لذا يمكنهم رعاية المُصابين من دون أن يطالهم الألم.

كانت الأسابيع القليلة الماضية حافلة. قمنا بعدة دوريات نبش بواسطة الشاحنة وجمعنا أغراضاً لم يكن بوسعنا جمعها بكميات من قبل، مثل: الأخشاب، والحجر، والطوب، والملاط، والإسمنت، وأدوات السباكة، والأثاث، والمواسير من أنقاض مهجورة بعيدة ومن أنقاض مزرعة آل دوفيتري. نحن بحاجة لكل هذهِ الأشياء. صار عددنا ٦٧ فرداً بحساب آل نوير. مجتمعنا ينمو بسرعة.

مع ذلك، وبطريقة أخرى، ما زلنا نتقدّم ببطء. نحن لسنا أيكورن فقط، نحن أيضاً بذرة الأرض، وما زلنا إلى الآن مجرد مجتمع وحيد صغير بين التلال، أفراده محشورون في عدد قليل جداً من الأكواخ، ونعيش في ما يشبه حياة من القرن التاسع عشر. الشاحنة ستُزيد من راحتنا بالفعل، ولكن... هذا لا يكفي. أعني، ربما يكون هذا كافياً لأيكورن، لكنّه ليس كافياً لبذرة الأرض.

ولا يعني هذا أنني أدّعي أنني أعرف ما سيكون كافياً. لأن الشيء الذي أسعى لبنائه جديدٌ تماماً وواسع جداً! وأنا لا أعرف كيفية بنائه، ليس هذا فقط، بل أيضاً لستُ متأكدة أصلاً من هيئته عندما أبنيه. أنا أتحسّس طريقي، باستخدام كلّ ما يمكنني فعله، وكل ما يمكنني تعلمه لأخطو خطوة أخرى إلى الأمام.

ومن أجل أرشيف بذرة الأرض الناشئ، إليكم ما عرفته إلى الآن عمّا حصل لآل نوير. لقد تحدّثت مع كاسيا وميرسي عدّة مرّات. وعلى مدار الأيام الثلاثة الماضية، أخبرني دان بكل ما يمكنه تذكره. بدا كأنه بحاجة إلى الحديث، بالرغم من كلّ آلامه، لكنه يبدو أفضل حالاً عندما أكون بقربه، لأنني أحرص على أن يعطيه بانكول دواءه. ولكنه عندما يظلّ وحده يبدو وكأنه راضٍ بتحمّل الألم. حسناً، لا حرج في أن تكون جَلِداً عندما يجب عليك ذلك، ولكن يكفي العالم ما فيه من عذاب محتوم. فلمَ تتحمّل العذاب وأنت لستَ مضطراً لذلك؟

جاء آل نوير من مدينة فينيكس في ولاية أريزونا، حيث الماء والطعام هناك أغلى حتّى من منطقة لوس أنجلوس. كانوا يمتلكون منزلين، باعوهما، وباعوا أيضاً أرضاً شاغرة، وأثاثهم، ومجوهرات كريستا نوير، باعوا كلّ ما يُمكن بيعه للحصول على المال الكافي لشراء وتجهيز شاحنة منزلية مسلّحة ومدرّعة وكبيرة بما يكفي لمنام سبعة أشخاص. كان الهدف من الشاحنة هو نقل العائلة إلى ألاسكا، وأن تكون بمثابة منزل هناك إلى أن يحصل الأبوان على عمل واستئجار مسكن. ألاسكا وجهة شائعة أكثر ممّا مضى في هذه الأيام. عندما غادرتُ جنوب كاليفورنيا، كانت ألاسكا حلماً شائعاً، جنّة تقريباً. ناضل الناس للوصول إليها، آملين الحصول على مكان لا يزال حضارياً، فيه وظائف، وسلام، ومساحة لتربية أولادهم بأمان، مكان يُمكن فيه العودة إلى عالم العصر الذهبي الأسطوري لمنتصف

القرن العشرين. توقّعوا ألا تكون هناك عصابات ولا عبوديّة ولا أحياء عشوائية فقيرة تنمو كالأورام السرطانية على الأرض، ولا فوضى. توقّعوا أن يجدوا أراضيَ كافية تسع الجميع، ومناخاً دافئاً، وماء رخيصاً، والكثير من المدن جديدة وقديمة، مخصخصة وحرّة، متلهفّة لقدوم سكان جدد يعملون بجدّ. جنّة كما قلت.

إذا كان ما سمعتُه من المسافرين صحيحاً، فأن القلّة الذين تمكّنوا من الوصول إلى هناك - ممن تحصّلوا على مقعدٍ في سفينة أو طائرة، أو قطعوا مشياً أو بالسيارة مئات بل ربما آلاف الأميال، ثم تسللوا بطريقة ما عبر الحدود الكندية المغلقة إلى حدود كندا - ألاسكا المغلقة هي أيضاً؛ لم يجدوا أي ترحيبٍ إطلاقاً.

وفي العام الماضي، أعلنت ألاسكا نفسها دولة مستقلة، بعد أن سئمت القوانين والقيود الصادرة من العاصمة واشنطن البعيدة جداً عنها، وبعد أن زادت من إرهاقها الموجات المتدفقة من الفقراء المتفائلين. أعلنت انفصالها عن الولايات المتحدة. هذهِ أول مرّة منذ الحرب الأهلية تُعلن ولاية انفصالها. ظننتُ أن حرباً أهلية أخرى ستقوم بسبب هذه المسألة، نظراً إلى الطريقة التي يتوعّد بها الرئيس دونر وحاكم ألاسكا -أو بالأحرى رئيس ألاسكا- ليونتيف كلّ منهما الآخر. ولكن يبدو أن لدى الرئيس دونر ما يكفي من المشاكل هنا في الداخل لإبقائه منشغلاً، بالإضافة إلى أن فكرة شنّ حرب على دولة مجاورة لم ترُق كثيراً لا لكندا ولا لروسيا، اللتين كانتا ترسلان لنا الغذاء والمال. التهديد الوحيد الحقيقي بقيام حرب

أهلية هو من أندرو ستيل جاريت إذا ما فاز بالانتخابات الرئاسية الشهر القادم.

على أيّة حال، بالرغم من كلّ المخاطر، فأن أناساً من مثل آل نوير، متفائلين ومستميتين، ما زالوا يتوجّهون إلى ألاسكا.

كانت عائلة نوير تضم سبعة أفراد قبل أيام من عثورنا على الشاحنة. هنالك كريستا الأم، ودانتون الأب، كاسيا وميرسي اليتيمتان بعمر السابعة والثامنة، باولا ونينا اللتان تبلغان اثني عشر وثلاثة عشر عاماً، ودان الابن البكر. يبلغ دان خمسة عشر عاماً، كما خمّنتُ أول ما رأيته. إنه فتى ضخم أشقر بوجهٍ طفوليّ. كان أبوه نحيلاً بشعر داكن اللون. وقد ورث ملامحه وضخامة جسده من أمّه الضخمة الشقراء، أما الطفلتان الصغيرتان فكانتا نحيلتين بشعر داكن اللون، مثل دانتون الأب. يكاد طول الصبي أن يبلغ المترين تقريباً؛ عملاق شاب يتمتّع بحسّ الابن البِكر المسؤول عن شقيقاته. ومع ذلك فهو كأبيه لم يتمكّن من حماية نينا وباولا من الاغتصاب والاختطاف قبل ثلاثة أيام من عثورنا على الشاحنة.

اعتاد آل نوير على ركن الشاحنة في بقعة معزولة مشمسة كالجانب الجنوبي من تلك العزبة المحترقة المهجورة. فهناك يمكنهما ترك الأولاد يقضون بعض الوقت في الخارج فيما يقومان بتنظيف وتهوية الشاحنة. ويمكنهما فتح الألواح الشمسية للشاحنة ونشرها لكي تقوم الشمس بإعادة شحن البطاريات. وقد اعتمدوا على الطاقة الشمسية قدر الإمكان لتوفير المال. وهذا يعني القيادة ليلاً

وإعادة الشحن نهاراً، الأمر الذي كان في صالحهم لأن الناس اعتادوا المشي على الطرق السريعة خلال النهار. المشي على الطرق السريعة ممنوع قانونياً في كاليفورنيا، لكن الجميع يفعلون ذلك. أصبح عرفاً شائعاً الآن أن المُشاة يتنقلون نهاراً فيما تتنقل السيارات والشاحنات ليلاً. لا تتوقف المركبات من أجل أي شيء ما لم يكن شيئاً يمكنه تحطيمها. لقد رأيتُ ما قد يكونون قطّاع طرق وهم يُدهسون. لا أحد يتوقف.

لكنّهم خلال النهار كانوا يركنون المركبات طلباً للراحة وللتزود بالوقود.

أبقى دانتون وكريستا الأولاد قريبين منهما، لكنّهما لم يضعا أي أحدٍ للحراسة. لقد ظنّا أن مكانهما المعزول وحذرهما المعتاد كافيان لحماية العائلة. لكنّهما كانا على خطأ. فبينما كانا مشغولين بتنظيف الشاحنة، تسلّل عدّة رجال من النقطة العمياء -جهة الشمال- بحيث أن المدخنة التي لم تخفِهم خلفها كُلّياً، قد حجبت الرؤية. من المحتمل أن هؤلاء الرجال قد رصدوا الشاحنة من أعلى أحد التلال، ثم استداروا لمهاجمتهم. هكذا اعتقد دان.

استدار المتسلّلون من وراء الجدار وما هي إلّا لحظة حتّى فتحوا النار على العائلة. باغتوا آل نوير سبعتهم خارج الشاحنة. أصابوا دانتون نوير الأب، كريستا، ودان. أما ميرسي التي كانت الأقرب إلى الشاحنة فقد قفزت إلى داخلها واختبأت خلف صندوق يحتوي على كتب وأقراص. تمكّن المتسلّلون من القبض على الفتيات

الثلاث الأخريات، لكنّ نينا كُبراهنّ صرفت انتباههم وشوّشتهم بكل ما قامت به من ركل وعضّ وخمش ومقاومة وتحرّر ومن ثم إلقاء القبض عليها ثانية، بحيث تمكّنت كاسيا من التحرّر من قبضة خاطفيها للحظة وهرعت عائدة إلى الشاحنة. قامت كاسيا بما لم تقم به ميرسي. أغلقت باب الشاحنة خلفها وأقفلتها، أقفلت كلّ الأبواب.

بمجرد قيامها بذلك، كانت في أمان أكثر ممّا ظنّت. أطلق المهاجمون نيران أسلحتهم على دروع الشاحنة وإطاراتها. كل الدروع والإطارات أصيبت بخدوش، لكنّها لم تُثقب، لم يتسببوا بأضرار جسيمة إطلاقاً. ثم أضرم المهاجمون النار في أحد جوانب الشاحنة، لكن النار انطفأت دون إحداث أي ضرر.

بعد مرور ساعات ذهب الرجال.

قالت الفتاتان إنهما قامتا بتشغيل شاشات المراقبة في الشاحنة ونظرتا في الأرجاء. لم تجدا المتسللّين، لكنّهما ظلّتا خائفتين. انتظرتا فترة أطول. لكن كان من المروع الانتظار بمفردهما في الشاحنة، فيما تجهلان ما يُمكن أن يحصل خارج نطاق شاشات المراقبة؛ ربما على الجانب الآخر من جدار المدخنة. ولم يكن ثمّة من أحدٍ ليعتني بهما، وما من أحد تلجآن إليه. في النهاية، كان البقاء في الشاحنة بمفردهما أمراً أكثر من طاقتهما على التحمل. فتحتا الباب الأقرب إلى جثث والديهما وشقيقهما الكبير المطروحة على الأرض.

غادر المهاجمون. أخذوا معهم الفتاتين الأكبر سناً. وجدت كاسيا

وميرسي دانَ وأبويهما في الخارج. عاد دان إلى وعيه، كان جالساً على الأرض، ورأس أمه في حجره، يمسد وجهها وهو يبكي.

تظاهر دان بالموت عندما كان المهاجمون هنا. لم تبدُر منه أيّة علامة على كونه على قيد الحياة، حتّى عندما ركلَه واحد من المتسللين. إنه جَلِدٌ بالفعل. سمعهم وهم يحاولون الدخول إلى الشاحنة. سمعهم يشتمون، يضحكون، يصيحون، سمع لاثنتين من شقيقاته صراخاً لم يُسمع مثله من قبل قطّ. سمع قلبه يخفق. ظنّ أنه سيموت، سينزف على التراب حتّى الموت فيما يقتلون عائلته. لكنه لم يمُت. فقد وعيه واستعاده أكثر من مرة. فقد إحساسه بالوقت. كان المتسللون هناك، ثم غادروا. كان يسمعهم، ثم لم يعُد يسمعهم. كانت اخواته هنا، يصرخن، ويبكين، وينُحن، وفجأة صمتن.

تحرّك. ثم استطاع الجلوس وهو يلهث ويئنّ من الألم. آلمته ساقاه عندما حاول النهوض فأطلق صرخة عالية وسقط أرضاً ثانية. كان عقله مشوشاً من الألم ونزيف الدم والرعب. تطلّع حوله باحثاً عن عائلته. هنا، بقرب ساقيه، تمدّدت أمّه على الأرض غارقة بدمائها ودمائه.

جرجر نفسه نحوها، ثم جلس واضعاً رأسها في حجره. لا يعرف كم انقضى عليه من الوقت وهو جالس في مكانه ذاهب العقل. فجأة، وإذا بأختيه الصغيرتين تهزّانه وتتحدّثان إليه.

حدّق فيهما. استغرق وقتاً طويلاً ليُدرك أنهما كانتا بالفعل أمامه، على قيد الحياة، وخلفهما كانت الشاحنة مفتوحة الباب. ثم أدرك أنه

يتعيّن عليه إدخال والديه إلى الشاحنة. وعليه قيادة الشاحنة على الطريق السريع إلى أقرب بلدة فيها مشفىً أو على الأقل طبيب. كان يخشى أن والده قد مات، لكنه لم يكُن متأكداً. علم أن والدته لا تزال على قيد الحياة. بوسعه سماعها تتنفّس. تحسّس نبضاً في رقبتها. يجب عليه الحصول على مساعدة من أجلها.

بطريقة ما، تمكّن من حملهما إلى الشاحنة. كان ذلك عملاً طويلاً وبطيئاً وفظيعاً. آلمتهُ ساقاه. شعر بضعف شديد. لقد كبُر بسرعة، وشعر بالفخر لأنه صار بحجم وقوّة رجل ناضج. أما الآن فيشعر وكأنه ضعيف كطفل، وما أن تمكّن من سحل أبويه إلى داخل الشاحنة، حتّى خارت قواه ولم يعُد بإمكانه الجلوس في مقعد السائق والقيادة. لم يكن بوسعه الحصول على مساعدة من أجل أبويه أو البحث عن أختيه المختطفتين. يجب عليه ذلك، ولكن لا يمكنه. انهار على الأرضية عاجزاً عن الحركة. فقد وعيه. اختفى كلّ شيء.

كانت هذهِ قصةً مألوفة؛ مروّعة واعتيادية. كلّ واحد تقريباً من أفراد مجتمع أيكورن لديه قصة مروعة واعتيادية ليرويها.

اليوم أعطينا أبناء آل نوير شتلات بلوط ليزرعوها في الأرض التي اختلطت برماد والديهم. نحن معتادون على القيام بهذه المراسيم في ذكرى أمواتنا، الحاضرين والغائبين. ما من رماد لأي أحد من أفراد عائلتي هنا، لكنني قبل خمس سنوات عندما قررنا العيش هنا، زرعتُ أشجاراً في ذكراهم. وفعل آخرون المثل من

أجل أمواتهم. رماد نينا وباولا ليس هنا بالطبع. وقد لا تكون نينا وباولا ميتتين أصلاً. مع ذلك سنقوم بتأبينهما إلى جانب أبويهما. بمجرد أن فهم دان المراسيم، طلب شجرتين من أجل نينا وباولا بالإضافة إلى والديه.

قال: «أستيقظُ في بعض الليالي وأجدُني أسمع صراخهما، وأسمع أولئك الأوغاد يضحكون. يا إلهي.. لا بدّ من أنهما ميّتان. ولكن ربما ما زالتا على قيد الحياة. لا أعرف. أحياناً أتمنى لو أنهما ميتتان. يا إلهي».

اتصلنا بجيراننا وأصدقائنا في البلدات المجاورة بشأن نينا وباولا. تركنا اسميهما وأوصافهما (بالاعتماد على توصيف دان)، وعرضنا مكافأة بالعملة الصعبة؛ العملة الكندية. بيدَ أنني أشكّ أن أياً من ذلك سيُجدي نفعاً، ولكن ينبغي علينا المحاولة. هذا لا يعني أنّنا نمتلك وفرة من المال بالعملة الصعبة لنبدّده هنا وهناك، ولكن لأننا حريصون للغاية، فقد تمكنّا من جمع بعض المال. لا أُخفيكم الحقيقة، سأحاول شراء الفتاتين حتّى لو لم تكن الشاحنة بحوزتنا. ليس الأمر سيّان؛ معرفتك بوجود أطفال على الطرقات وفي البلدات يُجبَرون على المعاناة من أجل لذّة شخص آخر، ومعرفتك أن أختين لأطفال تعرفهم وتحبهم تُجبران على المعاناة. ولكن هناك الشاحنة. وهذا سبب إضافي لنفعل ما بوسعنا من أجل أطفال آل نوير.

حملنا دان على نقّالة ليحضر مراسم الجنازة. يمكنه الوقوف والمشي. يُلزمه بانكول بإداء القليل من التمرينات يومياً. لكنّه لا

يزال غير قادر على الوقوف أو الجلوس لفترات طويلة. وضعناه بالقرب من الشُجيرات الفتيّة النحيلة التي زرعها بانكول قبل خمس سنوات في ذكرى أخته وعائلتها، الذين سكنوا المكان قبلنا. لقد قُتلوا قبل وصولنا. وأُحرقت جثثهم مع منزلهم. كلّ ما وجدناه بعض العظام المتفحّمة وخاتمين. دفنّاهم تحت الشجيرات حيث يقف دان لحضور الجنازة.

زرعت الفتاتان الشتلات تحت إشرافنا ولكن دون تدخّل منّا. قامتا بكل العمل بأيديهما. ربما زرعُ الشتلات في أرض مختلطة بالرماد لا يعني الكثير الآن، لكنهما ستكبران وهما تعرفان أن رفات والديهما هنا، وهناك شجرٌ حيّ ينمو من تلك الرفات، وأن هذا المجتمع صار منذ اليوم ديارهما.

حملنا دان بالنقّالة لكي يتمكّن من استخدام مجرفة الحديقة وإناء السقي، وتركناه يزرع شتلاته بنفسه. هو أيضاً قام بما يتوجب عليه فعله من دون مساعدة منا. هذه الطقوس مهمة بالنسبة إليه. كانت شيئاً بوسعه القيام بهِ من أجل أُختيه ووالديه. كان هذا كلّ ما بوسعه القيام به.

عندما انتهى، تلا الصلاة الربانية. كانت هذه الصلاة الرسمية الوحيدة التي يعرفها. كان آل نوير مسيحيّين شكلياً، أمّاً كاثوليكية وأباً أسقفياً وأولاداً لم يدخلوا كنيسة قطّ.

أقنع دان أختيه بإنشاد أغانٍ بالبولندية؛ أغانٍ تعلمتاها من الأم. لا أحد منهم يتحدّث اللغة البولندية، وهو أمر مؤسف. إذ

يُسعدني دائماً أن نتعلّم لغة أخرى. لا أحد في عائلتهم يتحدّث اللغة البولندية باستثناء كريستا، التي جاءت مع والديها من بولندا فراراً من الحرب والمجهول في أوربا. والآن انظروا فيمَ ورطت الأم المسكينة نفسها.

شرعت الفتاتان بالغناء. وبالرغم من صغر سنّهما، لكنّهما كانتا تمتلكان صوتين واضحين وعذبين. غناؤهما يبعث على البهجة. لا بدّ من أنّ أمّهما قد أحسنت تعليمَهما. عندما انتهى الغناء، وسُقيَت كلّ الشتلات، تقدّم بعض أفراد المجتمع ليُلقوا بعض الآيات من بذرة الأرض، والكتاب المقدس، وكتاب الصلاة المشتركة، وكتاب البهاغافاد غيتا، وأشعار جون دون[1]. حلَّت المقاطع المقتبسة من هذهِ الكتب محلّ الكلمات التي يقولها عادة الأصدقاء والعائلة في تأبين موتاهم.

ثم تلوتُ آيات بذرة الأرض التي اعتدنا تلاوتها في الجنائز، وفي تأبين الموتى، افتتحتُها بعبارة «الربّ هو التغيير».

كرّر آخرون من بعدي بأصواتٍ ناعمة، «الربّ هو التغيير. صوّروا الربّ». لقد نشأَت بيننا عادة التكرار والاستجابة من تلقاء نفسها تقريباً. لأننا، ويؤسفني القول، أقمنا الكثير من الجنازات خلال الفترة الوجيزة التي وُجد فيها مجتمعنا بحيث أن هذه المراسم

(١) كتاب الصلاة المشتركة: كتاب صلاة الكنيسة الأنغليكانية. البهاغافاد غيتا: الكتاب المقدس في الديانة الهندوسية. جون دون: شاعر إنجليزي وواعظ من القرن السابع عشر.

بالذات غدَت مألوفة للغاية. ففي الأسبوع الماضي زرعنا شتلات وأقمنا تأبيناً من أجل آل دوفيتري. قلتُ:

نمنح موتانا
إلى البساتين
والرياض.
نمنح موتانا
إلى الحياة.

توقفتُ برهة، أخذتُ نفساً عميقاً، وتابعتُ بنبرة بطيئة موزونة:

الموت
تغيير عظيم،
إنه التغيير الأعظم في الحياة
نحن نكرّم أحبابنا الموتى.
وفيما نخلط جوهرهم بتراب الأرض،
نتذكّرهم،
فيعيشون
داخلنا.

«نحن نتذكّرهم فيعيشون»، همس الآخرون. وقفتُ بصمتٍ لوهلة، أحدّقُ باتجاه الأشجار الباسقة للكاكي والأفوكادو والحمضيات. لقد زرعَت أخت بانكول وزوجها هذه الأشجار، جلباها كشتلات من جنوب كاليفورنيا، وقد ظنّا أنّها لن تصمد

في هذا المناخ الأبرد. وبحسب قول بانكول، فإن الكثير من هذهِ الأشجار قد ماتت بالفعل، ولكن بعضها نجا عندما تغير المناخ وصار دافئاً. اشتكى جيراننا الذين عاشوا هنا لفترة طويلة من الافتقار إلى الضباب والمطر ودرجات الحرارة المنخفضة. أما نحن فلم ننزعج، نحن القادمين من جنوب كاليفورنيا. بالنسبة لنا كان الأمرُ كما لو أنّنا عدنا إلى نسخة أخرى ألطف من الديار التي أُجبرنا على تركها. هنا، لا يزال ثمّة ماء، وأراض واسعة، وحرارة ليست بالمرهقة، وبعض السلام. هنا، لا يزال بوسع المرء أن يمتلك بساتين ورياضاً. هنا، يُمكن للحياة أن تولد من الموت.

عادت الفتاتان للجلوس مع ماي. احتضنَت ماي الطفلتين الصغيرتين ذاتي الشعر الداكن، أحاطت كلّ واحدة منهما بذراعٍ. وجلسن ثلاثتهنّ في صمتٍ وقور للاستماع.

ثم بدأتُ بتلاوة آيةٍ جديدة، ترنيمة تقريباً:

العتمةُ
تصوّرُ الضوءَ
فيما الضوءُ
يصوّرُ العتمةَ.
الموتُ
يصوّرُ الحياةَ،
فيما الحياةُ

تصوّر الموتَ.
الكونُ
والربُّ
يتشاركانِ هذا التكامل
كلٌّ منهما
يعرّف الآخرَ.
الربُّ
يصوّرُ الكونَ
فيما الكونُ
يصوّر الربّ.

ثم بعد لحظة من الصمت، ألقيتُ الكلمات الختامية الأخيرة:

عشنا قبلاً
وسنعيشُ ثانية
سنكونُ حريراً،
صخراً،
عقلاً،
نجماً.
سنتشتّتُ،
ونتجمعُ،
نُسبَكُ،

نُستَرُ.
سنعيشُ
وسنخدمُ الحياةَ.
سنصوّر الربَّ
والربُّ سيُصوّرنا.
مراراً وتكراراً
وإلى الأبد.

ردّد بعضهم الكلمات الأخيرة همساً. ردّدَت زهرا بصوتٍ ناعم لا يكاد يُسمع:

الربُّ هو التغييرُ
وفي النهايةِ
الربُّ سينتصرُ

وضع زوجُها هاري ذراعه حولها، ورأيتُ عينيها تلمعان بدموعٍ غير مسفوحة. قد تكون هي وهاري أكثر أفراد المجتمع ولاءً وأقلّهم تديّناً، ولكن تمرّ أوقاتٌ على الناس يحتاجون فيها إلى الدين أكثر من حاجتهم لأيّ شيء آخر- حتى أشخاصٍ مثل زهرا وهاري.

٤

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

كي تصوّر الربَّ
بالحكمةِ والتدبّرِ،
وكي تنفعَ عالَمك
وأهلَك
وحياتَك
ضع في حسبانِك العواقبَ
قلّل الضررَ
اطرح الأسئلةَ
ابحث عن الأجوبةِ
تعلَّمْ
وعلِّمْ.

من: ذكريات عوالم أخرى

أشجار الخشب الأحمر على الساحل تموت.

Sequoia sempervirens هو الاسم العلمي لأطول شجر من بين كلّ الأشجار، ولكن العديد منها لم تعُد دائمة الخضرة. شيئاً فشيئاً، من القمم إلى الأسفل، يتحوّل لونها إلى البُنّي وتموت.

لا أعتقد أنّها تموت بسبب الحرّ. بحسب ما أتذكّر، كان هنالك الكثير من أشجار الخشب الأحمر التي تنمو في جميع أنحاء منطقة لوس أنجلوس، باسادينا، ألتادينا، سان مارينو، أماكن من هذا القبيل. رأيتُها هناك عندما كنتُ صغيراً. كان لأمّي أقارب في باسادينا واعتادت أن تأخذني معها عندما تذهب لزيارتهم. أشجار الخشب الأحمر التي تنمو في أقصى الجنوب لم تصِل أبداً لنفس طول مثيلاتها التي نمَت هنا في الشمال، لكنّها نجَت. لاحقاً، عندما تغيّر المناخ، أفترضُ أنّها ماتت مثلها مثل الكثير من الأشجار التي ماتت في الجنوب، أو تعرّضَت للتقطيع واستُخدمت لبناء ملاجئ أو كحطب لتغذية النيران التي يشعلها المشرّدون لطبخ طعامهم.

والآن بدأَت أشجارنا الفتيّة تموت. هذا الجزء من مقاطعة هومبولت الممتدّ على طول الساحل وفي التلال -يُسمّي السكّان المحليون هذه التلال الساحلية بالجبال- كان أبردَ عندما كنتُ صبياً. سابقاً، كان الجو هنا مضبّباً وممطراً- إنه مناخٌ أخضرُ لطيف مناسب لنموّ كلّ النباتات تقريباً. أظنّ أنه بدأ يتغير قبل ثلاثين سنة،

عندما اشتريتُ الأرض التي صارت مجتمع أيكورن. في المستقبل القريب، أظنّ أنه سيكون مختلفاً عن طبيعة مناطق جنوب كاليفورنيا الساحلية قبل عقود خلت- حاراً، شبه جاف، وبُنيّاً معظم الوقت أكثر منه أخضرَ. نحن الآن في منتصف التغيير. ما زلنا نتعرض لعواصف شديدة في الخريف والشتاء سنوياً، ولا يزال هناك ضباب صباحيّ في الربيع وأوائل الصيف.

مع ذلك، فأن أشجار الخشب الأحمر الفتيّة -تلك التي لم يتجاوز عمرها قرناً من الزمن، ولم تنضج بعد- آخذة في الذبول. ولكن على مبعدة بضعة أميال إلى الشمال والجنوب منّا، في المنتزهات القديمة الوطنية والحكومية، لا تزال البساتين عامرة بالأشجار العملاقة القديمة. عرضَت الحكومة بضع مئات من الفدادين للبيع، وبِيعت للأثرياء، عادة مستثمرون أجانب، وتم احتطابها. وكالعادة، اقتطع المشرّدون وحرقوا عدداً من الأشجار، لبناء الملاجئ وكحطب لنيران الطبخ، ولكن غالبية الأشجار المحميّة، التي تجاوز عمرُها الألف سنة، التي قاومت المرض والحرق والتغيّر المناخي، لا تزال قائمة. وإذا تركها الناس وشأنها، فستبقى، بتراء، تليدة، ولكن على قيد الحياة، وتطاول عنان السماء سدى.

يبدو أن أبي، ربما بسبب تقدّمه في السن، كان متشائماً محبّاً. لم يرَ إلّا القليل من الخير في مستقبلنا. وبحسب كتاباته، فأن عظَمَتنا كبلد، أو ربما حتّى عظَمة الجنس البشري، قد ذهبَت أدراج الرياح.

ويبدو أن أقصى طموحاته هو حماية أمي، ولاحقاً، حمايتنا- الحفاظ على سلامتنا بطريقة ما.

أما أُمّي، من الناحية الأخرى، فقد كانت متفائلة بتحفّظ. فالعظَمة بالنسبة لها، وبالنسبة لبذرة الأرض، والإنسانية جمعاء، تبدو كما لو أنّها تتقدّمها. هي فقط من رأتها، ولكن كان هذا كافياً لحثّها على التقدم، ولإغوائها فيما تقوم بإغواء الآخرين.

لقد عملَت بجدٍّ لإغواء الآخرين. فأولاً، تبنّت الضعفاء والمعوزين، ومن ثم عملَت على إيجاد طرقٍ لإقناع هؤلاء الناس للانضمام إلى بذرة الأرض. مهما بدت بذرة الأرض سخيفة، بكل ذلك الحديث عن مصيرها بين النجوم، إلّا أنّها قدّمت مكافآت فورية. فهنا مجتمع حقيقي. وهنا على الأقل ثمّة مظهر من مظاهر الأمن. وهنا يوجد سلوان في الطقوس والروتين والاكتفاء العاطفي بالانتماء إلى «فريق» يقف أفرادُه معاً لمواجهة الصعوبات عندما تلوح الصعوبات. وبالنسبة للعائلات، فهنا مكان لتربية الأطفال، وتعليمِهم المهارات الأساسية التي قد لا يستطيعون تعلّمها في أي مكان آخر، ولإبقائهم في مأمنٍ قدر الإمكان من الدروس القاسية والقبيحة للعالم الخارجي.

عندما كنتُ في الثانوية، قرأتُ خطبة جوناثان إدواردز[1] التي ألقاها عام ١٧٤١، «خطاة بين يدي إله غاضب». لخّصت كلماتُها

(١) Jonathan Edwards: جوناثان إدواردز. لاهوتي ومبشّر أمريكي. يُنظر إليه على أنه أحد أهمّ علماء اللاهوت الفلسفي في أمريكا.

القليلة الأولى الدروس التي أُجبر الأطفال في العالم خارج مجتمع أيكورن على تعلّمها. يقول إدواردز: «إن الربّ الذي يُمسك بك فوق شفا حفرة جهنم، مثلما يُمسك المرء عنكبوتاً، أو أيّةَ حشرةٍ بغيضة فوق النار؛ يمقتُك، وهو شديد الغضب، غضبه يشتعل كالنار، إنه ينظر إليك على أنك غير مستحقّ لأي شيء آخر، سوى أن تُلقى إلى النار». أنتَ بلا قيمة. الربّ يكرهك. كلّ ما تستحقه هو الألم والموت. لا بدّ من أنه كان لاهوتاً واقعياً بالنسبة للأطفال الذين وُلدوا في زمن «البلاء». لا عجب أن بعضهم وجد العزاء في إله أمّي. لأنه إذا لم يحبّهم، فعلى الأقل منحهم فرصة للعيش.

لو أنَ أُمّي أسّست مجتمع أيكورن فقط، ملجأ المشردين والأيتام ... لو أنّها أسّست مجتمع أيكورن فقط، من دون بذرة الأرض، فأعتقد أنّها ستكون شخصاً جديراً بالثناء.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٢٤ أكتوبر، ٢٠٣٢

لقد تحسّن دان كثيراً. لا يزال يعرج، لكنّه يتماثل بسرعة للشفاء. جلس اليوم لأوّل مرّة خلال الاجتماع. أقمنا الاجتماع داخل المدرسة لأن الجوّ كان ماطراً –مطراً مستمرّاً بارداً– ليومين.

حضر دان الاجتماع الذي كان حفلَ استقبالٍ وأيضاً نقاشاً حول شاحنة عائلته. أُقيم حفل الاستقبال من أجل خافيير فيردوغو أورتيز

طفل أديلا أورتيز. وُلد خافيير نتيجة لاغتصاب جماعي وحشيّ حدث على الطريق السريع، وأديلا التي أتت إلينا عندما كانت حُبلى في الشهر السابع، لم تعرف ما إذا كانت تريد منّا استقبال الطفل، أو حتّى ما إذا كانت ترغب به. ثم وُلد، وقالت إنه يُشبِه شقيقها الصغير المتوفّى منذ زمن طويل، فأحبّته فوراً، ولم ترغب بالتخلّي عنه، وطلبت منا استقباله. وها نحن أولاء في حفل استقباله.

لم يبقَ لأديلا أيّ أحدٍ من عائلتها، لذا قدّم العديد منّا هدايا صغيرة من أجل الرضيع. أهديتُها حمّالة أطفال يمكنُها بواسطتها حمل طفلها على ظهرها. الفضل لناتيفيداد التي حملَت كلّ واحدٍ من أطفالها بهذِهِ الطريقة، أصبح حمل الأطفال على الظهور عادةً بين الأمهات الجديدات هنا في مجتمع أيكورن.

أديلا اختارت مايكل ونوريكو للوقوف معها. وقف كلّ واحد منهما على جانب منها فيما كان الطفل نائماً بين ذراعيها، وتقدّمنا في طابور واحداً تلو الآخرَ، ننظر إلى الطفل خافيير ونمسّده بلمساتٍ حنونة ومرحِّبة على يديه الصغيرتين ورأسه ذي الشعر الأسود. يملك رأساً بشعر غزيرٍ أشبه بشعر طفل أكبرَ عمراً. تقول أديلا إن أخاها كان كذلك أيضاً. لقد ساعدَت في رعاية أخيها عندما كان طفلاً، وتشعر الآن كما لو أن الربّ قد أعاده إليها. أعرف أنّها عندما تتحدّث عن الربّ، فهي لا تقصد نفس ما أقصدُه. ولا أرى ذلك مهمّاً. إذا قررَت البقاء معنا، وامتثلَت لقوانيننا، وشاركَتنا أفراحنا وأتراحنا، وعملَت بجانبنا، فلا يهمّ. ولكن في المستقبل، عندما

ينطق ابنها كلمة «الربّ» أظنّ أنه سيعني نفس ما أعنيه. وهذه هي كلمات الاستقبال:

يا خافيير فيردوغو أورتيز
نحن، أهْلك
نرحّب بك.
نحن بذرةُ الأرضِ
أنت بذرةُ الأرضِ:
واحدٌ من العديدِ
واحدٌ فريدٌ
بذرةٌ صغيرةٌ
وبشرى عظيمةٌ.
متشبّثٌ بالحياةِ،
مصوِّر الربّ،
ماءٌ،
نارٌ،
نحّاتٌ،
صلصالٌ،
أنت بذرةُ الأرضِ!
ومصيرُك
مصيرُ بذرة الأرضِ

أن تمدّ جذورَها بين النجوم.

إنها كلماتٌ طيبة. ليست جيّدة بما يكفي للترحيب بطفل في هذا العالم وهذا المجتمع. ما من كلمات جيّدة بما يكفي لهذا الغرض، مع ذلك، وبطريقة ما، هنالك حاجةٌ إلى الكلمات. هنالك حاجة إلى الطقوس. بينما قلتُ هذهِ الكلمات، غنّاها الآخرون بهدوء. قام كلٌّ من ترافيس دوغلاس وغراي مورا بتلحين بعض الآيات. يؤلّف ترافيس الموسيقى. وبإمكان غراي سماعُها داخلَه ومن ثم يغنّيها لترافيس.

عندما انتهت الكلمات والموسيقى واللمسات، وعندما تقبّل آل كاردوس أديلا كأختٍ وخافيير كابن، وبدورها تقبّلَتهُما أديلا، وعندما تعاهد الثلاثة أمام المجتمع، عندها استيقظ خافيير يريد أن يرضع وتوجّب على أديلا العودة إلى مقعدها جواره. يا له من توقيت مثالي.

قدم الكثيرون من أعضاء مجتمعنا فُرادى أو مع أطفال، لذا رأيتُ أن من الأفضل فعلَ ما بوسعي لخلق روابط عائلية تشتملُ على ما هو أكثر من العلاقة المعتادة بين الآباء وأبنائهم في المعمودية. في أغلب الوقت، في حيّي القديم روبليدو، لم تكن هذه علاقةً حقيقية إطلاقاً. بصرف النظر عن تقديم الهدايا بين الحين والآخر، لم يأخذ الناس الأمرَ على محمل الجدّ. أُريد لهذهِ العلاقة أن تؤخذ على محمل الجدّ هنا. وحرصتُ على توضيح ذلك للجميع. ليس واجباً على أي أحدٍ تحمّل مسؤولية الانضمام إلى عائلةٍ أُخرى بهذه الطريقة،

ولكنّ مَن يختار تحمّل هذه المسؤولية فقد قام بالتزام حقيقيّ. العلاقة العائلية لا تكون فقط مع الطفل الجديد، بل مع والديه أيضاً. ما زلنا مجتمعاً فتيّاً لذا لا أستطيع الجزم إلى أيّ مدى سيُجدي هذا الأمر نفعاً في المستقبل، ولكن يبدو أن الناس يتقبّلونه. نحن معتادون على الاعتماد على بعضنا البعض.

بمجرد انتهاء مراسم الاستقبال، انتقَلنا إلى المناقشة الأسبوعية. تضمّ اجتماعاتنا النقاشات أيضاً، إلى جانب مراسيم الزواج، والجنازات، والاستقبالات، واحتفالات الأعياد. إنّها جلسات لحلّ المشاكل، إنّها أوقات للتخطيط، والتعافي، والتعلّم، والإنتاج، والتركيز، وإعادة تصوير أنفسنا. إنّها تشتمل على كلّ شيء يتعلّق ببذرة الأرض أو مجتمع أيكورن، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ويمكن للجميع المشاركة والحديث.

خلال الاجتماع الأوّل في الشهر، أُدير نقاشاً عن قراءة الماضي والتطلّع للمستقبل، لكي نظلّ واعين بما فعلناه وبما يتوجّب علينا فعله، وإجراء التغييرات الضرورية، والاستفادة من كلّ الفرص. وأنا أشجّع الناس على التفكير في أمور من شأنها مساعدتنا في إدامة مجتمع دينيّ هادف.

هذا الصباح أراد ترافيس دوغلاس التحدّث عن توسيع نطاق الأعمال التجارية التي يقوم بها مجتمعنا، وهو موضوع عزيز على قلبي. بدأ أولاً بقراءة آيات من بذرة الأرض، وهي آياتٌ مثلها مثل كلّ النصوص الجيدة، تصلح لأن يُستهلّ بها أي نقاش.

«الحضارةُ في حياةِ الجماعاتِ تماثلُ الفكرَ في حياةِ الأفرادِ. إنها وسيلةُ جمعِ فكرٍ وخبراتٍ وإبداعاتِ الأفرادِ نحو تحقيقِ تكيّفِ الجماعةِ».

ومن ثم:

أيُّ تغييرٍ قد يحملُ في طيّهِ بذورَ المنفعةِ،
اغتنِمهُ.
أيُّ تغييرٍ قد يحملُ في طيّه بذورَ الضررِ،
اجتنِبهُ.
الربّ مطواعٌ على الدوامِ.
الربّ إلهُنا هو التغييرُ.

«أمامنا فرصةٌ يجبُ أن ننتهزها»، قال ترافيس، «بحوزتنا الشاحنة، وليس هنالك من منافسين حقيقيين لنا. لقد تفحّصت الشاحنة، وبالرغم من الهيئة التي تبدو عليها، إلّا أنّها بحالة جيدة جداً. الألواح الشمسية كفؤة للغاية في امتصاص ضوء الشمس. إذا قمنا بشحن البطاريات خلال النهار، سنوفّر الكثير من المال المخصّص للوقود. والبطّاريات لوحدها كافية في الرحلات القصيرة. عندنا أفضل مركبة في المنطقة. يمكننا العمل في نقل البضائع. يمكننا شراءُ السلع من جيراننا وبيعُها في المدن والبلدات. سيكون الناس سعداءَ لبيعنا سلعهم بسعر أقل إذا كنّا نحن من يقوم بإيصالها إلى الأسواق. ويمكننا التعاقد على زراعة المحاصيل لأغراضٍ تجارية في يوريكا–أركاتا، وربما في غاربرفيل».

تطرّقنا إلى هذا الموضوع بين حين وآخر، لكن اليوم كان أوّل اجتماع يُعقد لمناقشة المسألةِ بجدّية منذ أن حصلنا على الشاحنة. كان ترافيس أكثرَ واحدٍ من بيننا على استعدادٍ للمجازفة بالعمل مع جيراننا. يمكننا الاتفاق معهم لشراء المنتوجات المصنوعة يدوياً، والأدوات، والمحاصيل. لقد بتنا نعرف الآن أيّهم الأفضل في مجاله، وأيّهم جديرٌ بالثقة، وأيّهم صادق وصاحٍ، على الأقل معظم الوقت.

خلال رحلاتنا المتكرّرة إلى يوريكا، بدأنا أنا وترافيس قبل فترة بالسؤال في الأرجاء، لمعرفة ما إذا كان هنالك تجّار مهتمّين بالاتفاق معنا على شراء منتجاتٍ معيّنة.

تنحنح ترافيس وخاطب المجموعة ثانية، «بوجود الشاحنة»، قال، «أو بالأحرى شاحنتنا الأولى إذا حالفنا الحظ، ستكون هذه هي بداية تأسيس تجارة بالجملة. في ما بعد، بدلاً من الاعتماد فقط على ما نُنتجه وبدلاً من التعامل مع جيراننا الأقرب، يُمكن لتجارتنا أن تزدهر، وليزدهرَ معها مجتمعُنا وحركتنا. من المهمّ أن نعمل على أن نصبح كياناً مكتفياً ذاتياً اقتصادياً، وإلا فأننا بالتأكيد لن نخرج أبداً من حياة القرن التاسع عشر التي نعيشها!».

لقد أحسن قولاً، لكن لم يطِب ما قاله للكثيرين. نحن نقول بأفواهنا «الربّ هو التغيير»، ولكن الحقيقة هي أنّنا في قلوبنا نخشى التغيير مثلنا مثل الجميع. نحن نتحدّث عن التغييرات في الاجتماعات لكي نُهدّئ من مخاوفنا ونُصبّر أنفسنا وننظر إلى العواقب.

«نحن نُبلي حسناً»، قالت آلي غيلكريست، «فلماذا المخاطرة؟ ثم لماذا نلفت الأنظار إلينا في الوقت الذي سيفوز فيه بالانتخابات يقيناً ذلك الرجل المدعو جاريت؟». لقد فقدَت رضيعها وأختها. وليس عندها الآن إلّا ابنها بالتبنّي جاستن، وستفعل أي شيء لحمايته.

فاجأني مايكل. قال: «أفترِضُ أنه يُمكننا القيام بذلك». ثم انتظرتُ كلمة «ولكن». عندما يتعلّق الأمر بمايكل هنالك دائماً كلمة «ولكن». وقد لبّى مايكل ذلك. تابع: «ولكنّها محقّة بخصوص جاريت. إذا فاز بالانتخابات، فآخر ما سنريده هو أن نكون مرئيين».

«أظهرَت استطلاعات الرأي تراجع فرص جاريت بالفوز»، قال خورخي، «أتباعه يخيفون الجميع حدّ الموت بسبب ما يقترفونه من حرق الكنائس وحرق الناس. ربما لن يفوز».

«بحقّ الجحيم! ومن هذا الذي يستطلعون رأيه في هذه الأيام؟»، سأل مايكل، وهو يهزّ رأسه. ثم قال: «علينا الحذر من جاريت في كلّ الأحوال. سواء فاز أم خسر، فلا يزال عنده الكثير من الأتباع المتلهفين للحصول على كبش فداء».

تحدّث هاري. «أصلاً نحن لسنا بعيدين عن الأنظار الآن»، قال، «الناس في البلدات المجاورة يعرفوننا. يعرفون ما نحن، أو يعتقدون أنهم يعرفون. أريد أن يحظى أولادي بفرصة لحياة كريمة. وربما ستكون فكرة التجارة بالجملة بداية تلك الفرصة».

كانت إلى جانبه زوجته زهرا التي أومأت برأسها ثم قالت:

«أنا أيضاً موافقة. نحن لم نستقرّ هنا لنكدح في الأرض ونسكن في أكواخ خشبية. يمكننا أن نعيش حياة أفضل».

«ويمكننا حتّى تحسين علاقاتنا مع الجيران»، قال ترافيس، «فلو عرف المزيد من سكّان المنطقة بشأننا، وعرفوا أنهم يمكنهم الوثوق بنا، فحينها ربما سيصعب على الغوغائيين كجاريت أو أحدِ أشباهه المحليين التسببُ بالمتاعب لنا».

أشكّ في صحّة ذلك، أو على الأقل ليس على نطاقٍ واسع. سنلتقي بالمزيد من الناس، ونكوّن المزيد من الصداقات، وسيكون بعضهم أوفياء. أما البقية... فأفضل ما نأمله منهم هو أن يتجاهلونا عندما نقع في المتاعب. قد يكون ألطف ما يقدّموه لنا هو أن يُديروا ظهورهم ولا ينضموا إلى الغوغاء. أما الآخرون، سواء اعتبرناهم أصدقاء أم لا، فسيكونون على أتمّ الاستعداد للانضمام إلى الغوغاء وسحقنا وسرقتنا، إذا أصبح السحق والسرقة اختباراً للشجاعة أو اختباراً للولاء للوطن أو الدين أو العِرق.

من الناحية الأخرى، لا ضرر من الحصول على مزيدٍ من الأصدقاء من النوع المناسب. لقد كوّنّا بالفعل صداقات أثِقُ بها مع الجيران القريبين، وبعض الأشخاص في براتا، وبعض الأشخاص في جورجتاون، الحيّ العشوائي الكبير خارج يوريكا. في النهاية، الطريقة الوحيدة للحصول على المزيد من الأصدقاء الصالحين هي تكوين المزيد من الصداقات.

ثم تحدّثت أديلا أورتيز بصوتها السريع الناعم، صوت الفتيات

الصغيرات. وهي تبلغ من العمر ستة عشر عاماً فقط: «ماذا لو ظن الناس أنّنا نخدعهم؟»، قالت، «يظن الناس ذلك دائماً. كأن تحاول معاملتَهم بلطف ويظنوّن أن الجميع كاذبون ولصوص ما عداهم».

كنتُ جالسة إلى جانبها، فأجبتُها. «يفكّر الناس بما يشاؤون»، قلتُ، «وواجبنا أن نبيّن لهم من خلال سلوكنا أنّنا لسنا لصوصاً ولا حمقى. لدينا سمعة طيبة إلى الآن. يعرف الناس أنّنا لا نسرق. ويعرفون أنه لا ينبغي لهم سرقتنا. يعرفون عنّا حسن الجوار. فنحن نمدّ يد العون في حالات الطوارئ. وباب مدرستنا مفتوح لأطفالهم مقابل أجر بسيط بالعملة الصعبة، وأولادهم بأمان أثناء وجودهم هنا». نفضتُ كتفي، «لقد أحرزنا بداية طيبة».

«وهل تظنين أن التجارة بالجملة هي الحلّ الأمثل بالنسبة لنا؟»، سأل غرايسون مورا.

تطلّعتُ نحوه متفاجئة. أحياناً ينقضي اجتماع كامل من دون أن ينبس ببنت شفة. إنه ليس خجولاً إطلاقاً، بل هادئ. كان هو وزوجته عبدين قبل أن يلتقيا. كلّ واحد منهما فقد أفراداً من عائلته بسبب آثار العبوديّة وإهمالها. والآن عندهما بنتان وصبيّان. هما شرسان في الدفاع عن أطفالهما، ويرتابان من أي شيء جديد قد يؤثر على هؤلاء الأطفال.

«نعم، هذا ما أظنه»، قلتُ. سكتُّ، ألقيتُ نظرة على ترافيس الذي وقف على منصّة القراءة الأنيقة من خشب البلوط التي صنعَتها آلي. ثم تابعتُ: «أعتقد أن بإمكاننا الاستمرار بهذا العمل طالما أن

الشاحنة صامدة. أنتَ خبيرُنا في هذا المجال يا ترافيس. لقد قلتَ إن الشاحنة صالحةٌ للعمل، ولكن هل يُمكننا تحمّل كلفة صيانتها؟ هل هناك قطع غيار جديدة وباهظة ستحتاجها عن قريب؟».

«بحلول الوقت الذي ستحتاج فيه الشاحنة إلى قطع غيار باهظة، نكون قد جنينا الكثير من المال»، قال. «أما عن الوقت الحالي، فحتى إطاراتها بحالة ممتازة، وهذا أمر غير معتاد». ثم اتّكأ على المنصة وبدا واثقاً وجاداً. «بوسعنا فعل هذا»، قال، «يجب أن تكون بدايتنا على مستوى ضيق، ندرس الاحتمالات، ونفكّر كيف يمكننا التوسع. إذا فعلنا هذا بالشكل الصحيح، ستتمكّن من شراء شاحنة ثانية في غضون سنة أو سنتين. إن عددنا يزداد. ونحن بحاجة لفعل هذا».

كان بانكول إلى جانبي، تنهّد. «إذا لم نتوخّ الحذر»، قال، «فإن حجمنا ونجاحنا سيجعلان منّا القلعة على التل؛ حامية الجميع في هذه المنطقة. لا أرى ذلك قراراً حكيماً».

أما أنا فأظنّه قراراً حكيماً، لكنّي لم أقل شيئاً. لا يزال بانكول يرى هذا المكان مجرّد محطة مؤقتة في الطريق إلى بيت «حقيقي» في بلدة «حقيقية»؛ بلدة عريقة. لا أعرف كم سيستغرقه من الوقت قبل أن يرى أن ما نبنيه هنا حقيقيّ وعلى الأقل بنفس أهمية أي شيء يمكن أن يجده في بلدة قائمة منذ قرن أو قرنين.

أتنبّأ بوقتٍ لن تكون فيه مستوطنتنا مجرّد «قلعة على التل»، بل سينضمّ كلّ أو معظم جيراننا إلينا. حتّى لو لم يعجبهم كلّ جانب من جوانب بذرة الأرض، فآمل أن يعجبهم ما يكفي منها بحيث

يدركون أنهم أفضل حالاً معنا وليس من دوننا. أريدهم حلفاء وأعضاء، وليس مجرّد «أصدقاء». وفيما نضمّهم، أعتزم أن أضمّ أيضاً زبائن المتجر والمطعم والفندق الذين سيأتون إلينا- أو أريد أن نفتح متاجر ومطاعم وفنادق خاصة بنا. وقَطعاً أريد تشييد بيوت اجتماعات تكون أيضاً مدارس في يوريكا وأركاتا، وبعض البلدات القريبة الكبيرة. أريد أن نكبر ونتوسع في المدن والبلدات بهذه الطريقة الطبيعية القائمة على الدعم الذاتي.

لا أعرف ما إذا كان بوسعنا إنجاز كلّ ذلك، ولكنّي أظن أنه يجب علينا المحاولة. أعتقد أن هذا هو شكل البداية الحقيقية لبذرة الأرض.

لا أعرف كيفية القيام بذلك. وهذا يرعبني حدّ الموت أحياناً- الشعور الدائم بأنني مندفعة للقيام بشيء دون أن أعرف كيف أفعله. لكنّني أتعلم فيما أمضي قدماً. وتعلّمت أن عليّ توخي الحذر في حديثي عن هذا الأمر، حتّى أمام أيكورن. لأن بانكول ليس الوحيد الذي لا يرى إمكانية القيام بشيء لم يرَ آخرين يقومون به من قبل. وأيضاً... رغم أن بانكول لن يعترف بهذا أبداً، بيد أني أشكّ أنه في داخله يعتقد أن الإنجازات المهمة والكبيرة لا يقوم بها سوى الأشخاص الأقوياء الذين يتبوّؤون مناصب عُليا بعيداً جداً عن هذا المكان. لذا فما نقوم بهِ، بديهياً، تافهٌ وبلا أهمية. هذا غريب، لأنه من نواحٍ أخرى، يتمتّع بانكول بـ «أنا» سليمة. فهو لم يسمح للشك بالذات أو شكوك عائلته به أو سخرية أصدقائه أن

تمنعه من الذهاب إلى الجامعة ودراسة الطبّ والعيش بالاعتماد على المنَح الدراسية والوظائف والديون الضخمة. لقد بدأ كصبي أسود متكبّر دون أيّ فارقٍ مميز، وانتهى به الأمر كطبيب.

ولكن بطريقةٍ ما، أفترضُ أن هذا أمر طبيعي. أقصد، لقد حدث سابقاً. لقد أُخذ بانكول إلى طبيبة أطفال سوداء عندما كان طفلاً.

ما أحاول القيام به ليس اعتيادياً كُلياً. لكن سبق وأن حدث. فقد ظهرَت في السابق معتقدات جديدة. ولكن ليست هنالك طريقة معيارية لتقديمها؛ ما من طريقة يُمكن الاعتماد عليها لبدء العمل. أخشى أنّ ما أحاول القيام به هو مهمة جنونية وصعبة وخطيرة. لذا من الأفضل الحديث عنها تدريجياً.

تحدّثت نوريكو زوجة مايكل. «أخاف علينا من التورط في هذا العمل الجديد»، قالت، «ولكن أظن أنه يجب علينا القيام به. هذا مجتمع طيب، ولكن إلى متى سيبقى؟ إلى متى سيستمر بالتوسع قبل أن يكون من الصعب علينا إطعام أنفسنا؟».

أومأ الناس موافقين. نوريكو أشجع ممّا تظن. يُمكن أن ترتعد خوفاً، ولكنها مع ذلك ستقوم بما تعتقد أنه يتوجب عليها فعله.

«يمكننا أن ننمو أو يمكننا أن نذبل»، وافقتُها. «هذا جوهر بذرة الأرض على نطاق أوسع في نهاية المطاف».

«أتمنى لو كانت الأمور مختلفة»، قالت إيميري مورا، «أتمنى لو كان بإمكاننا أن نبقى مختبئين هنا بعيداً عن كلّ شيء آخر. أعرف أنه

لا يمكننا ذلك. لكنّي أتمنى فقط... نحن في أمان هنا». قبل أن تهرب من العبوديّة، كان عندها صبيان صغيران أُخذا منها وبيعا. وهي متقمّصة. كلّهم متقمّصون؛ هي وغراي وابنته دو وابنتها توري وولداهما كارلوس وانطونيو. ما من عائلة أخرى مبتلاة كابتلاء هذهِ العائلة. ما من عائلة أخرى تملك أسباباً تدفعها للاختباء أكثر من هذه العائلة.

تحدّثنا لفترة، ترافيس يستمع بينما الناس يعترضون، ثم إما أن يُجيب على اعتراضاتهم أو يدعَ آخرين يُجيبون. ثم طلب إجراء تصويت: هل يجب علينا توسيع تجارتنا؟ كانت نتيجة التصويت «نعم»، كلّ من تجاوزت أعمارهم الخمس عشرة سنة أدلوا بأصواتهم. باستثناء آلي غيلكريست، وآلان فيركلوث، وراميرو بيرالتا، وابنة راميرو الكُبرى بيلار، فقد صوّتوا بـ «لا». أوبري دوفيتري، التي لم تُدلِ بصوتها لأنها ليست عضوة بعد، صرّحت أنّها ستصوت بـ «لا»، لو كان يحقّ لها التصويت.

«تذكّروا ما حدث لنا!»، قالت.

كلّنا نتذكر. ولكن لم يكن في نيّتنا التجارة بالبضائع غير المشروعة. ونحن أبعد عن الطريق السريع من مزرعة آل دوفيتري، لذا لا يمكننا تفويت هذه الفرصة بسبب الهجوم على آل دوفيتري.

إذن سنوسّع تجارتنا. سيشكّل ترافيس فريقاً، وسيتحدّث الفريق مع جيراننا -بدءاً بأولئك الذين لا يملكون سيارات وشاحنات- ثم سيتحدّث الفريق مع المزيد من التجار في المدن والبلدات. نحن بحاجة

لمعرفة ما هو ممكنٌ فعله الآن. نعرف أن بوسعنا بيع المزيد من السلع في أسواق البالة، لأنه بوجود الشاحنة الآن يمكننا الوصول للكثير من أسواق البالة. لذا، حتّى لو لم نتمكّن من إبرام أيّة عقود أو اتفاقات عمل في البداية، فأن بوسعنا بيع ما نشتريه من جيراننا. ها قد بدأنا.

عندما انتهى الاجتماع، تقاسمنا وليمة يوم الاجتماع. توزعنا في الغرفتين الكبيرتين في المدرسة لتناول الطعام، وللعبِ ألعاب داخلية، وللحديث، ولسماع الموسيقى. في مقدمة الغرفة بالقرب من المنصة، جلسَت دولوريس فيغارو كاسترو لقراءة قصة لمجموعة من الأطفال جلسوا عند قدميها. دولوريس هي ابنة أخت لوسيو، ابنة مارتا. إنّها في الثانية عشرة من عمرها فقط، لكنها تحبّ القراءة للأطفال الصغار، وبما أنّها تحسن القراءة وتمتلك صوتاً لطيفاً، فقد أحبّ الأطفال الإصغاء إليها. أما نحن البالغين والأطفال الأكبر سناً، فسنحضر عرضاً مسرحياً من تأليف إيميري مورا. إنّها تخجل من التمثيل لكنّها تحب التأليف ومشاهدة المسرحيات. اكتشف لوسيو فيغارو أنه يحب إخراج المسرحيات وخلق عوالم خيالية. خورخي وآخرون ممثلون هواة، ويحبون التمثيل في المسرحيات. بينما تكفّل كلّ من ترافيس وغراي بإعداد الموسيقى المطلوبة. أما بقيّتنا فنستمتع بمشاهدة العرض. نحن نُشبع جوع بعضنا البعض.

اقترب دان نوير مني عندما كنتُ أُعدّ لنفسي طبقاً من الأرانب المقلية والبطاطا المخبوزة ومزيج من الخُضار المطهية على البخار بالصلصة الحارة وشيء من جبنة الماعز. كان هناك أيضاً كعك

بالصنوبر وخبز البلوط وفطيرة بطاطا حلوة. ينصّ قانون وليمة يوم الاجتماع أن نأكل فقط ممّا قمنا بتربيته وزراعته وتحضيره. مرّ بنا وقت مثّل هذا نوعاً من المشقة. وقد ذكّرنا أنّنا لم نزرع أو نربي بقدر ما ينبغي. والآن أنّها سعادة. نحن نُبلي حسناً.

«هل تسمحين لي بالجلوس معكِ؟»، سأل دان.

قلتُ «بالطبع»، ثم اضطررتُ لصدّ العديدين ممّن أرادوا أن آكل معهم. دفعني التعبير على وجه دان إلى التفكير أنه حان الوقت لي وله للخوض في نسخة ما من الحديث الذي يبدو أنني دائماً ما أنتهي إليه مع الوافدين الجدد. حديث أفكّر أنه من نوع «ما هي بذرة الأرض بحق الجحيم؟ وهل يجب عليّ الانتماء إليها؟».

دخل دان في الموضوع مباشرة، قال: «يقول آل بالتر إن بإمكاني أنا وأختاي البقاء هنا. يقولون إننا لسنا مُرغمين على الانضمام إلى طائفتكم إذا لم نرغب بذلك».

«لستم مضطرين للانضمام إلى بذرة الأرض»، قلت، «وأنت وأختاك مرحّب بكم للبقاء معنا. وإذا قررتم الانضمام إلينا يوماً ما، فسيسرّنا ذلك».

قال: «ما الذي يتعيّن على المرء فعله، أقصد لكي نبقى هنا؟».

ابتسمتُ. قلت: «أولاً تماثل للشفاء. وعندما تتعافى بالقدر الكافي، اعمل معنا. الكل يعملون هنا، الصغار والكبار. ستقدّم المساعدة في الحقول ورعاية الحيوانات وصيانة المدرسة والقيام ببعض أعمال

البناء. بناء المنازل جهد جماعي هنا. هنالك أعمال أخرى مثل صنع الأثاث، صنع الأدوات اليدوية، التجارة في أسواق البالة، النبش. أنت حرٌّ في اختيار أيّ عمل تحبه. وستدرس في المدرسة. هل درست في المدرسة من قبل؟».

قال: «أهلنا علّمونا».

أومأتُ برأسي. في هذهِ الأيام، معظم الآباء المتعلّمين من الفقراء أو من الطبقة المتوسطة يعلّمون أولادهم بأنفسهم أو أنهم يفعلون ما فعله الناس في حيّي القديم- أسسوا مدرسة غير رسمية في منزل أحدهم. ولا تزال هناك مدارس حكومية رسمية من الطراز القديم ولكن في بعض البلدات الصغيرة جداً فقط. قلت له: «قد تجد نفسك تعرف الكثير عن مجال ما بحيث تعلّمه للأطفال الصغار. أول واجبات بذرة الأرض هي التعلّم ثم التدريس».

سأل: «وماذا عن هذا؟ أقصد الاجتماع؟».

أجبتُ: «نعم. ستحضر الاجتماع أسبوعياً».

سأل: «هل يحق لي التصويت؟».

أجبتُ: «لا. لكنّك ستحصل على نصيبٍ من أرباح بيع المحاصيل، ومن أرباح التجارة الأخرى إذا سارت الأمور جيداً. هذا بعد أن تقضي هنا فترة سنة كاملة. لن يكون لكَ دور في اتخاذ القرارات إلّا إذا انضممتَ إلينا. إذا انضممتَ إلينا ستحصل على نصيب أكبر من الأرباح وسيحق لك التصويت».

قال: «إنه ليس دينياً حقاً، أقصد قدّاسكم. أنتم لا تؤمنون بالرب أو أي شيء من هذا القبيل فعلاً».

استدرتُ ناحيته وتطلّعت فيه. قلتُ: «بلى يا دان، بالتأكيد نحن نؤمن».

حدّق بي صامتاً، بعدم تصديق واضح.

قلتُ: «ربما لا نؤمن بنفس الطريقة التي يؤمن بها والداك، لكننا نؤمن حقاً».

قال: «بأنّ الربّ هو التغير؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «أنا لا أفهم أصلاً ماذا يعني هذا».

قلتُ: «يعني أن التغير هو حقيقة الكون الوحيدة المستمرة التي لا مفرّ منها ولا يمكن مقاومتها. بالنسبة لنا، هذا ما يجعلها الحقيقة الأقوى، ومجرد كلمة أخرى تعني الربّ».

قال: «ولكن ماذا يفعل المرء بربّ كهذا؟ أقصد... إنه حتّى ليس شخصاً. لا يحبك ولا يحميك. لا يعرف أي شيء. فما الغاية؟».

«الغاية أن هذهِ هي الحقيقة»، قلت، «إنها حقيقة صعبة، أصعب جداً من قدرة بعض الأشخاص على تصديقها، ولكن هذا لا يقلّل من شأنها كحقيقة». وضعتُ طعامي جانباً، وتوجّهت إلى أحد رفوف مكتبتنا. أخذتُ واحدة من النسخ العديدة من (بذرة الأرض: كتاب

الأحياء الأول). قمتُ بنفسي بنشر الجزء الأول قبل سنتين. راجع بانكول النص عندما أنهيتُه، وقال إنني يجب أن أُسجّل ملكية حقوق التأليف والنشر باسمي لحمايتي. وقتها، بدا ذلك غير ضروري - شيئاً سخيفاً لفعله في عالم مجنون. في وقت لاحق، اقتنعت أنه كان مصيباً- في المستقبل ولسببٍ في الوقت الحاضر لم يفصح عنه بانكول.

«يوماً ما ستعود الأمور إلى الوضع الطبيعي»، قال لي ذات مرة، «يجب أن تفعلي هذا بنفس الطريقة التي نستمر فيها بدفع ضرائبهم».

لن تعود الأمور إلى ما سمّاه بـ «الوضع الطبيعي». بل سنستقر على نسقٍ جديد ما يوماً ما، ولفترة من الوقت. ولا أعرف ما إذا كان هذا النسق الجديد سيعترف بدفعنا للضرائب أو بحقوقي الفكرية. ولكن ثمّة فائدة مباشرة يمكن الحصول عليها هنا.

لا يزال الناس ينبهرون، بل وحتى يتهيّبون، من المجلّدات ذات المظهر الرسمي. الآيات سواء المكتوبة بخط اليد أو المطبوعة على أوراق لا تشدّهم مثل الكتاب. حتّى من لا يعرفون القراءة تدهشهم الكتب. لأن الفكرة الراسخة «طالما الأمر مذكور في كتاب، فربما يكون صحيحاً»، أو حتّى «طالما الأمر مذكور في كتاب، فلا بدّ من أنه صحيح». عدتُ إلى دان، فتحت الكتاب، وقرأت له ما يلي:

لا تعبدِ الربّ،
فالربّ غير الرحيم،

لا يحتاج عبادتَك
ولا يريدها.
عوضاً عن ذلك،
أقر بالربّ ولازِمه،
وتعلّم من الربّ،
بالتدبّر والفكرِ
والمخيلةِ والمثابرةِ
صوّر الربّ.
وعندما لا مناصَ
أسلِم للربّ.
تكيّف واصطبر
لأنك بذرةُ الأرضِ
والربّ هو التغيير.

سكتُّ برهة ثم تابعت، «هذا ما نؤمن به يا دان. هذا ما نسعى جاهدين لفعله- أو بالأحرى جزءٌ ممّا نسعى جاهدين لفعله».

استمع دان وهو مقطّب. ثم قال: «ما زلت لا أفهم تماماً ماذا يعني كلّ هذا».

قلتُ: «ستتعلم المزيد في المدرسة. نحن نقول إن التعليم هو الطريق المباشر إلى الرب. أما الآن، فيكفي القول إن تلك الآية تعني فقط أنه لا نفع من مديح الربّ أو التوسل إليه. اعرفْ ما يفعله

الرب. تعلّم أن تصوّر ذلك على احتياجاتك. تعلّم الاستفادة منه، أو على الأقل، تعلّم التكيّف معه حتّى لا يسحقك. هذا نافع».

قال: «إذن أنت تقولين إن الصلاة غير مجدية».

قلتُ: «أوه، لا، بالعكس، الصلاة مجدية. الصلاة طريقة فعّالة للحديث مع نفسك، وإقناع نفسك بالأشياء، وتركيز انتباهك على كلّ ما ترغب في القيام به. يمكن أن تمنحك إحساساً بالسيطرة ويمكن أن تساعدك على أن تتجاوز ما ظننتَها حدودك».

سكتُّ برهة لأفكّر كم أحسن دان العمل عندما حاول إنقاذ والديه. «لا يجري الأمر مثل ما نريده دائماً»، قلت، «لكنّه يستحق العناء دائماً».

«حتى عندما أُصلّي، وأسأل الربّ أن يساعدني؟»، سأل.

«حتى ذلك»، قلتُ، «أنت مَن ستصله كلماتك وتقوّيك. يمكنك التفكير بالأمر على أنه صلاة لذلك الجزء من الربّ في داخلك».

تأمّلَ في ما قلته لوهلة، ثم نظر إليّ كأن عنده سؤالاً كبيراً ولكنه لا يعرف كيف يطرحه. ثم راح ينظر إلى الكتاب.

«كيف تعرفين أنكِ على حق؟»، سألني أخيراً، «أقصد، ذلك الرجل الذي يريد أن يصبح رئيساً، جاريت، يدعوكم بالوثنيين أو الكفّار أو عبدة الشيطان أو ما شابه».

إنه يدعونا بذلك بالفعل. «نعم»، قلتُ، «يبدو أنه يستمتع بإطلاق نعوت مشابهة على الناس. ما أن يجعل كلّ الناس الذين لا

يشبهونه يبدون كأشرار، عندها يمكنه إلقاء اللوم عليهم في مشاكل يعرف أنهم لم يسببوها. لأن هذا أسهل من محاولة حلّ المشاكل».

«يقول أبي...»، توقف الصبيّ عن الحديث وابتلع ريقه، ثم تابع: «قال أبي إن جاريت مغفّل».

قلتُ: «أنا أتفق مع أبيك».

«ولكن كيف تعرفين أنكِ على حق؟»، أصرّ، «كيف تعرفين أن بذرة الأرض حقيقية. من يقول إنّها حقيقية؟».

«أنت يا دان»، تركتُه يفكّر في هذا للحظة، ثم تابعتُ، «أنت تتعلم، تفكّر، تتساءل. تُسائِلُنا وتُسائل نفسك. ثم، إذا وجدت بذرة الأرض هي الحقّ، تنضم إلينا. وتساعدنا في تعليم الآخرين. تساعد الآخرين مثلما ساعدناك أنت وأختيك». وقفة أخرى. «اقرأ هذا الكتاب لبعض الوقت. الآيات قصيرة وتحمل ذات المعنى الذي تقوله. رغم أنّ هذا قد لا يكون معناها الكامل. اقرأها وفكّر فيها. ثم يمكنك طرح أسئلتك».

«كنتُ أقرأ»، قال، «ليس هذا الكتاب، بل كتباً أخرى. ليس عندي ما أفعله غير القراءة عندما كنتُ مُقعداً. أعطاني آل بالتر روايات وما شابه. وكنت... أفكر أنه لا يفترض بي أن أكون هنا، أعيش في أمان، وآكل طعاماً طيباً، وأقرأ الكتب. كنت أفكّر أنه يتعيّن عليّ أن أكون في الخارج، أبحث عن أختيّ نينا وباولا. أنا شقيقهما الكبير، وهما ضائعتان. أنا رجل البيت الآن. وواجبي البحث عنهما».

هذا أكثر شيء يبعث على القلق من كلّ ما قاله لحد الآن. قلتُ: «دان، نحن لا نعرف ما إذا كانتا...».

قال: «نعم. لا أحد يعرف ما إذا كانتا لا تزالان على قيد الحياة، أو أين هما، أو ما إذا كانتا لا تزالان معاً... أعرف. كلّ هذا لا يبرح تفكيري. لكنّهما أختاي. ولطالما أوصاني أبي وأمي بالحرص على أخواتي». هزّ رأسه. ثم قال: «اللعنة! لم أتمكّن حتّى من حماية كاسي وميرسي. لو أنهما لم تُنقذا نفسيهما، أظن أنّنا سنكون كلنا في عداد الأموات». دفع طبق طعامه مشمئزاً من نفسه. لقد أكل معظمه. ولكن لأننا كنّا نجلس على مصطبة وليس إلى طاولة، فلم تكن هنالك مساحة كافية لدفع الأشياء. فسقط طبقه على الأرض وتحطم.

حدّق فيه بعينين دامعتين- كانت دموعاً لا علاقة لها بالطبق المحطم.

مددتُ يدي إلى يده.

جفل وتنحّى عني، ثم رفع نظره من الطبق المحطم وراح يحدّق فيّ بعينين مغرورقتين بالدموع.

أمسكتُ بيده ثانية ونظرتُ إليه. «عندنا أصدقاء في بعض البلدات القريبة»، قلت، «لقد بلّغناهم بالأمر. وعرضنا مكافأة مقابل الفتاتين أو مقابل أيّة معلومة تقودنا إليهما. سنختطفهما إذا كان ذلك بوسعنا. وسنشتريهما إذا تحتم الأمر». تنهدت، «لن أعدك

بشيء يا دان، ولكننا سنبذل قصارى جهدنا. ونحتاج لمساعدتك. رافِقنا إلى أسواق البالة، والمتاجر في المجتمعات القريبة. ساعِدنا في البحث عنهما».

تابع التحديق فيّ كما لو أنني كاذبة، كما لو أنه سيجد الحقيقة في وجهي إذا حدّق طويلاً وبشدّة.

تردّدتُ، ثم أخذتُ نفساً عميقاً وقلت له، «كلّنا فقدنا أحبة»، قلت، «كل واحد هنا فقد أفراداً من عائلته بسبب الحريق أو القتل أو الغارات... كان عندي أبٌ وزوجة أب وأربعة إخوة صغار. كلّهم ماتوا. كلّهم. لذا عندما يكون بوسعنا إنقاذ حياة أحدهم.. نحن نفعل ذلك. ولا نقبل بغير ذلك».

مع ذلك، تابع التحديق بي. لكنّه بدأ يرتجف الآن. دفعني للتفكير في البلور، يتذبذب في الصوت، وعلى وشك أن يتهشم. سحبتُ نحوي هذا الطفل الضخم الطويل وعانقته. شعرتُ بدموعه تبلّل كتفي، ثم شعرت بيديه تطوقاني، شعرت به يبادلني العناق، وهو يرتجف، صامتاً، يائساً، متشبّثاً.

٥

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

حذارِ:
في الحربِ
أو السلامِ
يموتُ المزيدُ من الناسِ
بسببِ المصلحةِ الذاتيّةِ غير المستنيرةِ[1]
أكثرَ من أي مرضٍ آخرَ.

المقاطع التي اخترتُها من يوميات أُمّي توضّح أنه بالرغم من طبيعة حياتها الشبيهة بالحياة في القرن التاسع عشر إلّا أنّها اهتمت بالعالم الواسع. السياسة والحرب مسألتان مهمتان. العلم والتكنولوجيا مسألتان مهمتان. الموضات في ارتكاب الجرائم وتعاطي المخدرات

(١) Enlightened Self-Interest هي فلسفة أخلاقية ترى أن الأفراد الذين يتصّرفون من أجل مصلحة الآخرين يحصلون بالمحصّلة على نفع ذاتي.

والتسامح العرقي والإثني والديني والطبقي مسائل مهمة. وعلى فكرة، لقد كانت ترى هذهِ الأمور كموضات- سلوكيات متغيّرة وفق الأهواء لأسباب متنوّعة تتراوح بين العملية والعاطفية إلى البيولوجية. غالباً ما كانت النزعة البشرية للتنافس والمناطقية هي جذر كلّ موضات الاضطهاد الرهيبة على وجه الخصوص. يبدو أنّنا نحن البشر دائماً ما نجد الراحة في وجود أحدٍ ما لنسحقه- طبقة سفلى من نظرائنا من المخلوقات الذين هم غاية في الضعف، ولكن مع ذلك يمكن، بطريقة ما، لومهم ومعاقبتهم على كلّ مشكلة أو أية مشكلة. نحن بحاجة إلى هذهِ الطبقة السُفلى بمثل حاجتنا إلى الأنداد لنتحّد معهم أو لنتنافس ضدهم، وإلى الأعلى شأناً لكي نتطلّع إليهم من أجل التوجيه والمساعدة.

لطالما لاحظَت أُمّي وذكرَت مثل هذه الأمور. وقد تمكّنَت أحياناً من دمج ملاحظاتها في آيات بذرة الأرض. في نوفمبر عام ٢٠٣٢، صارت عندها أسبابٌ أقوى من المعتاد للاهتمام بالعالم الخارجي.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٧ نوفمبر، ٢٠٣٢

أخبار.

بما أنّنا نعيش معزولين في أيكورن، لذا يتوجّب علينا بذل المزيد من الجهد للحصول على الأخبار من الخارج- أعني الأخبار

الحقيقية وليست الشائعات، ليست «الأخبار العاجلة» التي يُزعم أنّها تخبرنا بكل ما نحتاج لمعرفته على هيئة صور سريعة مبهرة وفي عبارة أو عبارتين شفويّتين ومقتضبتين وذكيّتين. يُفترض في الأخبار العاجلة أن خمساً وعشرين إلى ثلاثين كلمة كافية لشرح الحرب أو زينة كريسماس ضوئية غير عادية. الأخبار العاجلة رخيصة ومليئة بالصور الدرامية الكبيرة. وبعض الأخبار العاجلة افتراضية حقاً بحيث تسمح للناس بتجربة الأعاصير والأوبئة والحرائق والقتل الجماعي بأمان. يا لها من ضربة جهنمية!

من ناحية أخرى، فأن أقراص الأخبار متقنةَ الصنع، أو الخدمات الجيدة للأخبار عبر الأقمار الصناعية تكلّف الكثير. غراي وإيميري مورا وشخص أو اثنان آخران يقولون إن الأخبار العاجلة كافية. يقولون إن الأخبار المفصّلة لا تهمّ. يظنون أن من المستحسن تجاهلها، بما أنّنا لا نستطيع تغيير الأمور الغبية والجشعة والمتوحشة التي يرتكبها أصحاب النفوذ. ولا يهم كم مرّة أُجبرنا على الاعتراف بعدم قدرتنا الاختباء حقاً، إلّا أن بعضنا لا يزالون يجدون طرقاً للمحاولة.

حسناً، لا يمكننا الاختباء. لذا من الأفضل الانتباه إلى ما يجري. كلّما عرفنا أكثر، زادت قدرتنا على النجاة. لذا اشتركنا في خدمة جيدة للأخبار عبر الهاتف وبين الحين والآخر نشتري أقراص (أخبار العالم) المفصّلة. كلّ هذهِ المسألة تجعلني أفتقد البثّ الإذاعي المجاني مثل ذلك الذي كان عندنا عندما كنتُ طفلة، ولكنّه شبه

اختفى في هذه المنطقة. نحن نستمع إلى القليل المتبقي عندما نذهب إلى إحدى البلدات الكبيرة. يمكننا سماع المزيد الآن لأن مذياع الشاحنة يلتقط أكثر ممّا يلتقطه مذياع الجيب الصغير الذي بحوزتنا.

إليكم بعضاً من الأخبار المهمّة من الأسبوع الماضي، التي استمعنا لبعضها على قرص جديد من (أخبار العالم) بعد انتهاء اجتماع اليوم.

لا تزال ألاسكا تدّعي أنّها دولة مستقلة، ويبدو أنّها دخلت في تحالف مقرّب شبه رسمي مع كندا وروسيا- الشماليون يتآزرون على ما يبدو. نفض بانكول كتفيه عندما سمع هذا وهزّ رأسه. «لمَ لا؟»، قال، «يملكون كلّ الأموال». مكتبة .. سُر مَن قرأ

بفضل التغير المناخي باتوا يمتلكون معظم الأموال. لا يزال المناخ مستمراً بالتغير؛ احترار. يُفترض أنه يوماً ما سيثبت عند حالة مستقرة جديدة. ولكن حتّى ذلك الحين، لا نزال نتعرض لتقلّبات جوية عنيفة حول العالم. لا يزال مستوى سطح البحر يرتفع، وينهش المناطق الساحلية المنخفضة مثل الكثبان الرملية التي استُخدمت لحماية خليج هومبولت وخليج أركاتا إلى الشمال منا. لا تزال نصف المحاصيل في الغرب الأوسط والجنوب تتعرض للذبول بسبب الحرارة، أو تغرق في الفيضانات، أو تقتلعها الرياح، لذا فأسعار المواد الغذائية لا تزال مرتفعة. وبسبب الاحترار غدت أمراض استوائية كالملاريا وحمّى الضنك جزءاً طبيعياً من الحياة في ساحل الخليج الدافئ الرطب والولايات على الساحل الأطلسي الجنوبي. لكن الناس بدأوا يتكيّفون. فمثلاً، قلّت حالات الإصابة

بالكوليرا والتهاب الكبد. كما قلّت حالات الإصابة بالأمراض الناتجة عن سوء الصرف الصحي، والطعام الفاسد، أو سوء التغذية. يقوم الناس بغلي ماء الشرب في المدن التي انتشرت فيها الأوبئة وفي الأحياء العشوائية حيث قنوات الصرف الصحي المفتوحة. هنالك المزيد من الحدائق، كما انتعشت المهارات القديمة في حفظ الأطعمة. بات الناس يُقايضون مقابل السلع والخدمات عندما يكون المال شحيحاً. يستخدمون المعدّات اليدوية وحيوانات الجرّ عندما لا يكون عندهم المال لشراء الوقود أو لا توجد معدّات كهربائية متبقية. بدأت الحياة تتحسن، ولكن هذا لن يوقف الحرب إذا قرّر السياسيون ورجال الأعمال أن شنّ الحرب يصبّ في مصلحتهم.

هنالك الكثير من الحروب المشتعلة حول العالم في الوقت الحالي.

هناك حرب بين كينيا وتنزانيا. لم أسمع السبب إلى الآن. وهناك نزاع حدودي آخر بين بوليفيا والبيرو. اتّحدت باكستان وأفغانستان لشن حرب دينيّة على الهند. جزء من إسبانيا يحارب جزءاً آخر. اليونان وتركيا على شفا الحرب، ومصر وليبيا تذبح إحداهما الأخرى. الصين، مثل اسبانيا، تمزّق نفسها. تلقى الحروب رواجاً واسعاً هذه الأيام.

أفترض أنّنا يجب أن نكون ممتنين لعدم وقوع «اشتباك نووي» آخر. مثل ذلك الذي حدث قبل ثلاث سنوات بين إيران والعراق، وأرعب العالم بأجمعه. بعد وقوعه، حلّ السلام حول العالم ربما لثلاثة أشهر. وجدَت الشعوب التي تبادلَت الكراهية لأجيال

طريقاً لمحادثات السلام. ولكن تعثّرت معظم محادثات السلام بعد الإهانة تلو الإهانة، النفعية تلو النفعية، انتهاك اتفاقية وقف إطلاق نار تلو انتهاك اتفاقية وقف إطلاق نار. لطالما كان شن الحروب أسهل من تحقيق السلام.

بالعودة إلى أخبار البلد، في مدينة دالاس، ولاية تكساس، ذهب أحد الحمقى الأغنياء للمغامرة في حيّ عشوائي كبير يقطنه فقراء أحرار. انتهى به الأمر إلى ارتداء أحدث جهاز إلكتروني للسيطرة على المدانين- المعروف أيضاً باسم طوق العبيد، أو طوق الكلاب، أو طوق الخنق. وبوجود الطوق لتحفيزه، تعلّم أن يكون في خدمة أحد القوّادين المحليين. لقد سمعتُ أن هذهِ الأطواق الجديدة متطورة للغاية. فالأجهزة القديمة -التي كانت تُرتدى كأحزمة- لا تسبب غير الألم. تقوم بتوجيه صعقات تُلحق الضرر بالناس أو تقتلهم أحياناً. أما الأطواق الجديدة فلا تقتل، ويمكن ارتداؤها لشهور أو سنوات دون نزعها وتستخدم لإنزال العقاب. إنّها مُبرمجة لمقاومة نزعها أو تحطيمها من خلال توليد صدمات من الألم شديدة بما يكفي بحيث تسبب الإغماء. وسمعتُ أيضاً أن بعضاً من هذه الأطواق يُمكن أن تمنح مكافآت رخيصة ولذيذة من المتعة مقابل السلوك الحسن من خلال تشجيع تغييرات كيميائية في الدماغ- تحفيز دماغ مرتديها على إفراز هرمون الإندورفين. لا أعرف ما إذا كان هذا صحيحاً، ولكن إذا كان كذلك، فالمسألة برمّتها تبدو أشبه بأن يكون المرء متقمّصاً لحدٍّ ما- سوى أنه بدلاً من مشاركة

شعور الآخرين، فأن مُرتدي الطوق يشعر بما يريده الشخص الذي بيده وحدة التحكم أن يشعر به. هذا من شأنه أن يستحدث مستوى جديداً تماماً من العبوديّة. بعد حينٍ، تصبح حياة الشخص بأكملها عبارة عن حاجة إلى اللذّة، وخوف من الألم، وسعي دائم لإرضاء السيد. سمّعت أن بعض مرتدي الأطواق أقدموا على قتل أنفسهم، ليس لأنهم لم يحتملوا الألم، بل لأنهم لم يحتملوا درجة العبوديّة التي وجدوا أنفسهم ينحدرون إليها.

أنفق والد ذلك الصبي من تكساس الكثير من المال. استأجر رجال شرطة خاصين -من النوع الذي يفعلون أي شيء إذا دفعت لهم ما يكفي من المال- فقاموا بتقطيع الحيّ العشوائي كما لو أنه بطيخة ناضجة إلى أن عثروا على الصبي. وعندئذ، بينغو! تم اكتشاف العبوديّة في تكساس عام ٢٠٣٢. أُحتجز الأبرياء -وليس المجرمون أو المعوزون- رغماً عنهم واستخدموا في أغراض غير أخلاقية! فما رأيكم بهذا! ما أُريد رؤيته هو ولاية اتّحاد لا تمارس فيها العبوديّة.

إليكم خبرٌ آخر. تم اكتشاف كائنات حية متعددة الخلايا على كوكب المريخ... نوعاً ما. إنّها صغيرة جداً وغريبة جداً من الداخل، بالرغم من أنّها من الخارج تبدو مثل بزّاقات صغيرة... في بعض الأحيان. تعيش على عمق أربعة أمتار على الأقل في تشكيلات صخرية قطبية معيّنة، وهي لا تعتبر حيوانات بالضبط. إنّها تشبه الفطريات الغروية الأرضية. ومثلُ الفطريات الغروية فهي تمرّ بمراحل نمو كائنات وحيدة الخلية تلتهم خلالها الصخور في طريقها، وتتكاثر

بالانقسام، تشبه بذلك أميبا صغيرة مليئة بمضادات التجمد. وعندما تستنفد الإمدادات الغذائية في محيطها، تتّحد في كتل متعددة الخلايا شبيهة بالبزّاقات لتنتقل إلى موقع جديد تتوفر فيه المعادن التي تتغذى عليها. وهي لا تتكاثر في طور البزاقة مثلما تفعل الفطريات الغروية الأرضية. إذ يبدو أنّها تحتاج إلى شكل البزاقة فقط لإنتاج ما يكفي من محلول مضاد التجمد المسبب للتآكل لتتمكن من الانتقال عبر الصخور إلى مصدر غذائي جديد. وهي تنتج التربة بطريقتين. تتغذى على المعادن، وتمررها عبر أجسامها، وتلفظ غباراً ناعماً جداً ولزجاً جداً، بحيث يمكن أن يعمل مثل الجرافيت كنوع من مواد التشحيم. وتنسل من بين الصخور في شكل البزاقة، فتذيب المادة اللزجة المسببة للتآكل التي تفرزها المسارات والشقوق صانعة المزيد من التربة.

هذهِ الكائنات هي مرّيخيون أحياء! حتّى الآن، كلّ العيّنات التي تم جمعها وفحصها في محطة لِيل ماتت بعد فترة قصيرة من نقلها من موطنها البارد الصخري. لهذا السبب وغيره، فأن هذا يعدّ هذا اكتشافاً عظيماً ومحزناً جداً في نفس الوقت. لأنه سيكون آخر اكتشاف من قبل علماء يعلمون لصالح حكومة الولايات المتحدة.

لقد باع الرئيس دونر آخر منشآت كوكب المريخ إلى شركة أوربية-يابانية، وفاءً لواحد من وعوده الأولى في حملته الانتخابية. الفكرة خلف ذلك هي أنه يجب خصخصة كلّ الرحلات الفضائية

غير العسكرية، المأهولة وغير المأهولة. «إذا كان الأمر يستحق القيام به من الأصل»، قال دونر، «فيجب القيام به من أجل الأرباح، وليس كعبء على دافعي الضرائب». وكأن الأرباح تُحسب فقط من خلال الكسب المالي الفوري. لقد وُلدت عام ٢٠٠٩، وطوال حياتي أسمع الناس يشتكون من البرنامج الفضائي باعتباره مضيعة للمال، وحتى كأحد أسباب تدهور البلد.

يا للسخافة! هنالك الكثير لنتعلّمه من الفضاء نفسه ومن العوالم المجاورة! والآن بعد أن عثرنا على كائنات حية فضائية، نحن نستسلم. أفترض أنه لو كان من الممكن استغلال «الفطريات الغروية» المريخية في شيء ما -في التعدين مثلاً، أو في الكيمياء- فسيتم حمايتها، وتنميتها، وتكثيرها لتصبح أكثر فائدة. ولكن لو ثبت أن ليس لها فائدة معينة، فستُترك لتموت أو تحيا بقدر استطاعتها بوجود أيّة عوائق ترى الشركة أن من المناسب وضعها في طريقها. ولو أنّها سيئة الحظ وثبت أنّها تضر بالعمل بطريقة ما- على سبيل المثال استساغت التهام مواد البناء الخاصة بالشركة- فستكون محظوظة لو أنّها نجت إطلاقاً. أشكّ أن قوانين البيئة الأرضية قادرة على حمايتها. فهذه القوانين غير قادرة على حماية النباتات والحيوانات هنا على كوكب الأرض. ومن هذا الذي سيفرض مثل هذه القوانين على كوكب المريخ؟

مع ذلك، وبطريقة ما، فأنا سعيدة لأن منشآتنا قد بيعت بدلاً من أن تُهجر فحسب. بيعها أمر سيّئ، ولكنّه أهونُ الشرّين. فمعظم

الناس لن يمانعوا في رؤيتها مهجورة. يقولون إنه ليس من مصلحتنا تبديد الوقت والمال في الفضاء فيما يتعذب الكثير من الناس هنا على الأرض، هنا في أمريكا. لكنني أتساءل أين ذهبَت الأموال التي تمّ الحصول عليها من بيع المنشآت؟ لم ألاحظ أيّة برامج حكومية جديدة تخص التعليم أو التوظيف. ولا وجود لمعونات حكومية للمشردين والمرضى والجوعى. والأحياء العشوائية كبيرة وقذرة كعهدها. لقد تخلّينا، كدولة، عن حقوقنا الشرعية مقابل ما هو أقل حتّى من الخبز والحساء. لقد تخلّينا عن حقوقنا بلا مقابل- رغم أنني على يقين من أن أحداً ما في مكان ما ازداد ثراءً الآن.

ولكن، مع ذلك، تأمّل: تم اكتشاف شكل جديد تماماً من أشكال الحياة في المريخ، ولكنّ هذا الخبر حصل على وقتٍ أقل على قرص الأخبار من خبر فتى تكساس الهارب. لقد غدونا أكثر عزلة كشعبٍ. نحن ننزلق نحو تغيير سلبي غير موجّه، والأدهى، أنّنا بدأنا نعتاد عليه. في كثير من الأحيان، نحن نصوّر أنفسنا ومستقبلنا بهذه الطرق الغبية.

المزيد من الأخبار. تمكّن العلماء في استراليا من استيلاد جنين بشري في رحم صناعي. تم تخصيب الطفل في مختبر في طبق پتري ثم أُخذ بعد تسعة أشهر، وهو حيّ وسليم، من خلال سلسلة من الحاويات المعقّدة التي يتم التحكم بها بالكومبيوتر. الطفل هو صبي طبيعي لأبوين لم يستطيعا إنجاب طفل من دون قدرٍ كبير من المساعدة الطبيّة.

يسمّي الصحفيون حاويات الرحم هذه بـ «البيض»، وهنالك جدلٌ غبّي شائع حول ما إذا كان الشخص «الفاقس» هو بشريّ بقدر الشخص «المولود طبيعياً». وبالطبع، هنالك قساوسة وكهنة يقولون إن التلاعب بالتكاثر البشري أمرٌ خاطئ. ولكن لا أعتقد أنهم سيقلقون كثيراً بهذا الشأن في الوقت الحالي. فالعملية برمّتها لا تزال تجريبية ولن تكون متاحة إلّا للأثرياء جداً إذا ما جرى تسويقها- وهو ما لم يحصل بعد. أتساءل ما إذا كان هذا الأمر سينتشر في هذا العالم حيث الكثير من النساء الفقيرات اللواتي هنّ على استعداد للعمل كأمهات بديلات، يحملن في أرحامهن أطفال الأثرياء حتّى عندما يكون الأثرياء قادرين على الإنجاب بالطريقة الطبيعية. إذا كنت ثرياً يمكنك الحصول على أمّ بديلة مقابل ثمن لا يتجاوز إطعامها وإيوائها لمدة تسعة أشهر. وإذا كانت المرأة ذكية وكنتَ كريماً، ربما سينتهي بك الأمر إلى الموافقة على إطعام وإيواء وتعليم أطفالها. ويمكنك توظيف زوجها. والدة شانا رايان كانت تقوم بهذا العمل. وفقاً لشانا، لقد أنجبَت ثلاثة عشر طفلاً، ولا واحد منهم عنده صلة جينية بها. لم يستمرّ زواجها، ولكن تسنّى لابنتيها الحقيقيتين الحصول على فرصة لتعلّم القراءة والكتابة والطبخ والبستنة والخياطة. وبالطبع، ليس هذا كافياً في هذا العالم، ولكنّه أكثر ممّا يتعلّمه معظم الفقراء.

سيمرّ وقت طويل -سنوات، وربما عقود- قبل أن تُستبدل الأرحام البشرية المؤجرة بالبيض المحوسب. ولكن ضعوا في

حسبانكم: البيض مع تقنية الاستنساخ (لعبة أثرياء أخرى) ستمنح الرجال القدرة على الحصول على الأطفال من دون مساعدة النساء الجينية أو الإنجابية. سيظل هؤلاء الرجال بحاجة إلى بويضة امرأة، منزوعة من محتواها الجيني، ولكن سيكون هذا كلّ ما يحتاجونه. إذا شاعت هذه الفكرة، فربما سيكونون على استعداد لاستخدام بويضات من الحيوانات.

وبالطبع ستتحرّر النساء كُلياً من الحاجة إلى الرجال، بما أنّهن قادرات على إنتاج بويضاتهن. أتساءل ماذا سيعني هذا للبشرية في المستقبل، هل هو تغيير جذري أم أنه مجرد خيار آخر من بين عدّة خيارات؟

يمكنني أن أرى فائدة الأرحام الصناعية عندما نسافر إلى الفضاء خارج المجموعة الشمسية- مفيدة في حمل أولى حيواناتنا بمجرد أن تُنقل كأجنة مجمّدة، ومفيدة في حمل الأطفال إذا كان العمل غير الإنجابي للنساء المستوطِنات ضرورياً للحفاظ على استمرارية المستعمرة. بهذهِ الطريقة، ربما يكون البيض مفيداً لنا -لبذرة الأرض- على المدى البعيد. ولكنّي أتساءل ماذا ستفعله بالمجتمعات البشرية في هذه الأثناء؟

لقد أبقيتُ على الخبر الأسوأ إلى الأخير. كان موعد إجراء الانتخابات يوم الثلاثاء الموافق للثاني من نوفمبر. لقد فاز جاريت. عندما سمع بانكول هذا الخبر قال «رحمة الربّ على أرواحنا». أما أنا فأجد نفسي أكثر قلقاً على أجسادنا. قبل الانتخابات كنتُ أقول

لنفسي إن الناس أعقل من أن ينتخبوا رجلاً يحرق أنصارُه الناسَ أحياءً بتهمة ممارسة السحر، ويحرقون كنائس ومنازل الناس الذين لا يروقون لهم.

لقد صوّتنا جميعاً -كل من بلغ سنّ الاقتراع- وأغلبنا صوّت لصالح نائب الرئيس إدوارد جاي سميث. لا أحد منا رغب بوجود رجلٍ فارغ مثل سميث في البيت الأبيض، ولكن حتّى الرجل الذي لا يملك أيّة فكرة في رأسه أفضل من الرجل الذي ينوي أن يسوقنا بالسوط لإعادتنا إلى إلهه الخاص مثلما طرد يسوع الباعة من الهيكل مستخدماً السوط. وقد استخدم جاريت هذا التشبيه أكثر من مرة.

إليكم بعض العبارات التي قالها جاريت عندما كان يصرخ من على منبر كنيسة أمريكا المسيحيّة. لقد احتفظتُ بالعديد من خطبه على قرصٍ.

قال: «أيها المسيحيّون الأمريكيون، كان هناك وقت حكمَت فيه بلادنا العالم بأسرّه. كانت أمريكا بلد الربّ وكنا شعب الربّ، والربّ يعتني بشعبه. والآن انظروا إلينا. من نحن؟ ما نحن؟ ما هذا الخليط الوثني الفاسد الخبيث الهائج الذي أصبحنا عليه؟

أنحن مسيحيّون؟ حقاً؟ ألا يمكن لبلدنا أن يصبح ربما خليطاً من القليل من المسيحيّين والقليل من البوذيين؟ ماذا عن القليل من المسيحيّين والقليل من الهندوسيين؟ أو ربما يمكن لدولة أن تكون خليطاً من القليل من المسيحيّين والقليل من اليهوديين؟ وماذا عن

القليل من المسيحيّين والقليل من المسلمين؟ أو ربما القليل من المسيحيّين والقليل من الوثنيين؟».

ثم أرعد وأزبد قائلاً: «إما أنّنا شعب الربّ أو أنّنا نجس! إما أنّنا شعب الربّ أو أنّنا لا شيء! نحن شعب الربّ! شعب الربّ!

ربّاه! ربّاه! لماذا تركناك!

لماذا سمحنا لأنفسنا أن يغوينا ويغدرنا حلفاء الشيطان، أولئك الوثنيون مروّجو العقائد الباطلة وغير المسيحيّة؟ هؤلاء الناس... هؤلاء الوثنيون ليسوا فقط مخطئين. إنهم خطيرون. إنهم مهلكون كالرصاص، مُعدون كالطاعون، سامّون كالأفاعي في المجتمعات التي يتفشّون فيها. إنهم يقتلوننا، أيها الأخوة والأخوات المسيحيّون. إنهم يقتلوننا! سيجلبون علينا غضب الربّ العادل بسبب كرمنا المُضلَل تجاههم. إنهم المدمّرون الطبيعيون لبلدنا. إنهم عشّاق الشيطان، مغوو أطفالنا، مغتصبو نسائنا، بائعو المخدرات، مرابون، لصوص، وقتلة!

وفي مواجهة كلّ ذلك، من نحن لهم؟ هل نعيش معهم؟ هل نتركهم يجرّون بلدنا إلى قاع الجحيم؟ فكّروا! ماذا نفعل للحشائش الضارة، للفيروسات، للديدان الطفيلية، للسرطانات؟ ماذا يجب علينا أن نفعل لحماية أنفسنا وأطفالنا؟ ماذا نستطيع أن نفعل لاستعادة أمّتنا المنهوبة؟».

قذارة ما بعدها قذارة! كان جاريت عضو مجلس الشيوخ الأصغر عن ولاية تكساس عندما ألقى العِظة التي احتوَت على هذه السطور.

لم يُجب على الأسئلة التي طرحها. ترك ذلك لمستمعيه. ومع ذلك فهو يقول إنه ضدّ حرق الناس بتهمة السحر.

كانت خطاباته خلال حملته الانتخابية أقل استفزازاً لحدٍ ما من عظاته. فقد توجّب عليه أن ينأى بنفسه عن أسوأ مواليه. لكنه لا يزال يعرف كيف يهيّج الغوغائيين من أتباعه، ويعرف كيف يتواصل مع الفقراء، ويحرّضهم على الفقراء الآخرين. أتساءل كم يُصدِّق من هذا الهراء، وكم ممّا يقوله فقط لأنه يعرف أهمية المثل القائل «فرّق تسُد»؟

حسناً. لقد انتصر. وفي يناير من العام القادم سيؤدي اليمين ويتولى الحكم. بعدها أفترض أنّنا سنعرف كم يصدّق من البروباغندا خاصّته.

هناك خبرٌ آخر سعيد على صعيد محلي، حدث هنا في أيكورن يوم أمس. لوسيو فيغارو، وزهرا بالتر، وجيف كينغ، جاؤوا معهم بحمولة ضخمة من الكتب لمكتبتنا. بعضها يبدو جديداً تقريباً. وبعضها الآخر قديم ومهترئ، لكنّها كلّها كانت في حماية من الجوّ والماء والحرائق. هنالك كتب منهجية دراسيّة وصولاً إلى مستوى التخرج في مواضيع مختلفة، وقواميس تخصصية، ومجموعة من الموسوعات -طبعة ٢٠٠١- وكتب في التاريخ، وكتب تعلّم أسرار الصنعة، وعشرات الروايات. لقد صادف جيف كينغ هذه الكتب وهي تُباع بالمجان تقريباً في سوق بالة في أركاتا.

«أحدهم كان يُخلي غرفة لكي يُسكن فيها أقاربه»، أخبرني،

«لقد مات صاحب هذه الكتب. كانت العائلة تراه غريب الأطوار، ولا أحد في منزله شاركه حماسته في قراءة الكتب الورقية الكبيرة الضخمة. رأيتُ أنكِ لن تمانعي إذا اشتريتُها من أجل المدرسة».

«أمانع؟»، قلت، «طبعاً لا أمانع!».

قال: «أخبرني لوسيو أنه ليس متأكداً من أنّها طريقة مناسبة لإنفاق المال، لكن زهرا قالت إنكِ ستُجنّين من أجل الحصول على المزيد من الكتب. فكّرت أنّها الأعرف».

ابتسمتُ. قلت: «بلى، إنّها الأعرف. لقد ظننتُ أنكم كلّكم تعرفون».

كان هنالك خمسة عشر صندوقاً مليئاً بالكتب. حملناها إلى المدرسة. وقد تعافينا اليوم بقدر ما يمكننا من الأخبار التي سمعناها على قرص الأخبار العالمية من خلال العمل على الكتب وترتيبها في الرفوف. قرأنا لبعضنا البعض أجزاء من هنا وهناك. ازداد حماس الناس واهتمامهم، وحمل كلّ واحد منهم كتاباً أو اثنين ليقرأه. بعد سماع الأخبار، كنّا جميعاً بحاجة إلى قراءة شيء غير محبط.

اخترتُ بعض الكتب عن الرسم. لم أحاول رسم أي شيء منذ أن كنت في السابعة أو الثامنة من عمري. والآن، فجأة، أجد نفسي مهتمة بتعلّم الرسم، أو بالأحرى تعلّم الرسم بإتقان، إذا كان ذلك باستطاعتي. أريد أن أتعلّم شيئاً جديداً لا علاقة به بأيّة مشكلة من مشاكلنا.

الأحد، ١٤ نوفمبر، ٢٠٣٢

أنا حُبلى!

بدون تأجير أرحام، بدون بيض محوسب، بدون أدوية. لقد نجحنا أنا وبانكول بفعلها على الطريقة قديمة الطراز. أخيراً!

من الجنونيّ أن يحدث هذا الآن، بعدما انتخبت أمريكا رجلاً أرعن ليقودها. بدأنا أنا وبانكول بمحاولة الإنجاب بعد أن وجدنا أنه يمكننا العيش هنا في أيكورن. لم يكن بوسع زوجة بانكول الأولى إنجاب الأطفال. في التسعينيات تعرّضت لحادث سيارة خطير عندما كانت شابة، وتوجّب أن تخضع لعملية استئصال رحم. يزعم بانكول أنه لم يتضايق قطّ. قال إن العالم كان يتوجه إلى الجحيم بأسرع ما يمكنه، ومن القساوة إنجاب طفل فيه. تحدّثنا عن التبنّي، لكن ذلك لم يحصل. والآن سيصبح أباً، وبالرغم من كلامه، إلّا أنه يكاد يطير من السعادة- ذلك عندما لا يكون مرتعباً حدّ الموت. إنه يتحدّث ثانية عن الانتقال إلى العيش في بلدة. لم يفتح هذا الموضوع منذ أن حصلنا على الشاحنة، لكنّه يتحدّث في هذا الموضوع الآن، وهو جادّ في كلامه. إنه يرغب بحمايتي. أُدرك هذا. أفترضُ أنه يجب عليّ أن أكون سعيدة لشعوره هذا، ولكن أتمنى لو أنه يُظهر مشاعر الحماية بطريقة أخرى.

«أنتِ نفسكِ لا زلتِ طفلة»، قال لي، «لا تملكين إحساساً بالخوف».

ولا أغضب منه لقوله أشياء من هذا القبيل. إنه يقولها، ثم يفكّر للحظة، وإذا لم ينتبه لنفسه، فسيبدأ بالابتسام كولدٍ. ثم يتذكر مخاوفه ويبدو مرعوباً. يا للرجل المسكين!

٦

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

الربّ هو التغييرُ.
ومخبوءُ في التغييرِ
مفاجأةٌ، بهجةٌ
حيرةٌ، ألمٌ
اكتشافٌ، خسارةٌ
فرصةٌ، ونماءٌ.
وكعهده على الدوامِ
الربُّ موجودٌ
حتى يصوِّر
ويُصوَّر.

أفترضُ أنّ من الجيد أن ربّ أُمّي هو التغيير. فلطالما كانت تغيرات في حياتها مفاجئة ومهمة. لا أظن أنّها كانت بالفعل أكثر استعداداً من

أي شخص آخر للتغييرات المفاجئة، لكن معتقداتها ساعدتها على التأقلم مع التغييرات، بل وحتى استغلالها عندما تحدث.

لقد استمتعتُ بالقراءة عن ردود فعلها هي وأبي على الحمل بي. يا لهما من زوجين غير متوافقين، ومع ذلك، يا له من ردّ فعل طبيعي. لم تعرف أنّها كانت مقبلة على تغيير جسيم آخر حتّى قبل أن تعتاد على أن تكون حبلى.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٥ ديسمبر، ٢٠٣٢

صرّح متحدّث باسم أمريكا المسيحيّة أن الكنيسة ستفتح ملاجئ للمشردين ودور للأطفال -ميانم- في عدّة ولايات، بضمنها كاليفورنيا، وأوريغون، وواشنطن. يقولون إنّ هذه مجرد بداية. ويأملون بمرور الوقت أن «يمدّوا يدّ العون للناس في كلّ ولاية في الاتحاد، بما في ذلك ألاسكا». سمعتُ هذا على قرص أخبار اشتراه مايك كاردوس من سوق بالة في أحد شوارع غاربرفيل يوم أمس. أظن أنه حان الوقت لتلميع صورة أمريكا المسيحيّة. آمل فقط أن توضع الملاجئ والميانم في كاليفورنيا في المناطق التي هي بأمسّ الحاجة إليها- سان دييغو، ولوس أنجلوس، وسان فرانسيسكو. لا أريدها هنا. لأن أعضاء أمريكا المسيحيّة أشخاصٌ مخيفون، وأجد أن من المستحيل عليّ تصديق أنهم لا ينوون إلّا على فعل الخير ومساعدة الآخرين.

الجمعة، ١٧ ديسمبر، ٢٠٣٢

اليوم وجدتُ أخي ماركوس.

أعرف أن هذا مستحيل، لكنّني عثرتُ عليه. إنه مريض، خائف، مشوش، وغاضب. لكنّه على قيد الحياة! لقد وجدته في يوريكا، كاليفورنيا، بالرغم من أنه مات قبل خمس سنوات في روبليدو.

لا أعرف ماذا أقول عن هذا الأمر. لا أعرف كيف أتعامل معه. الكتابة عنه تساعدني. بطريقة ما، تساعدني الكتابة دائماً.

قبل بزوغ فجر هذا اليوم، توجّه خمسة منا بالسيارة إلى يوريكا. احتاج بانكول إلى إمدادات طبية، وكانت عندنا بضعة حمولات من الخضروات والفواكه الشتوية لإيصالها إلى المتاجر الصغيرة المستقلة التي بدأت تشتري منتجاتنا. وبعدها، كانت أمامنا مهمة خاصة لإنجازها.

لم يرغب بانكول بذهابي. بات يقلق عليّ الآن أكثر من السابق، ويظل يلحّ علي في موضوع الانتقال إلى بلدة. يمكننا أن نحظى بمنزل صغير لطيف ويمكنه أن يكون طبيبَ البلدة. يمكننا أن نعيش حياة صغيرة لطيفة فارغة أنتيكية، ويمكنني نسيان أنني أمضيتُ الخمس سنوات الماضية في الكفاح لتأسيس مجتمع أيكورن ليكون بداية بذرة الأرض. والآن بعد أن حصلنا على الشاحنة، بات التنقل أقل خطورة بكثير من السابق، لكن عزيزي بانكول أصبح قلقاً أكثر من أي وقت مضى.

ولأُصدِقَكم القول، فهنالك الكثير ممّا يستدعي القلق. كلّنا كنّا نتوخى الحذر منذ الغارة على مزرعة آل دوفيتري. ولكن يجب أن نعيش. ويجب أن نعمل.

«إذن أيكورن آمنة الآن؟»، قلتُ لبانكول، «سأكون بأمان إذا بقيتُ هنا؟».

«أكثر أماناً من تنقّلك في أرجاء المقاطعة»، تمتم، لكنّه كان يعرفني حقّ المعرفة ليترك الموضوع. على الأقل سيأتي معنا لكي يعتني بي.

سيرافقنا دان نوير أيضاً لأن مهمّتنا الخاصّة تتعلّق به. في طريق عودتنا سنقابل رجلاً اتصل بنا عبر أصدقائنا في جورجتاون، مدّعياً أن عنده إحدى أُختَي دان الصغيرتين، وأنه يريد بيعها لنا. الرجل قواد بالطبع، «تاجر مواشٍ، متخصصّ في الخرفان والدجاج»، كما تقول إحدى العبارات المنمّقة. أي أنه رجل يضع أطواق العبيد على أعناق الأطفال ويقوم بتأجير أجسادهم إلى الرجال البالغين. أكره فكرة التعامل مع حثالة كهذا، ولكن هذا القذر وأمثاله هم بالضبط من قد يكون عندهم نينا وباولا نوير.

طلبت من ترافيس وناتيفيداد دوغلاس أن يأتيا معنا، ليقوما بمهمة الحراسة، وبالنسبة لترافيس كي يقوم بإصلاح الشاحنة في حالة تعرّضت لأي عطل. لقد ائتمنتُهما على حياتي أكثر من مرّة. أنا أثق بحكمهما وبقدرتهما على القتال. شعرتُ بالحاجة إلى وجود مثل هؤلاء الناس خلفي عندما أتعامل مع نخّاس.

قمنا بتسليم شحناتنا مبكراً إلى اثنين من المتاجر المستقلة، كما وعَدنا- محاصيل من حقولنا ومما بقي من محاصيل حديقة آل دوفيتري الشاسعة وبستان أشجار فاكهة صغير. لقد سُرقت شاحنة وجرّار زراعي من ملكية آل دوفيتري خلال الغارة التي دمّرت المزرعة. وأحرقَت المنازل والمباني الملحقة بها ومعمل تقطير الكحول والحقول. ولكن نجَت بعض أشجار الفواكه ومحاصيل الحديقة. وبما أن الخمسة الناجين من آل دوفيتري قد قرروا البقاء معنا -الانضمام إلينا كأعضاء في بذرة الأرض ما أن تنتهي فترة سنة الاختبار المطلوبة- فقد شعرنا بأننا نتمتّع بحرّية أخذ ما يمكننا من ملكيتهم. لدى المرأتين من آل دوفيتري بعض الأقارب في مناطق أخرى من الجبال، لكنهما لا تحبانهم، ولا تريدان أن تُحشرا معهم في منازلهم المكتظة. إنهما تنسجمان معنا، وبالرغم من أنهما محشورتان الآن مع الآخرين، لكنّهما تعرفان أنه سيكون لديهما كوخ خاص بهما قرابة الوقت الذي ستنضمّان إلينا فيه كعضوتين.

وبالتأكيد بإمكانهما العودة للعيش في أرضهما. لكن امرأتين وثلاثة أطفال لن يتمكّنوا من النجاة بمفردهم. لن يمكنهم النجاة بمفردهم حتّى في مكان خفيّ ومحمي مثل أيكورن. وإذا حاولوا العيش في مزرعة آل دوفيتري القريبة من الطريق السريع فسرعان ما سيتم استرقاقهم أو يقتلون. المنازل والمزارع التي يمكن رؤيتها من الطريق السريع لا بدّ أن تكون مُغرية لليائسين والانتهازيين والآن المتعصبّين. لقد نجت مزرعة آل دوفيتري لأن العائلة كانت

كبيرة، ومسلّحة جيداً، ومعروفة بالصلابة. وقد نجح الأمر معهم إلى أن ظهر جيشٌ صغير عنيد. على فكرة، لقد كان المهاجمون بالفعل من الموالين لجاريت. لقد أتو من منطقة يوريكا-أركاتا، من كنائس أمريكا المسيحيّة التي انتشرت هناك. لا يملكون سلطة قانونية، لكنهم يؤمنون أن الربّ إلى جانبهم، وأن أعمال التطهير التي يقومون بها هي خدمة الربّ. لسببٍ ما، يبدو أنّ أموراً من هذا القبيل لا تصل في العادة إلى الشبكات والأقراص الإخبارية. لقد عرفتُ عنها من الحديث مع الناس. عندي مصادر جيدة للأخبار المحلية.

اشترى بانكول تجهيزاته الطبية تالياً. إنّها أغلى الأغراض التي نشتريها، لكنّها أيضاً الأكثر ضرورة. نحن، كما يقول بانكول، مجتمع شاب يتمتّع بالصحة، لكن العالم من حولنا ليس صحّياً. بفضل سوء التغذية، التغير المناخي، الفقر، والجهل، فقد عاودت الظهور الكثير من الأمراض القديمة، وبعضها أمراض معدية. حدث تفشٍّ لمرض السعال الديكي في منطقة الخليج في الشتاء الماضي، امتدّ إلى الطريق السريع شمالاً وصولاً إلى وكياه في مقاطعة ميندوسينو. ولا أعرف لماذا توقف عند هذا الحدّ. وحدث تفشٍّ لمرض السُعار في الصيف الماضي. فقد تعرّض الكثير من سكّان المخيمات العشوائية للعضّ من قبل الكلاب أو الجرذان المسعورة. لقد ماتوا بسبب المرض، وقُتل بضعة مراهقين رمياً بالرصاص لأنهم كانوا يتظاهرون بإصابتهم بالسعار لإخافة الناس. لذا، مهما كانت الأموال التي ندفعها للبقاء أصحاء، فالأمر يستحق الثمن.

عندما انتهينا من عملنا في يوريكا، توجّهنا للقاء النخّاس في المكان الذي اتفقتُ معه على اللقاء فيه، جنوب شرق يوريكا في جورجتاون. يمتد الحيّ العشوائي المسمّى جورجتاون إلى الخلف من الطريق السريع في التلال الساحلية. المكان عبارة عن صحراء من صنع البشر، مغبرّ عندما يكون الجو جافاً، وموحل عندما يكون الجو ممطراً، بلا أشجار ولا نباتات، يغصّ بأفقر الفقراء، بمجاريهم المفتوحة، بمخدراتهم، بجرائمهم، بأمراضهم، بسوء تغذيتهم. يقول بانكول إنّها كانت يوماً ما منطقة جميلة ذات مزارع وأشجار وتلال. لا بدّ أن ذلك كان قبل وقت طويل. سُمّي الحيّ العشوائي باسم جورجتاون لأن أكثر شيء يحمل مظهراً دائمياً في هذا المكان هو مجموعة من البنايات الرثّة من الخشب الأحمر التي تقع على قمة تلّ مسطحة ويمكن رؤيتها من أي مكان في الحيّ. ثمّة متجر، ومقهى، وقاعة ألعاب، وحانة، وفندق، ومحطة وقود، ومحل تصليحات يتم فيه إصلاح الأسلحة والعُدد والمركبات من كلّ الأنواع. المجمّع بأكمله يُدعى بمجمّع آل جورج، وتديره عائلة ضخمة لقبها آل جورج. في مقهى آل جورج هناك الكثير من صناديق البريد المستأجرة حيث يمكن ترك الطرود والرسائل الورقية فيها، وهناك صفّ طويل من الهواتف العمومية التي يمكنك من خلالها الوصول إلى أية شبكة أو خدمة أو مجموعة أو فرد، مقابل رسوم باهظة. هذهِ الخدمة بالذات قد جعلت من المكان مزيجاً من مركز بريد، ومكان اجتماع، وصالون من حقبة الغرب القديم. من المعتاد هناك الترتيب للقاء الأشخاص لإتمام أعمال من

كلّ الأنواع. يحرص إلروي جورج، وأبناؤه، وأصهاره، وإخوته، وأبناء إخوته على أن يلتزم الجميع بحُسن السلوك. آل جورج قبيلة هائلة لا يُستهان بها. إنهم يتكاتفون مع بعضهم البعض، والناس يحترمونهم. أسعارهم مرتفعة، لكنّهم نزيهون. مع آل جورج أنت تحصل على ما تدفعُ ثمنه. لكن من المؤسف القول إن العبيد أو المخدرات بعضٌ من الأشياء التي تُشترى في المقهى أو في أي مكان آخر في المجمّع. آل جورج ليسوا نخّاسين، لكنّ عُرف عنهم التجارة بالمخدرات. أتمنى لو لم يكن ذلك صحيحاً، لكنه كذلك. آمل فقط ألّا يكون مصيرهم كمصير آل دوفيتري. إنهم أقوى وأكثر تحصيناً، ويمتلكون معارف سياسيين أكثر من آل دوفيتري، ولكن من يدري؟ الآن وقد انتُخب جاريت، من يدري؟

دولوريس راموس جورج، كبيرة العائلة، هي التي تدير المتجر والمقهى وتعرف الجميع. وهي معروفة بكونها امرأة صلبة ولئيمة، ولكن حسبما أرى، فهي مجرد امرأة واقعية. تقول رأيها بصراحة. إنّها تعجبني. هي واحدة من الناس الذين تركتُ معهم خبراً عن ابنتَي آل نوير. عندما سمعَت بالقصة هزّت رأسها فحسب. «غير معقول»، قالت، «لماذا لم يقوما بنوبات حراسة؟ بعض الآباء بلا عقل إطلاقاً».

«أعرف»، قلت، «ولكن يجب أن أفعل كلّ ما بوسعي؛ من أجل الأطفال الثلاثة الآخرين».

«نعم»، نفضت كتفيها، «سأخبر الناس. لكن ذلك لن يجدي نفعاً».

ولكن الآن يبدو أن الأمر قد أتى أُكلَه بالفعل. وتعبيراً عن امتناني، جلبتُ إلى دولوريس سلّة من برتقال أبي سرّة، وسلّة من الليمون، وسلّة من فاكهة الكاكي. وإذا عثرنا على إحدى ابنتَي آل نوير أو كِلتيهما نتيجة لنشرها الخبر، سأكون مدينة لها بنسبة من المكافأة- عمولة وسيط نوعاً ما. ولكن بدا من الحكمة أن أحرص على أن تبدو هي الرابحة دائماً، مهما يكن.

«فاكهة جميلة! جميلة حقاً!»، قالت مبتسمة وهي تتطلّع في سلال الفاكهة وتتفحصها. إنّها سيدة بدينة، تبلغ من العمر ٥٣ عاماً، لكن الابتسامة جعلتها تبدو أصغر بسنوات. «هنا، إذا لم تقومي بحماية شجرة الفاكهة بإطلاقك النار على بضعة أشخاص لكي تثبتي للجميع أنّكِ جادة، فسيمزقون كلّ الفاكهة من الأشجار، ويقطعون الشجرة للحصول على الحطب. لن أسمح لأولادي بقتل الناس من أجل حماية الأشجار والنباتات، ولكنّي حقاً أفتقد البرتقال والعنب وما شابه».

نادت بعضاً من أحفادها الصغار ليأتوا ويحملوا سلال الفاكهة إلى المنزل. رأيت الطريقة التي نظر بها الأطفال إلى الفاكهة، لذا حذّرتهم أن لا يأكلوا من فاكهة الكاكي إلى أن يصير ملمسها طريّاً. أخذتُ واحدة تبدو صلبة وقطّعتها أمامهم ودعوت كلّ طفلٍ منهم ليتذوق منها، لكي يعرفوا جميعاً مدى فظاعة طعم شيء جميل للغاية قبل أن ينضج. وإلا فأنهم سيُفسدون الكثير من ثمار الكاكي في بحثهم عن واحدة لذيذة وناضجة. رأيتُ البارحة أطفال آل دوفيتري في

أيكورن وهم يقومون بنفس هذا الفعل. نظرت دولوريس نحوي وهي تبتسم. أي شخص يتعامل بلطفٍ مع أحفادها سيكون صديقها مدى الحياة- طالما أنه لا يغضب بقية أفراد عائلتها.

«تعالي»، قالت لي، «القذر الذي ترغبين بالحديث معه جالس في المقهى. هل هذا هو الصبي؟»، نظرَت إلى دان، وكأنها تنتبه لوجوده لأول مرة، «هل هي أختُك؟».

أومأ دان بصمت.

«أتمنى أن تكون هي الفتاة المنشودة»، قالت. ثم نظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل، وابتسمت ثانية. «إذن، أنتِ تكوّنين أُسرة. أخيراً! كان عمري ستة عشر عاماً عندما ولَدتُ أول أطفالي».

لم أتفاجأ. أنا حاملٌ في الشهر الثاني فقط، ولا يبدو حملي ظاهراً للعيان. لكنّها بلا شكّ ستلاحظ، بطريقة ما. مهما بدت مشتتة وتصرفت كالجدّات عندما يحلو لها الأمر، إلّا أنّها لا تدع شيئاً يفوتها.

تركنا ناتيفيداد في الشاحنة للحراسة. هنالك الكثير من اللصوص البارعين في جورجتاون. الشاحنات تحتاج للحراسة. جاء ترافيس وبانكول معي أنا ودان إلى المقهى، لكن دان والرجلين جلسوا إلى طاولة أخرى جانباً لكي يساندوني في حال وقع شيء غير متوقع بيني وبين النخّاس. إذا كان الناس يمتلكون عقولاً فأنهم لا يفتعلون المشاكل داخل مقهى آل جورج، ولكنّك لا تدري أبداً متى تتعامل مع حمقى.

أشارت دولوريس إلى رجل طويل ونحيل وقبيح يرتدي ملابس سود بالكامل ويحاول جهده لكي يبدو مُحتقِراً للعالم بأجمعه ولمقهى آل جورج بالأخص. كأن على ملامحه تعبير استهزاء دائمي.

كان جالساً بمفرده مثلما اتفقنا، لذا توجّهتُ نحوه وحدي وعرّفتُ عن نفسي. كرهتُ صوته الجاف الخشن وعينيه البُنيّتين المائلتين للصفرة. لقد استخدمهما ليُرهبني بنظراته. حتّى رائحته أثارت اشمئزازي. كان يضع عطر ما بعد حلاقةٍ أو كولونيا جعلته يفوح برائحة ثقيلة قذرة وحلوة. حتّى رائحة العرق أقل شناعة من رائحته. كان أصلع، حليقاً، بأنف منقاريّ، ولون محايد لدرجة أنه قد يكون رجلاً أسود ولكن ببشرة فاتحة، أو لاتينياً، أو رجلاً أبيض ولكن ببشرة داكنة. كان يرتدي، بالإضافة إلى السروال الأسود والقميص الأسود، جزمة فخمة سوداء جلدية -يبدو أنه لم يبخل على نفسه- وحزاماً جلدياً عريضاً ثقيلاً مزيّناً بما خِلته في البداية مجوهرات. ولكنّي بعد لحظات أدركت أنه كان حزامَ تحكّم من النوع الذي تلبسه عندما تتحرّك كثيراً وتتحكم بالعديد من الأشخاص بواسطة أطواق العبيد. لم يسبق لي رؤية مثله من قبل، ولكني سمعت الناس يصفونه.

يا للوغد البغيض.

قال: «أنا كوغر».

القذر، فكّرت. ولكن قلتُ: «وأنا أولامينا».

قال: «الفتاة في الخارج برفقة بعض من أصدقائي».

قلتُ: «فلنذهب لرؤيتها».

خرجنا من المقهى سوية، يتبعنا أصدقائي وأصدقاؤه. كان هناك رجلان جالسين عند الطاولة التي على يمينه، نهضا من مقعديهما ما أن نهض. كان الأمر كله أشبه برقصة سخيفة.

في الخارج، بالقرب من جذع شجرة خشب أحمر كبير مشوّه وميت، وقف عدّة أطفال بالانتظار، يحرسهم رجلان آخران. وأكثر ما فاجأني أن الأطفال كانوا يبدون كأطفال اعتياديين. لم يُلبسوهم بحيث يبدون أكبر سناً أو حتّى أصغر سناً. فالصِبية -وأحدهم لا يبدو أنه تجاوز العاشرة من العمر- كانوا يرتدون سراويل من الجينز وقمصاناً بأكمام قصيرة. وارتدت ثلاث فتيات تنانير وبلوزات، وارتدت ثلاثٌ أخريات سراويل قصيرة وقمصاناً بأكمام قصيرة. بدت كلّ سراويل الجينز أضيق من اللازم، وبدت كلّ التنانير أقصر من اللازم، ولكنّها عموماً ليست أسوأ من الملابس التي يرتديها الأولاد الأحرار من مثل أعمارهم.

كان الرقيق نظيفين وبدوا منتبهين وحذرين. لم تبدُ عليهم آثار المرض أو الضرب، لكنّهم جميعاً كانوا يراقبون كوغر. نظروا إليه وهو يخرج من المقهى، ثم أشاحوا النظر بحيث يمكنهم مراقبته خلسةً من دون أن يبدو عليهم أنهم يراقبونه. إنهم لا يُجيدون فعل ذلك بعدُ، لذا لم أستطع منع نفسي من ملاحظتهم. نظرتُ إلى دان الذي لحقنا برفقة بانكول وترافيس. نظر دان إلى الأطفال الرقيق،

وتوقّف للحظة فيما راحت عيناه تبحثان بين البنات الأكبر سناً، ثم هزّ رأسه.

«ولا واحدة هنا»، قال، «إنها ليست هنا!».

«تريث!»، قال كوغر. نقر على حزامه فتقدّم أربعة أطفال آخرين من خلف جذع الشجرة الكبير -ولدان وبنتان. كانوا أكبر سناً من البقية -منتصف وأواخر سنوات المراهقة. كانوا أطفالاً جميلين- أجمل من رأيت في حياتي على الإطلاق. ووجدتُ نفسي أحدّق في واحد منهم.

وقف دان خلفي وهو ينشج قائلاً: «لا، لا، أنّها ليست هنا! لماذا قلتِ إنّها هنا؟ إنّها ليست هنا!». بدا حينها أصغر سناً بكثير من خمسة عشر عاماً.

سمعتُ بانكول يتحدّث معه محاولاً تهدئته، لكنّني وقفت مسمّرة في مكاني، أحدّق في واحد من الصِبية- كان شاباً في الحقيقة. بادلني الشاب النظر ثم أشاح بوجهه. ربما لم يتعرّف عليّ. أو ربما كان يحذّرني. لكنني تأخرتُ في فهم تحذيراته.

«هل يعجبُكِ هذا الفتى؟»، همس كوغر.

خراء.

قال: «إنه أفضل واحد عندي. يافع وقويّ. خُذيه بدلاً من الفتاة».

تظاهرتُ بالنظر إلى الفتيات. بدت إحداهن شبيهة بالأوصاف التي نشرناها لأختَي دان: كانتا نحيلتين، داكنتَي الشعر، جميلتين،

في العام الثاني عشر والثالث عشر. كانت عند نينا ندبة في جبينها تحت منبت الشعر مباشرة حيث احترقت عندما كانت في الرابعة من عمرها وعندما كانت هي وباولا ودان يلعبون بأعواد الثقاب. اشتعلت النيران في شعرها. كانت عند باولا شامة -كانت تسمُيها حسنة- على الجانب الأيسر من وجهها بالقرب من أنفها. وكانت عند الفتاة التي تمنى كوغر أن نشتريها ندبة تحت منبت الشعر مثل نينا. حتّى أنّها كانت تشبه ميرسي نوير بعض الشيء. ذات الوجه قلبيّ الشكل.

«هل قالت إن اسمها هوَ نينا نوير؟»، سألتُ كوغر.

ابتسم. «لا يمكنها الكلام»، قال، «ولا يمكنها الكتابة أيضاً. هذا أحسن أنواع الإناث. ولكن لا بدّ من أنّها قالت شيئاً سيئاً لأحدٍ ما، عندما كان بوسعها الكلام في السابق. فقد قطع أحدهم لسانها قبل أن أشتريها».

لم أسمح لنفسي بإبداء أيّة ردة فعل، ولكن لم يكن بوسعي إلّا التفكير بعزيزتنا ماي في أيكورن. ما زلنا لا نعرف يقيناً من الذي يقطع الألسنة، ولكننا نعرف أن بعض المنتمين إلى أمريكا المسيحيّة سيسعدُهم إخراس جميع النساء. لطالما نادى جاريت بوجوب احترام وتقدير وحماية المرأة، ولكن من أجل مصلحتها، يجب عليها أن تصمت وتطيع إرادة زوجها، أبيها، أخيها، أو ابنها البالغ، لأنهم يفهمون العالم وهي لا تفهمه. هل هذا هو الأمر؟ إما أن تخرس المرأة أو يتم إخراسها؟ أم أنه أمرٌ أبسط- مجرد قوّاد في المنطقة يحبّ قطع

ألسنة النساء؟ لم أعتقد أن كوغر قد فعلها. لم تكن ثمّة أيّة علامة في لغة جسده توحي بأنه كان كاذباً أو مخادعاً. ربما قد يعني هذا أنه بارع في الكذب، لكنني لا أظن ذلك. بدا لي أنه كان يقول الحقيقة لأنه لم يكن يأبه. لم يكن يكترث البتّة بمن قطع لسان الفتاة أو لماذا. أما أنا فعلى العكس. لم تكن بيدي حيلة. كم سنرى بعدُ من مثل هذه التشويهات؟

تململ الشاب الوسيم في مكانه بطريقة قلقة ضاجّة لكي يجذب انتباهي إليه ثانية. ليس وكأني في خطر نسيانه أصلاً. وكان هو الشخص الذي تعيّن عليّ شراؤه الآن.

«بكم تبيعه؟»، سألتُ. لقد فات أوان التظاهر بأني غير مهتمة. لقد فعلتُ كلّ ما بوسعي لكي أبقى طبيعية- تحدّثتُ بكلمات مفهومة وبنبرة كلام اعتيادية، متظاهرة بأن المستحيل ليس على وشك الوقوع.

«سوف نشتري، ها؟»، سأل كوغر بابتسامة خبيثة.

استدرتُ لمواجهته. «لقد أتيتُ هنا للشراء»، قلتُ. في الحقيقة، كنت سأُجازف بمعاداة آل جورج وأقتل كوغر إذا اضطررتُ لفعل ذلك. فأنا لن أترك أخي في قبضة هذا الرجل. إن مجرد التفكير في أنني مجبرة على ترك هؤلاء الأطفال بين يديه يُثير الغثيان.

«آمل أنكِ قادرةٌ على دفع ثمنه»، قال كوغر. «كما قلت لكِ، إنه أفضل واحد عندي».

لا أملك خبرة طويلة في المساومة، لكن شيئاً ما خطر لي ما أن بدأتُ أنا وكوغر. «يبدو كبيراً في العمر»، قلتُ. أخي ماركوس سيكون في العشرين من عمره تقريباً الآن. كم يجب أن يبلغ عمر الأطفال الرقيق بحوزة كوغر قبل أن يصيروا أكبر سناً من المطلوب؟

«عمره سبعة عشر عاماً فقط»، لقد كذب كوغر.

ضحكت وكذبتُ بدوري. «ربما كان عمره سبعة عشر عاماً قبل خمس أو ست سنوات. ربّاه! أنا لستُ عمياء يا رجل! صحيح أنه وسيم، لكنه ليس طفلاً». أذهلتني قدرتي على الكذب والضحك والتصرّف كما لو أن لا شيء غريباً كان يحدث فيما أخي المتوفي منذ زمن يقف أمامي الآن على بعد أمتار فقط.

ما زادني دهشة، أنّنا بقينا نتساوم لأكثر من ساعة. بدا لي أن هذا هو الشيء الصحيح لفعله. لم يكن كوغر على عجلة من أمره، وأنا حذوتُ حذوه. حتّى أنه بدا مستمتعاً معظم الوقت. جلس الجميع على الأرض هنا وهناك، بانتظارنا، وقد بدا عليهم الملل أو الحيرة والغضب. جماعتي كانوا محتارين وغاضبين. خصوصاً دان، فقد بدا غير مصدّقٍ في بادئ الأمر، ثم مشمئزاً، ثم غاضباً. لكنّه سار على خطى الرجلين الآخرين. ظل صامتاً. قبع جالساً في مكانه محدقاً في الأرض بوجهٍ خالٍ من التعابير. راقبني ترافيس، ثم نقّل نظره بيني وبين بانكول، محاولاً معرفة ما يجري. لكنّه لن يستفسر عن أي شيء أمام كوغر. حافظ بانكول على ثباته. لاحقاً، سيكون لدى ثلاثتهم الكثير ليقولوه لي. ولكن ليس الآن.

كان كوغر يريد التخلّص من ماركوس. ربما بسبب عمر ماركوس، أو لأي سبب آخر، ولكن لم تفُتني ملاحظة لهفته المتوارية. فما قاله للتوّ لا ينسجم مع لغة جسده تماماً. أعتقد أن كوني متقمّصة يجعلني أكثر حساسية للغة الجسد. وهذهِ ليست ميزة في صالحي في معظم الأوقات. لأنها تُجبرني على الشعور بأشياء لا أرغب بها. بإمكان المذهونين والممثلين البارعين التسبب بالكثير من المتاعب لي. ولكن هذه المرة كانت حساسيتي في صالحي.

لقد اشتريتُ أخي. بلا إطلاق نار، بلا قتال، بلا حتّى ولا الكثير من الشتائم. في النهاية، ابتسم كوغر، أخذ ماله بالعملة الصعبة، وأطلق سراح ماركوس من طوق العبيد. لقد عرض عليّ الطوق ووحدة التحكّم مقابل مبلغ إضافيّ. طبعاً لم أرغب فيهما. أشياء قذرة.

«سعدتُ بالعمل معكِ». قال كوغر.

كلا، لم يكن أمراً سعيداً إطلاقاً. «ما زلت أريد ابنتَي آل نوير»، قلتُ.

أومأ برأسه وقال: «سأستمر بالبحث عنهما. ولكن تلك الفتاة الصغيرة هناك تنطبق عليها الأوصاف التي قدّمتيها».

استدرتُ نحو دان. «هل هي... هل تشبه أيّة واحدة من أختيك؟»، قلتُ.

حدّق دان والفتاة أحدهما بالآخر، ثم خطر ببالي ثانية أنني

مجبرة على التخلّي عن هؤلاء الأطفال في قبضة قوّاد. تجنّبت النظر إلى الفتاة.

«نعم، هي تشبه نينا قليلاً»، تمتم دان، «ولكن ما فائدة ذلك؟ إنّها ليست نينا. ما نفع أي شيء؟».

«هل يمكنكَ إخباره بأي أمرٍ آخر من شأنه أن يساعده في التعرّف على أيّ من أختيك إذا رآهما؟»، سألتُه.

«لا أريده أن يتعرّف عليهما»، استدار دان ليحدّق في كوغر، «لا أريده أن يلمسهما. سأقتله إذا لمسهما! أقسم أنني سأقتله!».

أخذه بانكول إلى الشاحنة، وتبعهما ترافيس، بالرغم من حيرته، مع ماركوس. عدتُ إلى آل جورج وكافأتُ دولوريس. صحيح أنّها لم تعثر على أخت دان، لكنّها قدّمت لي معروفاً لم أتخيل أبداً أن بوسع أي أحد تقديمه. لقد استحقت أجرها وبجدارة.

أما بالنسبة لدان، فلا ألومه على موقفه. ولكن لا يمكننا إشعال فتيل أيّة معركة الآن. لقد جازفتُ. التخلي عن هؤلاء الأطفال، بالأخص الصغار، كان أمراً فظيعاً. كنتُ مستعدة للقتال من أجل ماركوس لو اضطررتُ، ولكن ربما كنتُ سأتسبب بمقتله هو والآخرين. كنت سأتسبب بمقتل أحدهم. لا أعرف كيف يمكن إيقاف أشخاص من أمثال كوغر، ولكني لا أظن أن الحل الأفضل هو بقتل ضحاياهم، ممتلكاتهم من البشر.

عانقتُ أخي داخل الشاحنة. لم يتجاوب في البداية، كان أشبه

بجذع يابس، ولكن بعد لحظة أبعدني عنه وراح يحدّق في وجهي لمدة دقيقة كاملة على الأقل. لم يقل شيئاً. ظلّ يهزّ رأسه فحسب. ثم عانقني. بعدها بقليل، وضع يده على حلقِه. ظل يتحسس مكان الطوق اللعين حول رقبته. ثم انطوى على نفسه. استلقى على جانبه في وضعية الجنين، وجلستُ بقربه. جفل عندما لمسته، لذا جلستُ بجانبه فقط.

ثم أخبرتُ الآخرين. «إنه أخي...»، قلتُ، «أنا... لقد ظننتُ ... طوال خمس سنوات... أنه ميت». وبعدها لم أقوَ على قول أي شيء آخر. لقد جلستُ بقربه فحسب. لا أعرف ماذا فعل البقية بالإضافة إلى الحراسة والعودة بنا أدراجنا. إذا كانوا قد تحدّثوا، فأنا لم أسمعهم. لم أكترث بما يفعلونه.

أخبرني بانكول أن أخي مصابٌ بثلاثة أمراضٍ تناسلية مُعدية. كما أن الجزء العلوي من ظهره وكتفيه وذراعه اليسرى والجزء الخارجي من ساقه اليسرى كانت مغطاة بشبكة قبيحة من ندوب حروق قديمة. لا عجب إذن أن كوغر رغب بالتخلص منه. ربما ظن أنه قد تمكّن من خداعي، وباعني بضاعة تالفة. ربما قد فعل أحدهم المثل معه سابقاً. لأن ماركوس كان وسيماً جداً لدرجة أنه ربما تم إقناع كوغر بشرائه على عجلٍ من دون أن يعرّيه ليتفحصه. لكن ماركوس عانى من حروق فظيعة في ما مضى، وقال بانكول إنه مصاب بعيارٍ ناريّ أيضاً.

عندما انتهى بانكول من فحصه، أعطاه منوّماً. بدا ذلك أفضل

شيء لفعله. لم يعترض ماركوس على فحصه. أكّدت له قبل مغادرتي وتركي لهما منفردين أن بانكول طبيب وهو زوجي أيضاً. لم يجب بشيء. وعندما سألته ماذا يودّ أن يأكل. نفض كتفيه بلا مبالاة وهمس «لا شيء. أنا بخير».

«إنه ليس بخير إطلاقاً»، قال لي بانكول لاحقاً. ولكن يمكنه السكن معنا لأنه لم يكن يعاني من آلام بدنية خطيرة. أعددنا له مكاناً خاصاً به خلف ستارة -فواصل حُجرات- في مطبخنا. كان المكان هناك دافئاً، فأعددنا له سريراً، ودولاباً، وإبريقاً وطشتاً، ومصباحاً. مثل أي منزل آخر في المجتمع، كان علينا أحياناً أن نأوي أشخاصاً- ضيوفاً أغراباً، أشخاصاً جُدداً يودّون الانضمام إلينا، أو جيراناً داخل المجتمع لم يكونوا على وفاق مع أفراد آخرين في منازلهم.

قلقتُ من أن ماركوس، بسبب حالته العقلية الحالية، قد ينهض في الليل ويفرّ من المكان. كم حلم بالهرب من كوغر وأصدقائه؟ والآن، يستيقظ في مكان غريب، ولا يتذكّر كيف وصل إلى هناك... لذا لأطمئن أكثر، حتّى بعد أن تناول حبّة المنوّم، ذهبتُ لإخطار الأشخاص في نوبة الحراسة -بيث فيركلوث ولوسيو فيغارو- ليتوخيا الحذر. أخبرتهما أن ماركوس قد يستيقظ مشوّشاً، ويحاول الهرب، لذا يجب أن يحذرا ولا يطلقا النار إذا شاهدا خيالاً وحيداً يحاول الهرب من أيكورن. يُنظر إلى مثل هذا الخيال في الظروف الاعتيادية على أنه لصّ، وقد تُطلق عليه النار. لقد واجهتنا مشاكل جمّة بسبب اللصوص

في سنتنا الأولى هنا، وقد تعلّمنا أنّنا لو أردنا النجاة، يجب ألّا نتعاطف معهم. ولكن لا يمكن إطلاق النار على ماركوس.

«لقد أخبرتني زهرا بالتر أنّها شاهدت زوجة أبيك واخوتك يُقتلون في روبليدو»، قال لي بانكول عندما رقدنا في سريرنا معاً. «حسناً، لقد تعرض للضرب، والرصاص، والحرق. لا أتخيل كيف استطاع النجاة. لا بدّ أن أحدهم قد اعتنى بهِ، ليس صديقك كوغر بالطبع».

«كلا، ليس كوغر»، وافقتُه، «أريد أن أعرف ماذا حصل. أتمنى أن يخبرنا. كيف كان تعامله معك عندما تركتما وحدكما؟».

قال: «كان صامتاً. متجاوباً وغير مُحرج، ومع ذلك لا يقول كلمة زائدة عن الحاجة».

قلتُ: «هل أنت واثق من أنّ بإمكانك علاج أمراضه؟».

قال: «لا يُفترض أن تتسبّب بمشكلة. ناهيكِ عن أنّ أي واحد من هذه الأمراض كان كفيلاً بأن يقتله عاجلاً أم آجلاً. ولكنّه سيكون بخير بعد العلاج- جسدياً على الأقل».

قلتُ: «كان عمره أربعة عشر عاماً في آخر مرّة رأيته فيها. كان يحبّ لعب كرة القدم والقراءة عن الماضي وعن الأماكن الأجنبية. لقد اعتاد على تفكيك الأشياء وأحياناً إعادتها إلى هيئتها الأولى ثانية. كان معجباً بروبِن بالتر، شقيقة هاري الصغرى. لا أعرف أيّ شيء عنه الآن. أنا لا أعرف من هو».

قال: «سيكون أمامك متسع من الوقت لتتعرفي عليه. بالمناسبة، لقد أخبرتُه أنه سيكون خالاً قريباً».

قلتُ: «وما هي ردّة فعله؟».

قال: «لا شيء إطلاقاً. في الوقت الحالي لا أظنه يعرف من هو أصلاً. يبدو راضياً لحدٍّ ما بأن يُعتنى به، لكنّني أشعر أنه لا يكترث بما يحدث له. أعتقد... آمل أن يتغيّر ذلك. وقد تكونين أفضل دواء له».

قلتُ: «لقد كان أقرب أخ لي. كان أوسم شخص في العائلة. ما زال واحداً من أوسم الأشخاص الذين رأيتُهم في حياتي».

«نعم»، قال بانكول، «إنه صبيّ وسيم بالرغم من ندوبه. أتساءل ما إذا كان مظهره قد أنقذه أم دمّره. أم كلاهما».

يبدو أن الأمور لا يمكن أن تسير على ما يرام طويلاً.

لقد هرب دان نوير. تمكّن من تجاوز الحرّاس وخرج من أيكورن، قد يكون ذلك بسبب التعليمات التي أصدرتُها لنوبة الحراسة الليلية. قالت بيث فيركلوث أنّها رأت خيال شخص ما- صبيّ أو رجل، على حسب ظنها.

قالت عندما اتصلت بي هاتفياً: «ظننت أن الخيال أطول قامة بكثير من ماركوس. لكنّي لم أكن متأكدة، لذا لم أُطلق النار». ارتدى الخيال الهارب ملابس داكنة وغطّى رأسه ووجهه بغطاء داكن.

ولم يخطر دان على بالي إلّا بعدما تأكّدتُ من أن ماركوس ما زال موجوداً.

لا أُخفيكم الحقيقة، لقد نسيتُ أمر دان كلياً. لقد انشغل ذهني بماركوس- استعادته، رعايته، والتفكير بما حصل له. لم أهتمّ بشأن دان إطلاقاً. بالرغم من أن دان مرّ بخيبة أمل فظيعة. لقد كان يتعذّب حقاً. كنت أعرف هذا، مع ذلك تركتُه تحت رعاية آل بالتر، وهما في نهاية المطاف أبوان لطفلين مشاكسين يُشغلانهما بما يكفي.

أيقظتُ زهرا وطلبت منها الاطمئنان على دان. لقد بقي معهما لأربعة أشهر. لقد رحل بالطبع. كتب في رسالة تركها: «أعرف أنّكِ ستظنّين أنني مخطئ، ولكن يجب عليّ إيجادهما. لا يمكنني تركهما مع شخص من أمثال كوغر. إنهما أختاي!». وبعد التوقيع، كتب ملاحظة تقول: «اعتني بكاسي وميرسي حتّى عودتي. سأعمل عندكِ لأسدّد التكاليف. سأعود مع باولا ونينا وسيعملان هما أيضاً».

إنه يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً فقط. لقد رأى كوغر وزمرته. ورأى أخي. ورأى جورجتاون. وبعد كلّ ما رآه، لم يتعلم شيئاً!

كلا، هذا ليس صحيحاً. لقد تعلّم -أو أدرك أخيراً- كلّ الأمور الخاطئة. لقد افترضتُ أنه يعرف مصير شقيقتيه إذا كانتا لا تزالان على قيد الحياة- ربما كانتا عاهرتين أو قد ينتهي بهما المطاف في حريم رجل ثريّ أو أن تعملا كعبدتين في مزرعة أو عاملتين في مصنع. أو أفترضُ أنه قد ينتهي بهما المطاف برفقة مختلٍّ منحرف يحبّ قطع ألسنة النساء. أو قد ينتهي بهما المطاف في ملكية أحد ما يهتم بهما ويرعاهما بينما يستغلّهما جنسياً. وهذا أحسن الاحتمالات. أما أسوأ الاحتمالات فهو أنهما ستعيشان لفترة بصفة «أخصائيات»- عاهرات

يعملن في خدمة المعتوهين والساديين. هؤلاء لا يعشن طويلاً، وهذه رحمة. وهو مصير قد يصيب أيضاً صبياً ضخماً، بملامح طفولية، حسن البنية، مثل دان. أتساءل كم يستوعب دان من كلّ هذا. إنه صبي طيب، شجاع، غبي، وأعتقد أنه سيدفع ثمن ذلك.

من المحتمل أنه سيعود، بالطبع. ربما سيثوب إلى رشده ويعود ليساعدنا في رعاية كاسيا وميرسي. أو ربما سنجده عن طريق معارفنا في الخارج. يجب أن أحرص على نشر خبر فقدانه مع نينا وباولا. المشكلة هي أن العثور عليه لن يُجدي نفعاً طالما أنه لا يزال عازماً على البحث عن أختيه. لا يمكننا تقييده بالسلاسل وسجنه هنا. أو بالأحرى، لن نقبل بفعل ذلك. إذا كان مُصرّاً على الموت، فسيموت، اللعنة عليه. اللعنة!

٧

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

في كلّ منّا طفلٌ
يعرفُ الفردوسَ.
الفردوسُ هو الديارُ.
الديارُ التي كانت
أو الديارُ كما ينبغي أن تكونَ.
الفردوسُ مكانُ المرءِ
وأهلُ المرءِ
وعالمُ المرءِ،
عارفٌ ومعروفٌ
وربّما حتّى
محبٌّ ومحبوبٌ.
مع ذلك يُنبذ كلّ الأطفالِ من الفردوسِ
ويُلقى بهم إلى:

النماءِ والدمارِ
والعزلةِ ومجتمعٍ جديدٍ.
إلى تغييرٍ
هائلٍ ومستمرٍّ.

مِن كتاب: المحارب

بقلم: ماركوس دوران

عندما كنتُ صبيّاً لم أدَعْ أي شخصٍ إطلاقاً يعرف إلى أي حدٍّ أخافني المستقبل. في الواقع، لم أرَ أي مستقبل. لقد وُلدت في عالم لم يكن أكبر من الحيّ المُسوّر المعزول الذي عاشت فيه عائلتي. لقد ترعرع أبي هناك وورث المنزل عن أبيه.

كان عالمي عبارةٌ عن قفص. وعندما تجرّأ أحد إخوتي على مغادرة القفص، وهرب من البيت، قبض عليه أحدهم في الخارج وقطّع وحرق لحم جسده وهو حيّ. أحياناً أجد نفسي أتساءل كم طال بهِ الأمر حتّى مات.

أعترفُ أن أخي لم يكُن ملاكاً. كان لئيماً وغبياً. لقد أحبّ أمّنا، وكان أحبّنا إليها، لكنني أظن أنه لم يكترث البتّة بأي أحد آخر. ومع أنه كان في نفس طول قامة أبي لكنه كان في الرابعة عشرة من عمره فقط عندما قُتل. بالنسبة لي، فأن هذا يجعل من الرجال الذين قتلوه أسوأ منه. كيف يُعقل أن يكونوا بشراً ويفعلون شيئاً كهذا لشخص آخر؟ كنتُ أتخيّلهم -القتلة- بانتظاري كلّما جازف البالغون المسلّحون

في الحيّ بإخراجنا من القفص لبعض الوقت. كان العالم في الخارج يُشبه أخي في أشرّ حالاته مضاعفاً آلاف المرّات- غبياً، لئيماً، فاقداً للسيطرة لدرجة أنه قد يفعل أي شيء. كان ككلبٍ مسعور، يمزّق نفسه أشلاء، ويريد فعل نفس الشيء لي.

ثم فعل هذا بي بالضبط.

آه، نعم. بكلّ تأكيد.

كان بوسعي ردّ الصاع صاعين. كان بوسعي بلوغ السلطة لأقوم بذلك. لكنني اخترت حلّ المشكلة. ما حصل معي لا يجب أن يحصل لأي شخص، ومع ذلك سبق لمثل هذهِ الأمور أن حدثت لآلاف الأشخاص، وربما الملايين. لقد قرأتُ التاريخ. لم تكن الأمور تجري على هذا النحو دائماً. لذا لا ينبغي أن تستمرّ على هذا المنوال. ما كسرناه يمكننا إصلاحه.

خالي مارك أوسم رجل رأيتُه في حياتي. أظن أنني وقعتُ في حبّه لحدٍّ ما قبل أن ألتقيه.

مرّت أوقاتٌ شعرتُ فيها بالخوف عليه. لا أعرف كيف أصِف عائلتي. بحسب ما سمعته، كان جدّي قسّاً معمدانياً طيباً ومتفانياً. كان حريصاً على عائلته ومجتمعه وأصرّ على أن يكونوا مسلّحين وقادرين على الدفاع عن أنفسهم في عالم مسلّح وخطير، ولكن لم تكن له طموحات أبعد من ذلك. لم يخطر بباله يوماً أنه بإمكانه أو

ينبغي عليه إصلاح العالم. مع ذلك فهو والد اثنين من مُصلحي العالم. كيف حصل ذلك؟

حسناً، كانت أُمّي متقمّصة، شابة بعمر الخامسة عشرة، وناجية من الدمار الذي لحق بحيّها عندما بلغَت الثامنة عشرة. ربما كان هذا هو السبب خلف حاجتها، مثل خالي مارك، إلى تولّي زمام السيطرة، وفرض نظامها الخاصّ على الفوضى التي شهدَتها تبتلع العديد من الأشخاص الذين أحبّتهم. كانت ترى الفوضى كشيء طبيعي ومحتوم وكصلصال ليُعاد تصويره وتوجيهه. كما قالت في إحدى آياتها:

الفوضى
أخطرُ وجوهِ الربّ:
إنّها غيرُ متبلورةٍ، عكرةٌ، جائعةٌ.
صوّر الفوضى
لتصوّرَ الربّ.
تصرّف.
غيّر السرعةَ
أو اتجاهَ التغيير.
نوّع مدى التغيير.
أثّب بذور التغيير.
عدّل وقع التغيير.
اغتنم التغيير.

استغلّه.

تكيّف لتنمو.

وهكذا، فقد حاولَت أن تتكيّف وتنمو. ربما خافَت أن تصبح مثل أمها، التي بحثَت عن المساعدة في عقار «ذكيّ» وانتهى بها الأمر بإلحاق الضرر بطفلتها وقتلِ نفسها.

الفوضى. أياً تكن حجّة أمي، فقد قرّرَت أنّ تعرف ما هو الخلل في عالمها، وتعرف كيف تصلحه: من خلال بذرة الأرض. بذرة الأرض بكل تعريفاتها، ووصاياها، ومتطلباتها، وأهدافها. بذرة الأرض بمصيرها.

أما خالي مارك من الناحية الأخرى فقد كان يكره الفوضى. لم تكن الفوضى أحد وجوه إلهه. لقد كانت شيئاً غير طبيعي. شيطانياً. لقد كره ما فعلَته به، واحتاج لأن يثبت أنه ليس ما أجبرَته على أن يكونه. ما من قسّ مسيحيّ كره الخطيئة بقدر ما كره خالي مارك الفوضى. كانت آلهته النظام، والاستقرار، والأمان، والسيطرة. كان رجلاً يحمل جرحاً لن يندمل ما لم يتيقّن أن ما حدث له لن يحدث ثانية لأي أحد آخر، أبداً.

كان أبي يقول إن أُمّي متعصبة. أظن أن هذه صفة تنطبق أكثر على خالي مارك. مع ذلك، أظن أن خالي مارك كان أكثر واقعية. أراد خالي مارك أن يجعل الأرض مكاناً أفضل. لقد عرف خالي مارك أن بإمكان النجوم الاعتناء بنفسها.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

السبت، ١٨ ديسمبر، ٢٠٣٢

لم يعُد دان. ليس عندي سببٌ لأتوقع منه أن يستسلم ويعود بسرعة، لكنني كنتُ أتمنى ذلك. سيذهب اليوم كلّ من خورخي، دايموند سكوت، غراي مورا، للتجارة في سوق البالة في كوي. طلبتُ منهم أن يتركوا خبراً مع الناس القليلين الذين نعرفهم في كوي، وأن يخبروا آل سوليفان في طريق عودتهم. لأن أقصر طريق لعودتهم يمرّ بالقرب من مسكن آل سوليفان.

نام ماركوس طوال الليل، ولم يتسبّب بأية مشاكل لنا أو لنفسه. صادف أن بانكول كان موجوداً في المطبخ عندما استيقظ ماركوس، وهذا أمر حسن. أرشده بانكول إلى مراحيض التسميد. لم أره إلّا لاحقاً بعدما اغتسل وغيّر ملابسه. أقبل بتردّدٍ وحذر إلى طاولة مطبخي.

«هل أنت جائع؟»، سألتُه، «اجلس».

حدق بي لعدة ثوان، ثم قال، «عندما استيقظتُ ظننت أول الأمر أن هذا كلّه كان مجرد حلم».

وضعتُ أمامه خبز بلوطٍ محشواً بالفاكهة. لقد تربّينا كلانا على أكل هذا النوع من الخبز، فقد كان هنالك العديد من أشجار بلوط كاليفورنيا المثمرة داخل أسوار حيّنا القديم. لا يؤمن أبي بالتبذير، لذا وجد طريقة لاستخدام البلوط كغذاء. سبق وأن قام

بذلك الأمريكيون الأصليون. لذا يمكننا القيام بذلك نحن أيضاً. لقد اعتاد هو وأمي البحث عن طرق للاستفادة ليس من البلوط فقط، بل من الصبّار والنخيل والكثير من النباتات التي قد يُنظر إليها على أنّها بلا فائدة. بالنسبة لي ولماركوس، فهذا كان طعاماً منزلياً.

أخذ ماركوس خبز البلوط، قطّعه، ومضغه ببطء. بدا أول الأمر مبتهجاً، ثم تحدّرت الدموع على وجنتيه. ناولتُه منديلاً وكوباً ممّا كان في السابق شرابه المفضّل في الصباح- كوباً من عصير التفاح الدافئ الحلو مع الليمون. التفاح الذي عصرناه في جنوب كاليفورنيا من أنواع مختلفة، لكنني لا أعتقد أنه قد لاحظ ذلك. أكل، جفّف عينيه من الدموع، نظر حوله. حدق في بانكول بينما كان بانكول مقبلاً، ثم ركّز على ما تبقى من فطوره، وانقضّ عليه كما ينقض صقرٌ على فريسته. لم نتبادل الكلام لفترة.

عندما تناولنا جميعنا ما يكفينا من الطعام، نظر بانكول إلى ماركوس وقال: «أنا متزوّج من أختك منذ خمس سنوات. وطوال هذا الوقت، كنّا نظن أنك وبقية أفراد عائلتها موتى».

قال ماركوس: «أنا أيضاً ظننتُ أنّها ميتة».

قلتُ له: «قالت زهرا بالتر -كان اسمها زهرا موس في وقت معرفتك بها- إنّها رأتكم تُقتلون جميعاً».

تجهّم. سأل: «موس؟ بالتر؟».

قلتُ: «لم تكن معرفتنا وطيدة بزهرا عندما كنّا نعيش في الحيّ القديم. كانت متزوجة من ريتشارد موس. لقد قُتل. وتزوّجت من هاري بالتر».

قال: «ربّاه! لم أحسب يوماً أنني سأسمع هذه الأسماء ثانية. نعم، أنا أتذكر زهرا- إنها فتاة ضئيلة جميلة وقويّة».

قلتُ: «ولا تزال على حالها، بصفاتها الثلاث تلك. إنّها هنا هي وهاري. لديهما طفلان».

قال: «أريد أن أراهم!».

قلتُ: «طيب».

قال: «ومَن هنا أيضاً؟».

قلتُ: «الكثير من الأشخاص الذين مرّوا بأوقات عصيبة. ولكن لا أحد آخر من حيّنا القديم. نحن ندعو هذا المجتمع أيكورن».

قال: «كانت هناك فتاة صغيرة... روبِن. روبِن بالتر».

قلتُ: «نعم، أخت هاري الصغرى. لم تنجُ».

قال: «لقد ظننتِ أنني لم أنجُ».

قلتُ: «لقد.. لقد رأيتُ جثة روبِن يا مارك. لم تنجُ».

تنهد وراح ينظر إلى يديه المعقودتين في حجره. قال: «لقد متُّ في عام ٢٠٢٧. متُّ. لم يبقَ عندي شيء».

قلتُ: «بل عندك عائلة. أنا هنا، وبانكول، وسيولد في العام

القادم ابن أختك أو بنت أختك. أنت حرّ الآن. يمكنك البقاء هنا في أيكورن لتعيش حياتك. وأتمنى أن تبقى. لكنّك حرّ في فعل ما تشاء. لا أحد هنا يرتدي طوق رقيق».

سألني: «هل ارتديتِ طوق رقيق من قبل؟».

أجبتُ: «لا. بعضنا كانوا رقيقاً سابقاً، لكنّي لم أكن كذلك قطّ. وأعتقد أنك أول واحد من بيننا يرتدي طوقاً. أتمنى أن تتمكّن من الحديث أو الكتابة عمّا حدث لك منذ تدمير حيّنا القديم».

بدا وكأنه يفكّر في ذلك لوهلة. «لا»، قال، «لا».

ما زال الوقت مبكراً. «طيب»، قلت، «لكن... هل تظن أن أي أحد آخر من عائلتنا قد تمكّن من النجاة؟ كوري أو بين أو غريغ؟ هل يُمكن أنهم...؟».

«لا»، كرّر، «لا. كلّهم ماتوا. لقد تمكّنتُ من النجاة. لكنّهم ماتوا».

لاحقاً، وبينما كنّا ننهض من الطاولة، أقبل رجلان بشاحنة من بلدة ساحلية صغيرة تدعى هالستيد. بلدة هالستيد، مثل أيكورن بعيدةٌ جداً عن الطريق السريع الرئيسي. في الحقيقة، هالستيد هي البلدة الأبعد والأكثر عزلة في منطقتنا، يحيط بها المحيط الهادئ من ثلاث جهات وخلفها جبال منخفضة.

بالرغم من كلّ ذلك، تعاني هالستيد من مشكلة كبيرة. لقد كانت هالستيد تمتلك شاطئاً، فوق الشاطئ هنالك جرف تبدأ منه البلدة. تمتدّ على طول الجرف أكبر وأجمل المنازل المطلّة على المحيط.

تقع على أحد جوانب شبه الجزيرة المنازلُ القديمة الكبيرة ذوات الهياكل الخشبية المتينة. بينما تقع على الجانب الآخر المنازل الجديدة المبنية على أرض كانت سابقاً ملعب غولف ساحليّاً. كلّ هذهِ البيوت.. ممتدة على طول الجرف. لا أعرف لماذا يبني الناس بيوتهم على حافة جرف كهذا، لكنّهم فعلوا. والآن، متى ما أمطرت بغزارة أو وقع زلزال أو ارتفع مستوى سطح البحر بما يكفي لغمر المزيد من الأراضي، تنهار كتلٌ ضخمة من الجروف وتسقط في البحر، وتتحطّم البيوت المبنيّة عليها وتسقط. أحياناً يسقط نصف منزل في البحر. وأحياناً عدّة منازل. ليلة البارحة سقطت ثلاثة منازل. وما زال سكان هالستيد ينتشلون الضحايا من البحر. الخبر الأسوأ، أن طبيب البلدة كان موجوداً في أحد هذهِ المنازل المتهدّمة يُولّد طفلاً. هذا هو السبب الذي دفع أهالي المجتمع للّجوء إلى بانكول طلباً للمساعدة. لقد كان بانكول على علاقة طيبة مع طبيبهم. وقد وثق أهالي هالستيد ببانكول لأن طبيبهم كان يثق به.

«ماذا جرى لعقولكم يا قوم؟»، قال بانكول محتجاً لرجال هالستيد المرهقين اليائسين بينما هرعنا أنا وهو لجمع الأغراض التي سيحتاجها. كان يضيف بعض الأدوية لحقيبته الطبية. وكنتُ أحزم أغراضه في حقيبة للمبيت. كان ماركوس يقلّب نظره بيننا نحن الاثنين، ثم تنحّى جانباً.

«لماذا لا يزال الناس يعيشون على الجروف؟»، احتجّ بانكول. بدا غاضباً. لا يزال يغضب من الألم والموت بلا طائل. «كم مرّة

يجب أن تتكرّر مثل هذه الأمور قبل أن تفهموا الفكرة؟»، سألهم. أغلق حقيبته الطبية وأخذ الحقيبة التي سلّمتُها له. «انقلوا المنازل اللعينة من الجرف، بحقّ السماء. فليكن هذا جهداً جماعياً طويل الأمد».

«نحن نبذل كلّ ما بوسعنا»، قال رجل ضخم أصهبُ وهو يتقدّم نحو الباب. أزاح شعره من على وجهه بيده المتّسخة المكشوطة. «لقد نقلنا بالفعل بعض المنازل. بينما رفض آخرون نقل منازلهم. يظنون أنهم سيكونون على ما يرام. لا يمكننا إجبارهم على شيء».

هزّ بانكول رأسه بأسف، ثم قبّلني. «قد أغيب ليومين أو ثلاثة»، قال، «لا تقلقي. ولا ترتكبي الحماقات. كوني عاقلة!». ثم مضى.

تنهدّتُ ثم بدأتُ بتنظيف مائدة الإفطار.

«إذن هو طبيب حقاً». قال ماركوس.

توقفتُ هنيهة ونظرتُ إليه. «نعم، ونحن حقاً متزوجان»، قلتُ، «وأنا حقاً حبلى. هل ظننت أنّنا نكذب عليك؟».

«... لا... لا أعرف»، سكت قليلاً ثم قال، «لا يمكنكِ تغيير كلّ حياتكِ دفعة واحدة. لا يمكنكِ فحسب».

«بلى، يمكنك»، قلتُ، «كلانا فعل ذلك. إنه أمر مؤلم وفظيع. ولكن بالإمكان فعله».

مدّ يده إلى الطبق الذي كنتُ على وشك رفعه من الطاولة، وأكل فتات خبز البلوط منه. «نفس طعم خبز أمّي»، قال، ثم رفع نظره

نحوي، «لم أصدّق أنّها أنتِ في البداية. البارحة في الحيّ العشوائي اللعين، رأيتُك، وظننتُ أنني فقدتُ عقلي. أتذكّر أنني فكّرت «طيب. الآن أنا مجنون. الآن لا شيء يهمّ. ربما سأرى أمّي أيضاً. ربما أنا ميت» لكنني كنتُ أشعر بثقل الطوق حول عنقي، لذا علمتُ أنني لم أكن ميتاً، بل مجنوناً فقط».

«ثم عرفتَني»، قلتُ له، «وأشحتَ بنظرك عنّي قبل أن يرى كوغر أنك كنت تعرفني. لقد رأيتك».

ابتلع ريقه. أومأ برأسه. وبعد فترة طويلة أغمض عينيه وأطرق مسنداً رأسه على يده. قال: «سأُخبركِ بما حدث. إن كنتِ ما زلتِ تريدين ذلك».

تمكّنتُ من منع نفسي من التنهّد بارتياح. وقلتُ: «شكراً لكَ».

قال: «أعني يجب عليكِ أنتِ أيضاً أن تخبريني بما حدث. مثلاً كيف وصلتِ إلى هنا. ولماذا تزوجتِ رجلاً أكبر سناً من أبي».

قلتُ: «إنه أصغر بعامٍ من أبي. وعندما خسر كلانا كلّ شيء والجميع، وجد أحدنا الآخر. اضحك لو شئتَ، لكننا محظوظَين حقاً».

قال: «لن أضحك. أنا أيضاً عثرت على أناس طيبين. أو بالأحرى هم عثروا عليّ».

جلستُ قبالته وانتظرتُ. انقضت فترة ظلّ فيها محدّقاً في الجدار، في اللاشيء، في الماضي.

«كلّ شيء كان يحترق في تلك الليلة الأخيرة»، قال بصوت واطئ. «كان هنالك الكثير من الإطلاقات النارية.. أكداس من حليقي الشعر المصبوغين، أغلبهم صغار في السن، اندفعوا بشاحنتهم اللعينة عبر بوابتنا. انتشروا في كلّ مكان. استمتعوا بالعبث معنا أنا وبين وغريغ وأمّي. وسط كلّ ذلك الهياج يا لورِن، لم نعرف أنّكِ قد اختفيتِ إلّا بعد أن وصلنا إلى البوابة. عندها أمسك ببين شخصٌ مصبوغ بالأزرق- اختطفه وحاول الهرب بهِ. كنتُ صغيراً لذا لم أستطع قتاله وجهاً لوجه، لكنني كنتُ سريعاً. ركضت وراءه وعرقلته. ربما لم أكن لأنجح في إيقاعه أرضاً لوحدي، لكن ماما تدخّلت وهجمت عليه أيضاً. سحلناه وعندما وقع على الأرض ضرب رأسه بالخرسانة وأفلت بين من يده. تلقّفت ماما بين وأنا تلقّفت غريغ. أصيب غريغ بقدمه- داس على صخرة والتوَت قدمه- عندما كنّا نركض.

هذه المرة نجحنا بالعبور من البوابة المحطمة. لم أعرف إلى أين كنّا ذاهبين. كنت أتبع ماما فحسب، وكان كلانا يبحث عنكِ في الأرجاء».

توقف لوهلة ثم سألني: «ماذا حصل لكِ؟».

«رأيتُ أحدهم يُصاب بطلق ناري»، قلت، ثم عدت بذاكرتي، وأنا أرتعش من الذكرى، «شاركتُ ألم إصابته بالطلق الناري. وعلقتُ في موته. عندما نهضتُ عثرتُ على بندقية. أخذتها من يد شخصٍ ميت. وكان هذا من صالحي، لأنّه بعد لحظات، أمسكني أحد المصبوغين، واضطررت لإطلاق النار عليه. وشاركتُ موته،

وفي وسط هذا الارتباك، ضيّعتُ أثركم وفقدتُ إحساسي بالوقت. ما أن صار بمقدوري ذلك، حتّى ركضت خارج البوابة وأمضيتُ الليلة في مرآب نصف محترق على بعد بضعة مبانٍ إلى الشمال من حيّنا. عدتُ في اليوم التالي للبحث عنكم. عندها وجدتُ هاري وزهرا. لقد أوسعونا ضرباً. أخبرَتني زهرا أنكم موتى كلكم».

هزّ ماركوس رأسه. ثم قال: «أتمنى لو كُنّا معكِ. ربما كُنّا ستتعرض للضرب فقط. ولكن ساءت الأمور جداً معنا. ما أن خرجنا من البوابة حتّى أتت مجموعة أخرى من المصبوغين».

توقّف هنيهة. ثم قال: «هل تعرفين أنني قابلتُ بعض المصبوغين في وقت لاحق. أغلبهم قتل نفسه بنفسه، أما بالإدمان على المخدرات أو بحبهم لإشعال الحرائق بسبب تأثير المخدرات. ولكن لا تزال هنالك قلّة منهم في الأرجاء. عموماً... لقد أمسكوني ووضعوا طوقاً حول عنقي قبل بضعة أشهر. قالوا إن غايتهم هي مساعدة الفقراء من خلال قتل الأثرياء والسماح للفقراء بأخذ أغراضهم. إذا عشتُ في منطقة بيوتها غير متداعية، وبالأخص إذا كان حيّك أو منزلك مسوّراً، فهذا يعني أنك ثري. الأمر الجنونيّ في هذا كله هو أن الكثير من هؤلاء المصبوغين كانوا أثرياء حقاً. إحدى الفتيات اللواتي عرفتهن، كان عند عائلتها مالٌ أكثر من أهل حيّنا جميعاً. لقد تخلّت عن كلّ شيء لتنضم إلى عصابة المصبوغين، ولكن في النهاية خانها أصدقاؤها. في أحد الأيام وبينما كانت فاقدة الوعي على إثر تعاطيها لمخدرٍ ما، باعوها وانتهى بها المطاف بارتداء طوق، لأنها

كانت لا تزال شابة وجميلة، وكانوا بحاجة للمال لشراء المخدرات. لكنّها ظلّت تعتقد أنّها أحسنت عملاً. لم يكن بوسعنا إقناعها. فكّرنا أن المخدرات قد أتلفت عقلها».

«كان عليها أن تؤمن بشيء ما»، قلتُ، «في النهاية، ماذا بقي عندها؟».

قال: «أظن ذلك. عموماً، علقنا بين مجموعتين من الملاعين منقذي الفقراء»، تنهّد، «كانوا يطلقون النار -أغلبهم كان يطلق النار في الهواء في البداية- ويلوّحون بالمشاعل... المزيد من النار... لم يكن بيدنا شيء لفعله سوى الرجوع من البوابة.

كان كلّ شيء جنونياً. بين وغريغ كانا يبكيان. هرع الناس في الأرجاء. اشتعلت كلّ البيوت. ثم أطلق أحدهم النار عليّ. سقطتُ. لم أفهم أولاً ماذا أصابني. ثم شعرتُ بألمٍ لا يطاق. ولا بدّ أنني أسقطتُ غريغ وقتها. نظرتُ من حولي للبحث عنه. عندها أدركت أنني كنتُ مطروحاً على الرصيف. كانوا يضربونني، يدوسونني، ثم طعنوني بقضيبٍ معدنيّ حامٍ في كتفي وذراعي اليمنى. لم أعرف من أطلق النار عليّ أو لماذا. لم يكن بحوزتنا أسلحة. ولكن أظن أنهم كانوا يطلقون النار علينا لغرض الاستمتاع.

ثم رأيتُ أمّي تُصاب بطلقٍ ناري. في الواقع، حدث كلّ شيء بسرعة- أولاً أُصبت أنا، ثم هي، بانغ، بانغ. أعرف ذلك. ولكن ساعتها... أذكر أنني كنتُ أشاهد كلّ شيء كما لو أنّ أمامي متسعاً من الوقت. مع ذلك، كنتُ مستميتاً للخروج من هناك، وخائفاً

حدّ الموت. يا إلهي! ما من طريقة لأجعلكِ تفهمين إلى أيّ حدٍّ كان الوضع سيئاً.

رأيتُ ماما تترنح وتسقط. صدر منها صوت فظيع، ورأيت الدماء تتدفق من رقبتها. عرفتُ حينها... إنّها... إنّها تحتضر. لقد عرفتُ.

حاولتُ النهوض، حاولت إجبار نفسي على الذهاب لمساعدتها. ولكن بينما كنتُ أناضل من أجل الوقوف، أتت امرأة مصبوغة بالأخضر وأطلقت النار عليها في رأسها.

انزلقتُ على دمائي وهويتُ أرضاً. ومن مكاني على الأرض، شاهدتُ أحد المصبوغين بالأحمر يطلق النار على بين مرّتين في رأسه، ثم داس عليه وأطلق النار على غريغ. لقد رأيتُه. كنتُ أصرخ. كان الرجل المصبوغ بالأحمر يحمل بندقية كلاشنكوف أوتوماتيكية قديمة. أطلق النار على بين بينما كان بين يحاول النهوض. لقد... تهشّم رأس بين.

كان غريغ مطروحاً على الرصيف- يتحرّك، ولكن مطروحاً. عندما أطلق الرجل عليه النار، لا بدّ من أن الرصاصة ارتدّت من الخرسانة. وأصابت رجلاً مصبوغاً آخر في ساقيه. صرخ وسقط أرضاً. ما حدث أغضب كلّ المصبوغين القريبين من المكان. لقد ظنوا أنّنا أطلقنا النار على رفيقهم- وكأن إصابته كانت بسببنا. أمسكوا بنا أربعتنا وسحلونا إلى منزل آل بالتر. كان يحترق، وألقوا بنا في النار.

لقد قاموا بهذا. لقد ألقوا بنا إلى النار. كنتُ الوحيد في وعيي. وربما كنتُ الوحيد على قيد الحياة، لكنني لم أستطع إيقافهم. مع ذلك، وبطريقة ما، ما أن ألقوا بي إلى النار حتّى نهضتُ وهربتُ. ركضتُ فحسب، بذهن شارد من شدة الخوف، وقد أعماني الدخان والألم، لم أعُد آدمياً. كان ينبغي أن أموت.

لاحقاً تمنّيتُ لو أنني متُّ. كلّ ما رغبت به هو الموت».

توقّف ماركوس عن الحديث وظل صامتاً لبضع ثوانٍ.

قلتُ عندما فكّرتُ أن الصمت طال بما فيه الكفاية: «ولكن لا بدّ من أنك تلقّيت المساعدة. فقد كنت في الرابعة عشرة من العمر فقط».

«نعم، كان عمري أربعة عشر عاماً فقط»، وافقَني القول. وبعد فترة قصيرة أخرى من الصمت، تابع الحديث.

«أظن أنني سقطتُ في باحة آل بالتر الخلفية. كنتُ أحترق. لم أفكّر بالاستلقاء والدحرجة على الأرض لإطفاء النار، ولكن لا ريب من أنني فعلت ذلك. فقد كنت أتخبّط في الأرجاء من شدة الفزع والألم، فانطفأت النار. ثم لم يعد بوسعي فعل شيء غير الاستلقاء في مكاني. لا بدّ من أنني فقدتُ الوعي في وقتٍ ما. عندما استيقظتُ -أتذكّر هذا بوضوح- كنتُ ممدّداً في عربة خشبية كبيرة فوق كومة من الملابس المحترقة والأواني والمقالي والخردة. كان بوسعي رؤية الرصيف يمرّ من تحتي- الخرسانة المحطّمة، والحشائش التي تنمو

بين الشقوق، وكان بوسعي رؤية ظهرَي رجل وامرأة يمشيان قُدماً، محنيّين، يجرّان العربة بالحبال. ثم فقدتُ وعيي ثانية.

كانا زوجان من الزبّالين، عثرا عليّ وأنا أئن متوجعاً فيما كانا ينبشان بين هياكل حيّنا- رغم أنني لا أتذكّر أنني كنتُ أئن أو أنّهما عثرا عليّ- ثم حملاني في عربة الخردة. كانا زوجين في منتصف العمر اسمهما آل دوران، صدّقي أو لا تصدّقي. ربما كانا قريبين من بعيد أو ما شابه. إنه اسم شائع كما تعلمين».

أومأتُ. ليس أمراً غريباً إطلاقاً، لكن العائلة الوحيدة التي أعرفها بلقب دوران هم عائلة زوجة أبي. دوران هو اسمها قبل الزواج. حسناً، إذا أنقذ آلُ دوران حياة أخي قبل خمس سنوات حينما لم يكن بوسعه النجاة لولا مساعدتهما، فأنا أرحّب جداً بالقرابة منهما.

تابع ماركوس: «كانت عندهما ابنة تبلغ أحد عشر عاماً، اختُطفت قبل عام من عثورهما عليّ. لم يعثرا عليها، ولم يعرفا ماذا جرى لها، ولكن يمكنني التخمين. في ذلك الوقت، كان يمكنك بيع فتاة صغيرة جميلة مقابل مبلغ كبير من المال. تماماً كما يحدث في وقتنا الحاضر. سمعتُ أناساً يقولون إن الأوضاع قد تحسّنت. ربما كان هذا صحيحاً، لكنّني لم ألحظ هذا. عموماً، السيد والسيدة دوران كانا شخصين جميلين. ربما كانت ابنتهما جميلة حقاً».

تنهّد. ثم قال: «كان اسم البنت كاريداد. قالا إنني أشبهها بما يكفي بحيث أكون أخاها. هكذا قالت المرأة. كان اسمها إينيز.

وهي التي أصرّت على لملمة ما بقي مني وحملي إلى المنزل ورعايتي حتّى أستعيد صحتي.

يُدهشني أنني بدوت كإنسان عندما عثَرت عليّ. لم يكن وجهي في حالة سيئة جداً- كان مغطى بالدماء والكدمات من السقوط أرضاً عدّة مرّات. لكن جسدي كان في وضع مُزرٍ.

لم يكن بوسعهما تحمّل تكلفة طبيب- ولا حتّى من أجلهما. لذا اعتنت بي إينيز بنفسها. بذلَت قصارى جهدها لإنقاذي، مثل أمّ ثانية. ظنّ الرجل أنني سأموت. اعتقَد أن من الغباء إهدار الوقت والجهد والموارد القيّمة عليّ. لكنّه كان يحبها، لذا تركها تفعل ما تشاء.

كانا أفقر بكثير ممّا كنّا عليه سابقاً، لكنهما بذلا كلّ ما بوسعهما، على حدّ إمكانياتهما. بالنسبة لي فهذا يعني الماء والصابون والأسبرين والألوفيرا. ولا أعرف لماذا لم أمُت من عشرين مرض. صدقيني أردتُ الموت. دعيني أُخبركِ، أفضّل الآن أن أُطلق النار على رأسي على أن أعيش كلّ ذلك ثانية».

هززتُ رأسي. لم أتلقَّ أيّ تدريب طبيّ بخلاف الإسعافات الأولية، وأشكّ في أنني سأُحسن عملاً لو قدّمتها لأي أحد، ولكنني عشتُ مع بانكول ما يكفي لأعرف إلى حدٍّ قد تكون الحروق سيئة. «ألم تعانِ من أيّة مضاعفات؟»، سألته.

هزّ ماركوس رأسه. قال: «لا أعرف. حقاً. لقد عانيتُ من ألمٍ

شديد أغلب الوقت فلم أكن أعرف ما يجري. كيف يُمكنني تمييز المضاعفات من السياق العام للبؤس؟».

هززتُ رأسي وتساءلتُ كيف سيكون ردّ بانكول لو أخبرته. ماء وصابون وأسبرين وألوفيرا فقط. حسناً، قليل من التواضع سينفعه. قلتُ لماركوس «ماذا حدث لآل دوران؟».

«لقد ماتا»، همس، «أو أظن أنهما ماتا. لقد مات الكثيرون. بيد أنني لم أعثر على جثتيهما. وقد حاولتُ. حاولت حقّاً».

ساد صمت طويل.

قلتُ: «ماركوس؟»، ومددتُ يدي ووضعتها على يده.

تراجع ثم غطّى وجهه بيديه. سمعتُه يتنهد من خلفهما. ثم شرع بالحديث ثانية. قال: «بعد أربع سنوات من حريق حيّنا، قرّرَت مدينة روبليدو تنظيف نفسها. كنّا أنا وآل دوران مشرّدين. عشنا في منزل كبير مهجور مع خمس عائلات أخرى. هذا يعني أنّنا كنّا جزءاً من القمامة التي أراد كنسها المحافظ الجديد، ومجلس المدينة، ورجال الأعمال. بدا لهم أن كلّ مشاكل السنوات الماضية كانت بسببنا- أعني بسبب الفقراء. بسبب المشرّدين. بسبب سكّان الأحياء العشوائية. لذا أرسلوا جيشاً من رجال الشرطة لطرد كلّ من لا يملك إثباتاً على حقّه في البقاء في مكانه. ينبغي أن يكون عندك إيصالات إيجار، سند ملكية، فواتير خدمات، أو ما شابه. في البداية، انتعش العمل بالأوراق المزوّرة. حتّى أنا كتبتُ بعض الأوراق- ليس

لبيعها بل لمساعدة آل دوران وأصدقائها. لم يعرف أغلب الناس القراءة والكتابة أو على الأقل ليس باللغة الإنجليزية، لذا احتاجوا للمساعدة. رأيتُ بعضهم يدفعون بالعملة الصعبة مقابل الهراء، لذا بدأتُ بكتابة إيصالات الإيجار غالباً. ولكن في النهاية لم يُجدِ كلّ ذلك نفعاً. امتلكَت المدينة والمقاطعة أغلب المباني المتهالكة في منطقتنا، وكان رجال الشرطة يعرفون أنّنا لا ننتمي إلى هناك، أياً تكن الأوراق التي نقدمها. طردونا كلنا- الفقراء المشرّدين، تجّار المخدرات، المدمنين، المجانين، العصابات، العاهرات، كلّ من يخطر ببالكِ».

«أين كنت تعيش؟»، سألتُه، «في أي جزء من المدينة؟».

«شارع فالي»، قال ماركوس، «لقد غصّت كلّ بنايات المصانع القديمة، ومواقف السيارات، والمنازل والمتاجر القديمة بالناس».

«وقطع الأراضي الشاغرة المليئة بالحشائش والقمامة حيث يتخلّص الناس من الجثث المزعجة»، أكملتُ.

قال: «هذهِ هي المنطقة. نعم. كان السيد والسيدة دوران فقيرين. لقد عملا طوال الوقت ومع ذلك لم يحصلا أحياناً على ما يكفي لإطعامها- بالأخص ما يكفي لمشاركتي. عندما تعافيتُ عملتُ معها. كنّا ننظّف ونصلح ونبيع أي شيء نعثر عليه. عملنا في كلّ أنواع الوظائف التي تمكّنا من الحصول عليها- التنظيف، التجميع، البناء، التصليح. لم تستمر طويلاً. كان هنالك الكثير من الناس مثلنا، والقليل من الوظائف، لذا كانت الأجور بخسة. أحياناً نعمل مقابل الماء والطعام فقط، أو مقابل الملابس القديمة أو الأحذية أو ما شابه.

حتّى أنهم قد يدفعون بالنقود الأمريكية إذا اعتقدوا أنهم سيفتلون بفعلتهم. أو بالعملة الصعبة إذا كانوا يهتمون بمعاملتك بإنصاف. وأغلبهم ليسوا كذلك. وقد يدفعون بالعملة الصعبة إذا كانوا يخشونك أو يخشون أصدقاءك.

وبالرغم من كلّ جهودنا، لم تكن هنالك أيّة طريقة يمكننا بها تحمّل تكلفة استئجار ولو حتّى شقة صغيرة بائسة أو منزل بالٍ. لقد عشنا في شارع فالي لأنه لم يكن باليد حيلة. مع ذلك، لم يكن الأمر بالسوء الذي تتخيلينه. كان الناس يعتنون ببعضهم البعض، باستثناء المدمنين والبلطجية. كان الجميع يعرفونهم. كنتُ أقرأ وأكتب للناس قبل موجة الجنون بالأوراق المزيّفة. دفعوا لي قدر استطاعتهم... و... ساعدتُ بعضهم في إقامة قدّاس الأحد. كانت هنالك سقيفة سيارة قديمة خلف المنزل الذي أقمنا فيه. امتدت من مرآب أقامت فيه ثلاث عائلات، ولكن صادف أنّ لا أحد سكن تحت السقيفة. أقمنا كنيستنا هناك وكنتُ ألقي العِظة بأفضل ما أستطيع. لقد سمحوا لي بذلك. جاؤوا لسماعي رغم أنني كنت طفلاً. علّمتهُم الأناشيد وما شابه. قالوا إنني أمتلك موهبةً، دعوةً. الحقيقة هي أنني بفضل أبي كنتُ أعرف عن الكتاب المقدس أكثر من أي واحد منهم، وأعرف أكثر عن الكنيسة الحقيقية».

سكت برهة وتطلّع بي. ثم قال: «لقد أحببتُ القيام بذلك. لقد صلّيت معهم، وساعدتهم بكل الطرق الممكنة. كانت حيواتهم فظيعة جداً. لم يكن باستطاعتي فعل الكثير من أجلهم، لكنني

فعلتُ ما بوسعي. لقد كان أمراً مهماً لهم أنني تعافيت من الحروق وطلقات الرصاص. لقد شاهدوني عندما كنتُ أبدو كالقيء. فكّروا أنني ما دمتُ قد نجوتُ من ذلك، فلا بدّ أن عند الربّ غايةً من أجلي.

كان السيد والسيدة دوران فخورين بي. منحاني اسمهما. كان اسمي ماركوس دوران خلال السنوات الأربع التي عشت فيها معهما. وما زلت كذلك. لقد وجدتُ هناك دياراً حقيقية.

ثم أتى رجال الشرطة وطردونا إلى الشارع. أتت بعدهم فرق التهديم لهدم المنازل، وتفجير المباني، وتدمير كلّ شيء أُجبرنا على تركه خلفنا. لقد طردوا الناس وسحلوهم إلى الشارع دون أن يسمحوا لهم بحمل أي شيء معهم- لا ملابس ولا نقود ولا صور ولا وثائق شخصية... حتّى أنهم طردوا بعض الناس ممّن لا يتحدّثون بالإنجليزية من دون أقاربهم الذين تمكّنوا من الاختباء أو كانوا مرضى أو معاقين بحيث لم يمكنهم الهرب. سحل رجال الشرطة هؤلاء وحمّلوهم في الشاحنات. لم يعثروا عليهم كلّهم. لكنني أرسلتُهم لإحضار سبعة من الذين عرفتُ بشأنهم، وأخرجوهم.

لكن كلّ شيء كان فوضوياً. حاول الناس العودة لحمل أغراضهم ومنعَهُم رجال الشرطة- أو حاولوا منعهم. كان بعض رجال الشرطة في ناقلات جنود مصفحّة. أما من كانوا مشاة فقد ارتدوا دروعاً واقيةً تغطي كامل الجسد، وأقنعة، وحملوا تروساً، وبنادق أوتوماتيكية، وقنابل غاز، وأسواط، وهراوات، كلّ ما تتخيلينه. ومع ذلك حاول

بعض الناس إيقافهم أو على الأقل إصابتهم بالأذى. فرموهم بالحجارة والقناني الزجاجية وحتى معلّبات الطعام الثمينة.

ثم أطلق أحدهم ثلاث عيارات نارية، وسقط أحد رجال الشرطة. لا أعرف ما إذا كان قد أصيب أم تعثّر، ولكن كانت هنالك طلقات نارية، ثم سقط. فقُضي الأمر. وحلّ الجحيم.

بدأ رجال الشرطة بإطلاق النار. هرع الناس، صرخوا، أطلقوا النار إذا كان بحوزتهم أسلحة. انفصلتُ عن آل دوران. بدأتُ أبحث عنهما حتّى قبل توقف إطلاق النار. لم أُصب هذه المرة، ولكني لم أجد آل دوران. لم أجدهما قطّ. بحثتُ عنهما لأيام. تفحّصتُ أكبر عدد ممكن من الجثث قبل أن يجمعوها. فعلت كلّ ما خطر ببالي، ولكنّهما اختفيا. بعد فترة، أدركتُ أنهما ولا شكّ قد ماتا، وأنني عدتُ وحيداً مرّة أخرى».

جلس ماركوس بصمتٍ يحدّق في الفراغ. «لقد أحببتُهما»، قال بصوتٍ ناعم مليء بالألم، «وأحببتُ أن أكون ماركوس دوران- الواعظ الصغير. لقد وثق الناس بي، واحترموني... كانت حياة طيبة. معظمهم كانوا أناساً طيبين- مجرد فقراء. لم يستحقوا ما حصل لهم». هزّ رأسه.

«لم أعرف ماذا أفعل»، تابع الحديث بعد لحظة، «مكثتُ في منطقة شارع فالي لمدة أسبوعين، رأيت جميع الأبنية تُهدم وتزال أنقاضها. سرقتُ الطعام حيثما استطعت، وتجنّبتُ الشرطة، وتابعت البحث عن آل دوران. قلتُ إنهما قُتلا، وصدّقتُ هذا بيني وبين

نفسي، ولكنّي مع ذلك لم أستطع التوقف عن البحث عنها. ولكن لم يكن هنالك شيء، لم يكن هنالك أحد».

تردّد ثم قال: «لا، هذا ليس صحيحاً تماماً. لقد أتى بعض الناس من كنيستي الصغيرة الفقيرة ليروا ما تبقى. التقيتُ بثلاث عائلات منهم. كلّهم طلبوا مني البقاء معهم. كان عندهم أقارب يسكنون في خرائب في أماكن أخرى، يعيشون في اكتظاظ لا يمكنكِ تخيّله، لكنّهم فكّروا أن بإمكانهم إيواء شخص آخر. لم يكُن عندي شيء، ومع ذلك أرادوني. كان ينبغي عليّ الذهاب معهم. ربما كنتُ سأقوم بتأسيس كنيسة أخرى خارج المدينة، وربما كنتُ سأتزوج، وأُكوّن أُسرة- أعيش مثل أبي. ربما كنتُ سأعيش حياة مقبولة. فقيرة، ولكن مقبولة. لا يهم أن تكون فقيراً إذا كان بوسعك إيجاد مكان خاصّ بك وتحظى بالاحترام. أعرف هذا الآن، ولكن وقتها لم أكن أعرف.

كنتُ في الثامنة عشرة من العمر. ظننت حينها أنه قد حان الوقت لأصبح رجلاً معتمداً على نفسه. فكّرتُ أنه لم يبقَ عندي شيء في جنوب كاليفورنيا. إنه مكان يعيش فيهِ المرء فقيراً ما لم يولد غنياً أو ما لم يكن لصّاً بارعاً. ظننت أن عليّ التوجه شمالاً. هنالك دائماً أفواج من البشر يسيرون على الطريق السريع قاصدين الشمال. فكّرت لا بدّ من أنهم يعرفون شيئاً ما. تحدّثت مع أشخاص حول الحياة في ألاسكا، وكندا، وواشنطن، وأوريغون... لم أعتزم البقاء في كاليفورنيا قطّ».

«ولا أنا»، قلتُ له.

قال: «هل مشيتِ إلى الشمال؟».

قلتُ: «نعم. وكذلك بانكول، وهاري، وزهرا... الكثير منّا فعل ذلك».

قال: «هل ضايقكم أحدٌ في الطريق؟».

قلتُ: «ضايقَنا كثيرون. لكننا نجونا أنا وهاري وزهرا لأننا دافعنا عن بعضنا البعض وأقمنا نوباتٍ للحراسة. بدأنا بمسدّس واحد فقط، مسدسي. لكننا جمعنا المزيد من الأسلحة والناس على طول الطريق. كدنا نُقتل عدّة مرّات. قُتل أحدنا بالفعل. ربما كانت هناك طريقة سهلة للوصول إلى هنا، لكننا لم نجدها».

قال: «ولا أنا. ولكن لماذا أتيتم إلى هنا؟ أقصد، لماذا لم تتابعوا السير نحو أوريغون أو أي مكان آخر؟».

«بانكول يملك هذه الأرض»، قلتُ، «في الوقت الذي وصلنا فيه إلى هنا، حسناً، كنتُ أنا وهو قد قرّرنا البقاء معاً. لكنّني أيضاً أردتُ... أردتُ المحافظة على مجموعتنا معاً. كنتُ أؤسس مجتمعاً- مجموعة من العائلات والأفراد الذين لا يزالون بشراً».

قال: «لقد قضيتِ وقتاً طويلاً تجوبين الطرقات، وتتساءلين ما إذا كان هنالك أشخاص لا يزالون بشراً».

قلتُ: «نعم».

قال: «الناس الذين جلبتِيهم إلى هنا- بنوا هذا المكان؟».

أومأتُ. قلتُ: «لم يكن هنالك شيء عندما وصلنا إلى هنا، ما عدا رماد منزل وعظام أقارب بانكول، وبعض المحاصيل والأشجار المهملة، وبئراً. كان عددنا حينها ثلاثة عشر فرداً فقط. والآن نحن ٦٦ شخصاً- ٦٧ معكَ».

قال: «وهل تسمحين للناس بالمكوث هنا بهذه البساطة؟ ماذا لو سرقوكم، أو غدروكم، أو قتلوكم؟ ماذا لو كانوا مجانين؟».

قلتُ: «تحلّ ببعض الثقة بي يا مارك».

تغيّر وجهه بطريقة غريبة. «أنتِ. أنتِ شخصياً». توقّف قليلاً ثم أردف، «ظننت أول الأمر أن هذا مكان بانكول، وأنه هو من ضمّك إليه».

قلتُ: «قلتُ لكَ إن هذه أرضه».

قال: «لكنّه مكانك».

قلتُ: «إنه مكاننا. لقد صوّرته، لكنّني لا أملكه. لقد دعوتُ الناس ليأتوا إلى هنا ويعيشوا معنا، دعوتُهم للانضمام إلينا»، تردّدتُ قليلاً، تساءلتُ إلى أي حدٍ لا يزال يؤمن بالدين كما علّمَنا إيّاه والدُنا. عندما كان صغيراً، بدا دائماً متقبّلاً لدين أبي كشيء حقيقي، وواضح، ومسلّم به. ولكن بماذا يؤمن الآن بعدما عانى من دمار منزلين وفقدان عائلتين، بعدما تحمّل عذاب البغاء والعبوديّة؟ لم يتحدّث إلى الآن عن هذا الجزء من حياته. هل منحه دينُه الأمل،

أم ذبل إيمانه وتداعى عندما لم ينقذه إلهه؟ لقد أقام كنيسة بسيطة في العراء عندما كان في روبليدو، وكان جاداً بشأنها. ولكن بمَ يؤمن الآن؟ أجبرتُ نفسي على متابعة الحديث، قلتُ: «ومنحتُهم نظاماً عقائدياً يساعدهم على التعامل مع العالم كما هو، كما سيكون- كما يُمكن لأشخاص مثلهم أن يجعلوه».

قال: «هل تقصدين أنكِ مبشّرة؟».

أومأتُ. قلتُ: «نحن لا ندعو الأمر هكذا، ولكن نعم».

بدا متفاجئاً، ثم انفجر ضاحكاً، «الدين في جيناتنا»، قال، «لا بدّ من ذلك. أما هذا أو أن أبي أبلى حسناً في تعليمنا».

«نحن نسمّي نظامنا العقائدي بذرة الأرض»، قلتُ، «اللقبي الحقيقي هو المصوّرة».

حدّق بي لعدة ثوانٍ، لم ينبس ببنت شفة. لكنه بدا متفاجئاً أول الأمر، والآن محتاراً. «بذرة الأرض؟»، قال أخيراً، «ربّاه! لقد سمعت عنكم. أنتم تلك الطائفة!».

قلتُ: «هكذا يدعوننا».

قال: «ثمة سياسيّ. أظن أنه ترشّح لعضوية مجلس شيوخ الولاية. لقد فاز. كان أحد الموالين لجاريت. ألقى خطاباً في أركاتا عندما كنتُ هناك، عدّد فيه الطوائف التي تعبد الشيطان. بذرة الأرض واحدة منها. لم أكن قد سمعتُ بها من قبل، لكنني أتذكّر خطابه لأنه قال إن الاسم فعلياً يشير إلى الشيطان، البذرة المدفونة

في أعماق الأرض، وتنمو مثل الفطريات السامّة، لتنشر شرّها بين الناس».

قلتُ: «أوه، مارك...».

قال: «لستُ أكذب. لقد قال ذلك حقاً».

أخذتُ نفساً عميقاً. ثم قلتُ: «نحن لا نعبد الشيطان. في الحقيقة، نحن لا نعبد أيّ أحد. نحن بذرة الأرض. البشر بذرة الأرض. ليس عندنا من شياطين. لكنّ مجتمعنا صغيرٌ جداً لذا أنا متفاجئة أن هذا السياسيّ قد سمع بنا. وأتمنى لو أنه لم يسمع بنا. يا لها من أكاذيب!».

نفض كتفيه. قال: «هذه مجرد ألاعيب سياسية. رجال السياسة قد يقولون أي شيء كما تعلمين. لكن لماذا تركتِ المسيحيّة؟ لماذا تختلقين ديناً جديداً؟».

قلتُ: «أنا لم أختلقه. إنه شيء يشغل فكري منذ كان عمري اثني عشر عاماً. لقد كان -بل هو- مجموعة من الحقائق. ليست الحقيقة الكاملة. ليست الحقيقة الوحيدة. بل مجرد مجموعة واحدة من الأفكار الحقيقية. لم أستطع قول أي شيء حوله عندما كنّا نعيش في حيّنا. لم أرغب في إيذاء أبي. لكن طريقته لم تفلح معي. أردتُ ذلك. كنتُ سأنعم بالراحة لو حصل ذلك. لكنها لم تفلح معي. بذرة الأرض أفلحت معي».

قال: «لكنكِ اختلقت بذرة الأرض. وإذا لم تختلقيها فلا بدّ من أنك قد سمعتِ عنها أو قرأتِ عنها في مكانٍ ما».

لقد سمعتُ هذا عدّة مرّات من قبل. إنه شيء يقوله كلّ عضو جديد محتمل. حتّى أنني أبقيتُ في متناولي وسيلة تعليمية بسيطة للتعامل مع هذا الأمر. نهضتُ وتوجّهتُ نحو أحد رفوف الكتب حيث وضعتُ قطعة جميلة من حجر كوارتز ورديّ أهداني إياه بانكول وجعلتُه كمسند للكتب القليلة التي احتفظتُ بها في مسكني وليس في قسم المكتبة في المدرسة. مكتبة .. سُر مَن قرأ

«انظر لهذا وأخبرني بشيء». قلتُ له بعد أن وضعتُ الحجر بين راحتَي يديه. «إذا قمتُ بتحليل هذا الحجر وعرفتُ مم يتكوّن بالضبط، هل هذا يعني أنني اختلقتُ الأمر؟».

قال: «هذه ليست مقارنة جيدة يا لورِن. الحجر موجود. بذرة الأرض لم تكن موجودة قبل أن تختلقيها».

قلتُ: «كل حقائق بذرة الأرض موجودة في مكان ما قبل أن أعثر عليها وأجمعها. كانت موجودة في أنماط التاريخ، والعلوم، والفلسفة، والدين، والأدب. لم أختلِق أيّاً منها».

قال: «أقُمتِ بجمعها فقط؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «إذن أنتِ بالفعل اختلقتِ بذرة الأرض، بنفس الطريقة التي يمكن فيها اختلاق روايةٍ إذا كتبتِها. لن تُضطري لإيجاد أمور جديدة كُلياً لتقوم بها أو تكونها شخصياتك في الرواية. لا أظن أنه ذلك بإمكانك حتّى لو رغبتِ».

قلتُ: «باستثناء أن الرواية وبحكم تعريفها هي خيال. لا تدْعُ بذرة الأرض بالخيال. أنت لا تعرف أي شيء عنها باستثناء الأكاذيب التي سمعتها من سياسي انتهازي». تناولتُ نسخة من (كتاب الأحياء الأول) وقدّمته له. «اقرأه أولاً ثم نتحدّث».

قال: «هل كتبتِه بنفسك؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «وتؤمنين به؟».

قلتُ: «أؤمن به. لن أعلّم الناس أن الأشياء حقيقية إذا لم أؤمن بها».

قال: «أتذكّر أنكِ كنتِ تكتبين دائماً عندما كنّا نعيش في روبليدو. اعتاد كيث الدخول خلسة إلى غرفتك وقراءة يومياتك. أو على الأقل هذا ما قاله».

فكّرت بذلك لوهلة. «لا أظن أنه قد قرأ يومياتي قط»، قلت، «أعني، أعلم أنني كنتُ أطرده من غرفتي دائماً. وطردتُك أيضاً مرّات عديدة. ولكنّي أعتقد أنه لو قرأ كيث يومياتي بالفعل، فلن يقاوم فكرة استخدامها ضدي. علاوة على ذلك، لم يقرأ كيث أي شيء إلّا إذا اضطُر لذلك».

«نعم»، سكتَ قليلاً وراح يحدّق في الطاولة، «من الغريب التفكير أنني الآن أكبر منه سناً. لا يزال يبدو أكبر وأضخم عندما أتخيّله. لقد كان وغداً لعيناً»، هزّ رأسه، «أظن أنني كرهته حقاً، بسبب المشاكل

التي كان يسبّبها للجميع، ولأنه كان يضربنا- ما عداكِ. كان يخافكِ لأنكِ كنتِ أضخم منه بكثير. وماما... لقد أحبّته أكثر ممّا أحبتنا كلّنا مجتمعين».

قلتُ: «لم يكن الأمر بهذا السوء يا مارك».

رفع رأسه وتطلّع فيّ بنظرة جادة. ثم قال: «بل كان كذلك. لم تكن أمّك لذا ربما لم تشعري بها كما شعرتُ. لكنّ الأمر كان أسوأ ممّا تتخيلين».

قلتُ: «بلى، لقد شعرتُ بذلك. قرب حلول النهاية، عندما كنّا أنا وهي بأمسّ الحاجة لبعضنا البعض. لا أظن أنّها أحبّتني إطلاقاً. لكنها كانت في غاية الخوف والقنوط... سامحها يا مارك. لقد عاشت في مكان جحيميّ مع أربعة أطفال لترعاهم. لو جعلها ذلك أقل عقلانية ممّا كان يجب أن تكونه... حسناً، سامحها».

ساد صمت طويل. حدّق في الكتاب وفتح الصفحة الأولى:

كلّ شيءٍ تلمسُه
تُغيّرُه.
كلّ شيءٍ تُغيّرُه
يُغيّرُك.
وحدهُ التغييرُ
الحقيقةُ الباقيةُ.
الربّ إلهنا هو التغييرُ.

لم أعرف في البداية ما إذا كان قد قرأ الكلمات. بدا يحدّق فيها كما يحدّق العميان، بلا نظر، في الفراغ. ثم همس «يا ربّ»، مثل الدعاء. أغلق الكتاب وأغمض عينيه. «لستُ متأكداً من أنني أريد قراءة كتابكِ يا لورِن»، قال. فتح عينيه وتطلّع فيّ. «لم تسألي كيف انتهى بي المطاف عند كوغر؟».

«أردتُ سؤالك»، اعترفتُ.

قال: «بسيطة. أوّل ليلة قضيتها في الطريق السريع باغتني ثلاثة رجال -ضخام. لم أملك مالاً كثيراً وهذا ما أغضبهم- كأنه يُفترض بي أن أكون غنياً لكي تصبح سرقتي جديرة بعنائهم. إذا لم أكن غنياً، فمعناها أنني خدعتهم، وعندهم الحقّ في معاقبتي. سحقاً».

راح يحدّق في الطاولة مرّة أخرى، وتخيّلتُه حينها، بمواجهة ثلاثة رجال ضخام. لطالما كان نحيفاً، وجذّاباً أكثرَ من اللازم لحدٍّ أضرّ بهِ- كان صبياً جميلاً، والآن صار شاباً وسيماً. رأيتُ نظرات الفتيات والنساء في المجتمع عندما جئنا بهِ من الشاحنة إلى المنزل يوم أمس. لو بقي سيرمين بأنفسهن عليه.

إنه أقوى الآن. يبدو قويّاً على نحالته. لكنه حتّى الآن، لا يمتلك القوّة الكافية لصدّ ثلاثة معتدين. ولم يكن معه أصدقاء لحمايته على الطريق السريع في تلك الليلة.

بعد فترة تحدّث ثانية، ولا يزال يحدّق في الطاولة. «لم يسمحوا لي بالرحيل بعد أن أوسعوني ضرباً واغتصبوني»، قال، «أخذوني

معهم لكي يكرروا فعلتهم مراراً وتكراراً. وعندما سئموا مني باعوني لقوّاد. ليس كوغر. هذا أتى دوره لاحقاً. أول واحد أطلق على نفسه اسم زورو. يبدو أن كلّ هؤلاء الرجال يمتلكون أسماء سخيفة. عموماً، زورو هو أول من وضع طوقاً حول رقبتي. بعدها لم يتكبّدوا عناء ضربي- ما لم تراودهم الرغبة في ذلك. بعض الناس يتلذّذون بضرب شخص لا يستطيع الدفاع عن نفسه. و... هل تعرفين يا لورِن ما هو أسوأ شيءٍ في الطوق؟ يمكنهم تعذيبك بواسطته كلّ يوم. كلّ يوم لعين. ولن تظهر عليك أيّة علامات من شأنها أن تشوّهك أو تخفّض من سعرك، ولن يموت المرء منه أبداً! أو معظم الناس لا يموتون بسببه. لكن البعض محظوظون. تصيبُهم نوبة قلبية أو سكتة دماغية ويموتون. لكن بقيتنا يعيشون مهما طال الأمر. وإذا حاولنا إيجاد طريقة للموت، لقتل أنفسنا، بإمكانهم منعنا. بإمكان الرجل الذي يحمل وحدة التحكّم أن يلعب بك كما اعتادت ماما اللعب بالبيانو. سيصل بك الأمر لفعل أيّ شيء -أي شيء!- فقط لكي يدعَك وشأنك ولو لدقائق معدودة. قد تصادف جثة على الطريق، جثّة رجلٍ مسنّ مسكين لم يستطع المشي لمسافة أبعد، أو جثّة امرأة اغتصبها أحدهم وقتلها. تمرّ بجانب الجثة وتتمنى من كلّ قلبك لو أنك بمكانها».

تنهّد وهزّ رأسه. ثم قال: «هذا كلّ ما حصل لي. حقّاً. امتلكني شخصٌ آخر بين زورو وكوغر، وكان حثالة. لا يمكن للمرء امتلاك الناس وتعذيبهم من أجل المتعة والربح ما لم يكن حثالة. قد يبيع

القوّاد أمه أو ابنته إذا حصل على سعر جيد في المقابل. إذا سنحَت لي الفرصة، أقسم بالله يا لورِن، سأحرقهم ثلاثتهم، كما يفعل أنصار جاريت بمن يسمونّهم المشعوذين والساحرات». أضاف بعد لحظة: «لقد شهدتُ ذلك مرّة- الحرق. سارجنت -مالكي الثاني- أحرق امرأة حاولت قتله أثناء نومه. كانت امرأة جميلة. قتل سارجنت وأصدقاؤه عائلَتها للحصول عليها، لكنه نام معها قبل أن تتعلّم القوانين.

القوانين كالتالي: ما أن ترتدي الطوق لا يمكنك الهرب. إذا ابتعدت مسافة معيّنة من وحدة التحكّم فسيخنقك الطوق. أعني أنه سيؤلمك بشدة بحيث لن يعود بمقدورك الاستمرار بالهرب. ستفقد الوعي إذا حاولتَ. كنّا ندعو ذلك بالخنق. إذا لمست أو عبثت بوحدة التحكّم يخنقك الطوق. ولن ينفعك هذا في كلّ الأحوال. لأن فيها قفلاً يُفتح ببصمة الإصبع. وإذا كانت الأصابع التي تحاول فتحها غير مطابقة أو ميّتة، فسيخنقك الطوق وتبقى مختنقاً إلى أن يأتي من يمتلك الأصابع المطابقة الحيّة ليطفئَه. أو حتّى تموت. إذا هدّد أحدهم قواداً، فسيجبر العاهر الأكبر سناً والأقل تفضيلاً على القتال من أجله وحمايته. الحقيقة هي، طالما أنهم يرتدون الطوق فكلّ العواهر -من الجنسين- سيقاتلون من أجله، مهما بلغ كرههم له. سيقاتلون بضراوة. ولن يهمهم إذا لقوا حتفهم أثناء ذلك.

وبالطبع إذا حاولتِ قطع أو حرق أو الإضرار بالطوق بأي شكلٍ من الأشكال، فسيخنقك.

لقد حاولَت الفتاة الانتقام لعائلتها. لم تعرف لماذا أوقفها العاهر الآخر الذي كان برفقة سارجنت تلك الليلة. توسل العاهر الآخر بها ألّا تفعل ذلك. حاول أن يشرح لها، لكنها لم تستمع. ثم استيقظ سارجنت. في اليوم التالي جمع كلّ العواهر الذين يمتلكهم، ربط البنت إلى وتدٍ وهي عارية وأرغمنا على جمع الحطب وتكديسه حولها وفوقها مع إبقاء رأسها ظاهراً فقط. ثم أجبرنا على المشاهدة بينما... بينما راح يحرقها».

خطر ببالي أن ماركوس كان هو «العاهر الآخر» الذي أنقذ حياة سارجنت. ربما فعلاً كان هو. لن أُقدم على سؤاله. ربما، بدرجة ما، كان هو «العاهر الآخر» حتّى لو لم يكن كذلك حقاً. يقول أخي إن الطوق يحوّلك إلى خائن لجماعتك، ولحرّيتك، ولنفسك. هذا ما جرى له. فماذا صنع منه؟ من هو وما هو الآن؟ لا أحد يمرّ بما مرّ به ولا يتغيّر بطريقة ما. لا عجب أن أول آية من بذرة الأرض قد أثّرت به.

أخذتُه لرؤية زهرا وهاري، عانقاه كلاهما، مذهولين. زهرا بالأخص، لأنها رأته يصاب بطلق ناري ويُرمى في النار، ظلّت تحدّق فيه وتلمسه. بينما حدّق هو فيهما بنفس الطريقة التي يحدق بها المتضوّرون جوعاً إلى طعامٍ لا يمكنهم استجداؤه أو شراؤه أو سرقته.

الأحد، ١٩ ديسمبر، ٢٠٣٢

«نادِني ماركوس»، قال لي أخي عندما كنتُ أُريه القاعة التي كانت تمثّل المكتبة والمدرسة وغرفة الاجتماع. كان على وشك حضور أوّل اجتماع له معنا، لكنني أحضرته إلى المدرسة مبكّراً ليرى ماذا بنينا. بدا منبهراً بالبناية وبمجموعتنا من الكتب التي جمعناها عن طريق النبش والشراء والمقايضة، ولكن كان عندي انطباع أن ذهنه مشغولٌ بأمر آخر. ثم أفصح عنه.

«أُدعى ماركوس دوران منذ خمس سنوات»، قال، «لم أعد أعرف من هو ماركوس أولامينا».

لم أفهم. قلت له بعد قليل: «هل؟... هل هذا يعني أنك لا ترغب بأن يعرف الناس أنني أختك؟».

بدا مرتعباً. «لا، يا لورِن. ليس هذا ما أقصده»، توقف لحظة ثم تابع: «ماركوس أولامينا كان اسمي عندما كنتُ طفلاً. وأنا لم أعد ذلك الطفل. ولن أعود إليه ثانية».

أومأتُ. «طيب». ثم قلتُ: «بفضل بانكول الكل هنا يدعونني أولامينا. لذا لا يهمّ. على الأقل لن يكون هنالك اشتباه».

قال: «هل يناديك زوجُك باسمك قبل الزواج؟».

قلتُ: «إنه لا يحب اسمي الأول، لذا يتجاهله. وهذا منصف. لأنني أنا أيضاً لا أحب اسمه الأول. اسمه تايلور بالمناسبة. وأنا أتجاهله».

نفض أخي كتفيه دلالة على عدم الاهتمام، ثم قال: «هذا شأنُك. فقط نادِني ماركوس».

نفضتُ كتفي أنا أيضاً وقلت: «طيب».

الأربعاء، ٢٢ ديسمبر، ٢٠٣٢

عاد بانكول إلى البيت. قال إن الطبيب في هالستيد قد مات، وطلب منه الناس هناك -العُمدة والمجلس البلدي- أن ينتقل للعيش معهم ليصبح طبيبهم.

إنه يرغب في ذلك. من أجلي ومن أجل الطفل ومن أجله هو أيضاً، يرغب في الانتقال إلى هناك أكثر من أي شيء آخر. يقول إنّها فرصة ربما لن تتكرّر. يقول إنه رجل مسنّ. يقول إنّ عليه التفكير بالمستقبل، وعليّ التفكير بمصلحة الطفل. يقول إنني يجب أن أكون واقعية وأكفّ عن الأحلام، بحق الربّ.

أنا لا أنقل الحوار بكامل تفاصيله. إنه نفس الكلام القديم. لقد قاله من قبل وقد سئمت منه. لكن الوضع أسوأ الآن. مرعبٌ. بانكول أكثر جديّة من ذي قبل لأن لديه عرضاً بالعمل- عرضاً حقيقياً. وهو أكثر جديّة بسبب الحياة الجديدة الصغيرة التي تنمو في داخلي وتجمع بيننا. لم أعانِ من الغثيان الصباحي، ولم أشعر بانتفاخات ولا إزعاجات ولا تغيرات مزاجية، مثل التي عانت منها زهرا أثناء حملها. مع ذلك، فلا أشكّ للحظة أن ابنتِي في

داخلي. لقد فحصني بانكول، يقول إنّها بنت. نحن نتشاجر في اللحظات اللطيفة حول اختيار اسمها- هو يرغب بتسميتها بيريل على اسم أمه، أما أنا فأرى أي اسم آخر عدا بيريل سيكون مناسباً. إنه اسم قديم.

ولكن أحياناً، يبدو أن كلّ مشاعر الراحة والبهجة والحبّ التي أشعر بها بسبب طفلتنا التي تنمو وتكبر في بطني لا يراها بانكول. يبدو أنه لا يرى غير ما يسمّيه بعدم نضوجي، عدم عقلانيتي، إيماني غير الواقعي ببذرة الأرض، أنانيتي، نظرتي القاصرة.

٢٠٣٣

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

الشراكةُ أخذٌ وعطاءٌ وتعلّمٌ وتعليمٌ، وتقديمُ أقصى فائدةٍ بأقلّ ضررٍ. الشراكةُ تكافلٌ متبادلُ النفعِ. الشراكةُ هي الحياةُ.

كلّ كينونـةٍ، أو كلّ عمليـةٍ لا يُمكـن أو لا ينبغـي مقاومتهـا أو تجنّبهـا؛ يجـبُ تشـارُكها. شـاركوا بعضكم بعضاً. شـاركوا المجتمعاتِ المتنوّعةِ. شـاركوا الحياةَ. شـاركوا العالم الذي هو دياركم، شـاركوا الربّ. بالشـراكةِ وحدهـا نزدهِر، وننمو، ونتغيّر. بالشراكةِ فقط يمكننا أن نعيشَ.

٨
بذرة الأرض: كتُب الأحياء

الغايةُ
تُوحّدنا:
إنها تصوّبُ أحلامَنا،
وتوجّهُ خططَنا،
وتعزّزُ مساعينا.
الغايةُ،
تُعرّفُنا،
تصوّرُنا،
وتهبُنا
العَظَمةَ.

لستُ متأكّدة تماماً لماذا قضيتُ الكثير من الوقت في التقصّي عن حياة أُمّي قبل ولادتي. ربما لأنه أكثر وقتٍ إنساني وطبيعي في حياتها. أردتُ أن أعرف كيف كانت كزوجةٍ شابّة على وشك أن تكون أمّاً،

كيف كانت كصديقة، وكأخت، وأيضاً ككاهنة محليّة. هل كان يجدر بها مغادرة أيكورن والعيش في هالستيد كما طلب منها أبي؟ بالطبع كان يجدرُ بها ذلك! ولو أنّها قامت بهذا، فهل كنّا سنعيش أنا وهي وأبي حياةً طبيعية مريحة خلال فترة حكم جاريت المضطربة؟ أعتقدُ ذلك. كان أبي يقول إنّها غير ناضجة، غير واقعية، أنانية، بلا بصيرة. بلا بصيرة من دون كلّ الصفات! إذا كانت هنالك خطايا في بذرة الأرض، فأكثرها شراً انعدام البصيرة وقلّة التدبّر. مع ذلك، فأن انعدام البصيرة صفةٌ تنطبق عليها تماماً. لقد ضحّت بنا من أجل فكرة. وإذا لم تكن تعرف ماذا تفعل، فحريّ بها ذلك- هي التي كانت تُولي الكثير من الانتباه إلى الأخبار، إلى الأوقات والتوجّهات. عندما كانت مراهقة رأت خطأ والدها حينما لم يستطع رؤيته- اعتماده على السور والأسلحة، والإيمان الديني، والأمل بعودة الماضي الجميل. ولكن ماذا كانت تملك أكثر من ذلك؟ إذا كانت أيّامها الجميلة في المستقبل في عالم خارج المجموعة الشمسية، فهذا سيجعلها غير واقعية لحدٍ مثير للشفقة.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ١٦ يونيو، ٢٠٣٣

لقد امتلك الناس كلاباً أليفة في هالستيد، كعادة أهل معظم المدن والبلدات المحلية.

أعرف هذا، لكنني ترعرعتُ في الجنوب، حيث لا ينسجم الناس والكلاب في العادة. بل يأكل بعضهم البعض. كانت الكلابُ

تجري في زُمَر، وقد سُرِرنا لأن السور أبقاها بعيدة عنا. استخدم بعض الأثرياء كلاباً متوحّشة لحماية ممتلكاتهم. وحدهم يستطيعون تحمل كلفة شراء اللحوم وإطعامها للكلاب. أما بقيّتُنا نحن، فسنكون مسرورين بأكل اللحوم إذا حصلنا عليها.

حتى الآن يُفزعني منظر الكلاب والبشر إذا صادفتُهم سويّة في وفاق. لكن سكّان البلدات المحلية وعوائل المزارعين، حتّى لو لم يكونوا أثرياء، فعندهم ما يكفي من الطعام لمشاركته مع الكلاب- حتى الكلاب التي لا تعمل وتستلقي فقط طوال اليوم بأفواه مفتوحة تكشّر عن أسنانها الطويلة الحادة. يلعب الأطفال معها. توجّب عليّ أكثر من مرّة في الأيام القليلة الماضية أن أقمع اندفاعي لانتزاع طفل من تلك الأسنان وضربِ الكلب لإبعاده.

من المثير للاهتمام رؤية أن الكلاب لا تحبّني بنفس القدر. نحن نبتعد عن طريق بعضنا البعض. من ناحية أخرى، يحب بانكول الكلاب. إنه يحكّ آذانها ويتحدّث معها. وهي تحبه. عندما كان ولداً صغيراً يعيش في الجنوب، كان عنده كلبان أو ثلاثة كبيرة أليفة. من الصعب التصديق أن الناس فعلوا ذلك في سان دييغو وكاليفورنيا، حتّى قبل ثلاثين أو أربعين عاماً.

لأُرضي بانكول ذهبتُ معه إلى بلدة هالستيد الباردة والعاصفة لبضعة أيام. قلت له إن هذا لن يجدي نفعاً، لكنه أراد مني مرافقته على أيّة حال. لقد أثرتُ حنقَه كثيراً مؤخراً لذا وافقتُ على طلبه. إنه مغرم بالمكان. إنه كما يريده بالضبط: عريق، مع ذلك عصريّ،

عائليّ، ومعزول. هنالك منزل كبير مريح- بثلاث أو أربع غرف نوم. وبفضل توربينات الرياح على التلال، تتوفر الكهرباء معظم الوقت. وهناك سباكة حديثة. عندنا الآن القليل من المواسير، لكنّها شكّلت معضلة لفترة طويلة. هالستيد بلدة محمية جيداً، باستثناء ساحلها الآيل للسقوط. يبلغ عدد سكانها ٢٥٠ فرداً تقريباً. بضمنها عوائل المزارعين القريبين.

لقد وُعدنا أنا وبانكول بالحصول على منزل عائلة مهاجرة- تنوي الرحيل إلى سيبيريا. لقد ذهب الزوج وابناه اليافعان إلى هناك مسبقاً لتهيئة المكان من أجل النساء والأطفال الصغار والأجداد. بالنسبة لهذه العائلة، اسمهم آل كانون، فأن منزلهم في هالستيد الذي يمثّل لبانكول الأرض الموعودة المحمية، مجرد جزء من «الدولة القديمة» المنهكة وغير الصالحة للعيش التي يودّون تركها خلفهم. إنهم أناس طيبون، لكنهم لا يطيقون صبراً على مغادرة الولايات المتحدة. يقولون إنّها لم تعُد تصلح للعيش. إن فوز جاريت بالانتخابات الرئاسية كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير.

مع ذلك فقد كانت رحلة هالستيد تجربةً جيّدة بالنسبة لي. إذ لم يعُد يتسنّى لي التنقل كثيراً منذ حملي، لا في رحلات النبش ولا في التجارة. يصرّ بانكول أن أُلازم المنزل و«أكون عاقلة»، وفي معظم الوقت أنا أذعن.

نسيتُ كيف هو العيش في منزل كبير عصريّ. حتّى البرد والريح

لم يكونا بهذا السوء. لقد أحببتُ الجو نوعاً ما. كان المنزل يقعقع ويصدر صريراً، لكنه كان دافئاً بسبب المدفآت الكهربائية ونيران المواقد، كما أنه يقع بعيداً عن الجروف الساحلية فلم يكن معرّضاً لأي خطر لعدة سنوات قادمة، وربما أبداً.

في اليوم الأول، مشيتُ على الجروف ووقفت أتطلّعُ في المحيط الهادي. يمكننا رؤية المحيط في كلّ مرّة نسافر فيها على الطريق السريع إلى منطقة يوريكا-أركاتا ومناطق أقصى الشمال. رأيتُ من الأعلى كيف جرف المحيط مساحات كبيرة من الكثبان الرملية وألحق أضراراً فادحة على طول سواحل هومبولت وخليج أركاتا. كلّ هذا بسبب الارتفاع المضطرِد في مستوى سطح البحر وأيضاً بسبب العواصف الشديدة العرضية.

مع ذلك، فالبحر جميلٌ. وقفتُ في مهبّ الريح، أحدّق في الأمواج البيض مستمتعة بالمياه الشاسعة الهائلة الممتدّة أمامي. لم أسمع بانكول يتقدّم من خلفي إلى أن وقف بقربي. هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى شعوري بالأمان. أنا أكثر حذراً في أيكورن.

أحاطني بانكول بذراعه، وعبثت الريح بلحيته. ابتسم وقال: «المكان جميل، أليس كذلك؟».

أومأتُ. قلتُ: «أتساءل كيف سيحبّ الناس الذين عاشوا هنا الحياة في سهول سيبيريا الواسعة، حتّى لو صارت السهول أدفأ من ذي قبل».

ضحك. قال: «عندما كنتُ صبياً صغيراً، كانت سيبيريا هي المكان الذي يُرسِل إليه الروسُ- السوفييت كما كنّا ندعوهم سابقاً- الأشخاصَ الذين يقولون إنهم مجرمون ومثيرو فتن سياسية. لو قال أحدهم وقتها إن الأمريكيين سيتخلّون عن منازلهم وجنسيتهم للعيش في سيبيريا، سيبحث بقيّتنا عن سُترة مجانين من أجله».

قلتُ: «أظن أنّ واحدة من السمات البشرية ألّا يعرف المرء أنه يعيش في نعمة».

ألقى عليّ نظرة جانبية وقال: «أوه! نعم. أوافقك الرأي. أرى ذلك كلّ يوم».

ضحكتُ وطوّقتُه بذراعي وعُدنا إلى منزل آل كانون وأكلنا وجبة طعام من السمك المشويّ، والبطاطا المسلوقة، وكرنب بروكسل، وفطيرة تفاح. يقع منزل آل كانون على أرض واسعة، ومثلنا أنا وبانكول، كان آل كانون يعتمدون في طعامهم على ما ينتجونه. ويشترون من المزارعين والصيادين المحليين كلّ ما لا ينتجونه. وهم أيضاً جزء من تعاونيّات تعمل في مزارع الملح لاستخدامهم الخاص وللبيع. لكنّهم على عكسنا، لا يستخدمون الأعشاب والأغذية البرية والتوابل- لا بلوط، ولا ثمار الصبار، ولا النعناع، ولا المانزانيتا، ولا حتّى الصنوبر. بالتأكيد ستكون هنالك أنواع جديدة من الطعام في سيبيريا. فهل سيعتادون على أكلها أم سيتشبّثون بكل ما يمكنهم شراؤه أو زراعته من طعامهم المألوف الباهت؟

«أحياناً لا أطيق فكرة مغادرة هذا المنزل»، قالت ثيا كانون عندما كنّا جالسين على الطعام. «ولكن سيحظى الأطفال بالمزيد من الفرص إذا غادرنا. ماذا لديهم هنا؟».

لا يبدو حملي واضحاً للكثير من الناس. كما أنني أرتدي ملابس فضفاضة عادة. لكنني ظننتُ أن ثيا كانون، التي أنجبَت سبعة أطفال، ستلاحظ حملي. ربما كانت مشغولة الذهن بهمومها. إنّها امرأة شقراء جميلة ممتلئة الجسم، تملك هيئةً مرهَقة، في الأربعينيات من العمر. تبدو مشتّتة على الدوام- كأن هنالك الكثير ممّا يشغل بالها.

تلك الليلة، استلقيتُ إلى جانب بانكول في السرير، أستمعُ إلى أصوات البحر والرياح. إنّها أصوات جميلة ما لم تكن في العراء. في أيكورن، إن استلام نوبات الحراسة في الطقس القاسي ليس بمزحة.

«أخبرني العمدة أن البلدة على استعداد لتوظيفك بدلاً من إحدى المعلمات»، قال بانكول، فمه قريب من أذني ويده على بطني حيث يحلو له أن يضعها. «عندهم معلمة في أواخر الخمسينيات من عمرها، ومعلمة أخرى تبلغ من العمر ٧٩ عاماً. الأكبر سناً ترغب في التقاعد منذ سنوات. كادوا يهلّلون من شدة الفرح عندما أخبرتُهم أنكِ أسّست مدرسة في أيكورن وتقومين بالتدريس فيها».

قلتُ: «وهل أخبرتهم أن كلّ ما أملكه هو شهادة الإعدادية، والكثير من القراءة، والدروس التي راجعتُها على كومبيوتر أبي؟».

قال: «أخبرتُهم. ولا يأبهون. إذا علّمتِ أولادهم بما فيه الكفاية لاجتياز امتحان معادلة الشهادة الثانوية، فسيفترضون أنّكِ قد استحققت راتبك عن جدارة. وبالمناسبة، سيدفعون لك بالعملة الصعبة راتباً مجزياً، وهم على استعداد للسماح لكِ بالعيش في المنزل وزرع محاصيلك في الحديقة حتّى بعد موتي».

اقتربتُ منه ولم أقُل شيئاً. أكره حديثه الدائم عن الموت.

«عدا المعلمة العجوز»، تابع الحديث، «لا أحد هنا يمتلك مؤهلاتِ تدريس. لا يرغب كبار السن الذين يمتلكون شهادات جامعية في الحصول على وظيفة ثانية أو ثالثة كمعلّمين في المدارس. دُسّي القليل فقط من القراءة والكتابة والرياضيات والعلوم في رؤوس هؤلاء الأطفال وسيكون الكل سعداء. يمكنكِ القيام بذلك بسهولة بعد خبرتكِ في التعليم في أيكورن».

قلتُ: «بسهولة! يبدو هذا كتعريف للحياة في الجحيم!».

رفع يده عن بطني.

«هذا المكان رائع»، قلتُ، «وأنا أحبّك لمحاولتك توفيره لي وللطفلة. ولكن لا شيء هنا سوى التعايش. لا يمكنني التخلي عن أيكورن وبذرة الأرض والقدوم هنا لأعبئ رؤوس تلاميذ لا يحتاجونني حقاً بالقليل من الدروس».

قال: «طفلتُك بحاجة إليك».

قلتُ: «أعرف».

لم يقل أي شيء بعدها. أدار ظهره نحوي. نمتُ بعدها بفترة. لا أعرف ما إذا كان قد نام هو الآخر.

لم نتبادل الحديث لاحقاً عندما عُدنا إلى المنزل. كان بانكول غاضباً وغير متسامح. لم يُجب على عرض أهالي هالستيد بـ«لا» جازمة. وهذا يقلقني. أنا أحبه وأعرف أنه يحبني، لكنّي لا أستطيع أن أمنع نفسي من معرفة أن بوسعه العيش في هالستيد من دوني. إنه رجل مكتفٍ ذاتياً، ويعتقد أنه على صواب. يقول إنني طفولية وعنيدة.

بالمناسبة، مارك يوافقه الرأي، مع أنّنا لم نسأله عن رأيه. لكنه لا يزال مقيماً معنا، ويمكنه سماع على الأقل بعض خلافاتنا. كان بوسعه تجنّب التدخل، ولكن لا أظن أن هذا قد خطر بباله.

«ما خطبك؟»، قال لي محتجاً هذا الصباح قبل عقد الاجتماع. «لماذا تريدين إنجاب طفلتك في هذه المزبلة؟ بينما بوسعكِ العيش في منزل حقيقي وفي بلدة حقيقية».

غضبتُ جداً وبسرعة، فلم يكن أمامي غير خيارين: إما أن أصمت تماماً أو أصرخ عليه. لأنه الوحيد من بين كلّ الناس الذي لا يجدر بهِ أن يقول لي هذا. لقد مددنا إليه يد المساعدة من مزبلتنا واشتريناه بمالٍ جنيناه في مزبلتنا. لقد وجدناه وحرّرناه. لولانا ولولا مزبلتنا، كان سيظل عبداً وعاهراً!

«تعال للاجتماع»، قلتُ بصوت أقرب للهمس. ثم خرجتُ من المنزل للابتعاد عنه.

تبعني إلى الاجتماع، لكنه لم يعتذر إطلاقاً. لا أظن أنه يدرك أنه قال شيئاً حقيراً.

بعد الاجتماع، دنا مني غراي مورا وقال: «سمعتُ أنك ستغادرين».

تفاجأتُ. لا أعتقد أنه كان يفترض بي أن أتفاجأ. لا نصرخ أنا وبانكول على بعضنا ونذيع مشاكلنا كما يفعل آل فيغارو وآل فيركلوث، ولكن لا شكّ أنه من الواضح للجميع أن هنالك خطباً ما بيني وبينه. وهناك أيضاً مارك. ربّما قد أخبر الآخرين- فقط بسبب حاجته إلى الشعور بالأهمية. عنده رغبة عارمة في أن يكون مهماً، لكي يُعيد إثبات رجولته.

«لستُ مغادِرة»، قلت لغراي.

عبس. قال: «هل أنتِ متأكّدة؟ سمعتُ أنك ستنتقلين للعيش في هالستيد».

قلتُ: «لستُ مغادرة».

تنهّد بارتياح. قال: «جيد. سينهار هذا المكان من دونكِ». ثم استدار ومضى في حال سبيله. هذه هي طبيعة غراي. في بداية انضمامه إلينا ظننتُ أنه سيتسبب لنا بالمتاعب أو أنه لن يبقى. بدلاً من ذلك، تبيّن أنه شخصٌ يُعتمد عليه- على شرط ألّا تطالبه بتبادل الأحاديث أو بإظهار المودّة. إذا كنتَ وفياً لغراي وعائلته، سيكون وفياً لك.

لاحقاً، بعد العشاء، سحبَتني زهرا بالتر من جلسة قراءات درامية قدّم فيها ثلاثة من الأولاد الأكبر سناً كتاباتهم الخاصة أو

أعمالٍ منشورة أحبّوها. كنتُ مستمتعة بقراءة توري مورا، ربيبة غراي، لشعر هزلي كتبَتهُ. نحن نرحّب بالضحك في أيكورن. وكنتُ أرسم توري، هي فتاة طويلة ونحيلة، وسيمة أكثر منها جميلة. لقد اكتشفتُ أنّ الرسم مختلفٌ جداً عن كلّ شيء آخر كنتُ أفعله على سبيل الاسترخاء، وفي نفس الوقت، أيقظ الرسم في داخلي وعياً جديداً- نوعاً جديداً من الوعي. بدأتُ أستشعر اللون والملمس، الخطوط والأشكال، الظل والضوء، بانتباهٍ جديد. صرتُ أنغمس في حالات مركّزة شبيهة بالغيبوبة، وأرسم أشياء فظيعة حقاً. يضحك أصدقائي على لوحاتي، لكنهم يقولون أنّها بدأت تتحسن وتصبح مفهومة. قالت زهرا قبل أسبوعين إن لوحة هاري التي رسمتُها تبدو آدمية تقريباً.

ولكن هذه المرة لم تأت زهرا للحديث عن لوحاتي.

«إذن ستغادرين!»، هسهست ما أن صرنا بمفردنا. بدت غاضبة ومريرة. وجدَ الناس من حولنا أشياء تسلّيهم يوم الاجتماع. كانت ماي تُعلّم ميرسي نوير حياكة سلّة صغيرة من الخوص. انهمك بعض البالغين والأولاد الكبار في لعبة كرة قدم بالرغم من الجوّ البارد. وقف مارك وخورخي قبالة أحدهما الآخر، يقضيان وقتاً ممتعاً في الركض ذهاباً وإياباً على طول الساحة، ليتّسخا ويصابا بالكدمات. قال ترافيس الذي كان يحبّ كرة القدم أيضاً: «أعتقد أن هذين سيقتلان بعضهما البعض من أجل فرصةٍ لتسجيل هدف».

ليتَ مارك اكتفى بتسجيل الأهداف في كرة القدم.

بالطبع لم أتفاجأ بسؤال زهرا بقدر ما تفاجأتُ بسؤال غراي. قلت لها: «أنا لن أغادر، زي».

ومثل غراي، لم تصدقني في البداية. قالت: «لقد سمعتُ أنكِ... لقد قال أخوكِ إنكِ.. أخبريني بالحقيقة يا لورِن!».

«يريد منّي بانكول أن أنتقل للعيش في هالستيد»، قلت، «أنتِ تعلمين بهذا. وأنا لا أرغب بالذهاب. أظن أنّنا نملك هنا شيئاً مهماً يستحق عناء البقاء».

قالت: «لقد سمعتُ أنهم عرضوا عليكِ منزلاً بجانب المحيط؟».

قلتُ: «منزل مطلٌ على المحيط. ولكن ليس قريباً جداً. لا يجب أن يرغب المرء بمنزل قريب جداً من المحيط في هالستيد».

قالت: «لكنه منزلٌ حقيقي. أعني يشبه منزل روبليدو».

قلتُ: «نعم».

قالت: «ورفضتِ عرضهم؟».

قلتُ: «نعم».

قالت: «أنتِ حقّاً مجنونة».

لقد باغتني هذا. قلت: «هل تقصدين أنكِ تريدين مني الذهاب يا زي؟».

قالت: «لا تكوني غبية. أنت مثل أختي. تعلمين أنني لا أريدك أن تذهبي... ولكن... ينبغي عليك الذهاب».

قلتُ: «لن أغادر».

قالت: «لو كنتُ مكانكِ لغادرتُ».

حدّقت فيها.

قالت: «كنتُ سأقبل بالذهاب إلى مكان أفضل لو كان ذلك بوسعي. عندي طفلان. كيف ستكون حياتهما هنا؟ وكيف ستكون حياة طفلتِك هنا؟».

قلتُ: «وكيف ستكون حياتهم في هالستيد؟ هالستيد تشبه روبليدو ولكن بسورٍ أفضل. لماذا إذن برأيكِ ينوي الناس الذين يعيشون هناك الهجرة إلى روسيا أو ألاسكا، بينما يتمسك البقية بما بقي من أطلال حياة القرن العشرين إلى أن يموتوا؟ لا يحاول أيّ منهم بناء شيء لاستبدال ما خسرناه أو لتحسين أوضاعنا».

قالت: «تعنين مثل بذرة الأرض؟ والمصير؟».

قلتُ: «نعم».

قالت: «ليس هذا كافياً».

قلتُ: «إنها بداية. إنّها طريقة لمحاولة بناء مستقبل بدلاً من العودة إلى شكل من أشكال الماضي».

قالت: «ألا تتوقفين عن الوعظ».

قلتُ: «هل أنا على خطأ؟».

نفضَت كتفيها. قالت: «تعلمين أنني لستُ متديّنة مثلك. بالإضافة

إلى ذلك، حتّى لو ذهبتِ للعيش في هالستيد سنظل هنا. وستبقى بذرة الأرض على حالها».

هل هذا صحيح؟ ربما. لكن بذرة الأرض حركة فتيّة. لا يمكنني التخلّي عنها وترك الأمر لـ «ربما». التخلّي عنها مثل التخلّي عن ابنتِي.

يوماً ما، أريد من الأشخاص الذين يعيشون هنا أن ينطلقوا لنشر بذرة الأرض. وأريد الحرص على أن تبقى التعاليم التي ينشرونها هي نفسها تعاليم بذرة الأرض.

«لن أغادر»، قلتُ، «وأظن أنكِ كاذبة يا زي. لا أعتقد انكِ ستغادرين يوماً. تعلمين أنكِ ما دمت تعيشين في أيكورن سنقف إلى جانبك إذا وقعتِ في مشكلة. وتعلمين أنّنا سنرعى أطفالك إذا حصل لك أو لهاري أيّ مكروه. من سيقوم بهذا غيرنا؟». لقد ترعرعَت في واحد من أقذر شوارع لوس أنجلوس، وكانت تعرف أهمية الوفاء، وأهمية اعتمادها على أصدقائها واعتمادهم عليها.

نظرت إليّ. ثم أشاحت بنظرها. «الوضع جيّدٌ هنا»، قالت وهي تحدّق في التلال على الجانب الغربي منّا، «أفضل ممّا تخيّلت أنه سيكون عندما جئنا إلى هنا في البداية. لكنكِ تعلمين أنه ليس جيداً مثل روبليدو. يجب أن تغادري من أجل طفلتك».

قلتُ: «بل سأبقى من أجل طفلتي».

نظرّت إلى عينيّ ثانية، وقالت: «هل أنتِ متأكّدة من قرارك؟ فكّري في المستقبل».

قلتُ: «أنا متأكدة من قراري. وأنتِ تعلمين جيداً أنني أفكّر في المستقبل».

صمتَت لبرهة. ثم تنهدّت بارتياح، قالت: «جيد»، ثم صمتَت ثانية. ثم أردفَت: «أنت على حقّ. أنا لا أرغب بالرحيل. ولا أرغب برحيلكِ أنتِ أيضاً. ربما لأنني حمقاء مثلك. لا أعلم. ولكن... نحن نملك شيئاً جيداً هنا. أيكورن وبذرة الأرض جديران بالتمسك بهما». ثم ابتسمَت وقالَت: «وهل يتقبّل بانكول هذا؟».

قلتُ: «لا».

قالت: «بالطبع. إنه يحاول أن يقدّم لك ما تتمناه كلّ امرأة عاقلة بينما ترفضين. يا للرجل المسكين».

ثم ذهبَت في حال سبيلها وهي تبتسم. كنتُ أهمّ بالعودة إلى جلسة القراءة ودفتر الرسم عندما أقبل خورخي شو ودنا مني. كان متعرقاً ومتسخاً من اللعب. كانت برفقة صديقته دايموند سكوت، فتاة نحيلة سوداء، بشعر مصفّف كالعادة. رأيت السؤال على ملامحها قبل أن يطرحه خورخي.

«أصحيح أنكِ ستغادرين؟».

الخميس، ٢٠ يناير، ٢٠٣٣

تم تنصيب جاريت رئيساً للبلاد هذا اليوم.

استمعنا لخطابه الذي كان قصيراً ومحرّضاً. كان يتخلله الكثير من العبارات من قبيل: «أمريكا، أمريكا، الربّ أسبغكِ بالنعمة»[١]، و«بارك الربّ بأمريكا»، و«أمّة واحدة، لا تقبل بالتجزئة، تحت رعاية الرب»[٢]، والكثير من الكلمات من قبيل: الوطنية، القانون، النظام، الشرف المقدّس، وكان هنالك الكثير من الأعلام والكتب المقدسة، وكل الناس يلوحون بواحد منها. كانت عظته -لأن هذا ما كانت عليه- من سفر أشعياء، الأصحاح الأول: «بِلاَدُكُم خَرِبَةٌ. مُدُنُكُم مُحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرضُكُم تَأكُلُهَا غُرَبَاءُ قُدَّامَكُم، وَهِيَ خَرِبَةٌ كَانقِلاَبِ الغُرَبَاءِ»[٣].

ومن ثم: «هَلُمَّ نَتَحَاجَج، يَقُولُ الرَّبُّ. إِن كَانَت خَطَايَاكُم كَالقِرمِزِ تَبيَضُّ كَالثَّلجِ. إِن كَانَت حَمرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ. إِن شِئتُم وَسَمِعتُم تَأكُلُونَ خَيرَ الأَرضِ. وَإِن أَبَيتُم وَتَمَرَّدتُم تُؤكَلُونَ بِالسَّيفِ. لأَنَّ فَمَ الربّ تَكَلَّمَ»[٤].

ثم تحدّث عن السلام وإعادة البناء والشفاء. قال: «إن أمريكا المسيحيّة القويّة بحاجة إلى جنود أمريكين مسيحيّين أقوياء لكي

---

(١) مقطع من أغنية وطنية كتبتها البروفيسورة والشاعرة والكاتبة Katharine Lee Bates في عام ١٨٩٣. لحنها Samuel A. Ward.

(٢) The Pledge of Allegiance، مقطع من قسم أو عهد الولاء لعلَم الولايات المتحدة.

(٣) سفر إشعياء (١:٧).

(٤) سفر إشعياء (١: ١٨-٢٠).

يوحدّوها ويعيدوا بناءها ويدافعون عنها». وتحدّث في نفَسٍ واحدٍ عن «الكرم والحب الذي يجب أن نُظهره لبعضنا البعض، ولكل أخوتنا من المسيحيّين الأمريكيين»، وعن «الهلاك الذي يجب أن ننزله على رؤوس الخونة والمذنبين، أولئك المخرّبين الذين يعيشون بيننا».

ربما اسميه بخطاب «بحيرة النار والكبريت»[1]، ولكن ماذا سيحدث الآن؟

الأحد، ٦ فبراير، ٢٠٣٣

أخبر مارك بانكول ليلة البارحة إنه ينوي إقامة خدمة قدّاس خاصة به في يوم الاجتماع. قال إنه يرغب في الحديث قبل وقت اجتماعنا المعتاد. يبدو أنه يشعر بالحنين إلى الوقت الذي قضاه مع آل دوران في روبليدو، ويشعر بالحنين إلى كنيسته في المرآب، ويتوق لاستعادة صورته تلك.

أرسله بانكول إلي. «لا تُسبّب المشاكل»، أخبره بانكول، «لقد عاملَتكَ أختك معاملة طيبة. أخبرها بما تنوي عليه».

«لا يمكنها منعي!»، قال أخي.

«افعل الصواب»، أخبره بانكول، «عندك ضميرٌ. لا تقُم بأي شيء من دون علم أختك».

(١) بحيرة النار والكبريت: مكان عقابٍ أبديّ، مذكورة في مواضع كثيرة من الكتاب المقدس.

لذا، في وقت لاحق من ذلك اليوم، وجدني مارك جالسة مع شانا رايان، نفرز ونفهرس الكتب. لقد تأخّرنا بفعل ذلك، وتوجّب علينا القيام به. يعمل كلّ أطفالنا في مشاريع كجزء من تعليمهم. يقوم كلّ طفل بمشروع جماعي واحد على الأقل ومشروع فردي واحد سنوياً. يكتشف معظم الأطفال أن المشروعين المنفصلين يؤثران بعضهما بالبعض بطرقٍ غير متوقّعة. هذا يساعد الأطفال على فهم كيف يسير العالم، وكيف يمكن أن تتداخل الأمور المختلفة وتؤثر ببعضها البعض. يبدأ الأطفال بتعليم أنفسهم ثم تعليم بعضهم البعض. يبدؤون في تعلّم كيفية التعلّم. يختار كلّ واحد منهم، بمساعدة مرشديهم، جانباً معيناً من التاريخ، أو العلوم، أو الرياضيات، أو الفنّ، أو أي شيء، ويتعلّمه بما يكفي لتدريسه للآخرين. ثم يقومون بهذا بالضبط. التدريس. ولكي يتقنوا عملهم يجب أن يعرفوا أيّة معلومات متوفرة عندنا وأية معلومات ينبغي عليهم البحث عنها في الشبكات. وبما أنّنا لسنا أثرياء بعد، كلما زاد ما يمكننا تقديمه لهم من مكتبتنا الخاصة، كان ذلك أفضل.

مع ذلك، فالفهرسة عملٌ مملّ ومتعب. لذا كنتُ سعيدة تقريباً عندما أتى مارك وقاطع عملي. خرجنا أنا وهو للحديث.

«أرغب بالعودة للقيام بأكثر شيء أحبّه»، قال عندما جلسنا على مقعدٍ جميل صنعَته آلي غيلكريست. لقد اكتشفَت آلي أنّها تحب صنع الأثاث، وقد بذلت قصارى جهدها في إتقان هذه الحرفة، مثلما بذلت قصارى جهدها في تعلّم مساعدة بانكول.

«ماذا؟»، سألتُ مارك لعل بوسعنا توفير الشيء الذي يريده. لقد كنتُ أتمنى لو أنه يجد اهتمامات خاصة أو ينشغل بعملٍ يحبّه.

«أريد أن أُقيم كنيستي ثانية»، قال، «أريد إلقاء العِظات. وأنا لا أطلب إذنكِ. أنا فقط أُعلمُكِ بقراري. عموماً، مع فوز جاريت بمنصب رئاسة البلد، أنتِ بحاجة لوجود شخص مثلي بينكم لكي لا يُقال إنكم طائفة تعبد الشيطان».

تنهّدتُ. شعرتُ بنفسي فجأة أنهار من التعب والفزع. لكنني قلت له: «إذا انتبه جاريت لوجودنا وأراد أن يقول إننا عبدة شيطان، فلن تمنعه عظاتُك. هل أنت مستعد للحديث في الاجتماع؟».

لقد فاجأه هذا. قال: «هل تقصدين في نفس وقت قدّاسك؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «لن أتحدّث عن بذرة الأرض. سأُلقي عظة».

قلتُ: «افعل ما تشاء».

قال: «وما هو المقابل؟».

قلتُ: «يجب أن تعرف. بما أنك حضرت خدمة القدّاس. ستختار الموضوع، وستقول ما تريده. ولكن بعدها ستكون هناك أسئلة ومناقشة».

قال: «لستُ هنا لأدرّس فصلاً. أُريد أن أُلقي عظة».

قلتُ: «هذه ليست طريقتنا يا مارك. إذا تحدّثتَ فيجب عليك

مواجهة الأسئلة والنقاش. يجب أن تستعدّ لذلك. ثم، كيفما تريد تسميتها، فأن العظة الجيدة ليست سوى درس تحاول تعليمه».

قال: «ولكن... لن تتدخلي في عظتي في الاجتماع إذا وافقتُ على طرح الأسئلة بعدها؟».

قلتُ: «هذا صحيح».

قال: «إذن سأفعل ذلك».

قلتُ: «هذه ليست مزحةً يا مارك».

قال: «أعرف. إنها ليست مزحة بالنسبة لي أيضاً».

قلتُ: «أعني أنّنا جادّون في نقاشاتنا مثلما أنت جادٌّ في عظتك. بعض الأشخاص سيقومون بالتحقيق والتدقيق بطريقة ربما لن تروق لك».

قال: «حسناً، أنا قادرٌ على تولّي الأمر».

لا، لا أظن أنه قادر على تولي الأمر. ولكن إذا كان ينبغي القيام بأمرٍ غير مستحبّ، فيجب القيام بهِ بسرعة. جهّزَ أخي عظته. كان يعمل عليها في أوقات فراغه. وبما أنه كان من المقرر أن أتحدّث في اجتماع هذا الصباح، فقد تنحّيت وتركتُ المجال له ليتحدّث.

لم يتساهل ولم يتحفظ. لقد واجهنا، وتحدّانا مباشرة بنصوص من الكتاب المقدّس- إشعياء ثانية: «يَبِسَ العُشبُ، ذَبُلَ الزَّهرُ. وَأَمَّا

كَلِمَةُ إِلهِنَا فَتَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ»، ثم من سفر ملاخي «لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ لاَ أَتَغَيَّرُ»، ثم من العبرانيين «يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمسًا وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ. لاَ تُسَاقُوا بِتَعَالِيمَ مُتَنَوِّعَةٍ وَغَرِيبَةٍ».

لا يمتلك مارك صوت والدنا الأخّاذ، وهو على علم بهذا. لذا فهو يستخدم ما عنده بمهارة، وبالطبع، وسامته تساعده. ولكن عندما ألقى عظته حول صفة عدم التغيّر في الربّ، عندها تحدّث خورخي شو. كان خورخي جالساً إلى جانب دايموند سكوت كالعادة. أخبرني أنه ينوي الزواج من داي، لكنّ داي كانت تنظر إلى أخي بطريقة أثارت استياء خورخي. هنالك عداء بين مارك وخورخي. كلاهما شابان ويتّصفان بشخصية تنافسية.

«نحن نؤمن أن كلّ الأشياء تتغير»، قال خورخي، «بالرغم من أن كلّ الأشياء لا تتغيّر بالضرورة من جميع النواحي. فلماذا تؤمن أن الربّ لا يتغير؟».

ابتسم أخي وقال: «ولكن حتّى أنت تؤمن أن ربّك لا يتغير. ربّك يدعم التغيير، لكنه يبقى على حاله».

لقد فاجأني هذا. كان بوسع مارك تفادي مثل هذه الأخطاء. كان أمامه متّسع من الوقت ليقرأ، ويتحدّث، ويسمع عن بذرة الأرض، ولكنه بطريقة ما أساء الفهم.

كان ترافيس أول من أشار لخطئه، فقال: «الربّ هو التغيير. الربّ لا يدعم شيئاً. لا شيء إطلاقاً».

ومن بين كلّ الناس، قالت زهرا: «ربّنا ليس ذكراً. التغير بلا جنس. مارك، أنت لا تعرف الكثير عنّا ومع ذلك تنتقدنا».

كرر خورخي سؤاله قبل أن تنتهي زهرا من حديثها، قال: «لماذا تظن أن ربّك لا يتغير؟ كيف يمكنك إثبات هذا؟».

«إيماني يجعلني أصدّق أن هذا صحيح»، قال مارك، «يجب أن تقوم المعتقدات على الإيمان بقدر ما تقوم على البراهين».

«ولكن يجب أن يكون ثمّة اختبار»، قال خورخي، «يجب أن تكون عندك طريقة لمعرفة متى يكون إيمانك منطقياً ومتى يكون غير منطقيّ».

قال مارك: «الكتاب المقدس هو الاختبار، بالطبع. عندما يخبرنا الكتاب المقدس بشيء -وفي هذه الحالة يخبرنا عدّة مرّات- يمكننا التصديق. يمكننا أن نؤمن أن هذه هي الحقيقة».

عندها تدخّل أنطونيو كورتيز، ابن أخت لوسيو البكر، قال: «انظر. في الكتاب المقدس، الربّ يفعل الأشياء. تحدث الأشياء ثم يتفاعل. إنه يخلق الأشياء. ويغضب. ويدمر الأشياء...».

قال أخي: «لكنّه، هو نفسه، لا يتغيّر».

صاحت توري مورا باشمئزاز بيّن: «أوه! هيا. التصرف تغير. إنه الانتقال من الفعل إلى انعدام الفعل. وهو يتحوّل من الهدوء إلى الغضب- إنه يغضب كثيراً. و...».

قاطعَتها دو أختها غير الشقيقة قائلة: «وفي سفر التكوين، إنه

يدع بعضاً من رجاله المفضّلين ينجبون الأطفال من أخواتهم أو بناتهم. ثم يقول في سفر اللاويين وسفر التثنية إنه يجب قتل كلّ من يفعل ذلك».

قال خورخي: «صحيح. لقد قرأتُ هذا في الأسبوع الماضي. لا ينفع أن تقول إن شيئاً ما صحيح لأن الكتاب المقدس يقول إنه صحيح وتنسى أنه بعد بضعة صفحات، يقول الكتاب المقدس -أو يُظهر- شيئاً مختلفاً تماماً».

قال هاري بالتر: «كل مرّة تتقبل فيها مجموعة جديدة من الناس أي ربّ، فأن هذا الربّ يتغيّر».

قالت مارتا فيغارو بصوتها الرقيق: «أعتقد أن الآيات التي قرأتها يا مارك تعني أن الربّ يبقى هو الربّ دائماً، وهو إلى جانبنا دائماً، ويمكننا الاعتماد عليه من هذه الناحية دائماً. وهذا يعني بالطبع، أن الربّ وكلمة الربّ لا يموتان أبداً».

قالت دايموند سكوت التي كانت أيضاً تمتلك صوتاً رقيقاً: «نعم. الكثير من الكتاب المقدس تعبيرٌ مجازي. أتذكر أن أُمّي اعتادَت أن تفهمه بالمعنى الحرفيّ تماماً، ولكن هذا يعني أن عليها تجاهل بعض الأمور وتحريف أمور أخرى»، ابتسم خورخي الجالس إلى جانبها.

استمر النقاش لفترة طويلة. ثم أشفق أشخاص آخرون على مارك. فتركوه يُنهي النقاش. لم يكن قصدهم إذلاله. حسناً، ربما كانت هذه نيّة خورخي، ولكن حتّى خورخي تصرّف بتهذيب. لو

أن مارك درس الموضوع جيداً لجرت الأمور بصورة أفضل بالنسبة له، وربما سيكون النقاش أكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لمستمعيه. وربما كان سيفوز بالنقاش على آل فيركلوث أو آل بيرالتا. كنت قلقة بشأن هذا.

لا أُخفيكم الحقيقة، لقد تركتُه يتحدّث اليوم لأنني أردتُ منه التحدّث قبل أن يصبح مستعداً حقّاً. أتمنى لو أنني لم أُضطر لفعل هذا. أتمنى لو أنه أراد شيئاً آخر -أيّ شيء آخر- لكي يستعيد احترامه لنفسه ويبدأ في إعادة بناء نفسه. حاولتُ أن أثير اهتمامه بأي عملٍ من الأعمال المتنوعة التي نقوم بها هنا. إنه ليس كسولاً. وهو يقوم بواجباته. لكنه لا يحبّ العمل في الحقل أو رعاية الحيوانات أو التجارة أو التدريس أو النبش أو النجارة. حاول إصلاح الأدوات التي نعثر عليها أثناء النبش، لكنه انزعج لأن أمامه الكثير ليتعلّمه حتّى حول الأشياء البسيطة. لقد أفسد مقصّاً كبيراً عندما كان يُفترض به أن يقوم بشحذه. لقد حاول بردَ حوافّه المربعة تقريباً إلى شفرات رفيعة وحادة، فوبّخه ترافيس بما يستحق.

صاح به ترافيس: «إذا كنتَ لا تعرف فاسأل. لا أحد يتوقع منك أن تكون عارفاً بكل شيء. اسأل فقط! هذه الأمور ستغدو أسهل إذا تحمّلتَ عناء تعلّم بعض الأساسيات. اعمل معي لفترة. ولا تتصرف من تلقاء نفسك».

لكن أخي كان بحاجة لـ «التصرف من تلقاء نفسه»، وأن تكون عنده أرضه التي يصبح فيها صاحب الأمر والنهي، وحيث يحترمه

الجميع. لقد احتاج لذلك أكثر من أي شيء آخر، وكان عازماً على الحصول على كلّ ذلك دفعة واحدة وفوراً.

ولكن الآن بدلاً من أن يشعر بالأهمية والفخر، فقد شعر بالغضب والإحراج. كان عليّ أن أتركه يوجّه هذه المشاعر نحو نفسه. لم أستطع السماح له بتفريق أيكورن. والأهم من ذلك -بل أهم شيء إطلاقاً- لم أستطع السماح له بتفريق بذرة الأرض.

٩
بذرة الأرض: كتُب الأحياء

كي تعقدَ السلامَ مع الآخرينَ
اعقِدِ السلامَ مع نفسِكَ:
صوّر الربَّ بالجودِ
والمرحمةِ.
قلّل الضررَ.
ذُدْ عن الضعيفِ.
صُنِ البريءَ.
أخلص للمصيرِ.
سامِح أعداءَك.
سامِح نفسَك.

كانت أُمّي صريحةً جداً في مذكراتها بخصوص حقيقة أنّها لا تعرف ماذا تفعل، وأن هذا جعلها تشعر بإحباط شديد. لقد أرادت أن

تجعل بذرة الأرض حركة تمتدّ على طول البلاد، ولكن لم تكن عندها أيّة فكرة عن كيفية تحقيق هذا. لقد امتلكَت فكرة ملتبسة بإرسال بعثات تبشيرية يوماً ما لنشر بذرة الأرض، واستخدام أيكورن كمدرسة لهؤلاء المبشّرين. ربما كان هذا ما ستفعله لو سنحت لها الفرصة. وربما كانت ستنجح. لقد نجح الأمر مع طوائف أخرى. ربما كان هذا سيكسبها المزيد من الأتباع والمزيد من التقدير.

لكنها لم ترغب بتقديرٍ بسيط. أرادت أن يصدّق الناس. عندها حقيقةٌ معينة أرادت نشرها ومصيرٌ يتعلّق بالفضاء الخارجي أرادت أن يُؤخذ على محمل الجدّ ويتحقق يوماً ما. وكان واضحاً من طريقة معاملتها لخالي مارك أنّها مُدافعةٌ شرسة عن الأمر كلّه. لا أعرف ما إذا كان خالي مارك قد أدرك يوماً أنّها نصبت له فخاً لكي يفشل ويترك انطباعاً أولياً سيئاً أمام جماعتها. يا لها من خطة بسيطة وذكية. لقد تخيّل أنّها قامت بأمرٍ أوضح وأعقد من هذا.

لم تقاتل أحداً ما لم تكن واثقة تماماً من أنّها ستنتصر. وعندما لا تكون واثقة، كانت تبحث عن طرق لتفادي القتال أو لمسايرة خصومها إلى أن يزلّوا في الخطأ بأنفسهم أو يؤدوا بأنفسهم إلى وضع يسمح لها بالإيقاع بهم. أفترضُ أن هذا ذكاء، أو غدرٌ تعتمد التسمية على وجهة نظرك.

لقد تعلّمَت من الجميع ومن كلّ شيء. أظن أنني لو وُلدتُ ميتة، لعثرَت هي على طريقة ما لتتعلّم شيئاً من موتي ينفع بذرة الأرض.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

السبت، ١٩ فبراير، ٢٠٣٢

أشعر وبقوّة أكثر من أيّ وقتٍ مضى بحربٍ قادمة. ما زال الرئيس جاريت يؤلّب الناس على ألاسكا، أو كما يدعوها «ولايتنا التاسعة والأربعون المتغيّبة». إنه يصوّر رئيس ألاسكا ليونتيف وأعضاء مجلس ألاسكا التشريعي على أنهم الأعداء الحقيقيون «عصابة الخونة واللصوص الذين يحاولون سرقة جزء واسع وغنيّ من الولايات المتحدة. يريد هؤلاء الأشخاص التعامل مع ألاسكا على أنّها ملكيتهم الخاصة. هل سندعهم يفلتون بفعلتهم؟ هل سندعُهم يخدعوننا، يسرقوننا، يدمّرون بلدنا، يتعاملون مع دستورنا المقدّس كورق نفايات؟ هل ننسى قول يسوع المسيح قبل ٢٠٠٠ عام «وَإِنِ انقَسَمَ بَيتٌ عَلَى ذَاتِهِ لاَ يَقدِرُ ذلِكَ البَيتُ أَن يَثبُتَ»[1]. وهي ذات الكلمات التي ردّدها بتصرّف الرئيس إبراهام لنكولن عام ١٨٥٨. فهل كان لينكولن على خطأ؟ أو: هل نجسر على السؤال؟ هل نجسر على التخيّل؟ هل كان المسيح على خطأ؟ هل كان ربّنا على خطأ؟».

إنه بارع في طرح الأسئلة البلاغية البغيضة –وهو بارعٌ في تشجيع الشباب– الشباب من الرجال فقط وليس النساء، يقول: «قوموا بواجبكم تجاه وطنكم وتجاه أنفسكم. أثبتوا أنكم رجال

(١) إنجيل مرقس [٣: ٢٥].

يستحقون عن جدارة لقب جنود أمريكيين مسيحيّين صالحين. هبّوا لخدمة وطنكم اليوم وهو في أمسّ الحاجة إليكم». ويمكنهم فعل كلّ ذلك من خلال الانضمام إلى القوات المسلحة. لم أسمع برئيس يتحدّث على هذا النحو- لكنني قرأتُ عن رؤساء وقادة دول أخرى يتحدّثون بهذه الطريقة عندما يريدون التحشيد للحرب. لم يقل جاريت شيئاً عن الخدمة العسكرية الإلزامية، لكن بانكول يقول إن هذا الموضوع قد يُطرح لاحقاً. قضى بانكول في ساكرامنتو بضعة أيام، ويقول إن الناس هناك يعتقدون أنه «قد حان الوقت لتعليم الخونة في ألاسكا درساً».

لا ينبغي أن يكون من السهل دفع الناس لما قد يكون هلاكهم.

«من يقول هذا الكلام؟»، سألتُه عندما كان يُفرّغ حقيبته الطبية. إنه يحتفظ بالمستلزمات الطبية في خزانتنا إلى أن تستدعي الحاجة إليها في العيادة. هكذا تكون في مأمن من الأطفال واللصوص. قلتُ: «أعني، هل كان هذا رأي جميع من تحدّثتَ معهم أم قلّةٍ منهم فقط؟».

«معظم الرجال»، قال، «شباب وكبار في السن ممّن ينبغي أن يكونوا أكثر حكمة. أعتقد أن الكثير من الشباب يرغبون بالحرب. الحرب مثيرة. يمكن للصبيّ أن يُثبت نفسه كرجل- هذا إذا عاش. سيُمنح سلاحاً ويُدرّب على إطلاق النار على الناس. سيكون فرداً قويّاً من فريق قويّ. على الأرجح لن يفكّر بالطرف الآخر الذي سيُطلق النار عليه في المقابل، أو يقصفه، أو يحاول قتله بطريقة ما إلى أن يواجهه».

فكّرت بالشباب العزّاب في أيكورن، خورخي شو، إستيبان بيرالتا، أنطونيو فيغارو، وحتى أخي مارك، وهززتُ رأسي بأسفٍ. سألتُ: «هل رغبتَ يوماً بالذهاب إلى الحرب؟».

«إطلاقاً»، أجاب بانكول، «كل ما أردتُه هو أن أكون مُعالجاً. كنتُ مثالياً للغاية بخصوص هذا الأمر. صدقيني! إنه تحدٍ مرعب بما فيه الكفاية لشاب أسود في أواخر القرن العشرين- أصعب بكثير من تعلّم القتال. لم يخطر ببالي قطّ في التسعينيات عندما كنتُ لا أزال أدرس في كلية الطب أنه بالرغم من مبادئي فسأضطر لتعلّم الأمرين».

الإثنين، ٢٨ فبراير، ٢٠٣٣

تحدّث مارك في الاجتماع البارحة. هذه هي المرة الثالثة. إنه يتعلّم المزيد عن بذرة الأرض في كلّ مرة، ويحاول جاهداً إقناعنا أن معتقداتنا محض هراء. يبدو أنه قرر أن الوحدة، والمسيحيّة، والأمل الذي أعطاه جاريت للبلاد، لا يجعل من جاريت الوحش الذي كنّا نخشاه جميعاً، بل المخلّص المحتمل. يقول إن البلاد يجب أن تعود إلى طريق الربّ وإلا سيُقضى عليها.

قال البارحة: «إن المصير الذي تعِد بهِ بذرة الأرض ليس سوى وهم كبير. بلادنا تحتضر بسبب الفقر والعبوديّة والفوضى والخطيئة. إنه وقتُ العمل من أجل خلاصنا، وليس وقت تشتيت انتباهنا إلى استكشافات خيالية لعوالم خارج المجموعة الشمسية».

قال له ترافيس محاولاً التفسير: «المصير مهمّ لكي نتعلّم الدروس التي يُجبرنا على تعلّمها أثناء وجودنا هنا على الأرض، ولكي نصبح الأشخاص الذين يشجعنا أن نكونهم. إنه مهمٌّ للوحدة والغاية اللتين يقدّمهما لنا هنا على الأرض. وفي المستقبل عندما ننتشر بين النجوم، سيقدّم لنا، كأجناس، نوعاً من النضوج والخلود».

ضحك أخي وقال: «إذا كنت تبحث عن الخلود في الفضاء الخارجي، فأنت واهم. لديك روحٌ خالدة، ولكن بيدك أن تحدّد أين ستقضي هذه الروح الحياة الأبدية. تذكّر برج بابل! يمكنك اتباع بذرة الأرض، وبناء طريقك للذهاب إلى النجوم، والسقوط في الفوضى، لينتهي بك المطاف في الجحيم! أو يمكنك اتباع مشيئة الرب. وإذا اتّبعت مشيئة الرب، يمكنك أن تعيش سعيداً وهانئاً في جنة الربّ الحقيقية إلى الأبد».

سبقَتني بالإجابة زهرا بالتر، الوفية بالرغم من معتقداتها الشخصية، قائلة: «مارك، إذا كنّا نملك أرواحاً خالدة، ألا تظن أنّنا سنأخذها معنا حتّى إذا ذهبنا إلى النجوم؟».

قال مايكل كاردوس: «لماذا يسهل عليك التصديق أنّنا سنذهب إلى الجنة عندما نموت، بينما يصعب عليك التصديق أن بوسعنا الذهاب إلى الجنة ونحن أحياء؟ اتّباع مصير بذرة الأرض أمرٌ صعب. بل في غاية الصعوبة. وهذا هو التحدي. ولكن إذا أردنا فعل ذلك، فسنفعله يوماً ما. إنه ليس أمراً مستحيلاً».

لقد قلتُ له نفس الكلمات بعد فترة قليلة من قدومه للعيش

معنا في أيكورن. قال وقتها بازدراء مرير إن المصير الذي تعِد به بذرة الأرض أمرٌ تافه. قال إن كلّ ما يريده هو كسب ما يكفي من المال لإيواء وإطعام وإكساء عائلته. قال إنه بمجرّد أن يقدر على ذلك فربما سيكون عنده الوقت للخيال العلمي.

صحيح.

الأحد، ٦ مارس، ٢٠٣٣

لقد رحل مارك.

غادر يوم أمس برفقة آل بيرالتا. لقد رحلوا أيضاً إلى الأبد. إنهم العائلة الوحيدة التي تمكّن مارك من إقناعها. لطالما شعروا أنّنا يجب أن نكون مسيحيّين أزيد ووطنيين أزيد. قالوا إن أندرو جاريت هو رئيسنا المُنتخب -قام كلّ من راميرو بيرالتا وابنته بيلار بالتصويت له- وهو أيضاً قسّ، لذا فهو يستحق احترامنا. سيلتحق إستيبان بيرالتا بالجيش. يعتقد -بل تعتقد كلّ أُسرته- أن واجبنا الوطني، واجب الجميع، مساندة جاريت في مساعيه «البطوليّة» لإحياء وتوحيد البلاد. لا يعتقدون أن جاريت فاشيّ. لا يعتقدون أن ما تقوم به الكنيسة من إحراق للناس بتهمة السحر والشعوذة وغيرها من التجاوزات هي من أفعال جاريت. قال راميرو بيرالتا: «بعض أتباعه شباب مندفعون. وسيُلزمهم جاريت بالانضمام إلى الجيش. هناك سيتعلمون الانضباط. يكره جاريت الفوضى مثلما أكرهها أنا. لذا صوّتُّ له. والآن سيعيد الأمور لنصابها الصحيح!».

صحيح أنه لم تقع أية حوادث حرق أو ضرب منذ تسلّم جاريت المنصب- أو ربما لم أسمع بوقوعها، وأنا أُنصت للأخبار. لا أعرف ما يعني هذا، ولكنّي لا أظن أنه يعني أن كلّ شيء على ما يرام. ولا أظن أن آل بيرالتا يصدّقون ذلك أيضاً. أعتقد أنهم خائفون فحسب، ويحاولون الابتعاد عن مرمى نيران محتمل. لأنه إذا كان جاريت سيُضيق الخناق على كلّ من لا يتلاءم مع مفاهيمه الدينية، فأنهم لا يريدون البقاء هنا في أيكورن.

أما أخي فقد كان يحتقر جاريت سابقاً. واليوم يقول إن جاريت هو بالضبط ما تحتاجه أمريكا. وأخشى أنه يحتقرني أنا بالذات. إنه يلومني على فشل عِظاته في يوم الاجتماع. لم يكسب أتباعاً. آل بيرالتا يحبّونه ويتّفقون معه نوعاً ما. وقعَت بيلار بيرالتا في حبه تقريباً. ولكن حتّى آل بيرالتا لا ينظرون إليه كقسّ، بل كصبيّ لطيف. في الحقيقة، هكذا يراه معظم الناس هنا في أيكورن. وهو يظن أن هذا بسببي. إنه يظن، بل يصرّ، أنني أوعزتُ للناس بمهاجمته وإذلاله في الاجتماعات الثلاثة. يقول بابتسامة مرهقة، مستفِزّة، صادقة: «أنا أسامحك. ربما سأفعل الشيء نفسه للدفاع عن أرضي لو كانت عندي أرض لأدافع عنها».

أعتقد أن ابتسامته هي التي دفعتني للقول أكثر من اللازم. أخبرتُه: «في الواقع، لقد مُنحتَ امتيازاً خاصاً. لو كنتَ شخصاً آخر فستُطرد لتبشيرك بنظام عقائدي آخر. وقد سمحتُ لك بفعل هذا لأنّك عشت حياة جحيمية، وعرفت أن هذا أمرٌ مهم بالنسبة لك.

ولأنك أخي». سأسحب كلامي لو كان بمقدوري ذلك. سيُميّز نبرة الشفقة في كلماتي. وسيُميّز نبرة التعالي.

حدّق بي طويلاً. رأيته يغضب- يستشيط غضباً. ثم بدا وكأنه يزيح غضبه جانباً. رفض الانسياق له. نفض كتفيه بلامبالاة.

قلت له: «فكّر في كلّ الاجتماعات التي حضرتَها. اذكر لي اجتماعاً واحداً لم يتضمّن أسئلة وتحديات وجدالات. إنّها طريقتنا. وقد حذّرتُك. يمكن استجواب كلّ شخص حول أي موضوع يختار تعليمه أو الدفاع عنه. أخبرتك أنّنا جادون بهذا الشأن. نحن نتعلّم بالنقاش بقدر ما نتعلّم بالمحاضرات والبراهين والتجربة».

قال: «لا عليكِ. لقد انتهى الأمر. لا ألومُك. حقاً. لم يتوجّب عليّ تجربة حظي هنا. سأحاول في مكان آخر».

ما زال يكظم غيظه. لكنه كان غاضباً. لم يكن ليُبيّن غضبه، ولم يكن ليتحدّث عنه، لكنّه كان ينبثق منه كالحرارة. ربما هذا هو ما يقوم الطوق بتعليمه- نوع فظيع من السيطرة على النفس. أو ربما ليس هذا. فلطالما كان أخي شخصاً منغلقاً. كان يعرف كيف يكون عصياً على المنال.

تنهّدتُ وأعطيته قدر ما يمكنني الاستغناء عنه من النقود، بالإضافة لبندقية، ومسدس، وذخيرة للسلاحين. إنه ليس رامياً بارعاً، لكنه يعرف الأساسيات، كما أنني لم أستطع تركه يذهب لينتهي به الحال مرّة أخرى بين يدي شخص مثل كوغر. أقام آل بيرالتا معنا

لعامين، لذا كانت بحوزتهم نقود وممتلكات نتيجة لعملهم معنا. على عكس مارك. لقد أوصلناه هو وآل بيرالتا بالشاحنة إلى يوريكا. ربما سيجدون هناك منازل ووظائف، او ربما سيجدون على الأقل مأوى مؤقتاً إلى أن يقرروا ماذا سيفعلون.

قلتُ لأخي قبل أن يتركنا ويرحل: «خِلتُ أنك تعرفني. لم أقُم بما تتهمني بهِ».

نفض كتفيه بلامبالاة وقال: «لا بأس. لا تقلقي بشأن هذا». ثم ابتسم ورحل.

لا أعرف كنه شعوري حيال هذا الأمر. لقد أتى العديد من الناس إلى هنا، ومكثوا، أو رغبوا بالمكوث حتّى لو لم يستطيعوا لسبب ما. اضطررتُ لطرد سارق قبل عام، وبكى وتوسل للبقاء. أمسكناه وهو يسرق بعض الأدوية من مستلزمات بانكول الطبيّة. رحل في النهاية، لكنّه بكى.

حتى آل بيرالتا بدوا متجهمين وخائفين وهم يرحلون. كانت العائلة مؤلفةً من: الأب راميرو، البنت بيلار عمرها ثمانية عشر عاماً، الأخ إستيبان عمره سبعة عشر عاماً، وإيفا التي تبلغ من العمر عامين فقط، والتي كلّفت والدتها حياتها أثناء الولادة في محطة للاستراحة على الطريق السريع. لم يبقَ عندهم أقارب على قيد الحياة، ولا أصدقاء خارج أيكورن قد يمدّون لهم يد المساعدة إذا ما وقعوا في المشاكل. وسيتركهم إستيبان قريباً للالتحاق بالجيش. لذا كانوا يمتلكون سبباً وجيهاً ليبدوا قلقين.

سيكون مارك في نفس الموقف ما أن يغادرنا. والأسوأ، سيكون وحيداً. مع ذلك كان يبتسم. لا أعرف ما إذا كنت سأراه ثانية. أشعر كما لو أنه مات... مات ثانية.

الخميس، ١٧ مارس، ٢٠٣٣

عاد إلينا دان نوير ليلة البارحة.

لقد عاد. يا للروعة. أظن أنه غاب فترة أطول ممّا بقيَ عندنا. حاولنا إيجاده- من أجل أختيه الصغيرتين مثلما من أجله. ولكن يستحيل تقريباً العثور على المفقودين في فوضى هذا الزمن، ما لم تمتلك مالاً كافياً لدفع تكاليف جيش صغير من الشرطة الخاصين، مثل ذلك الشخص من تكساس. عثرتُ على ماركوس بمحض الصدفة. عموماً، عاد دان من تلقاء نفسه. يا للولد المسكين.

كانت ليلة باردة. ذهبنا كلّنا للنوم ما عدا الأشخاص المكلّفين بالنوبة الأولى للحراسة.

غراي مورا وزهرا بالتر مكلّفان بالحراسة.

زهرا هي التي رصدت الدُخلاء. وبحسب ما وصفَت الأمر لي لاحقاً، فقد رأت شخصين يركضان، يترنّحان، وأحياناً يُساعدان بعضهما البعض على الاستمرار بالركض. ولولا ركضهما المترنّح لأطلقَت باتجاههما طلقة تحذيرية على الأقل. ولكن قبل أن تكشف عن وجودها، أرادت أن تعرف ممّ أو ممن كانا يفرّان.

وفيما كانت تمشّط التلال خلفهما، بعثَت لنا على هاتفها بإشارة التحذير المُتّفق عليها.

كان هنالك خمسة أشخاص يطاردون الفارِّينِ المترنّحينِ- أو من خلال منظارها الليلي، رأت خمسة أشخاص. وظلّت تبحث عن المزيد.

صرخ واحد من الخمسة، ثم سقط أرضاً، فأدركَت زهرا أنه ولا بدّ قد تعثّر بسياجنا الشائك. لا تبدو شجيراتنا الشوكية شرسة جداً في الظلام. حتّى أنّها قد تبدو جميلة المنظر شرط ألّا تلمسها. بعضها قد يحمل الزهور قريباً. لكنّها تعلق بالملابس والجلد، وتمزّق.

أبطأ رفاق الرجل المصاب الأربعة، وتردّدوا، ثم ركضوا ثانية فيما كان المصاب يعرج في سيره خلفهم.

وضعت زهرا بندقيتها في وضع التشغيل الأوتوماتيكي وأطلقت رشقة قصيرة باتجاه طريق أول اثنين من الراكضين. توقفا فوراً وقفزا على الشجيرات الشوكية والصبّار. شرع أحدهما بإطلاق النار باتجاه زهرا. علت صيحات الألم والشتائم. ثم شرع خمستهم بإطلاق النار. كان بوسعنا سماع دويّ العيارات النارية في أيكورن. وعرفنا، حتّى بدون الاتصال الهاتفي، أن الأصوات قادمة من جهة موقع مراقبة زهرا.

زهرا وهاري أقدم أصدقائي، وأنا أختهما في التغيير وخالةٌ وعمّة في التغيير لأولادهما، تابيا وراسل. لهذا السبب لم أُعِر اهتماماً

لبانكول عندما قال لي أن أُلازم المنزل. أتذكّر أنني فكّرتُ آنذاك لو أن هذه غارة شبيهة بالغارة على مزرعة آل دوفيتري، فإن من يلازم منزله مثل من يطلب إحراقه.

ولكن لا يبدو هذا شبيهاً بما حصل في مزرعة آل دوفيتري. لم يكن صاخباً بما يكفي. لم يكن هنالك الكثير من المهاجمين. بدت كغارة عصابة صغيرة من النوع الذي لم نشهده منذ سنوات.

تسلّلنا أنا وبانكول من المنزل وتوجّهنا نحو الشاحنة. كنّا محميين معظم الوقت الذي جرينا فيه خلف جدران كوخنا أولاً، ثم خلف جدران المدرسة. أفترض أن هذا هو السبب خلف عدم إلحاح بانكول المعتاد لإبقائي في المنزل. لم يكن بالمستطاع رؤيتنا، ناهيك عن إطلاق النار علينا. نحن نُبقي على الشاحنة مركونة في مكانها المخصّص في الطرف الجنوبي من المدرسة. إنّها محمية في مكانها في وسط المجتمع، ونحن ننشر في النهار ألواحها الشمسية لإعادة شحن بطارياتها.

وصل هاري بالتر إلى الشاحنة في نفس وقت وصولنا أنا وبانكول. فتح الباب الجانبي واندفعنا ثلاثتنا داخلها على عجل.

لقد تمرّسنا أنا وهاري على استخدام كومبيوتر الشاحنة. فقد تعلّم كلانا استخدام كومبيوترات والدينا في حياتنا الماضية في الجنوب. نحن استثنائيّان. لأن معظم البالغين في أيكورن لم يلمسوا أو حتّى يروا كومبيوتراً قطّ. ولا يزال آخرون يخشونها.

في الوقت الحالي، وبالرغم من أنّنا ننقل معرفتنا إلى الآخرين، فما زلنا الوحيدَين من بين القلة ممّن يمكنهم الاستفادة لأقصى حدٍّ من إمكانيات الشاحنة، من أسلحة وقدرة على المناورة وأنظمة المراقبة الحسّية.

شغّلنا كلّ شيء، وقادنا بانكول إلى موقع مراقبة زهرا الحالي. استخدمنا في الطريق نظام المراقبة بالأشعة تحت الحمراء لتحديد مواقع الدخلاء. بانكول سائق بارع وهادئ، كما أنه يثق بدروع الشاحنة. يبدو أنه لم يتأثّر قطّ بإطلاق النار علينا. في الحقيقة، من الجيد أنّ الدخلاء كانوا يبدّدون ذخيرتهم بإطلاق النار علينا. لأن هذا منح زهرا فرصة لالتقاط أنفاسها.

عندما ألقينا نظرة حولنا رأينا أن واحداً من الدخلاء كان قريباً جداً من زهرا- يتسلل لمباغتتها. من الممكن أنه كان يحاول الهرب، لكنه لم يفعل. ولا واحد منهم حاول الهرب. تأكّدنا أن كلّ الأهداف التي حدّدناها، كانت في الحقيقة أهدافاً، وليسوا من جماعتنا. ما أن تأكّدنا تماماً، حدّدناهم للشاحنة وتركناها تطلق النار عليهم. بالإضافة إلى قدرة الشاحنة على «الرؤية» في الظلام بواسطة الأشعة تحت الحمراء، والإضاءة المحيطية، والرادار، فقد كانت تمتلك أيضاً «سمعاً» جيداً جداً، وحاسة «شمّ» مُحددة بشكل غير صحيح. تعتمد قدرة الشمّ على التحليل الطيفي بدلاً من الشمّ الفعلي، لكنه نوع من التحليل الكيميائي عبر المسافات. يمكن استخدامه على أي شيء ينبعث منه أو يعكس إشعاعاً كهرومغناطيسيّاً -ضوءاً- من نوع ما.

ولدى الشاحنة سعة ذاكرة كبيرة. بإمكانها التسجيل، وقد سجّلت بالفعل، كلّ ما يمكن جمعه من معلومات تخصّنا- أصواتنا، وطبعات أيدينا وأقدامنا، وبصمات شبكيات عيوننا، وأصوات أجسامنا، وأشكالنا العامة في أوضاع مختلفة لكي تتمكّن من تمييزنا ولا تطلق النار علينا.

عندما بدأت الشاحنة في إطلاق النار، أُوكلتُ شاشات المراقبة الأمامية لمسؤولية هاري. لم أرغب في رؤية أي شيء قد يجعلني بلا فائدة، ولم تكن الشاحنة بحاجة مساعدتي. ما أن صرنا بين زهرا والمُهاجمين، حتّى تحققتُ من أمر زهرا على الشاشة الخلفية. لا تزال حيّة وتلازم موقعها. احتمى معظم جسدها في الخندق وخلف الساتر الصخري الذي كان الغرض منه حمايتها. وعلى مسافة بعيدة، لا يزال غراي مورا ملازماً لموقعه وعلى قيد الحياة. لم يكن مشتركاً في هذا القتال، وكان واجبه ملازمة موقعه وحراسة المدخل الآخر لأيكورن. لقد استغرقنا وقتاً طويلاً لنتعلّم ألّا يتشتت انتباهُنا بالدخلاء الذين يحاولون اقتحام الباب الأمامي فيما يتسلّل رفاقهم من الخلف.

قُتل الدخيل القريب من موقع زهرا. طبقاً للشاحنة، فأنه لم يعُد يغيّر كيمياء الهواء في محيطه بطريقة تشير إلى أنه لا يزال يتنفّس، كما أنه لم يعُد يتحرّك. في حال توقف الشاحنة فأن قدرتها على تقصّي الحركة تماثل جودة قدرتها السمعية. بدمج القُدرتين معاً، يمكننا تقصّي التنفس ودقات القلب- أو انعدامها. حاولنا التحايل عليها

-خداعها من خلال تظاهر أحدنا بالموت لكي تحسب أنه جثة- لكننا لم نفلح قطّ. هذا مُطمئِن.

قال هاري وهو ينظر في شاشته: «كل شيء على ما يرام. كيف حال زي؟».

أجبتُه: «على قيد الحياة. هل سقط كلّ الدخلاء؟».

تنهّد بارتياح وقال: «قُتلوا خمستهم. هيا يا بانكول فلنأخذ زهرا».

سألتُ: «هل أرسل أحدكم إشارة الأمان لغراي؟».

أجاب بانكول: «لقد قمتُ بذلك. تعلمين أنني سأقوم بنوبة الحراسة القادمة. سأكون بديل زهرا بعد ساعة».

قلت: «على كلّ من يلزم الحراسة لبقية الليلة المكوث في الشاحنة. بغضّ النظر عن هوية هؤلاء الرجال، فربما يكون عندهم رفاق آخرين».

أومأ بانكول موافقاً.

أوقَف الشاحنة أقرب ما يمكن من موقع حراسة زهرا. ألقينا جميعنا نظرة أخرى في الأرجاء ثم فتح هاري الباب. هرعت زهرا من مخبئها وقفزت إلى داخل الشاحنة حتّى قبل أن نناديها. كانت تنزف من الجانب الأيسر من وجهها ورقبتها، وهذا فاجأني. شعرتُ حالاً بألمٍ في وجهي ورقبتي، لكنني لم أُبدِ أيّة ردة فعل. بحكم العادة. أمسك هاري بزهرا ونادى على بانكول.

قالت زهرا: «أنا بخير. لقد ضربني حجر عندما أطلق الدخلاء النار. كانت الحجارة تتطاير في كلّ مكان».

أخذتُ مكان بانكول في مقدمة الشاحنة، بينما تراجع إلى الخلف لكي يفحص زهرا. أنا سائقة جيدة الآن، لذا تمكّنتُ من قيادة الشاحنة إلى المنازل. قلتُ: «سأقف مكان زهرا. وسألزم نوبتك أيضاً يا بانكول. أظنّ أنك ستكون مشغولاً».

«لا تخرجي من الشاحنة!». أمرني بانكول، كما لو أنني لم أقدّم نفس هذا الاقتراح قبل قليل.

قلتُ: «بالتأكيد».

سألَت زهرا: «ماذا حصل للشخصين اللذين كان المسلّحون يطاردونهما؟».

حدّقنا كلنا فيها باستغراب.

قالت: «كانا يجاهدان للوصول إلى أيكورن. لا يمكن أن يبتعدا كثيراً. لم أطلق عليهما النار. كانا مُصابين أصلاً».

كانت هذه أول مرّة نعرف فيها بوجود شخصين فارّين. ظنّت زهرا أنهما كانا مُصابين، وظنّت أن كلاهما كانا رجلين. لكننا لم نرصدهما. ولم نبحث خلفنا عن المزيد من الدخلاء في أيكورن، بالطبع. لم أستخدم حتّى شاشات المراقبة الخلفية. يا لغبائي.

نظرنا في أيكورن الآن، ووجدنا العلامات الاعتيادية على الحياة– حرارة وأصوات من جهة المنازل. لا بدّ من أن الناس كانوا

يراقبون الوضع، ولكن بما أنّنا في منتصف الليل، فلم يخرجوا من منازلهم إلى أن نعطيهم إشارة الأمان. يراقب الأطفالُ الأكبر سناً الأطفالَ الصغار، بينما يراقبنا البالغون. أطفأوا الأضواء ولم يتحرّكوا في الأنحاء لكي لا يكشفوا عن وجودهم. الصوت الوحيد العالي كان صوت بكاء طفل قادم من منزل آل دوغلاس. ولكن حتّى هذا الصوت توقّف فجأة.

لو أنّ هذا كان تمريناً على حالات الطوارئ، فهو تمرين جيد.

ولكن أين ذهب الهاربان؟ هل يختبئان؟ هل دخلا المدرسة أو أحد المنازل؟ هل يربضان خلف الأشجار؟

هل هما مسلّحان؟

أجابت زهرا عندما سألتُها: «لا أظنهما مسلحين».

عندها لمحتهما- أو لمحتُ شيئاً ما. قدتُ الشاحنة باتجاههما، في الواقع باتجاه كوخنا أنا وبانكول.

قلت: «تقول الشاحنة إنهما لا يزالان على قيد الحياة. لكنهما لا يتحرّكان. زي محقة. ليسا مسلّحين. لكنهما على قيد الحياة».

كان الفارّان دان نوير وبنت صغيرة. ما أن وقع نظري عليها- طويلة مثل دان لكنها نحيفة وجميلة، بشعر داكن وذقن نحيف مثل ميرسي- حتّى عرفتُ أنّها إحدى أختَي دان. عرفنا في ما بعد أنّها نينا نوير.

تعرّض كلاهما للضرب بقبضات الأيادي وبأداة أخرى حتّى

سالت دماؤهما. يقول بانكول إنهما يبدوان كمن تعرّض للجلد بالسياط.

قال بمرارة كبيرة: «أفترض أن الأشخاص الذين لا يملكون أطواق العبيد يضطرون لبذل جهدٍ كبير- يلجؤون إلى طرق التعذيب القديمة».

كانت هنالك سحجات من أثر شدّ الحبال حول معصمَي وكاحلَي وعنقَي الأخوين. يقول بانكول إنهما تعرّضا لاعتداء جنسيّ شديد. أخبرته الفتاة أنهما أُجبرا على «ممارسة الجنس مع الغرباء مقابل المال». تعرّض دان للضرب أكثر من نينا. ويقول بانكول إنهما كلاهما مصابان بـ «الالتهابات المعتادة وتلف في الأنسجة». قالت نينا إنّها حملت، ولكنها أجهضت في إحدى الليالي أثناء أسرها. لم تعرف ما الذي كان يحصل لها، لكن أَمَة أخرى أخبرتها. حسناً، أفترض أنه سيكون مفاجئاً ألّا تحمل. ولكني سعيدة لأنها أجهضت، من أجل مصلحتها.

لقد وجدها دان بطريقة ما، وأنقذها، وأعادها إلى المنزل بالرغم من الرجال الذين كانوا يطاردونهما وصولاً إلى وادينا. كيف يمكن لصبي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً فقط أن يفعل كلّ ذلك؟

وفي النهاية، ماذا كلّفه هذا؟ في النهاية، هل هذا مهمّ؟

الجمعة، ١٨ مارس، ٢٠٣٣

«هذهِ ليست حياة»، قال لي بانكول هذا الصباح عندما انتهى من تطبيب نينا ودان. جلس إلى الطاولة ووضع رأسه بين كفّيه.

أخذتُ مناوبته كما وعدتُ لكي يتسنى له تقديم المساعدة لنينا ودان. ساعدَته آلي وماي، بما أنهما صارتا جزءاً من آل نوير من خلال رعايتهما لكاسيا وميرسي فترة طويلة.

قضى بانكول معظم وقته مع مريضيه، ووجد نفسه مرّة أخرى يناضل من أجل إنقاذ حياة دان. توقّف الصبي عن التنفس مرتين، وأنعشه بانكول. ولكن في النهاية، الجسد الفتيّ الذي كان يوماً ما قويّاً وصحيحاً، استسلم فحسب. لقد تعرّض لقدرٍ لا يُحتمل من الأذى في الأشهر الماضية.

قال بانكول: «لقد توقّف قلبه. لو كانت عندي معدّات طبية حديثة، ربما... اللعنة أولامينا، ألا ترين الآن لماذا أحتاجُ للخروج من هنا وإخراجك معي؟».

«هل مات حقّاً؟»، همستُ غير مصدّقة- غير راغبة بالتصديق.

قال: «لقد مات. هذا مشين! صبي يافع مثله».

قلتُ: «وماذا عن أخته؟».

قال: «لم تتعرض للضرب المبرّح بقدره. أعتقد أنّها ستكون على ما يرام».

هل ستكون على ما يرام حقاً، بعد كلّ ما حصل؟ أشكّ في هذا. جلسنا أنا وبانكول بصمتٍ لفترة، كلّ واحد منا مستغرق في أفكاره. ماذا سيعني لدان أنه أنقذ أخته، رغم أنه لم يستطع إنقاذ نفسه؟ هل تخيّل حصول أمر كهذا؟ أسيكون لا بأس من كلّ هذا، بطريقة أو بأخرى؟ أسيكون كافياً؟

سألت: «وأين الأخت الأخرى، باولا؟ ماذا حدث لها؟».

تنهد بانكول وقال: «لقد ماتت. تعرضت لمتاعب في الطريق شمالاً بالقرب من ترينيداد. حاول ثلاثة رجال اختطافها. اكتُشف أمرهم. تبادل مالكوها واللصوصَ النار، فعلقت وسط النيران المتبادلة. تقول نينا إنّ مالكيها لعنوها لأنها علقت وسط النيران وقُتلت. تركوا جثتها مطروحة بين الصخور على البحر. قالت نينا إن باولا أحبّت البحر عندما رأته مع عائلتها لأول مرّة في العام الماضي. قالت إنّها تتمنى أن يأتي الموج ليحمل جثتها إلى البحر».

هززتُ رأسي. نهض بانكول وتوجه إلى السرير ليستلقي.

«لكن دان فعلها»، قلتُها لنفسي أكثر منه، «لقد عثر على أخته. وأعادها إلى المنزل. كان أمراً مستحيلاً لكنه فعله!».

«خراء!»، قال بانكول، وأدار وجهه جهة الحائط.

والآن، لقد انتهى هذا اليوم الطويل.

نظّفنا ميدان المعركة على جانب التلال وألقينا بمسحوق الفلفل في الأنحاء حتّى لا تجذب رائحةُ الدماء العالقة الكلابَ البريّة.

جمعنا جثث الموتى، فتّشنا ملابسهم، وبعد حلول الظلام أحطناهم بالحطب وصببنا عليهم زيت القناديل وأحرقناهم. كنّا حريصين بعملنا، والدخان أقل وضوحاً للعيان في الليل- وبالتالي أقل إغراء للقمّامين والفضوليين.

أكره القيام بهذا - حرق الموتى. بالطبع يجب القيام بذلك، سواء أكانوا أمواتاً من جماعتنا أم لم يكونوا، أكره القيام بذلك. أحرقنا جثة دان بمعزل عن جثث المُعتدين. أشعلتُ النار في محرقتِه بنفسي. اختارت آلي الآية ثم تلَتها. سنقيم قدّاس جنازة لدان ما أن تتعافى نينا لكي تحضره. لكن في الوقت الحالي أعتقد أن آلي قد أحسنت الاختيار.

كما الريح
كما الماءِ
كما النارِ
كما الحياةِ...
الربّ خالقٌ ومُهلكٌ،
قهّارٌ ومذعنٌ،
هو النحّاتُ والصلصالُ.
الربّ هو القوّةُ الكامنةُ اللانهائيةُ:
الربُّ إلهنا هو التغييرُ.

الموتى الآخرون -الدخلاء- كانوا أربعة رجال وامرأة، كلّهم في

العشرينات أو أوائل الثلاثينات من العمر. كانوا وسخين ومخدّشين، لكنّهم يرتدون ملابس حسنة، ويحملون الأسلحة، ويبدون كأثرياء. كان هنالك الكثير من النقود الكندية في جيوبهم. هل كانوا تجّار رقيق؟ تجّار مخدرات؟ لصوص؟ أثرياء يتسكعون؟ حتّى نينا لم تعرف. لقد فرّت هي ودان من خاطفيهما الأوائل، وبينما كانا يقطعان الطريق السريع باتجاه أيكورن لمحَتهما هذه المجموعة الجديدة ولاحقتهما.

لم يحمل الدخلاء أوراقاً ثبوتيّة ولا حتّى غيارات ملابس. هذا يعني أنهم يمتلكون منازل أو قاعدة من نوعٍ ما قريبة من هنا. فكّرنا في هذا وقررنا حرقَ ملابسهم مع جثثهم. صحيح أنّها أجود من ملابسنا- أجدد، مواكبة للموضة، وأغلى ثمناً. ولكن إذا ارتديناها ربما سيتعرف عليها أحدهم في أحد أسواق البالة. هناك شيء آخر. ارتدى اثنان من الدخلاء بلوزتين سوداوين مطرّزتين بصليبين أبيضين- تطريزاً وليس طباعة. لم تكن نفس الأردية الطويلة التي وصفَتها أوبري دوفيتري، لكنها مشابهة لها بشكل مثير للاهتمام. كان الدخلاء بلطجية من نوع ما قرروا أن التشبّه بأتباع جاريت مسايرةٌ للموضة.

كانت أسلحة الدخلاء، مثل أسلحتنا، بنادق أوتوماتيكية موجّهة بالليزر من نوعية جيدة أحسنوا الاهتمام بها. واحدة ألمانية الصنع، واحدة أمريكية، وثلاثٌ روسيات جديدات. وكلّها غير قانونية ومنتشرة جداً كالبرتقال. سنُخفيها في مخازننا السرية المنتشرة في أرجاء الجبال. الشيء الوحيد الذي سنُبقيه معنا وسنستخدمه بحسب

حاجتنا إليه هو بعض من المال الذي كان بحوزتهم. وسنخبّئ الباقي في المخازن أيضاً. معظمه مهترئ ومجعّد ولا يمكن التعرف عليه. إن حقيقة امتلاكهم الكثير منه -كل واحد يحمل معه أكثر ممّا قد تحمله مجموعة منا- تعني أن هؤلاء إما أثرياء أو يعلمون في تجارة غير مشروعة مربحة، أو كلا الأمرين.

حسناً، لقد رحلوا. يختفي الناس في هذا العالم. حتّى الأثرياء الذين يخرجون سعياً للمتعة أو المكاسب يختفون. هذا يحدث طوال الوقت.

١٠
بذرة الأرض: كتُب الأحياء

بوسعِ كلّ واحدٍ منّا
اجتراحُ المستحيلِ
طالما نحنُ قادرون على إقناعِ أنفسِنا
أن هذا قد تحقّق من قبلُ.

اشتملَت الحياة في أيكورن على الكثير من العمل البدنيّ الشاق. وهذا يفصح الكثير عن العالم في أوائل سنوات الـ ٢٠٣٠ بحيث اختار معظم الناس الذين صادفوا المجتمع الانضمامَ إلى بذرة الأرض والبقاء. بناء عليه، لا بدّ أنّ ما حمل آل بيرالتا على الرحيل كان أمراً شديد الوطأة. ربما كانت هنالك أسبابٌ أخرى خلف رحيلهم غير التي ذكرَتها أمّي، لكنني لم أجد أي دليل على ذلك. ربما فعلاً لم يوافق آل بيرالتا على التوجّهات الدينية والسياسية لبقيّة أعضاء أيكورن. ربما أيضاً كانوا خائفين من الوضع السياسي الذي تتّجه إليه البلاد. وشعورهم بالخوف مبرّر.

من الناحية الأخرى، لستُ متفاجئة البتّة من قرار خالي مارك بالمغادرة. لم يكن ينتمي حقاً إلى أيكورن. كان «أخا أولامينا الصغير» أو كما قالت أُمّي «مجرّد صبيّ لطيف». كان بوسعه أن يتزوّج ويؤسس أُسرة في أحد الأكواخ. لكن هذا سيكون أمراً لا يُطاق بالنسبة له. ففي النهاية، كان يحاول إنقاذ العالم، مثل أمي. أو ليس مثلها تماماً، بما أن الأرض هي العالم الوحيد الذي أثار اهتمامه. ومثل آل بيرالتا، لم يتّفق مع التوجهات الدينية والسياسية لأيكورن، ومثل آل بيرالتا أيضاً، كان قراره بالرحيل حكيماً.

راودني إحساس أن أُمّي لم تولِ الكثير من الاهتمام لحملها. هذا لا يعني أنّها امتعضَت من حملها. ما من دليل على ذلك. لكنها تجاهلَته ببساطة. لقد وُلدتُ في يوليو. بين مشاركتها في قتال البلطجية الذين طاردوا دان ونينا نوير وبين ولادتي، كانت قد عملَت جاهدة لزيادة تجارة أيكورن بالجملة والمفرد. وقد تكللت جهودها بالنجاح لدرجة أنه بحلول وقت ولادتي كان المجتمع في خضمّ مفاوضات لشراء شاحنة ثانية. اشتروها في النهاية. كان معظم الناس يشعرون بالقلق من امتلاكهم شاحنة واحدة. لقد حافظ ترافيس ومساعدوه على الشاحنة القديمة، ولم ينفقوا الكثير من المال عليها لأنهم كانوا يُصلحونها بأنفسهم، مع ذلك، لا يتطلب الأمر أكثر من وقوع حادث جسيم واحد ليخسر المجتمع بأجمعه تجارته- أو على الأقل تجارته الجديدة.

مع وجود شاحنتين كنواة لتأسيس أسطول، تطلّعَت أُمّي لمستقبلٍ رأته زاهراً وآمناً لحدٍّ معقول. بدأَت تفكّر ببذرة الأرض

أكثر من تفكيرها بأيكورن- نشر تعاليم بذرة الأرض لمجاميع جديدة من الناس. كتبَت في يومياتها عدّة مرّات أنّها تأمل بإرسال بعثات تبشيرية إلى المدن والبلدات المجاورة وبناء مجتمعات بذرة أرض جديدة- نُسخ أيكورن. أعتقد أنّها أحبّت هذه الفكرة كثيراً. لدرجة أنّها تخيّلت أسماءً تُطلقها على نُسخ أيكورن الجديدة، مثلما تتخيّل فتاة أسماء أطفالها الذين تأمل بإنجابهم ذات يوم. كانت الأسماء من قبيل: هازِل نات، باين، مانزانيتا، سان فلور، آلموند[1]... قالت: «يجب أن تكون مجتمعاتٍ صغيرة. تضمّ بضعة مئات من الأفراد فقط، ولا تتجاوز الألف فرداً أبداً. ويجب أن تنفصل المجتمعات التي نما عدد أفرادها لأكثر من الألف و«تُخلّف» مجتمعاً جديداً».

لقد اعتقدَت أُمّي أن الناس في المجتمعات الصغيرة مُحاسبين أمام بعضهم البعض. من الصعب الإفلات من التجاوزات الخطيرة، بل من الصعب الوقوع فيها حينما يعرف كلّ من يراك هويتك، ومكان إقامتك، وعائلتك، وإذا كان من شأنك أصلاً أن تفعل ما تفعله.

لم تكن أُمّي امرأة واهمة بغض النظر عن إيمانها ببذرة الأرض. أظن أن هذا هو السبب الذي دفع الناس في أيكورن للوثوق بها. كانت امرأة عمليّة، صريحة، عادلة، صادقة، وتحبّ الناس، وقد استمتعَت بالعمل معهم. كانت زعيمة مجتمعية محنكة. ولكن تحت هذا كلّه هنالك دائماً بذرة الأرض، وتوقٌ، وهاجس، أقوى بكثير

---

(١) أسماء أشجار على غرار أيكورن Acorn البلوط. Hazelnut البندق، Pine الصنوبر، Manzanita أحد أنواع التوت البري، Sunflower عبّاد الشمس، Almond اللوز.

من تصوّر أي شخص. الأشخاص الأذكياء الطموحون، والذين في نفس الوقت يسيطر عليهم هاجس غريب، قد يكونون خطيرين. وعندما يوجد أمثالهم من المحتّم أن يقلبوا الموازين.

تقول أُمّي في كتاب الأحياء الأوّل:

«الأعجوبة -في جوهرها- تكيّف وعزم وهاجس إيجابي. دونها عزم فالبقية حماس اللحظة. دونها تكيّف فالبقية لربما ستنحو نحو التعصّب المُهلك. دونها هاجس إيجابي فليس ثمّة بقية، ليس ثمّة شيء على الإطلاق».

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الجمعة، ٢٢ يوليو، ٢٠٣٣

في يوم العشرين من يوليو، بلغتُ ٢٤ عاماً. والأهم من ذلك، وُلِدَت في هذا اليوم ابنتِي لاركِن بيريل إيفه أولامينا بانكول.

لقد أطلقنا عليها هذا الاسم الطويل كلّه، يا للطفلة المسكينة! يملك «لاركِن» نفس جذور اسم «لورِن» واسم أبي «لورِنس». اشتُقّت الأسماء الثلاثة من الاسم «لورِل»، الذي يرجع أصله إلى عادة يونانية قديمة تقضي بمكافأة المنتصرين بتتويجهم بأكاليل من أوراق نبات الغار[1]. وثمة أيضاً شبه لطيف بين الاسمين «لاركِن»

(١) Laurel: نبات الغار.

و«لارك»، وهو اسم طائر مغرّد لم يسبق لنا أنا وبانكول رؤيته أو سماعه قط، لكنّنا قرأنا أنه يمتلك صوتاً جميلاً. لقد خطّطتُ أن أُسمّي ابنتِي «لاركِن» حتّى قبل ولادتها في نفس يوم ولادتي وولادة أبي. يا لها من رابطة جميلة. ليس محض صدفة أن تبدأ ثلاثة أجيال في العشرين من يوليو. إنه تقليدٌ تقريباً.

«بيريل» اسم والدة بانكول. لقد تشاجرنا أنا وبانكول بخصوص هذا الاسم طوال أشهر، وعرفتُ أن ابنتنا ستحمله بطريقة أو بأخرى. سأتقبّله على مضض شريطة ألّا يكون اسمها الأول. كما أنه يحمل معنى دلالياً جميلاً. البيريل معدن صلدٌ جداً، صافٍ أو مضبّب، ويمكن أن يكون جميلاً بعد تشكيله وصقله. الزمرّد أحد أنواع البيريل.

«إيفه» اسم من أصل يوروبي اخترناه ليتماشى مع لقبينا اليوروبيين- بعد أن اختار جدي ووالد بانكول اتخاذ ألقاب ذات أصلٍ يوروبي في سنوات الـ ١٩٦٠. كان اسم «إيفه» من بنات أفكار بانكول. لم أتذكره. فتّشنا كلانا في ذكرياتنا عن اسم يوروبي، وما أن طرح بانكول اسم «إيفه» حتّى وافقنا عليه نحن الاثنين. يقول بانكول إنه يعني «الحبّ».

وبالطبع حملَت اسم «أولامينا» و«بانكول». هذه أسماء كثيرة على طفلة صغيرة واحدة. لا شكّ أنّها عندما تكبر ستختار اسماً أو اثنين وتتخلى عن البقية.

إنها كاملة وجميلة ومعافاة، وأحبها أكثر ممّا تخيّلت. ما زلت

موجوعة ومتعبة، ولكن هذا لا يهم. إنّها تزن ثلاثة كيلوغرامات ونصف. وتمتلك شهيّة مفتوحة، وصوتاً عالياً.

يجلس بانكول الآن وهو يحملها بين ذراعيه وهي نائمة- يحملها وينظر إليها، يُهدهِدها في كرسيّه الهزاز الخشبيّ الجميل المزخرف الذي دفع ثمنه غراي مورا إلى آلي غيلكريست لتصنعه له. يحب غراي بناء الأشياء الكبيرة- الأكواخ، والمخازن، والأبنية من أي نوع. يصمّمها، يُنظّم البناء، ويعمل عليها. إنه رجل سعيد طالما أنه يعمل على بناء شيء ما. لقد بنى المدرسة، وهو يشعر بالفخر الشديد بها، لحدٍّ لا يُطاق. لكنه يترك صنع وتصميم الأشياء الصغيرة، الأثاث بالتحديد، لآلي غيلكريست. لقد علّمت نفسها بنفسها هذه الحرفة، من خلال قراءة الكُتب التي نعثر عليها، وأيضاً من خلال تفكيك الأثاث الذي نعثر عليه لتتعرّف على كيفية صنعه. واليوم تبيع الكراسي والطاولات والخزانات والصناديق والألعاب والعُدد والديكورات وكل الأثاث الذي تصنعه في أسواق البالة مقابل أسعار مجزية. يبلغ عمر ابنها جاستن تسع سنوات فقط، لكنه يُسعدها كثيراً من خلال مساعدتها في العمل وتعلّم الحرفة والاستمتاع بها. بدأت ماي وبنتا آل نوير بتعلّم هذه الحرفة أيضاً، رغم أن ماي تحبّ حياكة الحُصُر والسلال والحقائب من الحشائش والجذور وقطع اللحاء.

قبل أربعة أعوام، بعد أن قام بانكول بتوليد نجل غراي البكر، دفع غراي المال إلى آلي لكي تصنع كرسياً جميلاً هزازاً للـ «طبيب». لم

ينسجم غراي وبانكول في البداية- بسبب غراي، وهو يعلم بذلك. لقد تظاهر بأنه يحتقر بانكول -كان يسمّيه الشيخ الجبان!- لكن الحقيقة هي أنه كان يهاب بانكول بسبب عمره وتعليمه ووقاره. لم يتحدّث الرجلان إلّا نادراً قبل أن تحمل زوجة غراي بابنهما البكر. ثم اعتنى بانكول بإيميري خلال فترة حملها وخلال ولادة جوزيف المتعسّرة- كان في وضعية الجنين المقعديّ. بعدها قدّم غراي لبانكول بصمتٍ بليدٍ الكرسي الجميل المصنوع من خشب البلوط كعربون سلام. يجلس بانكول الآن في الكرسي الهزاز وينظر إلى طفلته النائمة، يتلمّس وجهها غير مصدّق أنّها حقيقية، وفي نفس الوقت كأنها أكثر واقعية وأهم من كلّ شيء آخر في عالمه برمّته.

يبدو أنه حذا حذو أديلا أورتيز. يقول إن لاركِن تشبه أخته الصغرى عندما كانت طفلة. ذات الأخت التي وجدنا عظامها عندما وصلنا إلى هنا. عظامها، وعظام زوجها، وعظام أطفالها. لا بدّ أن بانكول قد شعر بعد موتهم بأنه مقصيّ من المستقبل، ومن أية فرصة لخلود الجسد، والجينات. لم يكن عنده أقارب آخرون. والآن عنده ابنة. لا أعرف ما إذا كان حتّى مدركاً كم أمضى من الوقت مبتسماً في اليومين الماضيين.

الأحد، ٢٤ يوليو، ٢٠٣٣

اليوم رحّبنا بلاركِن في مجتمعنا- أيكورن وبذرة الأرض.

كنتُ الشخص المكلّف باستقبال كلّ طفلٍ جديدٍ أو بالغ متبنّى، لحدّ اليوم. لا أُقيم اجتماعات أيام الآحاد دائماً، لكنني استقبلتُ كلّ وافد جديد. والآن، صار هذا أمراً متوقّعاً مني- شيئاً يُفترض بي فعله. ولكن هذه المرة طلبتُ من ترافيس إقامة المراسيم. وبالطبع طلبنا من هاري وزهرا الوقوف معنا. أنا وبانكول أخ وأخت في التغيير لهما، وعمّة وعمّ وخال وخالة في التغيير لأطفالهما. والآن سيقومان بالمثل. كلّ واحد منا على استعداد لرعاية أطفال الآخر. آل بالتر أقدم أصدقائي وأنا أثق بهما، ولكني آمل ألّا يأتي الوقت الذي يجب الوفاء فيه بالعهود التي قطعناها لبعضنا البعض.

هذا الأمر، بطريقة ما، يجعل منا مجتمعاً حقيقياً، بعد أن صار لدى العديد منا أطفالٌ هنا... بعد أن أنجبتُ طفلة هنا.

لاركِن بيريل إيفه أولامينا بانكول،

نحن، أهلُك

نرحّب بكِ...

السبت، ٣٠ يوليو، ٢٠٣٣

«لا أعتقد أنّكِ تفهمين حقاً كيف أشعر»، قال لي بانكول ليلة الأمس فيما كان جالساً يتناول العشاء الذي أبقيتُه ساخناً من أجله. كان يقوم بنوبة المراقبة الليلية، جالساً على الجبل حاملاً منظاراً يراقب المكان الذي قد تُقبل منه عصابة جديدة وتدمّر عائلته. إنه

جادّ أكثر من أي وقت مضى بشأن التقيّد بحراسة صارمة مستمرة على مدار ٢٤ ساعة، ولكن ما زال القيام بواجب الحراسة أمراً مرهقاً بالنسبة لأي واحد منا. لم أتوقع أن يعود إلى المنزل بمزاجٍ رائق، لكنّه لا يزال منتشياً بكونهِ أباً جديداً بحيث لا يتعكّر مزاجه كثيراً.

«انتظري حتّى تبدأ لاركِن بإيقاظهِ من نومه مراراً وتكراراً»، حذّرتني زهرا.

لا شكّ أنّها على حق.

جلس بانكول إلى طاولة الطعام وتنهّد. قال: «مرّت عليّ أوقاتٌ قبل أن ألتقيكِ أحسستُ فيها كأنني ميت». نظر إليّ، ثم إلى مهد لاركِن حيث غفت شبعانة بالحليب، وغير مبللة إلى الآن. قال: «أعتقد أنكِ أنقذتِني. أتمنى لو تدعيني أنقذك».

عدنا إلى نفس الموضوع ثانية. لقد وجد أهالي بلدة هالستيد طبيباً آخر، لكنهم لم يحبّوه. ساورتهم الشكوك حول ما إذا كان طبيباً بالفعل. ظن بانكول أنه يمتلك تدريباً طبيّاً من نوعٍ ما، لكنّه بالتأكيد أقل من طبيب أو ليس بطبيب أصلاً. كان عمره ٣٥ عاماً فقط، وكل الأطباء اليافعين في هذه الأيام -الذين تقلّ أعمارهم عن ٥٠ عاماً- يعملون في عيادات في مدنٍ أو في بلدات أو في مزارعَ ضخمة، مخصخصة أو يملكها أجانب. يمكنهم هناك كسب ما يكفي من النقود لتوفير حياة كريمة لعوائلهم، كما أنهم تحت حماية حرّاس الشركات من البلطجية وقطاع الطرق والفقراء اليائسين.

لذا لا بدّ أن هنالك خطباً ما في طبيب يبلغ من العمر ٣٥ عاماً ولا يزال يبحث عن مكانٍ يعلّق عليه يافطته.

قال بانكول إنه يعتقد أن شخصاً مصاباً أو مريضاً سيكون في أمان بين يدي ناتيفيداد أو مايكل أكثر منه بين يدَي بابكوك «طبيب» هالستيد الجديد. لقد حذّر أصدقاءه في هالستيد منه، وأخبروه أنه لا يزال مرّحباً بهِ بينهم. لم يشكّوا في خبرته كطبيب، وفضّلوا أن يكون طبيبهم. ولا يزال يرغب بإنقاذي من خلال اصطحابي للعيش بينهم.

أخبرته: «أيكورن مجتمع أنقذ أفرادُه بعضهم بعضاً بشتّى الطرق. أيكورن ديارنا».

نظر إليّ ثانية، ثم بدأ بتناول طعام عشائه. كان الوقت متأخراً، لذا تناولتُ طعامي سابقاً. أخذت الطفلة معي وذهبت لتناول العشاء مع زهرا وهاري وأطفالها. لكني جلستُ معه الآن لأحتسي الشاي بالنعناع والعسل وأستمتع بالسكون. خبت النار في مدفأتنا الخشبية القديمة التي عثرنا عليها أثناء النبش، لكن الموقد الحديديّ لا يزال دافئاً، كما أن ليالي يوليو لم تكن باردة. أوقدنا ثلاثة قناديل زيتية صغيرة. ما من داعٍ لهدر الكهرباء. كان ضوء القناديل ناعماً ومتذبذباً.

حدّقتُ بالظلال، مستمتعة بالدفء العائلي والهدوء، هانئة ونعسانة، إلى أن تكلّم بانكول ثانية.

قال: «هل تعلمين أنني استغرقتُ وقتاً طويلاً لأثقَ بكِ. بدوتِ

يافعة جداً- ضعيفة جداً، ومثالية جداً، وفي نفس الوقت خطيرة وعارفة».

سألته: «ماذا؟».

قال: «الحقيقة. كنتِ متناقضة جداً. وما زلتِ كذلك. ظننتُ أنكِ ستكبرين وتتغيّرين. بدلاً من ذلك، تعوّدتُ أنا على طباعكِ- تقريباً».

نحن نعرف بعضنا البعض منذ ست سنوات. يمكنني سماع ليس ما يقوله فقط بل ما لا يقوله أيضاً. «أنا أيضاً أحبّك»، قلتُ من دون أن أبتسم.

حتى هو لم يسمح لنفسه بأن يبتسم. مال إلى الأمام، وضع ساعديه على الطاولة، وتحدّث بنبرة شديدة الجديّة. قال: «خبّريني يا بنت. قولي لي بالضبط ماذا تنوين أن تفعلي في هذا المكان، مع هؤلاء الناس. خلّي عنكِ الحديث اللاهوتي هذه المرة، وخبّريني بما تنوين فعله خطوة بخطوة، ما هي الأهداف المادية التي تأملين تحقيقها؟».

اعترضتُ قائلة: «لكنك تعرف».

قال: «لا أظن أنني أعرف. ولا أظن أنكِ تعرفين. أخبريني».

فهمتُ وقتها أنه كان يبحث عن أسبابٍ لإعادة تقييم موقفه. لا يزال يعتقد أنّنا يجب أن نغادر أيكورن، وأننا لن نعيش بأمان إلّا في بلدة كبيرة وثرية وعريقة. كان يقول «أقنعيني».

أخذتُ نفساً عميقاً منهكاً، وقلت: «أُريد ما يحدث الآن. أريد أن نستمرّ في النمو، أن نصبح أقوى وأثرى، ونعلّم أنفسنا وأولادنا، ونحسّن مجتمعنا. هذه هي الأمور التي ينبغي علينا فعلها في الوقت الحالي والمستقبل القريب. وبينما يكبر مجتمعنا، أريد أن نرسل أذكى وأفضل أطفالنا ليدرسوا في الجامعات والمدارس المهنية لكي يتمكّنوا من مساعدتنا، وعلى الأمد البعيد مساعدة البلاد والعالم والاستعداد للمصير. وأريد في نفس الوقت أن أُرسل المؤمنين ممّن يمتلكون ميولاً تبشيرية- أُرسلهم في مجموعات عائلية ليؤسسوا بيوت اجتماع بذرة الأرض في مجتمعات لا تتبع بذرة الأرض.

سيعلّمون، وسيقدمون الرعاية الطبيّة، وسيشكّلون مجتمعات بذرة أرض جديدة في المدن والبلدات وسيركّزون الناس من حولهم على المصير. وأريد تأسيس مجتمعات بذرة أرض جديدة مثل أيكورن- مؤلفة من أشخاص نجمعهم من الطرق السريعة والأحياء العشوائية ومن أي مكان. سيرغب بعض الناس في البقاء في مكانهم والانضمام لبذرة الأرض بذات الطريقة التي قد ينضمّون بها إلى الميثودية أو البوذية. بينما سيحتاج آخرون للانضمام إلى مجتمع أكثر تقارباً، وحدة جغرافية وعاطفية وفكرية». توقفتُ عن الكلام وأخذتُ نفساً عميقاً. لسبب ما، لم أجرؤ سابقاً على الإفصاح عن خططي لأي شخص. كنتُ أفكّر فيها في ذهني، وأكتب عنها، وأتحدّث عنها كأجزاء متفرقة في الاجتماعات، لكنني لم أجمعها لهم قطّ. ربما كان هذا خطأً. المشكلة هي أنّنا ركّزنا لفترة طويلة

على حياتنا الحالية، وحلّ المشاكل الواضحة، والعمل التجاري، والإعداد للمستقبل القريب. كما أنني قلقتُ من أن أُفزع الناس من الخطط الكثيرة والكبيرة. وأسوأ شيء، خشيتُ أن أبدو سخيفة. لأنه من السخيف فعلاً لشخص مثلي أن يطمح بتحقيق الأشياء التي أطمح بتحقيقها. أعرف هذا. ولطالما عرفت هذا. لكن هذا لم يمنعني. قلتُ وأنا أفكّر أثناء حديثي: «نحن بداية. لا تزال بذرة الأرض طفلة رضيعة مثل لاركِن -«بذرة واحدة صغيرة»- من اليسير سحقنا في الوقت الحالي. وهذا يرعبني. لهذا يجب أن ننمو وننتشر- لنصبح أقوى».

قال: «ولكن لو ذهبتِ إلى هالستيد، إذا انتقلت للعيش هناك ...».

قلتُ: «إذا انتقلتُ إلى هالستيد، قد تموتُ البذرة هنا». توقّفتُ، عبستُ، ثم قلت: «حبيبي، أن أتخلى عن أيكورن الآن كأنني أتخلى عن لاركِن».

بدا مصدوماً بعض الشيء من كلامي. ولا أفهم السبب بعد كلّ ما قلتُه. هزّ رأسه وحدّق بي لثوانٍ، ثم قال: «وماذا عن الرئيس جاريت؟».

قلتُ: «ماذا عنه؟».

قال: «إنه رجل خطير. فوزه بالرئاسة سيجعل الأمور مختلفة، حتّى بالنسبة لنا. أنا متأكّد».

قلتُ: «نحن لا شيء بالنسبة له، نحن صغار، بلا أهمية...».

قال: «تذكّري دوفيتري».

دوفيتري آخر شيء أريد أن أتذكره. وكذلك عضو مجلس الشيوخ الذي تحدّث عنه مارك. كلاهما حقيقيان، وربما كانا كلاهما يمثلان خطراً علينا، ولكن ماذا بوسعي فعله حيالهما؟ وهل سأترك الخوف منهما يوقفني؟ قلت له: «عمر هذا البلد أكثر من ٢٥٠ سنة. لقد مرّ عليه قادة طالحون من قبلُ، ونجا منهم. سيتحتّم علينا مراقبة ما سيفعله جاريت، ونتغيّر عند الضرورة، ونتكيّف، وربما نلتزم الهدوء لفترة من الوقت. ولكن يجب أن نتكيّف مع التغييرات دائماً. سنتكيّف دائماً. لأن الربّ هو التغيير. إذا توجّب علينا أن نهتف بالقول «عاش الرئيس جاريت» و«بارك الربّ بأمريكا المسيحيّة»، إذن سنهتف. جاريت مؤقت».

قال: «وكذلك نحن. ولن يكون العيش معه سهلاً».

ملتُ نحوه وقلت: «سنفعل ما ينبغي علينا فعله. بغضّ النظر عمّن يشغل كرسي الرئاسة في المكتب البيضاوي. ماذا بأيدينا غير ذلك؟ حتّى لو فررنا للاختباء في هالستيد، فسنظل تحت حكم جاريت. ولن يكون عندنا هناك أصدقاء مخلصون ليساعدونا، ويكذبوا من أجلنا إذا لزم الأمر، ويجازفوا بأنفسهم من أجلنا. سنكون غرباء في هالستيد. سيكون من السهل استهدافنا ولومنا وأذيتنا. إذا أتى المقتصّون المجانين أو حتّى الشرطة وبدأوا بطرح الأسئلة بخصوصنا واتهمونا بممارسة السحر أو ما شابه، ربما سيقرر

أهالي هالستيد أنّنا مصدر متاعب لا يستحق العناء. أُريد أن يكون أصدقائي قربي في حال ساءت الأمور. هنا في أيكورن، إذا لم نستطع إنقاذ كلّ شيء، يمكننا على الأقل العمل معاً لإنقاذ بعضنا لبعض. وقد فعلنا ذلك من قبل».

«لا يشبه هذا أي شيء واجهناه من قبل». أرخى بانكول كتفيه وتنهّد قائلاً: «لا أظن أنّ هذا البلد قد حكمه رئيس بسوء جاريت أو بالسوء الذي قد يغدو عليه جاريت، ضعي هذا في حسبانك. والآن بعد أن صرتِ أمّاً يجب عليك أن تتخلي عن بعض من أفكاركِ بخصوص بذرة الأرض وتفكّري في ابنتك. أريدك أن تنظري إلى لاركِن وتفكري فيها في كلّ مرّة تنوين فيها اتّخاذ قرارٍ جسيم».

قلت: «وأنا لا أفعل أي شيء سوى ذلك. الأمر لا يتعلّق بالقرارات الجسيمة. بل يتعلّق بلاركِن ومستقبلها». شربتُ الرشفة الأخيرة من الشاي وقلتُ: «أتعلم. شعرتُ بالرعب -الرعب الحقيقي صدقاً- لوقت طويل من التفكير في أن المصير بحدّ ذاته كبيرٌ جداً، ومعقّد جداً، وبعيد جداً عن الحياة التي أعيشها، وعن أي شيء يمكنني تحقيقه وحدي، بعيدٌ جداً عن أي شيء بدا ممكناً. أتذكر أن أبي قال مرّة إنه يظن أن البرنامج الفضائي الصغير التافه الذي تخلّينا عنه كان سخيفاً وخاطئاً ومضيعة للمال».

قال بانكول: «كان مصيباً».

«لم يكن مصيباً!»، همستُ بغضبٍ. بعد لحظة قلت: «نحن بحاجة إلى النجوم يا بانكول. نحن بحاجة إلى غاية! نحن بحاجة إلى

الصورة التي يمنحنا إياها المصير عن أنفسنا كجنسٍ متنامٍ وهادفٍ. نحن بحاجة لمساعدة المصير لكي نصبح الجنس الناضج الذي نطمح لأن نكونه! نحن بحاجة إلى النجوم إذا أردنا أن نصبح شيئاً آخر غير ديناصورات ملساء تتطوّر وتتخصّص وتموت. لهذا فأن «مصير بذرة الأرض أن تمدّ جذورها بين النجوم». أعرف أنك لا ترغب في سماع الآيات الآن، لكن تلك الآية.. عنصر أساسيّ لنا، أعني الجنس البشري. نحن نقاتل بعضنا البعض عندما لا نملك غايةً صعبة بعيدة المدى نصبو إليها. ندمّر أنفسنا. لقد مررنا بتلك الفترات الفوضوية المروّعة، من الجنون الدموي». توقّفتُ لبرهة عن الكلام، ثم سمحتُ لنفسي بقول ما لم أجرؤ على قوله لأي أحد من قبل. كان يملك الحقّ في سماعه. قلت: «كنتُ أخاف في السابق، عندما كنت أخبر الناس عن مصير بذرة الأرض ويضحك أغلبهم. لقد خشيتُ ألّا أتمكّن من فعل ذلك، ألا أتمكّن التواصل مع الناس ومساعدتهم على رؤية الحقيقة. وخفتُ أكثر لاحقاً، عندما تقبّل أفراد مجتمع أيكورن كلّ تعاليم بذرة الأرض ما عدا المصير. يبدو أن الناس على استعداد للإيمان بكل أشكال الغباء- السحر، والماورائيات، الشعوذة... ولكنّي لم أستطع حملهم على الإيمان بشيء حقيقي، شيء يمكنهم جعله حقيقياً بأيديهم. والآن... الآن لقد تقبّل أغلب الناس هنا المصير. إنهم يصدقونني ويتبعونني، و... اللعنة عليّ إذا لم يُخِفني هذا أكثر».

«لم تقولي هذا من قبل». مدّ بانكول يديه واحتضن يديّ.

قلت: «وماذا عساي أن أقول؟ إنني أؤمن ببذرة الأرض لكنني أشكّ في قدراتي؟ إنني خائفة طوال الوقت؟». تنهدتُ وقلت: «هنا يأتي دور الإيمان على ما أعتقد. يأتي دوره عاجلاً أم آجلاً في كلّ نظام عقائدي. في هذه الحالة، آمِن وابذل قصارى جهدك. آمِن واجعل الكثير من الناس يبذلون قصارى جهدهم. أنا أدرك كلّ هذا، مع ذلك ما زلت خائفة».

قال: «هل تظنين أن الجميع يتوقعون منكِ أن تكوني عارفة بكل شيء؟».

ابتسمتُ وقلت: «بالتأكيد إنهم كذلك. إنهم لا يعتقدون أنني أعلم كلّ شيء، ولن يحبونني لو كنتُ كذلك، ولكنهم يتوقعون ذلك بطريقة ما. ليس للمنطق دور في المشاعر».

قال: «بالفعل. وأظن أنه ليس من المنطقي محاولتكِ تأسيس دين جديد لتساورك الشكوك بشأنه فيما بعد».

قلت: «شكوكي شأنٌ شخصيّ. وأنت تعرف هذا. أنا أشكّ في نفسي، وليس في بذرة الأرض. أخشى أنني قد لا أكون قادرة على جعل بذرة الأرض أكثر من مجرد طائفة صغيرة أخرى». هززتُ رأسي وقلت: «قد يحدث هذا. بذرة الأرض حقيقة- مجموعة من الحقائق. ولكن ما من قانون ينصّ على أنّها يجب أن تنجح. قد نُفسد الأمر. قد أُفسد أنا الأمر. هنالك الكثير ممّا يتعين القيام به».

ظلّ بانكول يحتضن يديّ بين يديه، وسمحتُ لنفسي بالاستمرار

بالحديث، والتفكير بصوتٍ عالٍ. قلت: «أتساءل أحياناً ما إذا كنتُ سأنجح. قد أهرمُ وأموتُ قبل أن أرى بذرة الأرض تكبر، وقبل أن أغادر الأرض أو أرى الآخرين يغادرونها، أو ربما حتّى قبل أن أستطيع تركيز الانتباه الجاد على المصير. هنالك الكثير من الطوائف الدينية- إنها كالديدان تلتفّ وتتغذى وتتشكّل وتنقسم، دون أن تبرح مكانها».

قال بانكول: «سأموت قبل أن أرى نتيجة جهودك».

جفلتُ، نظرتُ إليه، وقلت: «ماذا؟».

قال: «لقد سمعتِني يا بنت».

لا أعرف أبداً كيف أُجيبه عندما يبدأ بالحديث بهذه الطريقة. هذا يخيفني لأنه صحيحٌ طبعاً.

قال: «اسمعي. هل تعتقدين حقاً أن بوسعك قضاء حياتك -حياتكِ يا بنت!- وأنتِ تصارعين وتجازفين بنفسك، وربما تجازفين بحياة ابنتنا من أجل... قضية... ربما... لن تعيشي عمراً كافياً لرؤيتها تتحقق؟ هل ينبغي عليكِ القيام بأمرٍ كهذا؟». شعرتُ بتردّده، وهو يحاول جاهداً إقناعي بالعدول عن الأمر من دون أن يجرحني.

ترك يديّ، ثم سحب كرسيّه بالقرب مني. احتضنني وقال: «إنه حلمٌ جميل يا بنت، لكنه مجرّد حلم. وأنت تعلمين هذا كما أعلمه. أنتِ ذكية. وتعرفين الفرق بين الخيال والواقع».

اتكأتُ عليه وقلت: «حبيبي إنه أكثر من مجرّد حلم جميل. إنه الصحيح! إنه الحقيقة! وهو أمر كبير جداً وشاقّ جداً وبعيد المدى جداً، وهو غير مربح أبداً على الصعيد المالي، وقد يستغرق تحقيقه كلّ ما نستطيع كبشرٍ تحشيده من إيمان ديني قويّ. إنه لا يشبه أي شيء حقّقَته البشرية من قبل. وإذا لم أستطع الوصول إليه...». تفاجأتُ لأنني وجدتُ نفسي على وشك البكاء. تابعتُ: «إذا لم أستطع منحه الدفعة التي يحتاجها، إذا لم أعِش لأراه ينجح...». توقفتُ برهة، ابتلعت ريقي ثم أردفتُ: «إذا لم أعِش لأراه يتحقق، ربما سيكون بوسع لاركِن ذلك!». وجدتُ أن الكلمات يستحيل نطقها. لم تكن فكرة جديدة بالنسبة لي أنني قد لا أعيش لأرى المصير يتحقّق. لكنني شعرتُ كأنها جديدة. والآن لاركِن جزء منه، فشعرتُ بهِ جديداً وواقعياً. شعرتُ أنه واقعي. ذعرت وراحت أفكاري تتقافز. شعرتُ كما لو أنني لا أعرف ماذا أفعل. وفجأة، رغبتُ بالوقوف إلى جانب مهد لاركِن والنظر إليها واحتضانها. لم أتحرّك. اتكأتُ على بانكول، مضطربةً، مرتعشة.

قال بانكول بعد فترة: «مرحباً بك في مرحلة النضوج يا بنت!».

ثم شرعتُ بالبكاء. جلستُ هناك والدموع تنحدر على وجنتيّ. لم أستطع التوقف. لم يصدر مني أي صوت، لكن بانكول رآني بالطبع، واحتضنني. كنتُ مرتعبة ومشمئزة من نفسي في البداية. هذا ليس من عادتي. أنا لا أبكي أمام الناس. لستُ من هذا النوع

من الأشخاص. حاولت الابتعاد عن بانكول، لكنه احتضنني. إنه رجل ضخم البنية.

أنا طويلة وقويّة، لكنه لفّ ذراعيه حولي بحيث لا أتمكّن من الإفلات منه دون أن أؤذيه. أدركتُ بعد لحظة أنني في مكانٍ أُريد البقاء فيه. إذا كان ينبغي عليّ البكاء على كتفَي شخص ما، لا بأس، سأبكي على كتفيه الكبيرتين والعريضتين.

توقّفتُ بعد فترة عن البكاء بعد أن ذرفتُ كلّ دموعي. كنتُ مرهقة ومستعدة للنوم. مسحتُ وجهي بمنديل، وتطلّعت إليه، قلت: «أتساءل ما إذا كان هذا أحد أعراض اكتئاب ما بعد الولادة؟».

قال وهو يبتسم: «ربما».

قلت له: «لا يهمّ. لقد عنيتُ كلّ ما قلتُه».

أومأ وقال: «أعرف».

قلتُ: «إذن لنخلد إلى النوم».

قال: «ليس بعد. اسمعيني يا أولامينا».

جلستُ في مكاني لأسمع.

قال: «إذا بقينا هنا، إذا وافقتُ على بقائنا هنا أنا وأنتِ ولاركِن، فلن يكون هذا المكان شبيهاً بالأحياء العشوائية».

قلتُ: «لم يكن كذلك قط!».

رفع يده وقال: «لن أسمح أن تكبر ابنتِي وهي تعيش من النبش بين الخرائب وأكداس القمامة. يجب أن يكون هذا المكان بلدة- بلدة في القرن الواحد والعشرين. يجب أن يكون مكاناً لائقاً لتربية طفلٍ- مكاناً فيه أملٌ بحياة كريمة ونجاح. سنحرص على ذلك، مهما تكن الأمور العظيمة الأخرى التي سننجح أو نفشل بتحقيقها».

قلتُ وأنا أمّسد وجهه ولحيته: «أيكورن ستنمو».

كاد يبتسم. لكنه عاد لجدّيته المعهودة. قال: «إذا قبلتُ بهذا، فسأبقى هنا للأبد! وإذا غيرتِ رأيكِ بعد أوقاتٍ من الشقاء...».

قلتُ: «وهل هذا من طباعي يا حبيبي؟ هل أغيّر رأيي عادة؟».

حدّق فيّ ملياً، صامتاً، وهو يفكّر.

«لقد ساعدتُكَ في بناء هذا المنزل»، قلتُ مشيرة للمعنى الحرفيّ لاسمه، فكّرت «فساعدني في بناء منزل». ولكن قلتُ له: «ساعدتُكَ في بناء هذا المنزل. والآن أمامنا عمل كثير».

١١

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

اختاروا زعماءَكم
بحكمةٍ وتروٍّ.
إنّ يحكُمكم جبانٌ
سيسيطرُ عليكم
كلُّ ما يخافُه الجبانُ.
إن يحكُمكم أحمقُ
سيسيطرُ عليكم الانتهازيّونَ
الذين يُستيرون الأحمَق.
إن يحكُمكم سارقٌ
فذا كتقديمِ كنوزِكم الثمينةِ
لتُسرق.
إن يحكُمكم كاذبٌ
فذا كرغبتِكم

أن يُكذبَ عليكم.
إن يحكمَكم طاغيةٌ
فذا كبيعِ أنفسِكم
ومن تحبّون
للعبوديّةِ.

لا أعرف كيف أكتبُ عن هذا الفصل التالي من حياة والديّ وحياتي. أنا سعيدة لأنني لا أتذكّر شيئاً ممّا حدث. كان عمري شهرين فقط.

إنه أمرٌ غريب جداً، وسيّئ جداً، ومحيّر جداً. لو أن أُمّي وافقَت على الذهاب مع أبي للعيش في هالستيد بسلام، لما حدث كلّ هذا. أو على الأقل لما حدث هذا لنا.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الإثنين، ٢٦ سبتمبر، ٢٠٣٣

لم يُطلقوا النار لاقتحام المكان. يبدو أنهم لا ينوون قتلنا حتّى الآن. لقد تغيّروا منذ الغارة على مزرعة آل دوفيتري. لقد وصل قائدهم لسدّة الحكم. لقد اكتسبوا... وإن كان بطريقة غير مشروعة، درجة من الرُقيّ. الغارات، وإطلاق النار على الجميع، وإحراق كلّ شيء، صارت اليوم أموراً أقلّ من مستواهم. أو ربما لم تعُد ممتعة كالسابق.

أكتب ولا أعلم إلى متى يمكنني الاستمرار في الكتابة. أكتب لأنهم لم يسرقوا منا كلّ شيء بعدُ. لقد سلبوا حرّيتنا، وسلبوا شاحنتينا، وأرضنا، وتجارتنا، وبيوتنا. ولكن بطريقة ما لا يزال عندي أوراق وأقلام. لا يقدّر آسرونا قيمة هذه الأشياء، لذا لم يأخذوها مني إلى الآن. يجب أن أُخفيها عن أعينهم وإلّا صادروها. سيصادرون كلّ الممتلكات. سيعرّوننا. لقد قالوا هذا بوضوح. سيحطّموننا، ويعيدون تشكيلنا، ويعلّموننا معنى حبّ وطنهم ومخافة إلهِهم.

لم يعثروا على مستودعاتنا السرية التي خبأنا فيها الطعام والأسلحة والمال والملابس والسجلات. أو هذا ما أظنه. إذ لم يسمع أحدٌ بعثورهم عليها.

لقد حبسونا في غرفتين من غرف المدرسة. لا تزال كتبُنا في مكانها على الرفوف. ولا تزال الواجبات المدرسية المختلفة لطلابنا هنا. لكنّهم صادروا هواتفنا كلّها وكومبيوتراتنا التعليمية الخمسة الجديدة. تمتلك هذهِ الأجهزة قيمة عالية بالعملة الصعبة. وهي أيضاً وسيلة للتواصل مع العالم الخارجي. وهذا غير مسموح به لنا. لأن هذا سيعيق من عملية إعادة تأهلينا.

يجب أن أوثّق كلّ هذا في سجّل. لا أريد ذلك، ولكن لا بدّ لي من ذلك. ويجب أن أُخفي هذا السجل، لكي يعرف أتباع بذرة الأرض ذات يوم ممَ نجَت بذرة الأرض.

بلى. سننجو. لا أعرف بعدُ كيف. المشكلة دائماً هي كيف. ولكننا سننجو.

إليكم ما حدث:

في وقتٍ متأخّر من عصر يوم الثلاثاء في الأسبوع الماضي، كنت أرسم اثنين من أطفال آل فيركلوث وأتحدّث معهما بخصوص المشروع المدرسيّ الذي يرغبان بتقديمه. لقد اكتشفا الحرب العالمية الثانية خلال دراستهما المطلوبة للتاريخ، فرغبا بصناعة مجسّمات بوارج وغواصات وطائرات من تلك الحقبة. لقد رغبا بتقديم تقرير عن المعارك الكبرى والقنابل الذرية التي أُسقطت على هيروشيما وناغازاكي. كانا مبهورَين بالأحداث الصاخبة الانفجارية التي وقعت في الحرب، لكنهما لم يمتلكا أيّة فكرة عن مدى ضخامة المشروع الذي اختاراه أو عن أسباب اندلاع الحرب أكثر من الخطوط العريضة. قرّرتُ رسمهما بينما نتحدّث ثلاثتنا عن الموضوع لتضييق نطاق البحث.

لطالما عانت أُسرة فيركلوث من الفقر، وعاشوا في حيّ عشوائي قبل أن يأتوا إلينا. عند آلان فيركلوث صورةٌ ورقية وحيدة صغيرة مجعّدة للصبيين عندما كانا طفلين، ولا يمتلك أيّة صورة حديثة لهما. وقد سُررت أكثر ممّا أعترفُ عندما طلب مني رسم صورة تجمعهما. أصبحتُ مغترّة برسوماتي. لقد صارت شبه جيدة نوعاً ما مؤخراً. حتّى هاري وزهرا وآلي أخبروني بذلك، وهم الذين استمتعوا كثيراً بالسخرية من محاولاتي السابقة في الرسم.

كنت أنا والولدان في الخارج، خلف المدرسة، نستمتع بالنهار الدافئ المريح. رقدَت لاركِن بجواري، نائمة في مهدها بالرغم

من الضوضاء التي أحدثها الصبيّان. لقد اعتادت على الضوضاء. يبلغ الصبيان من العمر أحد عشر واثني عشر عاماً، هما ضئيلان بالنسبة لعمريهما، صاخبان دائماً، ومن غير المرجّح أن يجلسا بسكون لأكثر من دقيقتين متواصلتين أو ثلاث. ألقيا نظرة خاطفة على لاركِن أولاً، ثم فقدا اهتمامهما، وراحا يصرخان على بعضهما، ثم راحا يصرخان عليّ بشأن الأسلحة والمعارك، والطائرات الانقضاضية، وحاملات الطائرات، وهتلر، وتشرشل، وتوغو، ولندن، وستالينغراد، وطوكيو... إلخ. غريب كيف أن حدثاً فظيعاً وهائلاً كالحرب العالمية يبدو رائعاً ومثيراً للاهتمام لصبيّين لم يبلغا سن المراهقة بعد، لم يولد أجدادهما في زمن الحرب- رغم أنّ جدّيهما لأبويهما وُلدا وترعرعا في لندن.

رسمتُ الصبيين على عجالة فيما أستمع إلى حماستهما وأقدّم الاقتراحات. كنتُ على وشك الانتهاء من الرسم عندما أقبلَت اليرقات.

لُقّبت باليرقات لشكلها القبيح، وهي مركباتٌ بين الدبابة والشاحنة. إنّها مركبات ضخمة، مسلّحة ومدرعة، تسير على جميع التضاريس، بخاصية الدفع الرباعي. يستخدمها رجال الشرطة الخاصون والجنود، كما يقودها الأثرياء كسيارات خصوصية. بإمكان اليرقات بلوغ أيّ مكان، تصعد، وتستدير، وتقتحم أي شيء تقريباً. يمتلك أهالي هالستيد مركبة من هذا النوع. يأتون بها أحياناً لأخذ بانكول. تمتلك العديد من البلدات المحلية الصغيرة مركبةً أو اثنتين

يقودها رجال الشرطة أو تُستخدم لعمليات البحث والإنقاذ بين التلال. لكنها مُستهلِكة شرهة للوقود -ويكلّف تشغيلها ثمناً باهضاً.

أتت ذلك اليوم سبع يرقات زاحفة من اتجاه التلال واجتازت سياجنا الشائك متّجهة نحونا. لم نتلقّ أي تحذير من المناوبين على الحراسة، إطلاقاً. كانت هذه أول فكرة خطرت في بالي عندما رأيت اليرقات قادمة: أين ذهب لوسيو فيغارو ونوريكو كاردوس؟ لماذا لم يحذّرانا؟ هل هما بخير؟

سبع يرقات! هذه قوّة نارية تساوي ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يمكننا حشده حتّى إذا واجهناها بكل أسلحتنا. على أيّة حال، لا تمتلك أسلحة الشاحنة إلّا أدنى فرصة لإيقاف يرقة.

سبع يرقات لعينات!

قلتُ للصبيين: «عودا إلى المنزل. أخبرا أباكما واخواتكما أن يغادروا على وجه السرعة. هذا ليس تمرين طوارئ. إنه حقيقي! اذهبا، بسرعة وهدوء! هيّا!».

ركض الصبيان.

تناولتُ هاتفي من جيبي وأرسلت إيعاز الإخلاء. نحن نقوم بتمارين «الإخلاء» في حالات الطوارئ. دعاها بانكول بذلك، وانتشر الاسم. كنت أراها كتمارين للـ «تواري بين التلال». والآن نحن نواجه خطراً حقيقياً. لا بدّ من أنه حقيقي. لا أحد يستقل سبع يرقات مسلّحة ومدرعة بهدف القيام بزيارة ودّية.

حملتُ ابنتِي لاركِن وركضتُ صوب التلال بأسرع ما يمكنني. حاولت أن أُبقي بناية المدرسة كفاصل بيني وبين أقرب يرقة. كان تقدّمهم نحونا أشبه بتشكيل عسكريّ. كان بوسعهم سحقنا، إطلاق النار علينا، فعل كلّ ما يحلو لهم فعله. الشيء الوحيد الذي بمقدورنا وليس بمقدورهم فعله هو التواري بين التلال. ولكن هل يمكننا ذلك؟ إذا قبعنا ساكنين في أماكننا ستكتشفنا الأجهزة الحسيّة في اليرقات. وإذا فررنا لن تحمينا الصخور والأشجار والشجيرات الشوكية من أسلحة اليرقات. ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل غير الهرب؟ لا فائدة من إطلاقنا النار ما لم يخرج أحدٌ من اليرقات.

أين ذهب بانكول؟ لا أعرف. حسناً، لقد اتفقنا على نقاط تجمّع. سنجد بعضنا البعض. المهم عدم إضاعة الوقت في البحث عن الأقارب. من خلال التدريبات تعلّم الجميع باستثناء الأطفال أن إصدار الأمر بالهرب يعني بالضبط «اهربوا. الآن!».

ينبغي علينا الانتشار في كلّ الاتجاهات. لا يجب أن يتبع أحد الآخر، ولا يجدر بنا التجمع في مجموعات، كي لا نمنح أعداءنا أهدافاً كبيرة وسهلة. وينبغي علينا قدر ما يمكننا أن نُبقي الأشجار والتضاريس الجغرافية حائلاً بيننا وبين العدو.

ولكن ماذا نفعل إذا كان العدو منتشراً في كلّ مكان؟

عندها أطلقَت اليرقات السبع النار في نفس اللحظة. استغرق الأمر منّي بعض الوقت لأدرك أنهم لم يطلقوا الرصاص، ممّا يعني أنّنا ربما لم نكن معرّضين للموت. كانوا يطلقون قنابل الغاز. تابعتُ

الجري، آملةً أن يفعل الآخرون المثل. لم تكُن خلف الغاز الذي أطلقوه، أياً كان نوعه، نيّةٌ حسنة.

اجتزت بستان السنديان اليافع، الذي كان مقبرتنا، باتجاه ثنية في أحد التلال أمّلت أن تحميني وتهيّء لي طريقاً أسهل لعبور التلّ الأول.

عندها سقطَت قذيفة أمامي. وبدأت تنفث الغاز قبل أن تحطّ على الأرض.

ثم لم تقوَ ساقاي على حملي. كنتُ أجري. ثم خارت قواي. كلّ ما قدرت على فعله هو أن أتدبّر أمري بحيث لا أسقط على طفلتي. سمعتُها تبكي- كان أنيناً مرتعشاً رقيقاً لا يُشبه صوت لاركِن. لا أعتقد أنني صرخت. أعرف أنني لم أفقد الوعي قطّ. كان غازاً فظيعاً. لا أعرف اسمه حتّى اليوم. لقد سلبني قدرتي على الحركة، لكنّه تركني واعية تماماً، قادرة على السمع والنظر، رأيت جماعتي يُنتشلون كالخشب العائم، رأيتُ رجالاً يرتدون زياً موحّداً يسحلونهم أو يحملونهم.

أقبل أحدُهم صوبي، انحنى، أخذ لاركِن مني. لم أستطع تحريك رأسي لأرى ماذا فعل بها. لم أستطع المقاومة أو الاعتراض أو التوسّل. عجزتُ حتّى عن الصراخ.

ثم أتى شخصٌ آخر وأمسكني من قدميّ وجرجرني على الأرض نزولاً عن التلّ إلى المدرسة. كنت أرتدي قميصاً قطنياً

خفيفاً، لذا شعرتُ بظهري وهو يُكشط فوق الصخور والحشائش. أحسست بالضغط- الخبط والرجّ. لم يؤلمني الأمر ساعتها، لكنني عرفت أنه سيؤلمني في ما بعد. حُمل أو سُحل كلّ البالغين واليافعين إلى المدرسة. رأيت الكثيرين منهم مطروحين على الأرض حيثما ألقى بهم آسرونا. لكنني لم أرَ الأطفال.

لم أرَ ابنتِي لاركِن.

ثم سمعتُ دويّ إطلاقات نارية في الخارج. أتى الصوت من الجهة الجنوبية للمدرسة، من مكان قريب. بدا كصوت أسلحة شاحنتنا القديمة. ربما وصل أحدنا إلى الشاحنة وحاول استخدامها كما فعلنا أنا وبانكول وهاري سابقاً عندما عاد دان ونينا نوير إلى المنزل. لكن ذلك كان بلا طائل. لأن شاحنتنا المنزلية القديمة لا تضاهي ولا حتّى يرقة واحدة. ثم سمعتُ دويّ انفجار هائل. بعدها ساد الصمت.

ماذا حدث؟ هل الأطفال بخير؟ الجهل عذاب شديد. والعجز التام أشدّ تعذيباً. أستطيع التنفس. أستطيع هزّ ذراع أو ساق. أستطيع أن أرمش. ولكن لا شيء أكثر من ذلك.

ثم بدأتُ أنشج.

بعد فترة أتى رجل يرتدي الزيّ الموحّد لهذا اليوم- سروالاً أسود ورداءً أسود بحزام، على الجهة الأمامية من القميص صليبٌ أبيض. فعل الرجل بنا شيئاً ما، بكل واحد منا. لم أتبيّن ماذا كان

يفعل إلى أن وصل إلي، فكّ ثلاثة أزرار من قميصي، رفع رأسي، وشدّ طوق رقيقٍ حول عنقي.

كان الأمر بهذه البساطة. لقد استولوا على أيكورن. اسمها الآن (المعسكر المسيحيّ). لم نتمكّن نحن الأسرى من فعل أي شيء سوى أن نرتعش، أن نرمش، أن نئنّ لأكثر من ساعة. وهذا وقتٌ كافٍ لوضع الأطواق حول أعناقنا جميعاً.

لم يضَع أحدٌ طوقاً حول عنق غراي مورا. لقد كان عبداً في وقتٍ سابق من حياته. لم يلبس طوقاً قط، لكنه قضى فترة طفولته وشبابه في ملكية أشخاص لم يعاملوه أفضل ممّا يعاملون مواشيهم. أخذوا منه زوجته وباعوها لرجل ثريّ رآها سابقاً ورغب فيها. بحسب وصف غراي، كانت امرأة قصيرة، نحيفة، جميلة جداً، وحصلوا على سعر جيّد مقابلها. استغلها مالكها الجديد جنسياً، ثم قتلها عمداً أو خطأً بطريقة ما. عندما سمع غراي بما حصل أخذ ابنته دو وفرّا من المكان. لم يخبرنا كيف تمكّن من الفرار. لطالما افترضتُ أنه قتَل واحداً أو أكثر من أسياده، وسرق ممتلكاتهم، وهرب. هذا ما كنتُ سأفعله لو كنتُ في مكانه.

ولكن ما من فرار هذه المرة. بيد أن غراي لن يقبل أن يكون عبداً ثانية.

عرفتُ لاحقاً أنه وصل إلى الشاحنة، أقفل على نفسهِ داخلها، وأطلق النار على بعض اليرقات. أصيبت ببعض الأضرار الطفيفة. ولكن عندما بدأت اليرقات بإطلاق النار عليه وفجّرت دروع

الشاحنة، قاد الشاحنة نحو إحدى اليرقات. صدمها. ووقع انفجارٌ. لا ينبغي أن يقع أيّ انفجار.

الشاحنة آمنة. لن تنفجر ما لم يكن ذلك مقصوداً- إلا إذا كانت اليرقة هي التي انفجرت. لا أعرف على وجه اليقين. ولكن بحسب معرفتي بغراي، أظن أنه فعل شيئاً ما يسبب الانفجار. أعتقد أنه اختار الموت.

لقد مات.

لا أصدّق أن أيّاً ممّا حدث حقيقيّ. أعني... لا بدّ من وجود طريقة مختلفة للكتابة عن هذه الأحداث- طريقة يمكن من خلالها على الأقل التعبير عن الجنون والألم، الألم الفظيع الذي تسبّب به الأمر. لطالما كانت أيكورن مليئة بالقصص الشنيعة. كلّ شخص بالغ من أفراد أيكورن عنده قصة شنيعة. لكننا اجتمعنا، عشنا معاً، ساعَدنا بعضنا البعض، نجونا، ازدهرنا، لقد فعلنا ذلك! فعلنا كلّ ذلك! لقد بنينا بيتاً صالحاً يسعُنا كلنا، وعملنا لكسب لقمة عيشنا. والآن يأتي أشخاص يرتدون الصلبان ليضعوا أطواق العبيد حول أعناقنا.

وأين طفلتي؟ أين لاركِن؟

لقد فصلوا النساء والبنات عن الرجال والأولاد عندما كنّا مشلولين. حبسوا الرجال في الغرفة الكبيرة من المدرسة وجرجرونا نحن النساء إلى واحدة من الغرف الصغيرة. لم أُمعن التفكير بالأمر

وقتها، لكنه أمرٌ غريب، نظراً لأن عدد النساء في مجتمعنا أكبر من الرجال. أُلقي بنا على الأرضية الخشبية، بعضنا فوق بعض، وتُركنا في المكان. كانت النوافذ مفتوحة. وأتذكّر أنني فكّرت أنه من الغريب ألّا يكلّف أحدٌ منهم نفسه عناء تغطيتها بالألواح أو حتّى إقفالها.

الشيء الوحيد الجيد في هذا كلّه هو أنني رأيتُ بانكول عندما كنتُ نصف محمولة ونصف مسحولة. لا أعتقد أنه رآني. كان ممدّداً على الأرض، محدقاً إلى الأعلى، واضعاً يده المدمّاة المكشوطة على صدره. رأيته يطرفُ بعينيه. لقد رأيت ذلك، لذا أعرف أنه لا يزال حياً. ليته نجح بالفرار، كان على الأرجح سيجد طريقة ما لمساعدة بقيتنا. وأيضاً، ماذا يفعل آسرونا برجل في مثل سنه؟ هل يكترثون بكونه رجلاً مسنّاً؟ كلّا. واضح من الهيئة التي بدا عليها أنهم جرجروه على الأرض مثلي. إنهم لا يكترثون.

هل يكترثون أن حبيبتي لاركِن مجرد رضيعة؟ وأين هي؟ أين هي؟

كنت أرتعبُ في كلّ مرّة يقترب أحدهم مني. كلّ آسرينا شباب، ورأيت اثنين أو ثلاثة منهم غاضبين وتغطيهم الدماء. لم أعلم وقتها أن هذا بسبب غراي. لم أعلم أي شيء. كلّ ما فكّرت فيه هو لاركِن، وبانكول، وجماعتي، وطوق العبيد اللعين حول عنقي.

مع غروب الشمس بدأ جسدي يؤلمني- شعرتُ بألمٍ حارق في ظهري وذراعيّ ويديّ في الأماكن التي كُشطت بالأرض عندما

جرجروني. شعرتُ بألم وثقل في رأسي. وأصبت بصداع شديد نابض ربما له علاقة بالغاز.

كان الظلام قد حلّ عندما بدأتُ بمحاولة التحرّك. كان كلّ ما قدرت على فعله لفترة طويلة هو التخبط على الأرض بعض الشيء. ثم شرعَت إحدى النساء بالأنين. وشرعَت أخرى بالنحيب. بينما شهقَت أخرى، ثم اختنقَت، ثم سعلَت. صاحت أخرى مراراً وتكراراً «آه، اللعنة!»، وميّزتُ صوتها، كانت آلي غيلكريست.

«آلي؟»، قلتُ متلعثمة. بدوتُ ثملة. لكنها سمعتني.

قالت: «أولامينا؟».

قلتُ: «نعم».

قالت: «هل رأيتِ جاستن قبل أن يجرجروك إلى هنا؟».

قلتُ: «كلا. آسفة. وهل رأيتِ لاركِن؟».

قالت: «كلا. آسفة».

قالت أديلا أورتيز بصوت مبحوح: «لقد أخذو ابني أيضاً. لقد أخذوه. ولا أعرف أين هو». ثم شرعَت بالبكاء.

راودتني الرغبة بالبكاء أنا أيضاً. أردتُ أن أستلقي على الأرض وأبكي، لأنني كنت متوجّعة للغاية. شعرتُ أيضاً أنني واهنة ومشوّشة بحيث لم أرغب بفعل شيء غير البكاء. بدلاً من ذلك، نهضتُ، ارتطمت بإحداهن، واعتذرتُ، جلستُ بغباء لفترة، ثم

لململتُ شتات عقلي وقلتُ أخيراً: «مَن هنا أيضاً؟ قلن أسماءكن واحدة تلو الأخرى!».

«نوريكو»، قال صوت على جانبي الأيسر. تابعَت: «لقد أخذوا ديبورا وميليسا. حملتُ ميليسا وحمل مايكل ديبورا. كنّا نركض. ظننت أنّنا سننجح بالهرب. ثم ضربونا بذلك الغاز اللعين. سقطنا على الأرض، ثم جاء أحدهم وأخذ الفتاتين منا. لم أستطع رؤية شيء غير أيادٍ تمتدّ وتحملها».

«وأطفالي»، قالت إيميري مورا. «أطفالي...»، كانت تبكي، وحديثها غير مفهوم تقريباً، قالت: «أولادي. أبنائي. أخذوا أبنائي ثانية. ثانية!». كان عندها صبيّان صغيران عندما كانت أَمَةً قبل سنوات، وأُخذا منها ثم بيعا. كانت أَمَة ديونٍ- شخصٌ يعمل بالسخرة قانونياً لتسديد ديون أهلها. تراكمت الديون لأنها عملت في شركة تجارية زراعية تدفع لموظفيها أجوراً زهيدة على هيئة قسائم شراء خاصة بالشركة بدلاً من النقود، ثم يفرضون عليهم أسعاراً عالية مقابل الطعام والسكن لكي تظل الديون تتراكم عليهم باستمرار. من غير القانوني أن تقوم الشركات بتفكيك الأُسر من خلال بيع أطفالهم القاصرين بعيداً عن آبائهم أو بيع الزوجات بعيداً عن أزواجهن. يُعدّ هذا خرقاً للقانون المحلي والفيدرالي، لذا ما كان ينبغي أن يحدث ذلك. مثلما لا ينبغي حدوث ما هو قائمٌ الآن.

فكّرت في ابنة إيميري الكُبرى وابنة زوجها. قلتُ: «ماذا عن توري ودو؟ هل هما هنا؟»، ناديتُ: «توري؟ دو؟».

لم يُجِب أحدٌ في البداية. ثم فكّرتُ في نينا وباولا نوير. لم أرغب في التفكير بهما، لكن دو وتوري مورا تبلغان من العمر أربعة عشر وخمسة عشر عاماً- ليستا بعمر الطفولة. إذا لم تكونا هنا، فأين هما؟

ثم قال صوتٌ صغير: «أنا هنا. ابتعدي عني».

وقال صوتٌ أقوى: «أنا أحاول الابتعاد عنكِ. لا يوجد مجال. بالكاد أتحرّك».

إنهما توري ودو، وكلتاهما على قيد الحياة. كلّنا على قيد الحياة. أغمضتُ عينيّ وأخذتُ نفساً طويلاً وعميقاً وممتنّاً. سألتُ: «أين نينا نوير؟».

حاولَت أن تُجيب، لكن نوبة سعال منعَتها. ثم قالت أخيراً: «أنا هنا. ولكن أُختيّ الصغيرتين... لا أعرف ماذا حدث لأُختيّ».

ناديتُ: «ميرسي؟ كاسي؟».

لا ردّ.

ثم ناديتُ: «ماي؟».

لا ردّ. لم يكن بمقدورها الكلام، ولكنّها كانت ستُصدر ضجة لتُعلمنا أنّها هنا.

قالت آلي: «كان معها كاسيا وميرسي. إنّها قويّة وسريعة. ربما تمكّنَت من إنقاذهما. لقد أحبَّتهما كما لو أنّها هي التي أنجبَتهما».

تنهّدتُ. ناديتُ: «أوبري دوفيتري؟».

أجابت: «أنا هنا. لكني لم أجد زوي ولا أياً من الأطفال... كانوا مع زوي ثلاثتهم».

فكّرتُ، زوي مصابةٌ بمرض قلبي. ربما تكون ميتة حتّى لو لم يقصد أحد قتلها. تابعتُ عدّ الأسماء لأنني لم أعرف ماذا أفعل سوى ذلك، ناديتُ: «مارتا فيغارو؟».

همسَت: «نعم. نعم. أنا هنا. وحدي.. أخي.. أطفالي.. رحلوا».

ناديتُ: «دايموند سكوت؟ كريستينا شو؟».

«هنا»، أجابني صوتان في نفس الوقت. واحد بالإنجليزية والآخر بالإسبانية. لقد تحسّنت إنجليزية كريستينا، لكنها ما زالت تلجأ إلى الاسبانية عندما تتعرض للضغط.

ناديتُ: «بياتريس سكولاري؟ كاثرين سكولاري؟».

«نحن هنا»، أجابتني كاثرين سكولاري. بدت كأنها كانت تبكي. قالت: «لقد مات فينِسنت. سقط وضرب رأسُه بصخرة. سمعتهم يقولون إنه مات». كان فينِسنت زوجها وشقيق بياتريس. لقد فقد ذراعه بسبب حادث وقع قبل أن ينضمّ إلينا. لذا ربما كان أكثر واحد فينا معرضاً للإصابة بخلل في التوازن عندما سقط بسبب الغاز. مع ذلك...

قلتُ: «ربما لم يمُت».

قالت: «لقد مات. لقد رأيناه...». ثم تعالت أصوات البكاء في كلّ مكان. لم أعرف ماذا أقول لهن. كلّ ما فكّرت به هو ربما تكون

لاركِن ميتة أيضاً. وماذا عن بانكول؟ لم أرغب في التفكير بالموت. لم أرغب في التفكير على الإطلاق.

قلت: «شانا رايان؟».

أجابت: «أنا هنا. ربّاه. أتمنى لو أنني لستُ هنا».

قلتُ: «بيث فيركلوث؟ جيسيكا فيركلوث؟».

ما من ردّ في البداية، ثم أجاب صوت مهموس لا يكاد يُسمع: «نحن هنا. كلانا هنا».

قلت: «ناتيفيداد؟ زهرا؟».

قالت ناتيفيداد بالإسبانية: «أنا هنا. إذا قاموا بإيذاء أطفالي فسأذبحهم. سأقتلهم جميعاً. لا يهمني ماذا سيفعلون بي». ثم شرعت بالبكاء. إنّها امرأة قويّة، لكن أطفالها كلّ حياتها. عندها زوج وثلاثة أطفال. والآن أُخذوا جميعهم منها.

قلتُ: «لقد أخذوا كلّ أطفالنا. يجب أن نعرف أين حبسوهم ومن يحرسهم... وماذا سيفعلون بهم». تحرّكتُ لعلي أجلس براحة أكثر، لكن هذا كان مستحيلاً. قلتُ: «يجب أن أرضع حبيبتي لاركِن الآن. الآن. علينا أن نعرف ماذا يحدث».

قالت مارتا فيغارو بصوت أشبه بالأنين: «لقد وضعوا أطواق العبيد حول أعناقنا. أخذوا أطفالنا ورجالنا، ووضعوا أطواق العبيد حول أعناقنا! ماذا نحتاج أن نعرف أكثر من ذلك بحق الجحيم!».

أجبتُ: «يجب أن نعرف قدر ما يمكننا. إنهم لا يقتلوننا. مع أن بإمكانهم القضاء علينا. لقد فصلونا عن الرجال والأولاد الكِبار، لكننا ما زلنا أحياء. يجب أن نجد طريقة لاستعادة أطفالنا. يجب أن نكون على استعداد لفعل أي شيء من أجل استعادة أطفالنا، يجب علينا ذلك!». شعرتُ بنفسي أنجرُّ للهستيريا، والنحيب والصراخ. تشنّج جسدي. سال الحليب من ثدييّ وبلل القميص، وتوجّعتُ بشدة.

انقضت فترة طويلة بصمت. ثم همَسَت تيريزا لين، التي لم تتحدّث من قبل: «تلك النافذة مفتوحة. يمكنني رؤية النجوم منها».

«هل وضعوا طوقاً حول عنقكِ؟»، سمعتُ نفسي أطرح السؤال. بدوتُ طبيعية تقريباً. كان صوتي ناعماً ومنخفضاً.

قالت: «هل تعنين هذا الشيء العريض المسطح؟ نعم، لقد وضعوه حول عنقي. لكن النافذة مفتوحة! وسأخرج من هنا!». ثم بدأت تتدافع بين النساء باتجاه النافذة. ندّت عن إحداهن صيحة ألم. بينما شتمتها أُخريات.

قلتُ: «انبطحن جميعاً على الأرض! وجوهكن للأسفل!».

لم أرَ من أطاعتني منهن. أملتُ أن تطيعني كلّ المتقمّصات. لم أعرف ماذا سيفعل الطوق بتيريزا عندما تحاول أن تخرج من النافذة. ربما كان مزيفاً. ربما لن يفعل شيئاً. وربما سيقطع أنفاسها. ربما سيجعلها تنهار، ويسبب لها ألماً فظيعاً.

قفزَت من النافذة. إنّها امرأة نحيلة وسريعة ورشيقة كصبيّ. نظرتُ ورأيتها تنحني من النافذة وكأنها توقّعت أن تحطّ على شيء رخو أو على الماء.

ثم بدأت تصرخ وتصرخ وتصرخ. نهضت آلي غيلكريست وتقدّمت نحو النافذة وتطلّعت منها لترى ماذا حدث لها. ثم حاولت النزول من النافذة لمساعدة تيريزا. ما أن لمست آلي النافذة حتّى صرخَت وسقطَت على أرضية الغرفة التي سجنونا فيها. تكوّرَت آلي على نفسها قبالتي، ونخرَت عدّة مرّات- نخيراً عالياً ومتوجّعاً. أشحتُ بوجهي لكن ألمها بدأ يعصر أحشائي. ما أسعفني هو أنني لم أستطع رؤية تيريزا بعدما سقطَت تحت مستوى النافذة، لكنني حصلتُ على نصيبي من ألمها أيضاً.

ظلّت تيريزا تصرخ وتصرخ في الخارج.

قالت آلي وهي لا تزال تلهث: «لا أحد في الخارج. إنّها ممددة على الأرض، تصرخ وتتلوى. حتّى أنه لم يخرج أحد ليرى ماذا يحصل».

ظلّت ممددة في مكانها طوال الليل. لم نستطع مساعدتها. تراجع صوتها من صرخات عالية ملء الحنجرة، كالصرخات التي نطلقها من الخوف أو الألم، ثم إلى نخرات مبحوحة فظيعة. لم تفقد الوعي- أو بالأحرى فقدت وعيها لكنها ظلّت تستيقظ مراراً وتكراراً وتصدر هذه الأصوات الفظيعة.

الاقتراب من الباب يعني الألم. الاقتراب من النافذة يعني

الألم. حتّى لو لم تحاول الخروج، مجرد وجودك بالقرب من الباب أو النافذة يعني الألم، ألماً فظيعاً. تطوّعَت دايموند سكوت للزحف حول الأرضية، لكي تترك طوقها يُخبرها ما هي الحدود المحظورة. اشتكت النساء عندما زحفَت فوقهن، لكنني طلبت منهن التحمل، فاعتذرَت داي، وتوقفت الشكاوى. ما زلنا بشراً متحضّرين. وتساءلت كم سيدوم هذا.

صرخَت داي: «أحدهم هنا! إنّها جثة!».

أوه، لا... أوه، لا.

سألتُ: «مَن؟».

قالت: «لا أعرف. إنّها باردة. ليست باردة تماماً... لكني متأكدة أنّها ماتت».

تبعتُ صوت داي، ورأيتُ ظلّها، كان شكلاً معتماً في الظلام. كانت تتحرّك أكثر من الأخريات، مبتعدة عن الجسد الذي كانت متأكدة من أنه ميت.

جثة مَن هذهِ؟

ثم زحفتُ باتجاه الجثة، حاولتُ التزام الحذر، حاولتُ ألا أؤذي أحداً. راودني إحساس، ذكرى. خفتُ لأنني عرفتُ من هذهِ.

كانت الجثة ممددةً في الزاوية، مستندة على الحائط. كانت ضئيلة الحجم كطفل. كانت جثة امرأة سوداء. بشعر وأنف وفم امرأة سوداء، لكنها ضئيلة الحجم جداً...

قلتُ: «زهرا!».

لم تُجب عندما ناديتُ اسمها سابقاً. لقد كانت امرأة صغيرة وجريئة وصريحة، وما كانت ستظل صامتة طوال هذا الوقت. كانت ستحاول الخروج من النافذة قبل تيريزا المسكينة... لو كان ذلك بإمكانها.

لقد ماتت. لم تتيبّس جثتها بعد، لكنها ستتيبّس عمّا قريب. كانت باردة. لا تتنفس. أخذتُ يديها الصغيرتين بين يديّ وشعرتُ بالخاتم الذي بذل هاري قصارى جهده لكي يشتريه لها. هاري رجلٌ تقليدي بالرغم من أنه في نفس عمري. أراد أن ترتدي زوجته خاتمه كي لا يرتكب أحدٌ أي خطأ. سابقاً، عندما كانت زهرا أجمل امرأة في حيّنا روبليدو، كانت بعيدة المنال بالنسبة إليه، ومتزوّجة من رجل آخر. ولكن عندما مات ذلك الرجل ورأى هاري فرصة سانحة، تقدّم فوراً. كانا مختلِفين جداً- سوداء وأبيض، قصيرة وطويل، تربية شوارع وتربية طبقة متوسطة. كانت أكبر منه بثلاث أو أربع سنوات. لكن كلّ هذا لم يهمّ. لقد كان زواجهما ناجحاً.

لقد ماتت.

وأين أطفالها؟ ثم خطرت على بالي فكرة مفاجئة ومروّعة. تحسست لعلّي أجد جروحاً في جسدها، وجدتُ خدوشاً ودماً يابساً، ولكني لم أعثر على جرح طلقٍ ناري، لم يكن في رأسها مكانٌ طريّ وفظيع. لقد جاؤوا بها معنا. من المرجح أنّها كانت لا تزال على قيد الحياة عندما جاؤوا بها. وإلا ألن يلاحظ آسرونا أنّها ميتة؟

لقد ألقوا بنا كلنا في هذه الغرفة ووضعوا الأطواق حول أعناقنا كلنا في الدقائق القليلة نفسها.

لم يأتِ أحد منهم بعدها.

إذن، ربما كان الغاز الذي استخدموه ضدّنا هو السبب. هل يمكن أنه قتلها؟ كانت أضأل البالغين حجماً في المجتمع، أضأل حتّى من نينا ودو وتوري. هل يحتمل أن الغاز كان أشدّ من قدرة جسدها الصغير على الاحتمال، وأدّى ذلك لمقتلها؟

وإذا كان ذلك صحيحاً، ماذا عن أطفالنا؟

لقد مرّ الوقتُ بطريقة ما. جلستُ جامدة إلى جانب جثة صديقتي، لم أستطع التفكير أو الكلام. بكيتُ. بكيتُ من الحزن والرعب والغضب. أخبروني في ما بعد أنني لم أُصدر أي صوت إطلاقاً، لكني بكيت بيني وبين نفسي. صرختُ مع تيريزا في داخلي، وبكيتُ وبكيت وبكيت.

بعد فترة، تمددتُ على الأرض، وأنا أبكي، ولكن من دون صوت. سمعتُ أنين الناس وبكاءهم ولعناتهم وأحاديثهم، لكني لم أفهم كلماتهم. كأنها بلغة أجنبية. لم أفكّر بشيء سوى أنني أرغب بالموت. إن كلّ شيء كافحتُ لأبنيَه ضاع أو سُلب أو مات، وأردت أن أموت أنا أيضاً. ماتت ابنتِي. لا بدّ من ذلك. لو كان بوسعي قتلُ نفسي ساعتها، لفعلتها. وكنتُ سأُسعد بذلك. ثم استيقظتُ، ورأيت ضوء النهار المتدفّق من النافذة. لقد نمتُ. كيف قدرتُ على النوم؟

استيقظتُ ووجدتُ رأسي في حجر إحداهنّ. حجر ناتيفيداد. جاءت لتجلس قرب جثة زهرا. رفعَت رأسي من الأرض ووضعَته في حجرها. جلستُ، أطرف بعينيّ وأنظر حولي. ما زالت ناتيفيداد نائمة، لكنني أيقظتها عندما تحرّكت. نظرَت إليّ، ثم إلى جثة زهرا، ثم إليّ ثانية، كأنّها بدأت ترى العالم بوضوح ثانية، وكان كربها يزداد بمرور الثواني. اغرورقت عيناها بالدموع. عانقتها لوقتٍ طويل ثم قبّلتها على وجنتها.

غصّت الغرفة بالنساء والبنات النائمات. أحصيتُ تسع عشرة امرأة بضمني... من دون زهرا وتيريزا. كنّ جميعهن متّسخات وتغطيهنّ الخدوش والجروح، وقد نِمنَ بكل الوضعيات الممكنة، تمددت بعضهن وحيدات على الأرض، ونامت أخريات في أزواج أو مجاميع، وقد توسّدَت كلّ واحدة كتف أوساق أو حجر الأخرى.

آلمني صدري وسال منه الحليب وشعرت بالغثيان. كنت بحاجة لاستخدام الحمام. أردتُ طفلتي، وزوجي، وبيتي. كانت جثة زهرا بجانبي، باردةً ومتيبّسة، بعينين مغمضتين، بدا وجهها جميلاً ومسالماً، عدا لونه الرمادي.

وقفتُ، اجتزتُ بعض النساء فيما بدأن يستيقظن. توجّهت إلى زاوية فارغة كنتُ أعرف أنّها تحتاج للترميم. فقد تسبب زلزال طفيف وقع قبل بضعة أشهر بإحداث شرخٍ صغير بين الحائط والأرضية في تلك الزاوية. لم يكن الشرخ بادياً للعيان، لكن النمل

كان يخرج منه، والماء يتسرب إلى الخارج إذا ما سُكب بالقرب من المكان. وعدني غراي بترميمه، لكنه لم يفعل.

أبعدتُ النساء القريبات من المكان- أخبرتهنّ بالسبب. أومَأن ولم يعترضن. لم أكن الوحيدة بمثانة ممتلئة. قرفصتُ هناك وتبوّلت. عندما انتهيت، أتت أُخريات بعدي وحذَون حذوي.

«هل ما زالت تيريزا هناك؟»، سألتُ دايموند سكوت التي كانت الأقرب إلى النافذة.

أومأَت داي وقالت: «لقد فقدَت الوعي... أو ربما ماتت». بدا صوتها نفسه ميتاً.

قالت دو مورا: «أنا جائعة جداً».

قالت توري: «دعكِ من الجوع. لو كان بإمكاني الحصول على شربة ماء فقط!».

قلت لهما: «صه! لا تتحدّثا عن ذلك. سيتفاقم شعوركما بالحديث. هل رأت أحداكن أيّاً من آسرينا هذا الصباح؟».

قالت دايموند سكوت: «إنهم يبنون سوراً. يمكنكِ الوقوف بعيداً عن النافذة ورؤيتهم. إنهم يبنون سوراً بالرغم من الأطواق التي وضعوها حول أعناقنا».

تطلّعتُ من النافذة ورأيت البرقات تنسج أسلاكاً خلف بيوتنا أعلى المنحدر. وبينما كنت أنظر بدأَت بهدم مقبرتنا وسحقِ الأشجار اليانعة التي زرعناها تكريماً لأمواتنا. البرقات اسم على مسمى. كانت

بالفعل مثل يرقات حشرات ضخمة، تنسج شرنقة هائلة خانقة. هذا يعني أن آسرينا ينوون الاحتفاظ بأرضنا. لم يخطر هذا على بالي إلى هذه اللحظة. لم يأتوا للسلب والحرق والاستعباد والقتل فقط. هذا ما اعتاد فعله البلطجية في الماضي. هذا ما فعلوه في حيّي القديم روبليدو، وفي حيّ بانكول القديم سان دييغو، وأماكن أخرى. الكثير من الأماكن الأخرى. لكن هؤلاء باقون، ويبنون سوراً. لماذا؟

قلت: «انصتن!».

لم تعبأ معظم النساء في الغرفة بشأني. كن مستغرقاتٍ في مآسيهنّ أو بالنظر إلى اليرقات.

جمعتُ قدر ما يمكنني من الحزم وقلت: «انصتنَ! هناك أشياء يجب علينا الحديث بشأنها».

نظرن أغلبهنّ نحوي. بينما تابعَت نينا نوير وإيميري مورا التحديق من النافذة.

«انصتن!»، قلت ثانية، وقد رغبت بالصراخ لكنني لم أجرؤ. «سيأتي آسرونا عاجلاً أم آجلاً. ويجب أن نستعدّ لمجيئهم. نستعد بقدر ما نستطيع». توقّفتُ عن الكلام. أخذتُ نفساً عميقاً، ورأيت أنهن بدَأن ينظرن إليّ الآن، كلّهن مصغيات.

تابعتُ: «علينا التظاهر بالانصياع لهم قدر الإمكان. علينا إطاعتهم ومراقبتهم، نعرف من هم وماذا يريدون، وأين مواطن ضعفهم!».

نظرن إليّ كما لو أنني فقدتُ عقلي أو أنهنّ سعيدات ومتفائلات بسماعي وأنا أقول إن آسرينا ربما وعسى عندهم مواطن ضعف.

قلتُ: «قد يكون كلّ ما يقولونه لنا كذب. على الأرجح. لذا على كلّ من تسنح لها الفرصة أن تتجسّس وتسترق السمع وتشارك المعلومات التي تحصل عليها مع البقية. يمكننا الهرب منهم أو قتلهم إذا عرفناهم وتشاركنا مع بعضنا ما نعرفه. وأيضاً، تحرّين عن الأطواق. حتّى أقل معلومة قد تساعدنا. وأهم شيء، تحرّين عن الأطفال».

قالت أديلا وهي ترتعش: «سيغتصبوننا. تعلمين أنهم سيفعلون». كانت تعلم ذلك- هي التي تعرّضت للاغتصاب كثيراً. هي ونينا وآلي وإيميري. كان الحظ حليف بقيّتنا -حتى الآن. لكن الحظ تخلّى عنا الآن. وينبغي علينا أن نتكيّف مع الأمر بطريقة ما.

قلتُ: «لا أعرف. كان بوسعهم اغتصابنا ولم يفعلوا. ولكن... أعتقد أنّكِ على صواب. الرجال يغتصبون عندما يتمتعون بقوة مطلقة على نساء غريبات. ونحن نلبس الأطواق». ألقيت نظرة على النافذة التي دفع الذعر بتيريزا إلى إلقاء نفسها منها. ثم تابعتُ: «إذا قرر أحدهم اغتصابنا فلن نستطيع منعه». سكتُّ برهة ثم قلتُ: «أعتقد... إذا لم تستطعن إقناع رجل بالعدول عن اغتصابكن بالكلام، أو التوسل، أو البكاء، أو الاستعطاف، أو خداعه بالقول إنكن مصابات بمرض ما، إذن يجب عليكن تحمّل الوضع». سكتُّ هنيهة، شعرتُ بالغباء والتقصير. لستُ أهلاً لتقديم مثل هذه النصائح

لهؤلاء النساء. أنا التي لم تُغتصب قطّ لا أملك الحق في إخبارهن أي شيء. لكنني مع ذلك فعلت. قلتُ: «تحمّلن! لا تجازفن بحيواتكن. حتّى لا ينتهي بكنّ المطاف مثل تيريزا. تقصّين عن كلّ شيء يخصّ هؤلاء الرجال، وشاركن ما تتوصّلن إليه مع بقيّتنا. حتّى أغبى وأقبح الأشياء التي يقولونها ويفعلونها قد تكون مهمة. قد تُخفي وعودهم الكاذبة الحقيقة. إذا جمعنا كلّ المعلومات التي نراها ونسمعها، إذا حافظنا على وحدتنا، وعملنا معاً، وساندنا بعضنا البعض، عندها سيأتي وقتٌ نكسب فيه حرّيتنا أو نقتلهم أو كلا الأمرين!».

ساد الصمت طويلاً وهنّ محدّقات بي. ثم شرعَت إحداهن بالبكاء. كانت نينا نوير. قالت والدموع على وجنتيها: «كان يُفترض أن أكون حرّة. كان يفترض أن ينتهي كلّ هذا. لقد مات أخي في سبيل تحريري».

شعرتُ فجأة بالعار. كلّ ما رغبتُ بفعله هو الاستلقاء على الأرض والتكوّر حول ضعفي وثدييّ المؤلَمين لأصرخ وأصرخ. لكني لا أستطيع. لا أستطيع السماح لنفسي بخذلان ناسي بطريقة بائسة أخرى.

وهؤلاء ناسي- ناسي. لقد وثقنَ بي، والآن وقعنَ في الأسر. ولم يكن بيدي فعل شيء- لا شيء أفعله سوى تقديم نصيحة مريعة ومحاولة منحهنّ الأمل. ثم سمعتُ نفسي أقول: «الربّ هو التغيير. أسرانا يتحكّمون بزمام الأمور الآن. ولكن إذا قمنا بكل شيء على النحو الصحيح، سنهزمهم. إما هذا أو... الموت».

قطعت بياتريس سكولاري الصمت قائلة: «لم أتناول أدويتي. ربما سأموت». لقد أُصيبت بارتفاع ضغط الدم في السنة الماضية، ووصف لها بانكول علاجاً. لا تزال نينا تبكي، لكنها اقتربت من آلي وعانقَتها، وراحت آلي تهزهزها كأنها طفل. آلي أيضاً كانت تبكي، ولكن في صمت تام. حدّقَت بي بياتريس سكولاري وكأن بمقدوري الإتيان بدوائها.

قلت لبياتريس: «ما أن يبدؤوا بالتحدّث معنا حتّى يكون علاجك واحداً من أول الأشياء التي سنطالبهم بها. لكن أول شيء يتوجب علينا فعله هو طلب المساعدة من أجل تيريزا- هذا إذا لم يفُت الأوان بعد». ولكن لا بدّ من أنهم رأوا تيريزا. لا بدّ من أنهم سمعوا صراخها سابقاً. ربما لا يكترثون. علموا أنّها لن تستطيع الهرب. ربما أرادوا استخدامها كعبرة لكي يتأكدوا من أنّنا نفهم موقفنا. تابعتُ الحديث: «سنسألهم عن الأطفال وعن علاجك يا بياتريس. ثم... ربما سيسمحون لنا... بالاهتمام بزهرا».

انتظرنا لما بعد الظهر، ونحن جائعات وعطشانات وخائفات وبائسات وقلقات على أطفالنا وأزواجنا. لم يأبه أحدٌ بنا. رأينا الغزاة من بعيد وهم يدخلون ويخرجون من بيوتنا، ويبنون سورهم، ويأكلون طعامنا. لقد تجاهلوا حتّى تيريزا الممددة على الأرض خارج النافذة.

بكت الفتيات الصغيرات وتشاجرن وتذمّرن. بينما جلس بقيتنا بصمتٍ أغلب الوقت. لقد عاشت كلّ واحدة منا حياةً جحيميّة

بشكلٍ أو بآخر. ونجونا من الكثير من العذاب، لذا عرفنا أن البكاء والشجار والشكوى لن تجدي نفعاً. ربما سننسى هذا بمرور الوقت، لكن ليس بعد.

فُتح باب السجن في وقتٍ ما بين الساعة الثانية أو الثالثة. ملأ المدخل رجلٌ ضخم ملتحٍ، وحدّقنا به. كان يرتدي الزيّ المعتاد - سروالاً أسود ورداء أسود عليه صليب أبيض. وكان طوله مترين على الأقل. نظر إلينا بقرف كأنه يشمّ رائحة كريهة تفوح منا -وهذا صحيح- وكأن ذلك ذنبنا.

قال وهو يُشير إليّ وإلى آلي: «أنتما. اخرجا لحمل تلك الجثة».

علَت نظرة عناد على وجه آلي كردّة فعل تلقائية، لكننا نهضنا كلانا. قلتُ وأنا أشير لزهرا: «إنها ميتة أيضاً».

لم أرَ يده تتحرّك، لكن لا بدّ من أنه فعل شيئاً. صرختُ، تشنجتُ، وقعتُ على الأرض من ضربات الألم التي بدت كأنها تأتي من العدم ومن كلّ مكان. كنتُ أشتعل. ثم انطفأتُ. ألمٌ حارق. ثم لا شيء.

انتظر الرجل إلى أن أصبح قادرة على النظر إليه، ثم نظرتُ إليه.

قال: «لا تتحدّثي ما لم يُوجّه إليكِ الحديث. نفّذي الأوامر بحذافيرها. وأغلقي فمكِ!».

لم أنبس ببنت شفة. لكنني تدبّرت أمري بطريقة ما لأومأ برأسي. خطر ببالي أن من الأفضل لي فعل هذا.

هرعَت آلي نحوي لمساعدتي، مدّت يديها. لكنها سقطَت على الأرض فجأة من شدة الألم. أحرقَتني أصداء آلامها، فتسمّرتُ في مكاني، واصطكّت أسناني. كنتُ أحاول يائسة ألّا أُبيّن نقطة ضعفي، التقمّص. لا بدّ من أنهم سيعرفون في النهاية إذا احتجزوني لفترة طويلة. أعرف ذلك. ولكن ليس الآن. ليس بعد.

لم ينتبه الرجل إليّ. راقبَنا كلينا وانتظر بصبرٍ إلى أن نظرتُ إليه آلي بحيرة وغضب.

قال: «ستنفذّن الأوامر بحذافيرها. لا تلمس إحداكن الأخرى. لقد انتهت الوساخة التي كنتنّ معتادات على ممارستها. حان الوقت لتتعلّمنَ التصرف كنساء مسيحيّات محترمات- هذا إذا كانت عندكن عقول تصلح للتعلّم».

إذن هذا هو الأمر. نحن طائفة وسخة من العشاق المتحرّرين، وقد جاؤوا لتقويمنا. تعليمنا.

أعتقد أن الرجل اختارني أنا وآلي لأننا كنّا أكبر النساء حجماً. أُمِرنا بحمل زهرا أولاً، ثم تيريزا تالياً، إلى بقعة أرض اعتدنا أن نزرع فيها نباتات الجوجوبا للحصول على زيت الجوجوبا. هناك، أعطونا معاولَ ومجارفَ وأمرونا بحفر قبور -حُفر طويلة وعميقة- بين نباتات الجوجوبا. لم نُمنح طعاماً ولا ماء. كلّ ما حصلنا عليه هو صعقات من الألم بين الحين والآخر عندما نُبطئ أكثر من الحدّ الذي سمَح به المشرف علينا. كانت الأرض رديئة- صخرية وصلبة. لهذا السبب استخدمناها لزراعة نبات الجوجوبا. إنه نبات قويّ.

لا يحتاج إلى الكثير. والآن، يبدو أنّنا نحن مَن لا يحتاج إلى الكثير. لم أعتقد أن بوسعي القيام بهذا- حفر الحُفرة اللعينة. مرّ وقت طويل على آخر مرّة شعرتُ فيها بهذا الحدّ من السوء والفظاعة والخوف. بعد فترة، لم يشغل فكري غير الماء، والألم، وأين هي طفلتي؟ لقد فقدت إحساسي بكل شيء آخر.

كنتُ أحفر قبراً لزهرا، ولم أفكّر حتّى في هذا. كلّ ما أردتُه هو أن أنتهي من الحفر فحسب. كانت صديقتي المقربة، أختي في التغيير، وقد تمدّدت غير مسجّاة، تنتظر بجانب الحفرة التي أحفرها لها، ولم يهمّني. لم أستطع التركيز على ذلك.

أُحضِرت النساء الأخريات من المدرسة وأُجبرن على مشاهدتنا نحفر. أعرف هذا لأن الحركة المفاجئة لأشخاصٍ صامتين يقتربون لفتَت انتباهي. رفعتُ بصري ورأيت ثلاثة رجال يرتدون أردية سوداً عليها صلبان بيض يسوقون النساء. أدركت بعد فترة من الوقت أنّهم أجبروا رجالنا على الخروج. كانوا مفصولين عنا، وبدأ بعضُهم بالحفر أيضاً.

تسمّرتُ، أحدّق بهم، أبحث عن بانكول وعن... هاري.

انتزع الألم المباغت حشرجةً مني. جثوتُ على ركبتيّ في الحفرة التي كنت أحفرها.

قال مشرفُ العبيد: «احفري! حان الوقت الذي تتعلّمون فيه العمل أيّها الوثنيون!».

لم أرَ الموتى الذين يدفنهم الرجال. رأيت ترافيس، بلا قميص، يضرب بمعوله الأرض الصلبة. رأيت لوسيو فيغارو يحفر حفرة أخرى. ورأيت تيد فيركلوث يحفر حفرة ثالثة. إذن عندهم ثلاثة موتى من الرجال، وعندنا امرأتان ميتتان. ولكن مَن مات مِن الرجال؟ أيٌّ من رجالنا قتله هؤلاء الأوغاد؟

وأين بانكول؟

لم ألمحهُ إلى الآن. ألقيتُ نظرة خاطفة. ونظرتُ مرّة تلو الأخرى فيما أرمي بالتراب خارج الحفرة. لمحتُ مايكل وسط الرجال، ثم لمحتُ خورخي وجيف كينغ. ثم ضربني الألم ثانية. لم أسقط هذه المرة. تشبّثتُ بالمجرفة واتكأت على جانب الحفرة التي كنتُ أحفرها.

صاح ابن الفاجرة فوقي: «احفري! احفري فقط!».

ماذا سيفعل إذا فقدتُ الوعي؟ هل سيستمر بالضغط على زر تشغيل الطوق إلى أن أموت مثل تيريزا؟ هل كان يستمتع بما يفعله؟ لم يبتسم خلال تعذيبي. لكنه استمر بتعذيبي رغم أنني لم أُبدِ أيّة علامة على العصيان.

الخضوع ليس حماية. إذا أردنا النجاة يجب أن نهرب من هؤلاء الأشخاص في أقرب وقت ممكن.

وقف المُستعبِد الضخم الملتحي وبرفقته قرابة ثلاثين رجلاً من نوعيته حول القبور. أجبرونا على المسير في موكبٍ بجانب كلّ قبر

لنلقي نظرة على الموتى. هكذا عرف هاري بموت زهرا. وهكذا عرف لوسيو فيغاروا بموت تيريزا الين، وكان قد وقع في حبّ تيريزا هذه السنة. وهكذا عرفتُ بموت فينسنت سكولاري، كما ظنّت زوجته وأخته. لقد مات أيضاً غراي مورا- كان مغطى بالدماء ومسحوقاً وميتاً. وهكذا عرفتُ بموت زوجي بانكول.

عمّت الفوضى. شرعَت إيميري مورا وابنتاها بالعويل ما أن رأين جثة غراي المشوّهة. هرع ناتيفيداد وترافيس لاحتضان بعضهما البعض. جثا لوسيو فيغارو بجانب قبر تيريزا، وحاولت أخته مارتا مواساته. حاولت زوجة وأخت فينسنت سكولاري النزول إلى القبر لكي تلمسا فينسنت وتقبّلاه وتودّعاه. لقد جُلدنا إلكترونياً جميعنا لأننا تكلمنا، صرخنا، بكينا، شتمنا، وطالبنا بأجوبة.

جلدوني إلى أن فقدتُ الوعي لمحاولتي قتل الرجل الملتحي بالمعول. لو أنني نجحتُ في محاولتي لكان هذا جديراً بأي قدر من الألم.

١٢

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

حذارِ:
الجهلُ
يحمي نفسَه.
الجهلُ
يرسّخُ الشكّ.
والشكّ
يولّدُ الخوفَ.
الخوفُ ينكصُ
لاعقلانياً، وأعمى
أو الخوف يلوح
مقداماً ومُطبقاً.
أعمى، مُطبقاً،
شكاكاً، خائفاً،

يحمي الجهلُ نفسَه،
ومحميّاً
ينمو الجهل.

أفتقدُ أيكورن. أنا بالطبع لا أتذكّر وجودي هناك، لكنه المكان الذي عاش فيه والداي بسعادة خلال فترة زواجهما القصيرة. إنه المكان حيث حملَت بي أُمّي ووُلدتُ فيه وأحبّني والداي. كان يمكن، بل يُفترض أن يصبح المكان الذي سأترعرعُ فيه- لأنّه المكان الذي أصرّت أُمّي على العيش فيه. وبالرغم من نوايا أبي وأحلامِ أُمي، فقد اكتسَب المكانُ هيئة قريةٍ زراعية من القرن التاسع عشر وليس حجر أساسٍ للمصير، مع ذلك لم أكن لأكره العيش فيه. لأنه لا يُمكن أن يصبح أتعس من المكان الذي ترعرعتُ فيه بالفعل.

منذ مجيء صليبيّي جاريت -هذا ما يسمّون به أنفسهم- انحرف اتجاه حياتي بعيداً عن أيكورن وعن أمي. الأمر المفاجئ الوحيد هو أن نلتقي ثانية.

ما قالته أُمّي عن الغاز كان صحيحاً. إنه يُستخدم لوقف أعمال الشغب، وقمع الجماهير العنيفة. يُفترض بهذا الغاز أن يكون رحيماً على عكس الغازات السامة التي تقتل أو تشوّه أو الغازات المسيّلة للدموع أو التي تسبّب الاختناقات أو الغثيان. كان يُسمّى بالغاز الرحيم. وهو يسبب الشلل. في أغلب الوقت، مفعوله سريع ولا يسبّب الألم وليست له آثارٌ جانبية خطيرة. ولكن أحياناً، قد يموت

بسببه أطفالٌ وبالغون صغار البُنية. لهذا السبب تمّ تطوير ترياقٍ يُعطى للصغار الذين تعرّضوا للغاز: أعطوه إلي، وإلى بقية الأطفال الصغار في أيكورن. ولم يعطوه لزهرا بالتر لسببٍ ما. من الواضح أنّها كانت امرأةً بالغة بالرغم من ضآلة جسدها. ربما ظن الصليبيّون أنّ العمر أهمّ من الحجم. لم يكن هنالك أطباء بينهم. ولا حتّى أيّ عاملٍ في المجال الصحي بأيّ شكل من الأشكال. هؤلاء شعب الربّ الذين أتوا حاملين الإيمان الحقيقي للوثنيين. لذا لا يهمّ إذا مات بعض الوثنيين جراء ذلك.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الخميس، ٢٤ نوفمبر، ٢٠٣٣

إنه عيدُ الشكر.

أَيجدر بي أن أكون شاكرة لأنّني ما زلتُ على قيد الحياة؟ لستُ متأكّدة.

اليوم مثل الأحد– بل أفضل من الأحد. أعطونا طعاماً زيادة وراحةً زيادة، وما أن انتهى القدّاس هذا الصباح، حتّى تركونا وشأننا. أنا شاكرة لهذا. إنهم لا يراقبوننا للمرّة الأولى. لأنهم لا يريدون قضاء عطلتهم في حراستنا أو «تعليمنا» على حدّ تعبيرهم. هذا يعني أن بإمكاني الكتابة اليوم. أغلب الأيام، وبحلول الوقت الذي يتركوننا وشأننا، يكون قد حلّ الظلام فلا أستطيع الكتابة،

ونعود مرهقين. بعد الانتهاء من عملنا في الخارج، يقومون بمراقبتنا وإجبارنا على حفظ وتلاوة مقاطع من الكتاب المقدّس إلى أن لا نعود قادرين على التفكير أو إبقاء عيوننا مفتوحة. أنا شاكرة لأنني أكتب، وأنا شاكرة لأنني لا أسمع صوتي يتلو شيئاً من قبيل: «وَقَالَ لِلمَرأَةِ: «تَكثِيرًا أُكَثِّرُ أَتعَابَ حَبَلِكِ، بِالوَجَعِ تَلِدِينَ أَولاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيكِ»»[1].

يُمنع علينا الحديث مع بعضنا البعض بحضور «المعلّمين»، ومع ذلك لا يُسمح لنا بالهدوء والراحة.

والآن يجب أن أجد طريقة لأكتب فيها عن الأسابيع القليلة الماضية، لكي أحكي عمّا حصل لنا- أحكي عنه كأنه أمرٌ مفهوم ومنطقي. سأفعل ذلك، لكي يتسنى لي على الأقل ترتيب أفكاري المبعثرة. أحتاج للكتابة عن... عن بانكول.

لقد اختفى كلّ أطفالنا. كلّهم. من أصغرهم لاركِن، إلى أكبرهم أولاد آل فيركلوث. لقد اختفوا كلّهم.

والآن قيل لنا إن أطفالنا أُنقذوا من شرورنا. لقد مُنحوا «بيوتاً مسيحيّة صالحة». لن نراهم ثانية ما لم نترك «الوثنية» ونثبت أنّنا صرنا أشخاصاً يمكن ائتمانهم على الأطفال المسيحيّين. بدافع من العطف والرحمة، قدّم آسرونا -نحن ملزمون بتسمّيتهم «المعلّمين» عندما نخاطبهم- الرعاية لأطفالنا. لقد وضعوا أقدام أطفالنا

(١) سفر التكوين [٣:١٦].

على الطريق القويم إلى مواطَنة أمريكية صالحة مفيدة هنا على الأرض، وإلى مكانٍ في الجنة عندما يموتون. والآن يجب علينا نحن البالغين واليافعين أن نتعلّم السير على نفس الطريق. يجب إعادة تعليمنا. يجب أن نقبل بيسوع المسيح كمخلّصنا، وبصليبيّي جاريت كمعلّمينا، وبجاريت كمصلِح اختاره الربّ ليعيد لأمريكا عظمتها، وبكنيسة أمريكا المسيحيّة ككنيستنا. عندها فقط سنكون مسيحيّين وطنيين جديرين بتربية أطفالنا.

نحن لا نعارض هذا. يأمرنا آسرونا أن نركع، ونصلي، ونغني، ونشهد، ونحن نمتثل. وقد وضّحتُ للآخرين من خلال سلوكي أنه يجب علينا الانصياع. لماذا نقاوم ونجازف بالتعرض للتعذيب أو الموت؟ ما فائدة ذلك؟ سنكذب على هؤلاء القتلة، هؤلاء الخاطفين، هؤلاء السراق، هؤلاء المُستعبِدين. سنقول لهم كلّ ما يريدون سماعه، وسنفعل كلّ ما يأمروننا بفعله. سيصبحون مهملين ذات يوم، أو ستتعطل أجهزتهم، أو سنجد أو نخلق نقطة ضعف أو زاوية ميتة. ثم سنقتلهم.

بيد أن الصليبيين يجب أن يستمتعوا بالرغم من طاعتنا لهم. إنهم يستخدمون الأطواق لتعذيبنا بطريقتهم المحبّة العطوفة. يقولون لنا: «هذا العذاب لا يساوي شيئاً مقارنة بعذاب نيران جهنم. تعلّموا دروسكم وإلا مصيركم جهنم حيث ستتعذّبون هكذا إلى الأبد!». كيف يفعلون ما يفعلونه ويصدّقون ما يقولونه؟

إنهم يأكلون طعامنا ويطعموننا فضلاتهم، يعطوننا زبديات من

فضلات موائدهم على حالها أو مسلوقة في حساء مخفف بالماء مع اللفت والبطاطا من حديقتنا. إنهم يعيشون في بيوتنا وينامون في أسرّتنا بينما ننام على أرضية المدرسة، الرجال في غرفة، والنساء في غرفة أخرى، ويُمنع أي شكل من أشكال التواصل بين الاثنين.

ويبدو أن زيجاتنا كلّها ليست شرعية. لأنه لم يزوّجنا كاهن من كنيسة أمريكا المسيحيّة. لهذا كنّا نعيش في الرذيلة، «يتناكحون كالكلاب!»، سمعتُ أحد الصليبيّين يقول ذلك. وهو ذات الصليبيّ الذي جرّ دايموند سكوت إلى كوخه في الأسبوع الماضي واغتصبها. قالت إنه أخبرها أنه لا بأس من ذلك. لأنه رجل دين ويجب أن تشعر بالتكريم. في ما بعد، ظلّت تبكي وتتقيأ. قالت إنّها ستقتل نفسها إذا كانت حبلى.

لقد قامت واحدة منا فقط بذلك - انتحرت. واحدة فقط وهي إيميري مورا. انتقمَت لما حصل لزوجها ولاختطاف ولدَيها. أغوت أحد الصليبيين- أحد الذين يعيشون في كوخها. أقنعته أنّها مستعدة ومتلهفة للنوم معه. وفي وقتٍ ما من الليل نحرته بسكيّن كانت تخبّئه دائماً تحت فراشها. ثم ذهبت إلى الصليبي الذي نام في غرفة ابنتيها ونحرته. بعدها، تمدّدت في سريرها بجانب ضحيتها الأولى وقطعت رسغيها. عُثر على ثلاثتهم موتى في الصباح التالي. مثلها مثل غراي، انتقمَت منهم إيميري شرّ انتقام.

أتمنى لو أنّها اختارت أن تعيش، لمصلحتها ومصلحة ابنتيها. علمت أنّها مكتئبة، وحاولتُ تشجيعها على التحمّل. عندما تُغلق

علينا الأبواب في الليل، كنّا نتحدّث، ونتبادل الاخبار، ونصبر بعضنا البعض. لكن الحقيقة هي، إذا كان ينبغي أن تموت إيميري، فقد اختارت أفضل طريقة ممكنة. لقد جعلتنا نعرف أن بإمكاننا قتل آسرينا. لن تمنعنا أطواقنا. ولو لم تكن إيميري مقيّدة بطوقها إلى ذلك الكوخ، لربما قتلت المزيد منهم.

ولكن لماذا لم يمنعها طوقها من القتل؟ طبقاً لما قاله مارك عن فترة أسره، فإن الأطواق تحمي حاملي وحدات التحكم. هل هذه مسألة تتعلق بنوعية مختلفة من الأطواق؟ هذا محتمل. لا يمكننا الجزم. لم تكن للمعلومات التي جمعناها وتشاركناها مع بعضنا في الليل أيّة علاقة بأنواع مختلفة من الأطواق. ما عرفناه هو أن كلّ أطواقنا مربوطة ببعضها البعض بطريقة ما في شبكة أطواق من نوع ما. يمكن التحكم في الأطواق التي نرتديها بواسطة وحدات التحكم التي يرتديها آسرونا كأحزمة، لكن الأحزمة نفسها كانت تشتغل أو تُنسّق أو يتم التحكم فيها من خلال وحدة تحكّم رئيسية كبيرة تعتقد دايموند سكوت أنّها موجودة في إحدى اليرقتين اللتين تتواجدان هنا على الدوام. ما جعل داي متأكدةً من صحة ذلك أشياء قالها مغتصبها بينما كانت معه تنتظر أن يغتصبها مرّة أخرى.

وحدة تحكّم رئيسية تحميها أسلحة وأقفال ودروع اليرقة بعيدة المنال بالنسبة لنا، في الوقت الحالي. علينا معرفة المزيد عنها. مع ذلك، فقد خطر في بالي أن هناك سبباً بسيطاً يفسّر فشل وحدة الحزام الذي ارتداه مغتصب إيميري في إنقاذ حياته، والسبب هو: لأنه خلعه. أيّ

رجل يرتدي الحزام في الفراش؟ لقد خلع كلا الرجلين اللذين قتلَتهما إيميري حزاميهما. لمَ لا؟ فإيميري امرأة هزيلة وضئيلة. لن يشكّ رجل بحجم اعتيادي في قدرته على السيطرة عليها بحزامٍ أو بدونه.

بعد أن قتلَتهما إيميري، لا بدّ من أنّها حاولت استخدام وحدات الحزام لتحرير نفسها، إما للهرب، أو محاولة تحرير بقيتنا، أو للإمعان في انتقامها. كانت ستحاول، أنا على يقين من ذلك. وكانت ستفشل إما لأنها لا تمتلك بصمات الأصابع المطلوبة أو لأنها لا تمتلك مفتاحاً ضرورياً آخر. كان من المهم معرفة هذا، ولكن هنالك المزيد: لقد حاولَت قدر وسعها مع الوحدات، ولا شكّ أنّها تسببت لنفسها بألم شديد، لكنها لم تطلق أيّة أنظمة إنذار. ربما لا يوجد أنظمة إنذار من الأصل. قد يكون هذا مهمّاً جداً يوماً ما.

لقد جلدونا كلّنا بسبب ما فعلته إيميري. وأجبروا الرجال على المشاهدة.

أجبرونا على المسير خارج المدرسة، وجلدونا بينما أجبرونا على الركوع والصلاة، والصراخ بأعلى أصواتنا للاعتراف بخطايانا، وطلب الغفران، وتلاوة مقاطع من الكتاب المقدس. فكّرت أنهم سيقترفون خطأً ويقتلون إحدانا. كانت هذه حفلة عربدة جماعية لإهانتنا وإذلالنا. استمرّت فترة طويلة، لساعات وساعات، ظلّ فيها «المعلّمون» يتناوبون، ويتبادلون الأدوار، ويصرخون بكراهيتهم لنا، ويسمّون ذلك حبّاً. لم يبقَ عندي صوتٌ إطلاقاً عندما انتهى الأمر. كان جسدي كله متوجعاً. حتّى الضرب الفعلي لم يكن سيجعلني

أسوأ حالاً من ذلك. ولو أنّ أحدهم لاحظني أنا بالذات، سيعرف أنني متقمّصة. لقد فقدتُ السيطرة. لم يكن بمقدوري إخفاء أي شيء.

أتذكّر أنني تمنّيت أن أموت. أتذكّر أنني تساءلت لو أنهم في نهاية المطاف سيدفعوننا للموت على طريقة إيميري، كلّ واحدة ترحل تأخذ معها بعضهم.

لقد أتى أشخاص جُدد للعيش معنا- رجال ونساء من مخيّمات عشوائية ومن بلدات مجاورة. معظمهم مجرد فقراء عاديين. وبعضهم مثل آل دوفيتري. ينتجون ويبيعون المخدرات أو البيرة أو النبيذ أو الويسكي المصنوع منزلياً. لقد جمعوا حتّى جيراننا آل سوليفان وآل غاما وجاؤوا بهم إلى هنا. درس بعض أولادهم في مدرستنا، لكنهم لم يأسروهم معنا. لم أرَ أيّاً منهم منذ بداية احتجازنا. إذن لماذا أسروهم وأحضروهم إلى هنا الآن؟ لا أحد يعرف.

حُشرت النساء الجديدات معنا أو وُضعن في الغرفة الثالثة الفارغة من غرف المدرسة- الغرفة التي كانت يوماً ما عيادتنا. بينما حُشر الرجال الجدد مع رجالنا في الغرفة الكبيرة.

أحتاج للكتابة عن بانكول.

كانت هذه نيتي عندما بدأت بالكتابة. أحتاج لذلك ولكن لا أريد. هذا مؤلم جداً.

أجبرنا الصليبيون على توسيع سجننا وتوسيع منازلنا، التي صارت الآن منازلهم. ونحن نعمل في الحقول كالسابق. نُطعم الماشية وننظف حظائرها. ونقلّب الأسمدة العضوية، ونزرع الأعشاب، ونحصد الفواكه الشتوية، والخضروات والأعشاب، وننظف التلال من الأدغال. مطلوب منا إطعام أنفسنا وآسرينا. طعامهم أفضل من طعامنا بالطبع. ففي النهاية، نحن مدينون لهم بالكثير، لأنهم، كما ترون، يعلّموننا نبذ حياتنا الآثمة. إنهم يتحدّثون عن تعليمنا أهمية العمل. ويخبروننا أنّنا لم نعد مشرّدين، وطفيليات، ولصوص. لقد استحققتُ الجَلد مراراً لأنني قلتُ إننا أنا وزوجي نملك هذه الأرض، وندفع ضرائبها دائماً، ولم نسرق من أحد قطّ.

لقد أحرقوا كتبنا وأوراقنا.

لقد أحرقوا كلّ ما وجدوه عن ماضينا. يقولون أنّها نفايات مخالفة للدين. أجبرونا على جمع وحمل وتكديس وتكويم الكثير ممّا أحببناه. راقبونا، وأياديهم على أحزمتهم. كلّ الكتب سواء الورقية أو التي على الأقراص. كلّ المجموعات التي جمعها أولادنا الصغار من معادنَ وبذورٍ وأوراق أشجار وصور... كلّ التقارير والنماذج والمجسمات والمنحوتات واللوحات التي عمل عليها أولادنا الكبار. كلّ الموسيقى التي ألّفها ترافيس وغراي. كلّ المسرحيات التي ألّفتها إيميري. كلّ دفاتر مذكّراتي التي وجدوها. كلّ الأوراق الثبوتية الرسمية، بضمنها عقود الزواج، إيصالات الضرائب، وصكّ ملكية بانكول للأرض. لقد صبّ «معلّمونا» زيت القناديل

على كلّ هذه الأشياء وأشعلوا فيها النيران، ثم حثُوها وقلبوها وأحرقوها ثانية.

في الواقع، لقد أحرقوا نسخاً من الأوراق الرسمية. لا أعرف ما إذا كان ذلك مهماً، لكنه صحيح. منذ أن حصلنا على شاحنتنا الأولى، احتفظنا بالأوراق الأصلية في صندوق أمانات في يوريكا- كانت هذه فكرة بانكول. كما أنّنا نحتفظ بنسخ أخرى في مستودعاتنا المخفية العديدة، وأيضاً بعض الكتب، والسجّلات، بالإضافة إلى الخزين المعتاد من الأسلحة والطعام والمال والملابس. وكنت أنسخ كتابات بانكول ودفاتر يومياتي وأحتفظ بالنُسخ على أقراص خبّأتها في المستودعات. لا أعرف لماذا قمت بذلك. بالنسبة ليومياتي، فهي متعةٌ أعترف أنني شعرتُ بالخجل منها دائماً- تضييع المال على استنساخ كتاباتي الشخصية. لكنني أتذكّر أنني شعرتُ بالارتياح لقيامي بذلك. والآن أتمنى لو أنني نسختُ مسرحيات إيميري، وموسيقى ترافيس وغراي. على الأقل فالمستودعات لا زالت بأمان، على حدّ علمي.

لقد خبّأتُ أوراقي وأقلامي في غرفة السجن الخاصة بنا. ساعدَتني آلي وناتيفيداد على فكّ بعض ألواح الأرضية الخشبية القريبة من النافذة. باستخدام أحجار حادة وبعض المسامير القديمة كأدوات للعمل، تمكّنا من صناعة مخبأ صغير عن طريق حفر فجوة في عارضة خشبية كبيرة تدعم روافد الأرضية. كانت الروافد نفسها رفيعة جداً وواضحة جداً إذا ما انتبه أحدٌ للّوح المفكوك. لكننا أملنا

ألّا ينتبه أي «معلّم» ويحاول النظر في الأسفل في العتمة ليرى ما إذا كان هنالك أي شيء في العارضة. خبّأت ناتيفيداد خاتم زواجها أيضاً. وخبأت آلي بعضاً من رسومات جاستن. وخبأت نوريكو حجراً بيضوياً أملس أخضر اللون. عثرَت عليه عندما كانت برفقة مايكل ينبشان بين الأنقاض معاً- سابقاً عندما كان بمقدورهما أن يكونا معاً.

من الغريب أن بإمكاننا حفر العارضة الخشبية من دون ألم من أطواقنا. ظنّت آلي أن هذا قد يمثّل فرصة للهرب من خلال إرخاء المزيد من الألواح الأرضية والزحف تحت المدرسة. ولكن عندما حاولَت توري مورا، وهي أنحف واحدة من بيننا، التسلل إلى الأسفل، بدأت ترتعش وتتلوى من الألم في نفس اللحظة التي لمست قدماها الأرض. تشنجّت واضطررنا لسحبها وإخراجها.

هكذا عرفنا معلومة إضافية. معلومة سلبية، ولكن كنّا بحاجة لمعرفتها.

ضاع الكثير. سُلب الكثير منا ودُمّر. إذا لم نجد طريقة للهرب، فقد وجدنا على الأقل طريقة للحفاظ على بعض الأشياء الصغيرة. أجدني أفكّر أحياناً أنني كنتُ سأحتمل كلّ ما يجري لو كان معي بانكول ولاركِن، أو لو أرى لاركِن وأعرف أنّها حيّة وبخير. لو يمكنني رؤيتها فقط...

لا أعرف ما إذا كانت أفعال هؤلاء المدعوين بالصليبيين تحمل ولو أقل قدرٍ من الشرعية. من الصعب التفكير أنّها كذلك-

اغتصاب أرض وحريّة أناس يطبّقون القوانين، ويعملون لكسب قوتهم، ولا يسبّبون المتاعب. لا أصدّق أن حتّى جاريت قد يقدم على تشويه الدستور لكي يشرعن مثل هذه الأفعال. أو على الأقل، ليس بعد. إذن كيف تتجرأ مجموعة مُقتصّين على تأسيس معسكر «إعادة تأهيل» وإدارته بوجود أناس يرتدون الأطواق بشكل غير شرعي؟ نحن هنا منذ أكثر من شهر ولم يلاحظ أحد. حتّى أصدقاؤنا وزبائننا لم يلاحظوا. مع أن آل غاما وآل سوليفان ليسوا أثرياء أو أقوياء، لكنّهم يسكنون هذه التلال منذ أجيال. ألم يأتِ أحد للسؤال عنهم؟

ربما سأل أحدهم عنهم. ولكن من أجاب على الأسئلة؟ هل هم الصليبيون بهوياتهم الأخرى كوطنيين عاديين ملتزمين بالقوانين؟ لا أعتقد أنه من المبالغة افتراض أنهم يمتلكون مثل هذه الهويات. أيّة أكاذيب نشروا؟ أيّة مجموعة ثرية بما يكفي لامتلاك سبع يرقات، ودعم ما لا يقل عن عشرات الرجال، وعندها على ما يبدو عدد لا يحصى من الأطواق باهظة الثمن؛ لا بدّ من أنّها قادرة على نشر كلّ الأكاذيب التي تختار نشرها. ربما سمع أصدقاؤنا في الخارج أكاذيب مقنعة. أو ربما كانوا خائفين لدرجة الصمت، لأنهم يعلمون أن طرحهم الكثير من الأسئلة قد يوقعهم في المشاكل. أو ربما لأن ولا واحد من بيننا عنده أصدقاء أقوياء بما يكفي. نحن نكرات، ولأننا كذلك، نحن ضعفاء وبلا حماية.

لقد قيل لنا في أيكورن إننا هوجمنا واستُعبدنا لأننا وثنيون. لكن

آل غاما وآل سوليفان ليسوا وثنيين. سألتُ نساء من كلتا العائلتين عن سبب تعرض عائلاتهن للهجوم، لكنهن لم يعرفن أيضاً.

لقد امتلك آل غاما وآل سوليفان أراضيهما، مثلنا. وعلى عكس آل دوفيتري، لم يقم آل سوليفان وآل غاما بزراعة الماريجوانا وبيع المشروبات الكحولية. لقد عملوا في أراضيهم، واشتغلوا في البلدات في أي عملٍ يجدونه. كانوا يعملون بجدّ ويطبقون القوانين ويُحسنون التصرّف. ولكن في النهاية، ما نفع كلّ هذا؟ ما نفع كلّ عملهم وعملنا، وكل حرص بانكول على القوانين التي عفا عليها الدهر، وكل ما تمنّيتُه من أجل لاركِن وبذرة الأرض... لا أعرف ماذا سيحصل. سننجو من هذا! سننجو بطريقة ما! ولكن ماذا بعد ذلك؟ بحسب ما سمعته، فأن بعض «معلّمينا» ينحدرون من عوائل مهمة في كنائس أمريكا المسيحيّة في يوريكا، وأركاتا، والبلدات الصغيرة المجاورة. هذه أرضي الآن. لقد حرص بانكول، الواثق من القوانين والأنظمة، على كتابة وصية. لقد قرأتها. لقد أحرقوا النسخة التي احتفظنا بها هنا، بالطبع، لكن النسخة الأصلية لا تزال موجودة مع عدد من النسخ الأخرى. هذه أرضي، ولكن كيف أستعيدها؟ كيف يمكننا إعادة بناء ما هدّموه؟

عندما نتحرر من «معلّمينا» سنقتُل على الأقل بعضهم. لا أرى طريقة لتجنّب هذا. وسيقتلوننا ليمنعونا من الفرار إذا كان عليهم ذلك، وإذا كان بإمكانهم ذلك. إن اغتصابهم لنا، وجلدهم لنا، وتركهم لنا لنموت- كل هذا يخبرني أنهم لا يضعون أيّة قيمة

لحيواتنا. هل تعرف عائلاتهم ما يرتكبونه؟ هل تعرف الشرطة؟ هل بعض هؤلاء «المعلّمين» رجال شرطة أنفسهم، أو أقارب رجال شرطة؟

لا بدّ أن عدداً كبيراً من الناس قد عرفوا أن هناك خَطباً ما. تبقى كلّ وردية من «معلّمينا» معنا لمدة أسبوع على الأقل، ويرحلون لأسبوع. ماذا يجيبون الناس الذين يسألونهم أين كانوا؟ لا بدّ أن المنطقة مليئة بالناس الذين يعرفون على الأقل أن هناك شيئاً غريباً يجري. لهذا السبب لا أريد أن نبقى هنا إذا حرّرنا أنفسنا. سيكرهنا الكثير من الناس هنا إما لأننا قتلنا رجالهم خلال هروبنا، أو لأنهم لا يستطيعون مسامحتنا على الظلم الذي ارتكبوه هم أو عوائلهم أو أصدقاؤهم بحقّنا.

ستعيش بذرة الأرض. يعرف ما يكفي منا هذا ويؤمن بِهِ لكي تستمر في العيش داخلنا. بذرة الأرض حيّة وستبقى حيّة. لكن صليبيي جاريت خنقوا أيكورن. لقد ماتت أيكورن.

ما أنفك أقول إنني سأكتب عن بانكول، ولا أكتب. صرتُ مثل زومبي لعدة أيام بعد أن رأيتُ جثته ملقاة في حفرة عارية أجبروا لوسيو فيغارو على حفرها. لم يتلوا صلواتهم عليه، وبالطبع رفضوا السماح لنا بأن نقيم له تأبيناً.

رأيتُه حيّاً في اليوم الذي غزانا فيه الصليبيون. أنا متأكدة من ذلك. فماذا حدث؟ كان رجلاً سليماً، ولم يكن أحمق. لم يكن ليستفز رجالاً مسلّحين ليقتلوه. لا يُسمح لنا بالحديث مع رجالنا، ولكن

يجب أن أعرف ماذا حصل. تابعتُ المحاولة إلى أن وجدتُ فرصة سانحة للحديث مع هاري بالتر. لقد رغبتُ بالحديث مع هاري لأنني أردتُ إخباره بما حصل لزهرا.

تدبّرنا اللقاء في الحقول فيما نعمل بوجود أفراد من مجتمعنا فقط. كنّا نحصد -غالباً تحت المطر- الخضروات، والبصل، والبطاطا، والجزر، والقرع، كلّها نباتات زرعها ورعاها أفراد مجتمع أيكورن بالطبع. كان يجب أيضاً أن نحصد البلوط -بل كان يجب حصادُه من قبل- لكنهم لم يسمحوا لنا بذلك. أُجبر بعضنا على قطع كلّ أشجار البلوط والصنوبر الحيّة سواء الناضجة أو الشتلات التي زرعناها. لقد زرعنا هذه الأشجار ليس فقط تكريماً لذكرى موتانا ولتزويدنا بالبروتين، بل لأنها ساعدت أيضاً في دعم جانب التلّ القريب من منازلنا كي لا ينهار. لسبب ما تخيّل «معلّمونا» أنّنا نعبد الأشجار، لذا لا ينبغي أن تكون عندنا أشجار في الجوار، باستثناء تلك التي تُنتج الفاكهة والمكسّرات التي يحب «معلّمونا» أكلها. طريفٌ كيف تجري الأمور. كانت أشجار البرتقال والليمون والجريب فروت والكاكي والكمثرى والجوز والأفوكادو؛ صالحة. بينما بقية الأشجار إغراءات خبيثة.

إليكم ما أخبرني بهِ هاري، شيئاً فشيئاً، خلال المرّات التي تمكّنا فيها من الاقتراب من بعضنا البعض أثناء العمل.

قال: «لقد استخدموا الأطواق، كما تعلمين. لقد انتظروا أن نستعيد وعينا في أول يوم. ثم دخلوا وقال أحدهم «لا نريدكم أن

تخطئوا الظنّ. نريد أن تفهموا تماماً كيف سيجري الأمر». ثم بدأوا مع خورخي شو. صرخ وتلوى مثل دودة معلقة على خطاّف. وبعده آلان فيركلوث، ثم مايكل، ثم بانكول.

كان بانكول صاحياً ولكن ليس في كامل وعيه. جلس على الأرضية، واضعاً رأسه بين يديه، ومحدقاً إلى الأسفل. أخذوا كلّ الأثاث وكدّسوه في كومة في الخارج حيث تقف الشاحنات. لذا كنّا نسقط على الأرضية. لم يصدر من بانكول أيّ صوت عندما استخدموا الطوق. وقع على جانبه فقط وهو يتلوّى ويرتعش. لم يصرخ، ولم ينبس ببنت شفة. لكن تشنّجاته كانت أسوأ من أي واحد فينا. ثم مات. هذا كلّ شيء. قال مايكل إن الطوق سبّب له نوبة قلبية حادة».

لم يقل هاري شيئاً بعد ذلك لفترة طويلة- أو ربما قال شيئاً ولم أسمعه. كنت أبكي رغماً عن نفسي. استطعتُ المحافظة على هدوئي، لكنني لم أستطع منع دموعي. ثم سمعتُه يهمس، بينما مررنا بالقرب من بعضنا البعض ثانية، قال: «أنا آسف يا لورِن. ربّاه. أنا آسف. لقد كان رجلاً طيباً».

لقد ولّد بانكول أطفال هاري الاثنين. وولّد بانكول أطفال الجميع، بضمنهم ابنته. وقد بقي وعمل جاهداً لكي ننجح، من دون أن يؤمن ببذرة الأرض أو حتّى بأيكورن. لقد عمل جاهداً أكثر من الجميع لكي ننجح. يا له من أمرٍ غبّي وعقيم أن يموت على أيدي رجال لم يعرفوه ولم يهتموا بأمره ولا حتّى قصدوا قتله. إنهم

ببساطة لم يعرفوا كيف يستخدمون الأسلحة القويّة التي بحوزتهم. لقد أطلقوا الغاز على زهرا وقتلوها بالخطأ لأنهم لم يضعوا حجمها الضئيل في حسبانهم. لقد صعقوا بانكول حتّى تسببوا له بنوبة قلبية بالخطأ لأنهم لم يضعوا سنّه في حسبانهم. لا بدّ أن السبب هو سنّه. لأنه لم يصُب بمشاكل في القلب سابقاً. كان رجلاً قويّاً وسليماً، وكان ينبغي أن يعيش ليرى ابنته تكبر أو ربما يحظى بولدٍ أو بنت أخرى لاحقاً.

بالكاد تمالكتُ نفسي لكي لا أقع بين صفوف النباتات وأستلقي على الأرض وأئنّ وأبكي. بقيتُ واقفة كي لا أجذب انتباه «معلّمينا».

بعد فترة أخبرتُه بما حصل لزهرا. ثم ختمتُ حديثي عنها بالقول: «أعتقد أن حجمها الصغير هو الذي تسبب بموتها. ربما لا يعرف هؤلاء الرجال كيفية استخدام أسلحتهم. أو ربما إنهم لا يكترثون ببساطة. أو ربما كلاهما. لم يحرّك أي منهم ساكناً لمساعدة تيريزا».

ثم ساد صمت لفترة طويلة، طويلة جداً. أكملنا عملنا، وسيطر هاري على نفسه. عندما تحدّث ثانية، كان صوته هادئاً.

قال: «يجب أن نقتل هؤلاء السفلة يا أولامينا!».

نادراً ما يناديني أولامينا. نحن نعرف بعضنا البعض منذ الطفولة. إنه يناديني لورِن دائماً، ما عدا في المراسيم المهمة في يوم

الاجتماع. ناداني أولامينا لأول مرّة عندما استقبلتُ طفله البكر في مجتمع أيكورن، وبذرة الأرض. إنه يرى هذا الاسم كلقب.

قلتُ: «يجب أن نتخلّص من هذه الأطواق أولاً. ثم يجب أن نعرف ماذا حصل للأطفال... إذا... إذا ما زالوا على قيد الحياة، فيجب أن نعثر عليهم».

قال: «هل تظنين أنهم أحياء؟».

أخذتُ نفساً عميقاً وقلتُ: «لا أعرف. سأعطي أي شيء مقابل أن أعرف أين هي ابنتِي لاركِن، وهل هي بخير». توقّفتُ ثانية لبرهة ثم تابعتُ: «يكذب هؤلاء الرجال بخصوص كلّ شيء تقريباً. ولكن لا بدّ من أنهم يحتفظون بسجلات في مكان ما. لا بدّ من وجود أي دليل. يجب أن نحاول البحث. يجب أن نجمع المعلومات. ونتحرى عن نقاط ضعفهم. نراقب، ننتظر، ونفعل ما يتوجّب علينا فعله لنبقى أحياء!».

اقترب «معلّم» منا. إما أنه لمحنا نتهامس أثناء العمل أو أنه كان يتفقد العمل فقط. تركتُ هاري يجتازني. لقد انتهت لحظات كلامنا القليلة.

١٣

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

عندما تخفقُ الرؤيةُ
تضيعُ الوجهةُ
وعندما تضيعُ الوجهةُ
تُنسى الغايةُ.
وعندما تُنسى الغايةُ
تسيطرُ العاطفةُ.
وعندما تسيطرُ العاطفةُ،
فالخراب.. الخرابُ.

أخذوني من أيكورن إلى معسكر إعادة تأهيل يقع مقرّه في بناية سجن قديم شديد الحراسة في مقاطعة ديل نورت، شمال مقاطعة هومبولت. كان يسمّى بسجن بيليكان باي. وصار اسمه معسكر بيليكان باي المسيحيّ لإعادة التأهيل. يسرّني القول إنني لا أتذكر

المكان، لكن الأشخاص الذين قضوا وقتاً هناك، سواء كانوا بالغين أو يافعين، أخبروني بالرغم من أنه لم يعُد يسمّى بالسجن، إلّا أن رائحة المعاناة كانت تفوح منه. ونظراً لأن البناية مصمّمة كسجن، فقد كانت مهيّأةً أكثر من أيكورن لعزل الناس ليس عن المجتمع فقط، بل عن بعضهم البعض. وكانت فيه أيضاً دار حضانة معزولة تماماً عن بقية النزلاء الوثنيين الذين قد يلوّثون الأطفال. لقد وضعوني في دار حضانة بيليكان باي لعدّة أشهر. أعلم هذا لأنهم أخذوا بصمات يديّ وقدميّ وبصمتي الوراثية، وتم الاحتفاظ بسجلاتي في كنيسة مسيحيّة أمريكية في مدينة كريسينت. يُفترض بهذه السجلات ألّا تكون متاحة إلّا لسلطات المعسكر، التي كان عليها منع والديّ البيولوجيين الوثنيين من أن يتبنياني، ومتاحة أيضاً للأشخاص الذين سيتبنونني. وهناك أيضاً أُعطيت اسمي: آشا ڤير. وآشا ڤير هو اسم إحدى الشخصيات في برنامج (دريمّاسك) الشهير.

الـ (دريمّاسك)، أو (أقنعة الأحلام)، المعروفة أيضاً باسم أقفاص الرأس، أو كتب الأحلام، أو الأقنعة ببساطة. كانت جديدة في وقتها، وفي طريقها للتغلب على كلّ منافسة في مجال تكنولوجيا الواقع الافتراضي. حتّى الأجهزة الأولى كانت رخيصة- أجهزة شبيهة بأقنعة التزلج بنظارات تغطي العينين شبيهة بنظارات الغوص الواقية. عندما يرتديها الناس لا يبدون كبشر. لكن الأقنعة جعلت الأحلام المُحفَّزة والموجّهة بالكومبيوتر مُتاحة للعامة، وأحبّها الناس. أقنعة الأحلام قريبة لأجهزة كشف الكذب قديمة الطراز، ولأطواق

العبيد، ولشكلٍ كفوء لحدٍّ مخيف من الإيحاء اللاشعوري السمعي- البصري. وبالرغم من هيأتها، فأقنعة الأحلام خفيفة الوزن، شبيهة بالقماش، ومريحة. وهي تقدّم لمن يرتدوها سلسلة كاملة من المغامرات التي يمكنهم التماهي فيها مع إحدى الشخصيات العديدة. يمكنهم أن يعيشوا الحياة الخيالية للشخصية التي يختارونها بإحساس واقعي. يمكنهم الانغماس في حياة أخرى أبسط وأسعد من حياتهم. يمكن للفقير أن يستمتع بثراء وهمي، ويمكن أن يصبح القبيح جميلاً، والمريض سليماً، والجبان جريئاً...

قلق أتباع جاريت من أن يصبح هذا النوع الجديد من التسلية بمثابة مخدّر بالنسبة لـ «ذوي النفوس الضعيفة». تجنباً لانتقاداتهم، صنعت شركة (دريماسك انترناشونال) عدداً من البرامج الدينية- برامج أبطالها حصراً شخصيات أمريكية مسيحيّة. وآشا ڤير واحدة من هذه الشخصيات.

آشا ڤير امرأة أمريكية مسيحيّة، سوداء البشرة، طويلة القامة، جميلة، شبيهة بالنساء الأمازونيات، وهي تهرع طوال الوقت لإنقاذ الناس من الطوائف الوثنية، والمؤامرات المعادية للمسيحيّة، وقوّادي الأحياء العشوائية. يبدو أن أحدهم ظنّ أن تسميتي على اسم هذه الشخصية المدافعة عن الفضيلة قد يقمع أيّة ميول وراثية في داخلي نحو الوثنية. هكذا تورّطتُ بهذا الاسم. مثل الكثير من النساء الأخريات بالمناسبة. لقد عفا الزمن على الشخصيات الخيالية النسائية القويّة في ذلك الوقت. فقد رأى الرئيس جاريت وأتباعه في أمريكا المسيحيّة،

أن تدخّل النساء في «شؤون الرجال» أحد أسباب خراب البلاد. لقد رأيتُ تسجيلات له وهو يقول هذا، فيما يهتف ويصفق له بحماس حشدٌ كبير من النساء والرجال. في الواقع، لقد اكتشفتُ أن آشا ڤير يُفترض أن تكون رجلاً، آرون ڤير، لكن أحد المدراء التنفيذين في شركة (دريماسك) أقنع زملاءه بأن الوقت قد حان لسلسلة مغامرات ناجحة بطلتها امرأة أمريكية مسيحيّة، قويّة ورقيقة. لقد كان على صواب. كان هنالك توق كبير لشخصيات نسائية مثيرة للاهتمام، ومهما بلغت سخافة قصص آشا ڤير فقد أحبّها الناس. وسمّى عدد كبير من الآباء بناتهم «آشا» أو «ڤير» أو «آشا ڤير».

كان اسمي في النهاية: آشا ڤير ألكسندر، ابنة ماديسون ألكسندر وكايسي غيست ألكسندر. وهما شخصان أسودان من الطبقة المتوسطة وعضوان في كنيسة أمريكا المسيحيّة في سياتل. تبنياني خلال حرب (أل-كن)[1] عندما انتقلا من سياتل -التي قُصفت بعدة صواريخ- إلى مدينة كريسينت، حيث عاشت أم كايسي، ليلى غيست. ومن المفارقات، أن ليلى غيست كانت لاجئة من لوس أنجلوس. لكنها لاجئة أغنى من أُمّي بكثير. كريسينت مدينة كبيرة ومزدهرة بين الغابات الحمر، قريبة جداً من بيليكان باي حيث تطوّعت ليلى للعمل في حضانة بيليكان باي. ليلى هي التي جمعَت بيني وبين كايسي. لم تردني كايسي حقاً. كنت طفلة ضخمة، داكنة البشرة، كئيبة، ولم تحبّ شكلي. ذات مرّة سمعتُها تقول لصديقاتها عني: «كانت طفلة

(١) حرب أل-كن: حرب أمريكا ضد ألاسكا وكندا. يسمّيها الناس اختصاراً بحرب أل-كن (ألاسكا-كندا).

كئيبة، بوجه جامد كالصخر. خفتُ عليها، خفت أن لا أحد سيقبل برعايتها غيري».

لقد اعتقدَت كلّ من كايسي وليلى أن من واجب المسيحيّين الأمريكيين الصالحين إيواء الأطفال الأيتام من الأحياء العشوائية والطوائف الوثنية. إذا لم يكن بوسع المرء أن يكون مثل آشا ڤير التي تهبّ لإنقاذ كلّ أنواع الناس، فيمكنه على الأقل إنقاذ طفل أو اثنين من الأطفال التعساء، وتربيته تربية مسيحيّة صالحة.

لقد تبنّاني آل ألكسندر بعد خمسة أشهر من قيام ليلى بجمعي مع ابنتها. لم أصبح ابنتهما تماماً، لكنهما عزما على القيام بواجبهما- تربيتي تربية صالحة وإنقاذي من الحياة المنحلّة التي عشتها مع والديّ البيولوجيين.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٤ ديسمبر، ٢٠٣٢

بدأوا في الآونة الأخيرة بتركنا وشأننا لمزيدٍ من الوقت بعد انتهاء قدّاس الأحد. أعتقد أنهم سئموا من إهدار أيام الآحاد في جلدنا حتّى نحفظ فصولاً من الكتاب المقدس. بعد انتهاء القدّاس الذي قد يدوم لخمس أو ست ساعات وبعد تناول وجبة من الخضروات المسلوقة، نؤمر بالذهاب لنرتاح في مهاجعنا ونشكر الربّ على كرمه معنا.

لا يُسمح لنا بفعل أي شيء. لأنه بحسب وجهة نظرهم، إن القيام بأي شيء عدا دراسة الكتاب المقدّس يعدّ خرقاً للوصية الرابعة. علينا الجلوس بسكون، لا نتحدّث، لا نرتّق ملابسنا أو أحذيتنا- نحن جميعاً نرتدي الأسمال، لأنهم صادروا كلّ ملابسنا عدا غيارين للشخص الواحد. يسمح لنا بقراءة الكتاب المقدس، والصلاة، والنوم. وإذا أمسكونا ونحن نفعل أي شيء عدا ذلك، نتعرض للجلد.

ولكن بالطبع ما أن يتركوننا وشأننا حتّى نفعل ما نشاء. نتبادل الأحاديث همساً، وننظف ونرتّق ملابسنا، ونتبادل المعلومات. وأنا أكتب. لا نستطيع القيام بهذِهِ الأمور في النهار عدا أيام الآحاد.

لا يُسمح لنا بأية إنارة، لا بواسطة المصابيح الكهربائية ولا بواسطة القناديل الزيتية، لذا لا يبقى أمامنا غير ضوء النافذة. خلال بقية أيام الأسبوع، نستيقظ ونخرج والظلام لا يزال مخيّماً، ثم نعود للحبس بعد أن يحلّ الظلام. خلال الأسبوع نحن عبارة عن مكائن- أو حيوانات داجنة.

وسائل الراحة الوحيدة المسموحة لنا هي دلاء قصديرية نستخدمها لقضاء الحاجة، وعبوة ماء بلاستيكية سعة عشرين لتراً مزوّدة بمضخة سيفون بلاستيكية رخيصة. ولدى كلّ واحد منا زبديّة بلاستيكية نستخدمها للأكل والشرب. هناك أمر غريب متعلّق بالزبديّات. إنّها بألوان زاهية من الأزرق والأحمر والأصفر والبرتقالي والأخضر. إنّها الأشياء الوحيدة الملوّنة في غرفة السجن -

أكاذيب ملوّنة بهيجة. إنّها أول شيء يقع عليه بصرك عندما تدخل. تسمّيها ماري سوليفان صحون الكلاب. نحن نكرهها لكننا نستخدمها. وهل أمامنا خيار آخر؟ الممتلكات الشخصية الوحيدة «المشروعة» هي زبديّاتنا، وملابسنا، وبطّانياتنا -لكل فرد بطانية واحدة- ونسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس، طبعة ورقية من إصدار المعسكر المسيحيّ.

في أيام الآحاد، عندما يحالفنا الحظ ويتركوننا وشأننا، أُخرج قلمي وأوراقي وأستخدم الكتاب المقدس كمسند أكتب عليه.

الكتابة هي طريقتي في تذكير نفسي بأنني ما زلتُ إنسانة. وأن الربّ هو التغيير. وأنني سأهرب من هذا المكان. الكتابة تواسيني، رغم أنه شعور قد يبدو غير منطقي.

يجدُ آخرون المواساة في أشياء أخرى. تتلحّف ماري سوليفان وآلي بنفس اللحاف وتمارسان الحبّ في الليل. هذا يُشعرهما بالراحة. تنامان بالقرب مني، وأسمعهما. ليستا الوحيدتين اللتين تفعلان ذلك، لكنهما الثنائي الوحيد الذي بقي معاً لحد الآن.

«هل نثير اشمئزازك؟». سألتني ماري سوليفان ذات صباح بصراحة مميزة. لقد أيقظونا في وقت متأخّر أكثر من العادة، لذا كان بوسعنا رؤية بعضنا البعض في ضوء الفجر. فرأيتُ ماري تجلس بجانب آلي التي لا تزال نائمة.

نظرتُ إليها متفاجئة. إنّها امرأة طويلة -بطولي تقريباً- شديدة

النحافة، بوجهٍ معبّر مثير للاهتمام. تبدو على الدوام كأن أمامها الكثير من الأعمال البدنية الشاقة التي يجب عليها إنجازها، ولكن ليس عندها ما يكفي من الطعام لتأكله. سألتُها: «هل تحبّين صديقتي؟».

رمشَت بعينيها، تراجعَت كما لو أنّها على وشك أن تقول لي ألّا أتدخل في ما لا يخصّني أو أذهب إلى الجحيم. لكنها قالت بصوتها الخشن بعد لحظة: «بالطبع أحبّها!».

ابتسمتُ، رغم أنني لا أعرف ما أن رأتني أبتسم أم لا، وأومأتُ برأسي. قلت لها: «إذن فلتعتَنِ إحداكما بالأخرى. ويجب أن تقفي أنتِ وأخواتكِ معنا، مع بذرة الأرض، إذا وقعت مشاكل». نحن مجموعة بذرة الأرض، أقوى مجموعة بين السجينات. تميل نساء آل سوليفان وآل غاما إلى الاصطفاف معنا، رغم أن لا شيء قيل بهذا الخصوص. والآن لقد قلتُ شيئاً، على الأقل، لماري سوليفان.

أومأَت بعد لحظة ولم تبتسم. لم تكن امرأة تحبّ الابتسام بطبيعتها.

أخشى أن تشي إحداهن بما يحصل بين آلي وماري، ولكن لم تبلّغ أيّة واحدة عن أي شيء لحدِّ الآن، رغم أن «معلّمينا» يوصوننا دائماً بأن نبلّغهم بالخطايا التي ترتكبها الأخريات. تحدث المشاكل بين الحين والآخر. غالباً ما تتشاجر نساء الأحياء العشوائية بسبب الطعام أو الممتلكات، لكن بقيتنا تردعهن قبل أن تتفاقم الأمور وترتفع أصواتهن- قبل أن يأتي «المعلّمون» مطالبين بمعرفة ما يجري ومن المسؤولة.

ثمة امرأة شابة من سكّان المخيمات العشوائية اسمها كريستال بلير. وهي امرأة متنمّرة بالفطرة. تضرب وتدفع الأخريات، وتأخذ طعامهن أو ممتلكاتهن الصغيرة. وتستمتع بنشر الأكاذيب لتفتعل شجاراً. («هل تعرفين ماذا قالت عنكِ؟ لقد سمعتُها بأذني! لقد قالت إنكِ...»). تسرق ممتلكات النساء. وأحياناً تقوم بذلك علناً. إنّها لا ترغب بالممتلكات التافهة. حتّى أنّها تستعرض أمام البقية عندما تقوم بتكسيرها. إنّها تريد من بقية النساء أن يعرفن أن بإمكانها فعل ما يحلو لها، ولا يمكنهن منعها. تريدهن أن يعرفن أنّها قويّة، وهنّ ضعيفات.

علّمناها أن تترك نساء بذرة الأرض وشأنهن، ولا تقترب من ممتلكاتهن. وقفنا معاً، وأخبرناها أن بإمكاننا جعل حياتها أشدّ بؤساً ممّا هي عليه الآن. لقد اكتشفنا عن طريق الصدفة أن كلّ ما تعيّن علينا فعله هو تثبيتها أرضاً والعبث بطوقها. فيعاقبها الطوق، ويعاقبني أنا وبقية المتقمّصات إذا كنّا غبيات بما يكفي لمشاهدتها وهي تتعذّب، لكن ذلك لا يترك أثراً. إذا استخدمنا ملابسها لربطها وتكميمها، وعبثنا بطوقها قليلاً، فسنجعلها تقضي ليلة عذاب جهنمية بين الحين والآخر. وكانت تتركنا وشأننا بعد أن نجعلها تمرّ بليلة كهذه. كانت تعذّب بقية النساء. كانت ترتاح بتعذيب الناس.

إنها تقلقنا. لأنها أكثر جنوناً من الجميع، وهي مثيرة للمشاكل، لكنها تكره «المعلّمين» أكثر منا جميعنا. لن تذهب لهم طالبة المساعدة.

ولكن، بمرور الوقت، قد تفعل ذلك واحدة من ضحاياها يوماً ما. نحن نراقبها. ونحاول منعها من التمادي.

الأحد، ١١ ديسمبر، ٢٠٣٢

لقد أتوا بالمزيد من الناس الجدُد إلى هنا- إنهم أشخاص منهكون وهزيلون، وكلّهم غرباء. تأتي يرقة في كلّ يوم من هذا الأسبوع لتفرغ حمولتها من الأشخاص الجُدد في مجاميع من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أفراد. لقد انتهينا من بناء ملحق طويل أشبه بسقيفة تابع للمدرسة من الخشب الذي أحضره «المعلّمون». يتألف الملحق من أربع غرف جرداء تحتوي على أسرّة على هيئة رفوف، كل غرفة مخصصة لإيواء ٣٠ فرداً. كل جدار مغطى بثلاث مستويات من الرفوف وسلّم أو اثنين. كلّ رف عبارة عن سرير طويل وضيق مخصّص لنوم شخصين، الرأس للرأس أو القدمين للقدمين. تَسلّم كلّ شخص جديد نفس ما عندنا: بطانية، زبدية بلاستيكية، كتاباً مقدساً، ورقاً للنوم وتخزين الأغراض. ما زلنا ننام على الأرضية في غرفنا، لكن كلّ شيء آخر على حاله.

يستخدم الأشخاص الجدُد الدلاء لقضاء الحاجة، مثلنا. أُجبر بعضنا على حفر بالوعة. تلقّيت بضع جلدات لأنني قلتُ إن مكان البالوعة سيّئ. لأنها قد تلوّث المياه الجوفية التي تغذّي الآبار. وقد نمرض كلّنا، بما في ذلك «المعلّمون».

لكن «المعلّمين» يعرفون كلّ شيء. لا حاجة بهم لنصيحة امرأة، وبالأخص امرأة وثنية. بعد بضعة أيام، قرّروا من تلقاء أنفسهم نقل مكان البالوعة أسفل التلّ بعيداً عن الآبار.

علّق أحدهم لافتة على بوابة الدرب المشجّر: «منشأة المعسكر المسيحيّ لإعادة التأهيل». لقد أحاط الصليبيون المكان بسورٍ من أسلاك اللازورد، لذا ما من مدخل أو مخرج آمن إلّا من البوابة. أسلاك اللازورد رفيعة جداً لدرجة يصعب رؤيتها. وتقطّع أجسام الحيوانات البريّة التي تتعثّر فيها.

سألتُ بعض الغرباء عمّا يحدث في الخارج. هل يعرف الناس معسكر التأهيل على حقيقته؟ هل هناك معسكرات أخرى؟ هل هناك مقاومة؟ ماذا يفعل جاريت؟ ماذا يحصل؟

رفض معظم الأشخاص الجدُد الحديث معي. إنهم أناس مرهقون وخائفون وعاجزون. أما أولئك الذين كانوا مستعدّين للحديث، فلا يعرفون شيئاً آخر سوى أنه أُلقي القبض عليهم أو انتُزعوا من حيواتهم بصفتهم مشرّدين، أو سكّان عشوائيات، أو نشّالين تافهين.

الكثير من الأشخاص الجدُد متقمّصون. يقول «المعلّمون» عنهم: «إنّهم بذور خبيثة. وثنيون أبناء مدمنين». يتعاملون مع المتقمّصين المعروفين على أنهم موضع شكّ، واحتقار، ومصدر تسلية قبيحة. من السهل تعذيبهم. لا يشكّلون تحدياً إطلاقاً.

نحن المتقمّصون في بذرة الأرض، لم ينكشف أمرنا بعد. لقد بذلنا قصارى جهدنا لإخفاء هوياتنا، وأعترف أن الحظ حالفنا. لم نواجه ما هو أبعد من طاقاتنا على التحمّل في الأوقات التي قد ينتبه فيها «المعلّمون». كلّنا نملك خبرة سنوات من الاختباء على مرأى من الجميع. حتّى ابنتَي آل مورا، اللتين تبلغان من العمر أربعة عشر وخمسة عشر عاماً فقط، قد تمكّنتا من إخفاء حقيقتهما.

تابعتُ البحث عن أي شخص قد يخبرني على الأقل ماذا يحدث في الخارج. لكنني لم أجد أيّ مُخبر في النهاية. بل هو الذي وجدني. كان شاباً أسود البشرة، نحيفاً جداً، يحمل الندوب، حذِراً، ولكنه ليس متخاذلاً تماماً. اسمه دايفيد تُرنر.

«اسمي دَي»، قال عندما كنّا نحفر جنباً إلى جنب في البالوعة الغبية الخطيرة التي أُهملت لاحقاً. أظن الآن أن السبب الوحيد الذي دفعه للحديث معي هو لأنّ الحديث ممنوع.

نظرتُ إليه باستغراب فيما أرمي ملء مجرفة من التراب خارج الحفرة.

قال: «اسمي دايفيد. ولكن نادِني دَي».

قلتُ دون تفكير: «وأنا أولامينا».

قال: «أحقاً؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «أعندك اسم مختلف؟».

تنهدت، نظرتُ إليه، أحببت ملامحه العنيدة غير المذعنة. ثم قلت: «لورِن».

ابتسم بسرعة وقال: «هل يناديكِ الناس لوري؟».

أجبتُ: «ليس إذا كانوا يتوقّعون مني أن أُجيبهم».

أعتقد أنّنا كنّا نتصرف بلا مبالاة. لأن «معلّماً» كان يراقبنا جلدني بشدة، فتشنج جسدي ووقعتُ على الأرض. لاحظتُ سابقاً أنهم إذا وجدوا رجلاً وامرأة من مرتدي الأطواق يتحدّثان معاً، فأنهم يجلدون المرأة بالعادة. النساء هنّ سبب الفتنة، كما ترون. نحن نجرّ الرجال الأبرياء إلى المتاعب. منذ زمن آدم وحواء والنساء تجرّ الرجال الأبرياء إلى المتاعب. عموماً، جلدوني بقسوة ولكن لمرة واحدة. بعدها صرتُ أكثر حذراً.

يكفي جلدُ المرء عدّة مرّات وبشدة للتسبب بفقدان مؤقت للتوازن والذاكرة. أخبرني دَي لاحقاً أنه رأى رجلاً يُجلد إلى أن نسي اسمه. أنا أصدّقه. أعرف أنني عندما رأيتُ جثة بانكول، والتفتُّ نحو الحارس الملتحي، لم أكن أشدّ عزماً في حياتي كلّها على قتل أحد. لكنني سقطتُ في مكاني بصعقة قويّة، وجلدوني عدّة مرّات. أخبرَتني آلي لاحقاً أنّها ظنّت أنني سأكسر عظامي بسبب الطريقة التي رحتُ فيها أتلوّى وأتخبط على الأرض من الألم. استيقظتُ متوجّعة، مغطاة بالكدمات والالتواءات والخدوش والجروح النازفة من الصخور، لكن هذا لم يكن أسوأ ما أصابني.

أسوأ شيء كان شعوري لاحقاً. لا أقصد الألم الجسدي. فهذا المكان جامِعةٌ للآلام. أقصد ما كتبتُه سابقاً. كنتُ مثل زومبي لعدة أيام بعد جَلدي. لم أتذكّر في البداية حتّى موت بانكول. اضطرت ناتيفيداد وآلي لإخباري بذلك أكثر من مرة. ولم أتذكّر ماذا حدث لأيكورن. ولماذا نحن محبوسون في غرفة واحدة من المدرسة، وأين الرجال، وأين الأطفال...

لم أكتب عن هذا حتّى الآن. عندما فهمتُ، خفتُ حدّ الموت. خفتُ لدرجة أنني لذتُ بإحدى الزوايا وأنا أجهش بالبكاء مثل طفل مرتعبٍ عمره ثلاث سنوات.

بعد نجاتي من روبليدو، عرفتُ أن الغرباء قد يأتون ويسرقون ويدمرون كلّ شيء وكلّ من أحبّ. يمكن سلب الناس والممتلكات. ولكن، بطريقة ما، لم يخطر ببالي أنه يمكن أيضاً... سلب أجزاء من عقلي. عرفت أنني قد أُقتل. لم أتوهم بهذا الشأن قطّ. وقد أصبح مُعاقة. عرفتُ هذا أيضاً. ولكن لم يخطر ببالي البتّة أن شخصاً آخر، بمجرد أن يضغط على زرّ صغير، وهو يبتسم، ثم يضغط عليه مراراً وتكراراً...

لقد ابتسم، المعلّم الملتحي. تذكّرت هذا لاحقاً. تذكّرت كلّ شيء لاحقاً. عندما تذكّرت كلّ شيء... حسناً، عندها تراجعتُ إلى الزاوية مرعوبة وأرتجف وأئن. لقد ابتسم ابن الفاجرة وهو يضغط على الزرّ مراراً وتكراراً كأنه يضاجعني، وكشّر عندما رآني أئن وأتلوّى.

قال أخي إن الطوق يجعل المرء يحسد الموتى. بقدر ما يبدو ذلك سيئاً، إلّا أنه لم يوصل لي، أو عجز أن يوصل لي فكرة كيف يجعلك الطوق تكره. إنه يعلّمك درجة جديدة من الكراهية المطلقة. لم أعرف الكراهية إلى أن وُضِع هذا الشيء حول عنقي. الآن، كلّ ما بيدي فعله أحياناً هو منع نفسي من محاولة قتل أحدهم مرّة ثانية ثم الموت على طريقة إيميري.

كنتُ أتحدّث لفترات متقطعة مع دَي تُرنير. كنّا نتحدّث كلما نقدر، وكلما مرّ أحدنا بالآخر أو كُلّفنا بالعمل في نفس المكان. طلبتُ من ترافيس وهاري وباقي الرجال الحديث معه. أعتقد أنه سيخبرنا بأي شيء من شأنه مساعدتنا. وإليكم ملّخصاً بكلّ ما أخبرنا بهِ لحد الآن:

لقد سار دَي عبر المناطق الجبلية من آخر وظيفة بائسة براتب زهيد شغلها في رينو، نيفادا. تنقّل شمالاً وغرباً، على أمل إيجاد وظيفة تنقذه من الفقر. لم تكن عنده عائلة، ولكنه كان يسافر برفقة صديقيه من أجل الحماية. سار كلّ شيء على ما يرام إلى أن وصلوا إلى يوريكا. سمعوا هناك بوجود كنيسة تقدّم مبيتاً وطعاماً وعملاً مؤقتاً للرجال الراغبين. كانت الكنيسة- ومما لا يدعو للمفاجأة- كنيسة أمريكا المسيحيّة.

كان العمل يتعلّق بتقديم المساعدة في ترميم وطلاء بضعة منازل قديمة اعتزمَت الكنيسة على استخدامها كجزء من دار الأيتام الخاص بها. لم يكن هنالك أيتام بالقرب- أو على الأقل لم يرَ

دَي أيّ أيتام، وإلا كنّا سنلحّ عليه دون هوادة بخصوص أطفالنا. قد يُخيّل لكم أن في هذا العالم القذر ما يكفي من الأيتام. فكيف تجرؤ ما تسمي نفسها بكنيسة على خلق المزيد من الأيتام ببرقاتها وأطواقها؟

عموماً، لقد أحبّ دَي وصديقاه فكرة فعل الخير للأطفال والحصول بالمقابل على بضعة دولارات كأجر بالإضافة لمبيت ووجبات طعام. لكنهم كانوا تعيسي الحظ. فقد حاولت مجموعة صغيرة من الرجال سرقة المكان في أول ليلة ناموا فيها في مهجع الرجال التابع للكنيسة. يقول دَي إن لا علاقة له بالسرقة. يقول إنه لا يأبه البتة سواء صدّقناه أم لم نصدّقه، لكنه لم يسرق قط، إلّا طعاماً ليسدّ جوعه، ولم يسرق من كنيسة في حياته قطّ. لقد تربّى على يد عمّه وعمّته الملتزمين دينياً، لقد ماتا، ولكن ثمّة أشياء لن يُقدِم على فعلها أبداً والفضل في ذلك لتربيتهما. قيل إن اللصوص كانوا سود البشرة، ودَي وصديقاه كانوا سود البشرة. لذا لبستهُم التهمة.

وجدتُ نفسي أصدّقه. قد يكون هذا غباءً مني، لكنني معجبة به، ولا يبدو لي أنه كاذبٌ أو لصّ كنائس.

قال إن حرّاس الكنيسة حوّطوا المهجع، فاستيقظ الرجال وركضوا في كلّ الاتجاهات. كانوا كلهم رجالاً أحراراً فقراء. عندما اندلعت الاضطرابات، وعرفوا أنهم لن يجنوا منها ربحاً، لم يفكّر أغلبهم سوى بالفرار للنجاة بأنفسهم- بالأخص عندما بدأ إطلاق النار.

لم يكن عند دَي سلاح. أحد صديقيه كان يملك سلاحاً، لكنهم تفرقوا عن بعضهم البعض ثلاثتهم. ثم أُلقي القبض عليهم جميعاً لاحقاً.

أُلقي القبض عليه بالإضافة إلى ثمانية عشر أو عشرين رجلاً آخرين، وسُجن كلّ سود البشرة. أُدين بعضهم بارتكاب جرائم عنيفة- السطو المسلّح والاعتداء. أُدين البقية بالتشرّد- وهي تهمة أخطر شأناً ممّا كانت عليه في السابق. ثبتت إدانة المشرّدين وحكم عليهم بالعمل بالسخرة لصالح كنيسة أمريكا المسيحيّة. أُدين صديقا دَي بتهم جنائية كجزء من المجموعة الأولى، لأنه أُلقي القبض عليهما معاً وكان بحوزة أحدهما سلاح ناري. كان دَي جزءاً من مجموعة المشرّدين. حُكم عليه بالعمل بالسخرة لمدة ثلاثين يوماً لصالح الكنيسة. لقد نُقل من مكان إلى آخر وأُجبر على العمل لأكثر من شهرين. جلدوه عندما اشتكى قائلاً إنه قد أنهى فترة عقوبته. قالوا له في البداية إنهم سيطلقون سراحه إذا أثبت لهم أنه يمتلك عملاً بانتظاره في الخارج. ولكن بما أنه غريب عن المنطقة، وبما أنهم لم يمنحوه أيّة فرصة للبحث عن عمل، بالطبع، كان من المستحيل عليه أن يجد أي عمل في الخارج. من ناحية أخرى، تم إنقاذ المشرّدين من أبناء المنطقة، واحداً تلو الآخر، من قبل أقاربهم أو أصدقائهم، الذين تعهّدوا إما بمنحهم وظائف أو إطعامهم وإيوائهم لكي لا يظلّوا مشرّدين.

اشتغل دَي في أعمال البناء، والطلاء، والبستنة، والصيانة. وقد

خضع لفحص جسديّ شامل، وطُلب منه التبرع بالدم مرتين. حثّوه على التبرع بكلية أو قرنية، لكي يطلَق سراحه بعد شفائه. وقد أرعبه هذا. ورفضه، بيد أنه لم يسعهُ غير التفكير بأن من الممكن وفي أي وقت أخذ أعضائه، وفي الواقع، قتله. من سيعرف؟ من سيهتمّ؟ وتساءل لماذا لم يقتلوه بعد.

ثم نقلوه إلى المعسكر المسيحيّ لإعادة التأهيل. قالوا له إن أمامه أملاً هناك- حيث يمكنه إذا اختار، أن يتعلّم كيف يصبح خادماً للرب والكنيسة الحقيقية ومواطناً مخلصاً لأعظم دولة في العالم. قال إنه مسيحيّ أصلاً. قالوا له «إذن أثبت هذا». قالوا إنهم قد يقبلون به بينهم إذا حكموا أنه تائب صادق، وقد تعلّم حقائق الكتاب المقدس.

عندها قرأ لهم دَي الآية ١٦ من سفر الخروج الإصحاح ٢١: «وَمَن سَرَقَ إِنسَانًا وَبَاعَهُ، أَو وُجِدَ فِي يَدِهِ، يُقتَلُ قَتلًا». جُلد دَي بالطبع بسبب اختياره لهذا النص بالذات. وقيل له إن أتباع كنيسة أمريكا المسيحيّة يعلمون يقيناً أن حتّى الشيطان يستطيع الاقتباس من الكتاب المقدس.

يقول دَي إن أغلب الناس لا يعلمون بحقيقة المعسكرات. لقد عرف من خلال حديثه مع رجال آخرين ممن يرتدون الأطواق أن هنالك عدّة معسكرات صغيرة على نفس شاكلة المعسكر المسيحيّ، وهنالك على الأقل معسكران آخران كبيران- أكبر بكثير من المعسكر المسيحيّ. أحد هذين المعسكرين الكبيرين يقع في سجن

مهجور في مقاطعة ديل نورت والآخر في مقاطعة فريسنو. يقول إن الناس لا يعرفون كيف تتمّ معاملة المشرّدين الفقراء الأحرار، لكنّه يخشى أنهم لن يأبهوا حتّى لو عرفوا الحقيقة. على الأغلب، سيفرح الناس الذين يمتلكون محل إقامة قانونيّ لرؤية الكنيسة تُحكم السيطرة على الفقراء المشرّدين الأحرار الذين يسرقون، ويتعاطون المخدرات ويتاجرون بها، وينشرون الأمراض.

قال دَي: «عندما كنتُ أعيش في منزل عمّي وعمّتي سابقاً، سيكون هذا نفس رأيهما. نحن نجوب الطرق السريعة ونتسوّل وننبش ونبحث عن العمل، وكل هذا يذكّر الناس أن ما حصل لنا يمكن أن يحصل لهم. لا يروق لهم التفكير في مثل هذه الأمور، لذا يغضبون منا. يجعلون الشرطة تلقي القبض علينا أو تطاردنا لكي نخرج من بلداتهم. إنهم يشتموننا، ويتمنّون لو يقوم أحدهم بالتخلّص منا. والآن، أحدهم يفعل هذا بالضبط!».

إنه محقّ. هنالك الكثير من الناس ممّن يظنون أن الكنيسة تقوم بفعلٍ كريم وضروريّ- تعليم الصعاليك العمل وأن يصبحوا مسيحيّين صالحين. لن يعترض أحدٌ على ما يحدث إلى أن تغدو المعسكرات أكبر بكثير، وعندما لن تضمّ داخلها المشرّدين والصعاليك فقط. بالنسبة لنا، نحن جماعة بذرة الأرض، فقد حدث هذا لنا بالفعل، ولكن من نحن؟ مجرد أتباع طائفة غرباء أطوار نمارس طقوساً غريبة، لذا لا بدّ من وجود أشخاص لطفاء عاديين ستسرّهم رؤيتنا ونحن نتعلّم حسن السلوك.

أتساءل كم عدد الناس الذين سيُتّهمون باطلاً ويعذّبون -يُعاد تأهيلهم- قبل أن يبدأ غالبية الأمريكيين بالاهتمام؟ كيف يبدو اتّهام الناس بالباطل لبقية الدول؟ هل يعلمون؟ هل سيهتمّون؟ أعرف أن هناك أشياء أسوأ تحصل هنا في الولايات المتحدة وفي أماكن أخرى. هنا الحرب على سبيل المثال.

في الحقيقة، نحن في حالة حرب. تخوض الولايات المتحدة حرباً ضد ألاسكا وكندا. يسمّيها الناس اختصاراً بحرب أل-كن. أعرف أن جاريت رغب بحرب، وكان يعمل جاهداً لشن الحرب. ولكنّي لم أعرف أن الحرب بدأت إلّا بعدما أخبرني دَي. هنالك قصف صواريخ متبادل ومعارك حدودية طاحنة. أخبرتُ آلي بهذا لاحقاً، وفكّرَت بالأمر للحظة.

سألَت: «من المنتصر؟».

هززتُ رأسي. قلتُ: «لم يخبرني دَي. وأنا لم أسأل. اللعنة!».

نفضَت كتفيها وقالت: «نعم. لا يشكّل الأمر فارقاً بالنسبة لنا. أليس كذلك؟».

قلت: «لا أعلم».

يبلغ عددنا ٢٥٠ نزيلاً تقريباً. بينما يبلغ عدد الحرّاس بحسب آخر إحصاءاتنا عشرين حارساً. تأمّلوا فقط: لو تحرّكنا كلنا في وقت واحد، كلّ عشرة أو اثنا عشر مقابل حارس واحد، ربما نتمكّن من... من...

أو ربما سنموت مثل تيريزا. بإمكان «معلّم» واحد فقط، وبضغطة زرّ من إصبعه، أن يطرحنا كلّنا على الأرض ونحن نتخبط ونتلوّى. وقد نلقى حتفنا جميعنا وفوراً، من دون أن نفعل أي شيء أكثر من إخافة حراسنا.

الأحد، ١٨ ديسمبر، ٢٠٣٣

لقد اغتصبوني.

حدث هذا مرتين. مرّة يوم الأحد، والأخرى البارحة. إنّها هدية أمريكا المسيحيّة لي بمناسبة الكريسماس.

الأحد، ٢٥ ديسمبر، ٢٠٣٣

أحتاج للكتابة عمّا يحدث لي. لا أريد، ولكنني بحاجة لذلك.

أن يكون الشخص متقمّصاً يعني أنه يشعر باللذّة والألم -اللذّة الظاهرة والألم الظاهر- للأشخاص الآخرين. مرّت أوقات شعرتُ فيها بلذّة واحد من «معلّمينا» عندما جلد أحدهم. أول مرّة حدث فيها هذا- أو بالأحرى أول مرّة فهمت فيها ما يحدث، تقيأت.

أنا أتجنّب النظر عندما يصرخ أحدهم من شدة الألم. وإذا صادف أن رأيتُ أحدهم يسقط على الأرض ويتلوّى من الألم، أتدارك نفسي وأستند على حائط أو أداة أو صديق أو شجرة. ولكن، لسبب ما، لم يخطر ببالي حماية نفسي من لذّة «المعلّمين».

مع ذلك، ثمّة عدد قليل من الرجال هنا، القليل من «المعلّمين» الذين يجلدوننا إلى أن يصلوا لمرحلة النشوة الجنسية. يحتاج هؤلاء الرجال لصرخاتنا وتشنجاتنا وتوسلاتنا وأنيننا لكي يشعروا بالراحة الجنسية. أعرف ثلاثة منهم بحاجة دائمة إلى جلد أحدهم لكي يشعروا باللذّة الجنسية. أغلب الأحيان يجلدون امرأة ثم يغتصبونها. وأحياناً يكفيهم الجلد. لا أريد أن أعرف كلّ هذا بوضوح كما أعرفه، ولكن ليست بيدي حيلة دون ذلك. يولم هؤلاء الرجال بألمِنا- ويسمّوننا طفيليات.

يقع الاغتصاب تحت ستار ظاهريّ من السرية. ففي نهاية المطاف، يأتي هؤلاء الرجال إلى المعسكر لتناوب واجبات الحراسة. ثم يتعيّن على بعضهم على الأقل العودة إلى زوجاتهم وأطفالهم. لا يزال الرجال الذين يأتون إلى هنا يعيشون في العالم الحقيقي، باستثناء الكاهن جول لوك ومساعديه الثلاث، فيعملون هنا بدوامٍ كامل. إنهم يغتصبون ويتظاهرون بعدم قيامهم بذلك. يقولون إنهم متديّنون، لكن السلطة أفسدت حتّى أفضلهم. لا أحبّ الإقرار بذلك، لكن بعضهم، بطريقة غريبة، مجرّد رجال محترمين عاديين. أقصد أنهم يؤمنون بما يفعلونه. ليسوا كلّهم ساديين أو سايكوباثيين. يبدو أن بعضهم يؤمن حقاً أن جمع المجرمين العاديين المُدانين بتهم بسيطة في مكانٍ مثل المعسكر المسيحيّ هو أمرٌ صائب وضروري من أجل مصلحة البلاد. إنهم لا يقبلون بالاغتصابات والجلد غير الضروري، لكنّهم مع ذلك يؤمنون أننا، نحن السجناء، أعداء

البلاد، بطريقة ما. أخبرهم رؤساؤهم أن الطفيليين والوثنيين من أمثالنا هم سبب خراب «أمريكا العظيمة». كانت أمريكا في السابق أقوى بلد على وجه الأرض، لكن أناساً من أمثالنا تفاحشوا واتّبعوا أدياناً أجنبيّة ورفضوا القيام بواجبهم كمواطنين. وقد فقدنا، نحن النساء، حشمتنا وقدّمنا أنفسنا إلى الشوارع، وبدلاً من أن يسيطر علينا الرجال، صاروا قوّادينا.

هذه هي النسخة المختصرة لمدى فسادنا وسبب استحقاقنا للأطواق. أما الجانب الآخر لهذه الصورة فهو كيف يحاول «معلّمونا» المثابرون الكادحون «مساعدتنا».

أحد الرجال ممن يلاحقون كريستينا أخت خورخي متخصّص في هذا السلوك الغريب بالشفقة على الذات. إنه يكلمها عن زوجته المُقعدة، وعن أولاده عديمي الاحترام، وعن مدى فقرهم. تقول إنّها توسّلت إليه ليتركها وشأنها، لكنه رماها أرضاً واغتصبها. قال إنه مسيحيّ أمريكي مخلص ومثابر، ويستحق بعض المتعة في حياته. لكنه حالما انتهى منها، ظل يتوسّل إليها لكي تسامحه. يا للجنون!

اغتُصبتُ في نهاية يوم ممطر وبارد جداً. كلّفوني بالطبخ. هذا يعني أنني أستطيع تنظيف نفسي، وأبقى في الدفء وبعيداً عن المطر، وأحصل أخيراً على ما يكفيني من الطعام. كنتُ أشعر بالامتنان، وبالخجل من امتناني في نفس الوقت. عملتُ مع ناتيفيداد وامرأتين من آل غاما، كاتارينا وجوان، وفي نهاية اليوم، أخذونا إلى الأكواخ واغتصبونا.

كنت الوحيدة المتقمّصة من بيننا نحن الأربعة. كنتُ الوحيدة من بيننا نحن الأربعة، التي اضطرت لتحمّل ليس فقط ألمي وإذلالي، بل أيضاً المتعة الجامحة العارمة التي شعر بها مُغتصبي. ما من كلمات يمكنها أن تعبّر عن هذهِ القباحة الفصامية المنحرفة.

لا يُسمح لنا بالاستحمام كثيراً. لن نحصل على ماء ساخن وصابون ما لم نُكلّف بمهمة الطبخ. إذا طلبنا أن يسمحوا لنا بالاستحمام، يقولون إن هذا من الترف. مع ذلك ينظرون لنا بقرفٍ واحتقار عندما تفوح منا رائحة كريهة. يقولون إننا «نتنات من الخطيئة».

فليكن.

قرّرت أن أترك نفسي للنتانة إلى أن تفوح رائحتي كجثة. أنا أفضل أن أصاب بالمرض من شدة الوساخة على أن أجذب اهتمام أحد هؤلاء الرجال. سأكون قذرة. سأكون نتنة. لن أُعر اهتماماً لشعري أو ملابسي.

يجب أن أفعل هذا، وإلا سأقتل نفسي.

٢٠٣٥

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

الذات هي:

الذاتُ هي إدراكٌ جسديّ مُجَسَّد. الذاتُ هي الفكرُ، الذاكرةُ، الإيمانُ. الذاتُ تخلقُ. الذاتُ تهلكُ. الذاتُ تتعلّمُ، تكتشفُ، تصيرُ. الذاتُ تصوّر. الذاتُ تتكيّفُ. تبتدعُ الذاتُ أسـبابَها للحياةِ. لكي تصوّرَ الربَّ، صوّر الذاتَ.

١٤

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

اطمئن.

كلّ خطوةٍ نحو المصيرِ،

وكلّ إنجازٍ للمصيرِ،

لا بدّ أن يعنيَ بداياتٍ جديدةً،

عوالمَ جديدةً،

انبعاث لبذرة الأرض.

فُرادى،

كلّنا فانونَ.

ولكن ببذرة الأرض،

وبالمصيرِ،

نجتمعُ.

هادفونَ،

خالدونَ،

لقد تحمّلَت أمي، بطريقة ما، أكثر من سنة من العبوديّة في المعسكر المسيحيّ. أما كيف فعلَت ذلك، كيف نجت منه، فلا يمكنني إلّا التخمين من خلال كتاباتها في عام ٢٠٣٣ وعام ٢٠٣٥. لقد اختفت سجّلاتها عن العام ٢٠٣٤. لقد كتبَت خلال عام ٢٠٣٤. ليس عندي شكّ في هذا. لا يمكن أنّها تحمّلت قضاء عام كامل من دون أن تكتب. لقد عثرتُ بين الحين والآخر على إشاراتٍ عرضية تُحيل إلى ملاحظات كتبَتها في ذلك الوقت. لا شكّ في أنّها آنذاك كانت تكتب على أيّة قصاصة ورقية في متناول يدها.

من الواضح أنّها أحبّت المواظبة على الكتابة عندما تستطيع، بيد أني أعتقد أن الكتابة قد ساعدَتها، سواء أكانت قد واظبت عليها أم لا. فعل الكتابة بحدّ ذاته كان نوعاً من الاستشفاء.

أهمّ خسارة هي: لقد وقعَت محاولة هرب كبيرة واحدة على الأقل. لم يشارك فيها جماعة أيكورن، ولكن بالطبع عوقبوا بسببها مع بقية نزلاء المعسكر المسيحيّ. كان قائد العملية هو دايفيد تُرنير بحدّ ذاته، نفس الرجل الذي التقَت به أُمّي وأُعجبت به عام ٢٠٣٣. أعرف هذا لأنني تحدّثت مع أشخاص كانوا هناك، ونجوا من المحاولة، وما زالوا يتذكرون المعاناة.

أفضلُ مصادري امرأة صريحة تُدعى كودي سميث، أُلقي القبض عليها في ديسمبر عام ٢٠٣٤ بتهمة التشرد في غاربرفيل ونُقلت إلى

المعسكر المسيحيّ. وهي واحدة من الناجين من التمرّد، بالرغم من أنّها أُصيبت نتيجة لذلك بتلف في الأعصابِ والعمى النهائي. أوسعوها ضرباً وركلوها وجلدوها إلكترونياً. إليكم قصتها كما روتها لي:

«كانت جماعة دَي تُرنير على قناعة من أنّ بمقدورهم التغلّب على الحراس بالانقضاض عليهم، ثلاثة أو أكثر على واحد. ظنّوا أن بمقدورهم قتل الحراس قبل أن تُعيقهم الأطواق. رفضت لورِن أولامينا. قالت إن الحراس لا يجتمعون في مكانٍ واحد أبداً، ولا يخرجون جميعهم في نفس الوقت. قالت إن إفلات حارسٍ واحد فقط يعني مقتلنا جميعاً بضغطة زرّ واحدة من إصبعه. كان دَي معجباً بها. لا أعرف السبب. كانت امرأة ضخمة كرجلٍ وليست جميلة، لكنه أُعجب بها. بيد أنه لم يصدّق أنّها كانت محقّة. ظنّ أنّها خائفة. لكنه عذرها لأنها امرأة. دفعها هذا للجنون. كلما حاولت إقناعه عن العدول عن الأمر، زاد عناده. ثم سألها ما إذا كانت ستُبلّغ عنه، فصمتت واستشاطت غضباً، لدرجة أنه تراجع خطوة للوراء. كان بمقدورها ذلك. لم يكن من عادتها أن تصرخ إذا غضبت، كانت تصمت فحسب. لقد كانت مخيفة.

سألَته من يحسبُها بحق الجحيم. فقال إنه بدأ يشكّ فيها. أعقب ذلك مشاعر عدائية. توقّفَت عن الحديث معه وبدأت تتحدّث مع جماعتها. كان من الصعب بل من الخطيرَ الكلام. كان ذلك ضدّ القوانين. توجّب على الناس التهامس والغمغمة والحديث من دون تحريك شفاههم ومن دون النظر إلى الأشخاص

الذين يتحدّثون معهم. إذا قُبض عليهم وهم يتحدّثون فسيُعاقبون بالجلد. كانت الرسائل تُنقل شفاهاً من شخص لآخر. فتتغيّر مضامينها أحياناً أو تُحرّف فلا يمكن معرفة ماذا كان يحاول الآخرون قوله لك. وأحياناً يبلّغ أحدهم الحراس. عادة ما تحصل الوشاية من قبل الأشخاص الجدد الذين يجمعونهم من الشارع- يبلّغون الحراس بما ليس من شأنهم. ويحصلون بالمقابل على المزيد من الطعام أو قميصٍ دافئ أو أشياء من هذا القبيل. ولكن إذا ضبطناهم متلبّسين، فلن يقوموا بهذا ثانية. لقد حرصنا على هذا. مع ذلك فقد كان هنالك بعض الوشاة. كانوا يبلّغون الحراس للحصول على مكافأة أو لأنهم كانوا خائفين أو لأنهم بدأوا يصدّقون كلّ تلك المواعظ ودروس الكتاب المقدس واجتماعات الصلاة والأشياء الأخرى التي أرغمونا على الجلوس أو الوقوف لسماعها حتّى عندما كنّا منهكين للغاية. أظن أن قلّة من النساء قمن بالوشاية لكي تتحسن معاملة الحراس معهن في الفراش. أحبّ بعض الحراس تعذيبنا. لذا في المحصلة كان الكلام خطيراً بالنسبة لنا حتّى لو لم يكن هنالك حارس بالقرب.

عموماً، لم يبدُ أن أيّ أحدٍ قد وشى بدَي تُرنِر. أوصت لورِن أولامينا جماعتها أن يتمددوا على الأرض ووجوههم للأسفل وأيديهم خلف رقابهم عندما تبدأ عملية الهروب. لم يرغب بعضهم بذلك. ظنوا أن دَي على صواب. لكنّها استمرّت بتوجيههم، وألحّت عليهم، وسألتهم عن الجلد الذي شهدوه- جلَدَ أحد الحراس ثمانية

أو تسعة أشخاص في نفس الوقت بضغطة زر واحدة... عُوقبَت هي نفسها بالجلد مراراً وتكراراً لأنها تحدّثت معهم- مع الرجال من جماعتها بالأخص. أعتقد أن دَي كان يحاول إقناعهم في الليل بعد أن يُفصل الرجال عن النساء. يمكنكِ تخيّل الهراء الذي قد يقوله الرجال لبعضهم البعض عندما يريدون ثني رجال آخرين عن الاستماع لامرأة. بحسب ما سمعتُه كان ترافيس دوغلاس يحافظ على وحدة الصفوف بين رجال أولامينا. لم يكن رجلاً ضخماً، لكنه كان قويّاً. وثق به الناس، وأنصتوا له، وأحبّوه. وكان ترافيس يثق بأولامينا لسبب ما. لم يعجبه ما طلبَت منهم أن يفعلوه، لكنه... كان مؤمناً بها، هل تفهمين.

عندما بدأَت عملية الهروب، قام معظم جماعة أولامينا بما أوصتهم بهِ. وقد أنقذهم هذا من التعرّض لإطلاق النار والضرب المبرح الذي تعرّض له أشخاص مثلي لم ينبطحوا على الأرض بسرعة كافية. بدأت جماعة دَي بالإمساك بالحراس، وانبطحت جماعة أيكورن بسرعة. عندما صعقونا، كانوا كلّهم على الأرض، باستثناء شخص يدعى كينغ، جيف كينغ، وهو رجل أشقر وسيم، وثلاث نساء. كان اسم اثنتين منهما سكولاري -ربما كانتا أختين أو قريبتين- والثالثة اسمها شانا رايان. أعرف شانا رايان. لم تعُد قادرة على التحمّل أكثر. كانت حبلى، ولكن لم يظهر حملها للعيان بعد. لقد فكّرَت أنّها إذا ماتت وأخذَت معها أحد الحراس وطفل الحارس، فهذهِ صفقة رابحة. كان هنالك رجل- ابن فاجرة قبيح لا يستحم غير مرّة في

الأسبوع. أجبرها على الذهاب إلى كوخه لمرتين أو ثلاث في الأسبوع. كان يحصل على متعته منها. أرادت قتله. لكنها لم تستطع.

تمكّنت جماعة دَي من قتل حارس واحد، حارس واحد فقط. وقد قتلَته امرأة- تلك الساقطة الشريرة كريستال بلير. لقد ماتت بسبب ما فعلته، لكنّها قتلَته. لا أعرف سبب كرهها الشديد للحراس. لم يغتصبوها، ولم يعيروها اهتماماً. أظن أنّها كرهتهم لأنهم سلبوها حريتها. كانت مصدر إزعاج حقيقي للجميع عندما كانت حيّة، لكن الناس احترموها نوعاً ما بعد موتها. لقد مزّقَت بلعوم الحارس بأسنانها!.

ضرب جماعة دَي حارسين آخرين، لكن هذا كلّفهم ١٥ شخصاً بالمقابل. خمسة عشر قتيلاً كحصيلة مبدئية. لاحقاً، جُلد آخرون إلى أن ماتوا أو أوشكوا على الموت. تعرّض آخرون للركل والسحق والجَلد أيضاً. كنتُ من ضمنهم لأنني كنتُ قريبة جداً من كريستال بلير عندما قتلَت ذلك الحارس. قُتل دَي أيضاً، ولكن في وقت لاحق. لقد شنقوه. لقد ضربوه في البداية ضرباً مبرّحاً، لدرجة أنني أشكّ أنه كان واعياً لِما يحدث من حوله. ثم شنقوه لاحقاً. ضربوا بقيّتنا ولكن ليس بنفس القدر. من كان بمقدوره المشي يجب أن يعود للعمل في اليوم التالي. ولا يهمّ إن كنّا مصابين بالصداع أو كانت أسناننا مكسورة أو مصابين بجروح وكدمات من ركلنا بالجزمات. قال الحراس إنهم إذا لم يتمكّنوا من إخراج الشيطان منا بالضرب المبرّح، فسيخرجونه منا بالعمل الشاق. اختفى الأشخاص الذين

لم يستطيعوا المشي. لا أعرف ماذا حصل لهم، ربما قتلوهم، ربما أخذوهم لمكان آخر لعلاجهم. لم نرهم ثانية قطّ. عمل الجميع ست عشرة ساعة متواصلة. كانوا يجلدوننا إذا توقفنا للتبول. اضطررنا للتبول على أنفسنا والاستمرار في العمل. استمروا بمعاملتنا على هذا النحو لثلاثة أيام. نعمل ست عشرة ساعة متواصلة: نحفر حفرة. نردمها. نقطع الأشجار. نحتطب. نحفر حفرة أخرى. نردمها. ندهن الأكواخ. نجزّ العشب الضار. نحفر حفرة. نردمها. نحمل الصخور من التلال. نكسّر الصخور. نحفر حفرة. نردمها.

أُصيب شخصان بالجنون. انهارت إحدى النساء على الأرض وجلست تصرخ وتبكي. ولم تتوقف. أما الشخص الآخر، فهو رجل ضخم بندوب على وجهه، بدأ يركض ويصرخ- لا يقصد مكاناً، يدور في حلقات. لقد اختفيا أيضاً. ثلاثة أيام على هذه الحال. لم نحصل على ما يكفي من الطعام. لا يمكن الحصول على ما يكفي من الطعام إلّا إذا كلّفونا بواجب الطبخ. كان يلقون العِظات علينا كلّ ليلة، عن نار جهنم والعذاب الأبدي ويرغموننا على حفظ مقاطع من الكتاب المقدس لساعة على الأقل قبل أن يتركونا ننام. ثم كأننا لم ننمَ إطلاقاً. يوقظوننا لنُعيد الكرة. كان جحيماً. جحيماً حقيقيّاً. حتّى الشيطان لم يكن بمقدوره أن يأتي بعذاب أشدّ».

كانت كودي سميث امرأة مسنّة عندما التقيتُ بها، أُمّيّة، فقيرة، ذات ندوب. لو صحّت روايتها عن تبعات محاولة الهرب،

فلا عجب أن أُمّي لم تكتب قطّ عمّا حدث بعد أسرها. كما أنني لم ألتقِ بأي شخص سمعها تتحدّث عن ذلك.

لكنها على الأقل نجحت في إنقاذ أغلب جماعتها خلال التمرد. خسرت ثلاثة منهم فقط في البداية، ثم خسرت لاحقاً شخصين آخرين وهما ابنتا آل مورا بعد أن انكشف أمرهما كمتقمّصتين. أتساءل ما إذا انكشف أمر كلّ المتقمّصين. ولكن من ناحية أخرى، لا أظن أن صرخات المتقمّصين ستجتذب اهتماماً خاصاً وسط صراخ الجميع. لا أعرف كيف انكشف أمر ابنتَي آل مورا، لكنّ كودي سميث ومصادري الأخرى أكّدوا ذلك. وربما كان هذا هو السبب خلف تعرّضهما للاغتصاب أكثر من بقية النساء بعد التمرد. لكنّهما لم تبلّغا عن وجود متقمّصِين آخرين.

هكذا مرّت سنة ٢٠٣٤ على أمي. ليت ذلك لم يحدث لها. ليت ذلك لن يحدث لأي أحد.

ما حدث لأمي ولكل المعتقلين من أمثالها كان غير قانونيّ من كلّ النواحي. كان إجبار غير المجرمين على ارتداء الأطواق أمراً غير قانوني، وأيضاً لم يكن من القانوني قطّ مصادرة ممتلكاتهم وفصل الأزواج عن الزوجات وإجبارهم على العمل من دون أجر من أي نوع. أما قضية فصل الأطفال عن آبائهم فيمكن تمريرها قانونياً لحدٍ ما.

كانت قوانين التشرّد فضفاضة، وقد يخسر الآباء المشرّدين حضانة أولادهم، ما لم يكونوا قادرين على إثبات وجود منزل يأويهم

في فترة زمنية محددة. في بعض المقاطعات، توفّر الكنائس والأعمال التجارية المحلّية الوظائف، ويجب أن تشمل الوظيفة على الأقل مأوى ووجبات طعام للعائلة، حتّى لو لم تشتمل على راتب. غالباً ما تصبح النساء المشرّدات خادمات منزليات أو أمّهات بديلات بأجرٍ زهيد. بينما لم تقدّم مقاطعات أخرى أيّة مساعدة للمشرّدين. كان يجب عليهم توفير منازل مناسبة لأولادهم، وإلا سيُنقَذ الأولاد من الآباء غير الصالحين وغير الكفوئين.

ومما لا يدعو للمفاجأة، أنه غالباً ما «يُنقذ» الأطفال بهذه الطريقة من الآباء المشرّدين المتّهمين بالوثنية أكثر من أولئك الذين اعتُبروا مسيحيّين مقبولين. «الوثنيون» الذين كانوا فقراء ولكن ليسوا مشرّدين حقيقيين وليسوا بلا مأوى، قد يجدون أنفسهم مصنفين كمشرّدين لكي يؤخذ أطفالهم منهم وتتبنّاهم بيوت أمريكية مسيحيّة صالحة. المغزى من هذا بالطبع هو تربيتهم كأمريكيين مسيحيّين صالحين بالرغم من شرور آبائهم، أو في أفضل تقدير، أخطاء آبائهم.

من الصعب التصديق أن هذه الأمور قد حدثَت هنا، في الولايات المتحدة، في القرن الواحد والعشرين. لكنّها حدثت بالفعل. لم يكن ينبغي أن تحدث، بالرغم من كلّ الفوضى التي عمّت سابقاً. كانت الأوضاع في طريقها للتحسّن. قام أشخاص من أمثال أُمّي بتأسيس مشاريع صغيرة، وكانوا يعيشون ببساطة، وفي طريقهم للازدهار. انخفضت الجرائم بالرغم من الأحداث المأساوية التي وقعت لآل نوير ولخالي مارك. حتّى أن أُمّي قالت إن

الأمور بدأت تتحسّن. لكن أندرو ستيل جاريت تمكّن من ترويع وتفريق الناس والتنمّر عليهم، حتّى يدفعهم لانتخابه كرئيس أولاً، ومن ثم يسمحوا له بإصلاح البلد من أجلهم. لم يفعل كلّ شيء رغب بفعله. كان بوسعه أن يكون أكثر فاشيّة من ذلك. والأمر ينطبق على أتباعه المخلصين.

كان أتباع جاريت المتعصبين مصدر الخطر الأكبر بالنسبة للأشخاص من أمثال أمّي. خلال السنة الأولى لحكم جاريت، صار أتباعه مسعورين. لقد أسّس المتعصبون المعسكرات، مدفوعين بالاستعلاء الأخلاقي والشعبية التي حازوا عليها بين أغلبية المواطنين الخائفين العاديين الذين كانت رغبتهم الوحيدة هي استتباب النظام والأمان. في هذه الأثناء، كان جاريت منهمكاً في حربه السخيفة القذرة، حرب الأل-كن. إذا لم ينشغل بلطجية جاريت بحبس الفقراء وإجبارهم على ارتداء الأطواق، فأن جاريت نفسه كان يغريهم بالانضمام إلى الجيش ليطعم بهم حرباً تبيّن فيها بعد أنّها مجرد مناورة غبية عقيمة على الدمار. انهار البلد الضعيف أصلاً. كان لدى العديد من الأمريكيين، سواء أكانوا منتمين لـ (أ. م) أم لم ينتموا، أقارب وأصدقاء في ألاسكا وكندا. هاجر الناس من البلد لتفادي التجنيد الإلزامي -أُقر قانون التجنيد الإلزامي في النهاية- حتّى قيل إن أكبر صادرات أمريكا خلال الحرب هم الشباب الأصحاء.

وقعَت مجازر على كلا الجانبين من الحدود الكندية، وحدثت هجمات جوية وبحرية على مدن ألاسكا الساحلية. كانت الحرب

أشبه بتجسيد أضخم لمحاولة الهروب التي حدثت في المعسكر المسيحيّ. أُهرقت الكثير من الدماء من دون تحقيق أي إنجاز يذكر. اندلعت الحرب بسبب الغضب والحقد والحسد على دولٍ بدت في طريقها للازدهار بينما كانت بلادنا في طريقها للانحدار.

ثم تلاشت الحرب فحسب. في البداية، كان هنالك الكثير من القتال، الكثير من الدمار، الكثير من الصراخ والتلويح بالأعلام. ثم تدريجياً على مدار عام ٢٠٣٤ تسلل على الناس إحساس فظيع ومرير بالإنهاك. شاهدت العائلات الفقيرة أولادها يُساقون إلى الحرب ويُقتلون «عبثاً!» كما قالوا. صار شراء الطعام أصعب من السابق. ففي نهاية المطاف، كنّا نستورد من كندا معظم الحبوب التي نستهلكها خلال السنوات الأخيرة من التغيّر المناخي والفوضى. في النهاية، بدأت محادثات السلام في أواخر عام ٢٠٣٤. بعدها انتهت الحرب، ولم يبقَ منها غير مشاعر الضغينة وبعض الحوادث العرضية. ظلّت الحدود المرسومة بين كندا وأمريكا على حالها، وظلّت ألاسكا دولة مستقلّة. وهي أول ولاية تعلن انشقاقها رسمياً وكُلياً وبنجاح من الولايات المتحدة. شاع بين الناس أن ولاية تكساس، مسقط رأس جاريت، هي التالية.

في غضون أقل من عامٍ، تحوّل جاريت من كونه مخلّصاً لنا، وحتى بمثابة المجيء الثاني للمسيح في نظر بعض الناس، إلى ابن فاجرة أحمق أهدر مواردنا على أشياء غير مهمة. لا أقول إن الجميع غيّروا رأيهم بشأنه. كثيرون لم يفعلوا. لم يغيّر والداي بالتبني رأيهما

به، رغم أنه تسبب بفقدانهما لابنتهما الجميلة والذكية والمحبوبة. لقد ترعرعتُ وأنا أستمع لأحاديث لا تنتهي عن هذه الابنة. كان اسمها كاماريا، وكانت ابنة مثالية. أعرف هذا لأن أُمّي حدثتني عنها لمرة على الأقل في كلّ يوم من أيام طفولتي. لن أبدو أبداً بجمال كاماريا، أو لن أُحسن أبداً ترتيب غرفتي مثل كاماريا، أو لن أحفظ أبداً دروسي مثلها، أو لن أُحسن تنظيف حتّى المرحاض مثلها -رغم أنني أجد صعوبة في تصديق أن تلك الساقطة الصغيرة المثالية قد نظّفت المرحاض يوماً- أو حتّى استعملت مرحاضاً.

لم أدرك أنني ما زلتُ أشعر بالمرارة لدرجة كتابة شيء كهذا. لا يجدر بي ذلك. من الحماقة كره شخص لم تقابلهُ في حياتك، شخص لم يؤذِك قطّ. أعتقد أنني وجّهتُ مشاعر الازدراء نحو كاماريا، التي لم تكن موجودة، لكي أستمر في حبّ كايسي ألكسندر حتّى أصل لسنّ المراهقة على الأقل. لقد كانت في نهاية المطاف الأم الوحيدة التي عرفتها.

لقد ماتت كاماريا ألكسندر في قصف صاروخي على سياتل عندما كانت في الحادية عشرة من العمر، ولم يتوقّف والداي بالتبني عن لوم -وكراهية- الكنديين حزناً عليها. لكنهما لم يلوما جاريت بتاتاً- «الرجل الطيب»، «الرجل الصالح»، «رجل الدين». كانت كايسي تتحدّث بهذه الطريقة، وكذلك صديقاتها، بعد أن عادت إليهن أخيراً في حيّها القديم في سياتل حيث أُصيب كنيستها بأضرار طفيفة، ولكنها ما زالت قائمة. نادراً ما تحدّث ماديسون ألكسندر.

كان يتمتم موافقاً على كلّ ما تقوله كايسي. وكان يتحسس جسدي كثيراً. لكن بغض النظر عن ذلك، كان هادئاً. أوضح ذكرياتي عنه حين كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري، عندما حملني ووضعني في حجره وتحسس جسدي. لم أفهم لماذا كرهتُ ذلك. لكنني تعلّمت أن أبقى بعيدة عنه قدر الإمكان.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٢٥ فبراير، ٢٠٣٥

لم أستطع الكتابة لأنني في غاية البرد والبؤس والمرض. أصبنا جميعنا بالأنفلونزا. ومع ذلك يجبروننا على العمل. مات أربعة أشخاص في الأسبوع الماضي أثناء هطول أمطار غزيرة باردة دامت لفترة طويلة. أحدهم امرأة حبلى. ولَدت وحدها في الوحل. لم يُسمح لأحدٍ بمساعدتها. ثم ماتت هي والطفل. أُجبر رجلان على العمل إلى أن انهارا. عندما سقطا أرضاً، قال «المعلّمون» إنهما طفيليات كسولة وجلدوهما. ثم ماتا في الليل. كلّهم غرباء، متسوّلون يجوبون الطرق السريعة- «مشرّدون» أجبروا على القدوم إلى هنا. كانوا مرضى ويتضورون جوعاً عندما جاؤوا. وبسبب الجو البارد والممطر، وانعدام التدفئة داخل مهاجعنا، والطعام الفقير، كنّا نُصاب بأي مرض يُحمل إلينا من الطرق السريعة أو البلدات. حتّى «معلّمونا» أُصيبوا بالأنفلونزا. وعندما يعانون من المرض كانوا يصبّون جام غضبهم علينا.

كلّ هذا وأكثر، دفعنا لأن نقرّر أنه قد حان الوقت لكي نهرب، فإما أن ننجح أو نموت ونحن نحاول.

جمعنا المعلومات- إمّا من مغتصبينا أو من الانتباه لما يجري من حولنا. وأيضاً، عندنا ٢٣ سكيناً- نحن جماعة بذرة الأرض، وآل سوليفان، وآل غاما، نملك ٢٣ سكيناً بالمجموع. وهذا أكثر من سكين واحد لكل حارس. سرقنا بعض السكاكين من أكوام القمامة حيث يعلّمنا «المعلّمون» التبذير والإهمال. والسكاكين الأخرى عبارة عن قطع معدنية حادة وجدناها وغلّفناها بشريط لاصق أو خرقة قماش لحماية أيدينا. إنّها بدائية لكنها تنفع لنحر عنق إنسان. ما أن نتخلّص من الأطواق نستخدم السكاكين. إذا أسرعنا وتحرّكنا معاً كما خططنا، سنتمكّن من مباغتة عدّة حراس قبل أن يستخدموا اليرقات ضدنا.

نعلم أن بعضنا سيموت أثناء محاولة الهرب. ربما سنموت جميعاً. ولكن بحسب الطريقة التي تجري بها الأمور، فسنموت على أيّة حال. لا يعرف أحدٌ كم ستطول مدّة بقائنا في الأطواق. لم يُطلق سراح أي شخص أتى إلى هنا. حتّى الأشخاص القليلون الذين يتملقون «المعلّمين» ما زالوا هنا، وما زالوا يرتدون الأطواق. لم يسمع ولا واحد منا أيّ خبر عمّا حدث لأطفالنا. ومعظمنا مرضى. لم يمُت ولا واحد من جماعة بذرة الأرض منذ تمرّد دَي. لكننا مرضى. وآلي... آلي قد تموت. أو قد تكون مُصابة بتلفٍ دائمي في الدماغ. إنّها أحد الأسباب التي دفعتني لأن أتّخذ قرار المجازفة بالهرب قريباً.

أُلقي القبض على آلي وعشيقتها ماري سوليفان يوم الأحد الماضي.

لا. أسحب كلامي. لم يُلق القبض عليهما. بل تعرّضتا للخيانة. لقد تعرّضتا للخيانة من قبل بيث وجيسيكا فيركلوث. هذا أسوأ شيء. لقد تعرّضتا للخيانة من قبل امرأتين كانتا جزءاً منّا، جزءاً من بذرة الأرض. لقد تعرّضتا للخيانة من قبل امرأتين مدَدنا لهما يد المساعدة وأنقذناهما من الجوع والعبوديّة. أويناهما، ورحّبنا بهما في بذرة الأرض عندما قررت عائلتهما الانضمام إلينا بعد إتمام فترة سنة تحت الاختبار المطلوبة.

شاهدت الخيانة تحصل أمام عينيّ. لم أستطع الاعتراض. لم أستطع فعل شيء. أنا عاجزة هذه الأيام، عاجزة حقاً.

في يوم الأحد الماضي، وبعد قضاء ست ساعات من الوعظ المستمر، عن شرور الخطيئة الجنسية هذه المرة. أولاً سمعنا الكاهن لوك الذي يدير المكان. ثم سمعنا الكاهن شاندلر بينتون من يوريكا الذي يتكبد أحياناً عناء القيادة إلى هنا فقط لكي يتسلّط علينا. ألقى بينتون موعظة شرسة وشهوانية لحدٍّ غريب عن مدى شرّ وفساد وخبث البهيميّة، وسفاح القربى، واشتهاء الأطفال، واللواط، والسحاق، والمواد الإباحية، والاستمناء، والدعارة، والزنا. تضمّنت موعظته الطويلة جداً قصصاً من الأخبار الراهنة، ومن الكتاب المقدس، واقتباسات طويلة من العهد القديم متعلّقة بالقوانين والعقوبات التي تعدّدت من الموت رجماً، وخسف سدوم وعمورة، وحياة وموت إيزابل، والأمراض، ونار جهنم ... إلخ.

ولكنه لم يقُل شيئاً إطلاقاً بخصوص الاغتصاب. لقد اغتصب الكاهن الطيب بينتون، خلال زياراته السابقة، أديلا أورتيز وكريستينا شو. يدخل إلى الكوخ المحجوز الآن لزيارات كبار الشخصيات الـ «VIP» نفس الكوخ الذي كان يسكنه آل بالتر سابقاً، ويؤتى إليه بالمرأة التي وقع عليها اختيارُه.

نحن نحتمل هذه العِظات. لأنها فرصة للهرب من المطر. ويُسمح لنا فيها بالجلوس دون عمل. ولا نشعر بالبرد خلالها لأن «معلّمينا» لا يريدون أن يشعروا بالبرد. يشعلون نار كبيراً في مدفأة المدرسة مرّة في الأسبوع. لذا لبضعة ساعات من يوم الأحد، نحن نشعر بالدفء والجفاف والراحة تقريباً ونحن جالسون في صفوف على الأرضية. نحن جوعى، لكننا نعرف أنهم سيطعموننا قريباً. نشعر بالنعاس والإذعان. ولكن لولا الراحة التي نحصل عليها أيام الآحاد لماتَ الكثير منا. أنا على يقين من هذا. مع ذلك، تُلقى علينا العظات بالرغم من حالة النعاس والإذعان التي تراودنا. يغلبني النوم أحياناً، لكنّهم يجلدوننا إذا وجدونا نائمين. لكنني أجلس مستندة على جدار وأغفو.

لم أنتبه عندما بدأت امرأتا آل فيركلوث بالإنصات. الأسوأ من ذلك، لقد بدأتا تصدّقان وتخافان وتؤمنان. أو ربما ليس هذا. ربما كانت عندهما دوافع أخرى.

نحن نُستدعى على الدوام للشهادة وتقديم الشكر على لطف وكرم الربّ معنا بالرغم من عدم استحقاقنا. ويجب أن نعترف بعدم

استحقاقنا، ويجب أن نتوب علناً ونتوسل علناً برحمة الرب. طُلب من كلّ واحدٍ منا فعل هذا عدّة مرّات. كلما زاد رضوخك، أنتَ مطالب بالرضوخ أكثر. يدرك «معلّمونا» أنّنا لا نعني ما نفعله، ويعرفون أنّنا نتظاهر خوفاً من الألم. نحن ببساطة نفعل ما نؤمر به. وهم يكرهوننا لهذا. إنهم ينظرون إلينا بكراهية واشمئزاز واحتقار واضح، مع ذلك يصرّون على أن ما يشعرون به هو الحبّ. ففي نهاية المطاف، يأمرهم ربّهم بمحبتنا. الحبّ هو السبب الوحيد الذي يدفعهم لبذل ما في وسعهم لمساعدتنا على رؤية النور. يقولون إن خطيئة العناد قد أعمَتنا فلم نرَ ما يقدّمونه لنا من حبّ ومساعدة. يقولون لنا: «من أمِن العقوبة أساء الأدب»، ونحن في نظرهم بأفضل الحالات مجرد أطفال بحاجة للتأديب عندما يتعلّق الأمر بالأخلاق.

صحيح.

عموماً، أصدر الكاهن بينتون أوامره باستدعائنا للشهادة. أُمر ثلاثة أشخاص بالشهادة. كنت واحدة من أولاء، ولا أعرف كيف تم اختياري، لكن «معلّماً» نحيلاً بأسنان قبيحة وضع يده على كتفي قبل أن نبدأ القداس وأمرني بالشهادة. أما الشخصان الآخران اللذان أُمرا بإدلاء الشهادة فهما إِد غاما وامرأة صهباء بذراع واحدة، جاءوا بها حديثاً من الطريق السريع. اسمها تِيل، قضت معنا أقل من أسبوع، وكانت تخاف حتّى من ظلّها. أنا وإِد قُمنا بذلك سابقاً، لذا سبقنا المرأة الغريبة لكي تعرف ما يجب القيام به. كانت هذه ممارسة معهودة وتجري على النحو التالي: أقدّم شكري للربّ

على النعم الكثيرة التي أغدقني بها، ثم أعترف بأفكاري الآثمة، وبغضبي، ومقاومتي للمعلّمين الذين يريدون مساعدتي فقط. ثم أطلبُ العفو من الربّ ومن كلّ الحاضرين مراراً وتكراراً على خطاياي. ثم أتوسّل لأنال الغفران، وأتوسّل لأنال القوة والحكمة لأعمل بمشيئة الربّ.

هكذا تقوم بالأمر. هكذا قمتُ بهِ لأكثر من سنة.

عندما انتهيتُ، فعَل إِد مثلي تماماً. كانت عنده قائمته الخاصة من الخطايا والاعتذارات. كانت تِيل ذكية بما يكفي لتحذو حذونا، لكنها كانت خائفة جداً. ارتعش صوتها، وتحدّثت همساً.

فقال لها الكاهن بينتون بصوته العالي القبيح: «ارفعي صوتكِ يا أخت. لتسمع الكنيسة شهادتكِ».

انهمرت الدموع من عيني المرأة، لكنّها تمكّنت من رفع صوتها وسألَت الربّ المغفرة والتوبة على «كل الخطايا التي ارتكبتُها»، كما قالت. لا بدّ من أنّها نسيت الأمور التي «اقترحَت» العِظات عليها الاعتراف بها. ثم انهارت وجثت على الأرض وفقدت السيطرة على نفسها وبدأت تبكي وتتوسّل مرعوبة بالقول: «لا تؤذوني. أرجوكم. لا تؤذوني. سأفعل كلّ ما تريدون».

سيجلدونني إذا حاولتُ الاقتراب منها ومساعدتها وإعادتها للجلوس في مكانها على الأرض. تعتبر المعاملة الإنسانية الطيبة خطيئة هنا. تبادلنا أنا وإِد النظرات، ولكننا لم نجرؤ على لمسها. ظننتُ

أن أحد «المعلّمين» سيساعدها على النهوض وإرجاعها لمكانها. لأن جلدها لإعادتها لمكانها لن يكون أمراً مقبولاً في ظلّ هذه الظروف.

عندها حصل انقطاع. نهضت كلٌّ من بيث وجيسيكا فيركلوث من مكانهما، شقّتا طريقهما بين الناس المجتمعين بحذرٍ كي لا تدوسا على أحد، وتقدّمتا نحو المذبح. عندما وصلتا إلى المذبح جثتا على الركب. لم يكن هذا غريباً، يحدث أحياناً أن يتطوّع بعض الأشخاص للاعتراف وللإدلاء بالشهادة على أمل كسب رضا «المعلّمين». لم يكن في هذا التصرف ضرر- أو لم يكن فيه ضرر حتّى الآن. وقد تُكافأ مقابل ذلك برغيف خبز أو تفاحة لاحقاً. في الحقيقة، سبق لامرأتي آل فيركلوث فعلُ ذلك عدّة مرّات. سخر البعض منهما لقيامهما بذلك، ولكني لم أجد في الأمر غضاضة. يا لغبائي!

صاحت بيث: «لقد ارتكبنا خطيئة نحن أيضاً. لم نقصد ذلك. ولكن لم نعرف كيف نتصرّف. علمنا أن ذلك إثم، لكننا شعرنا بالخوف».

لم تُجلدا. رأيتُ الكاهن بينتون يرفع يده آمراً «المعلّمَين» أن يدعُوا المرأتين وشأنهما. قال: «تكلّما أيتها الأختان. اعترفا بالخطيئة. الربّ يحبكما. الربّ سيغفر لكما».

لم تلتزم المرأتان هذه المرة بقواعد الحديث المعتادة. بدلاً من ذلك تحدّثتا بالطريقة التي اعتادتا الحديث بها عندما تخافان، وعندما تدركان أنهما تقومان بتصرف سيغضب الآخرين، عندما تقفان معاً ضد البقية. إنهما ليستا توأمين. في الحقيقة، إنهما أُختان واحدة تبلغ

من العمر ثمانية عشر عاماً والأخرى تسعة عشر عاماً، ولكن تحت الضغط، تتصرّفان بطفولية، وتتصرّفان كتوأمين، تُنهي واحدةٌ جُملة الأخرى، وتتحدّثان باتساق، أو تردّدان كلمات بعضهما البعض. كانت شهادتهما على هذا النحو:

قالت بيث: «لقد رأيناهما تفعلان ذلك».

أضافت جيسيكا: «إنهما تفعلان ذلك منذ فترة طويلة. لقد رأيناهما».

تابعت بيث: «في الليل... عرفنا أن هذه خطيئة».

قالت جيسيكا: «وساخة وقذارة وانحطاط!».

«نحن نسمعهما في الليل وهما تتبادلان القُبل وتُصدران الأصوات». قالت بيث وقد لاحت على وجهها ملامح الاشمئزاز: «انحطاط!».

قالت جيسيكا: «لم أعلم أن آلي كانت من هذا النوع. ولكنّها كانت تعيش مع امرأة أخرى حتّى من قبل أن تأتوا لتعليمنا. ظننتُ أنّها امرأة صالحة لأن عندها ولد صغير، ولكنني أعرف الآن أنّها ليست صالحة».

صاحت بيث: «لا بدّ من أنّها كانت تمارس ذلك مع النساء طوال الوقت».

شرعت جيسيكا بالبكاء وقالت: «والآن أنّها تمارس ذلك مع ماري سوليفان. نحن نعلم أن هذه خطيئة، لكننا خفنا أن نبلّغ عنها».

قالت بيث: «إنها قويّة كرجل. وهي لئيمة. لقد خفنا منها».

عندها فكّرتُ: «أوه، لا، اللعنة!». لقد أساء «المعلّمون» معاملتنا يومياً، يهينوننا ويوبخوننا. لكن البؤس طال أمده، والمواعظ طال أمدها، ووقفنا متماسكين ضدّ كلّ هذا...

ولكن أعتقد أنه قد تحتّم وقوع أمر كهذا عاجلاً أم آجلاً. كلّ ما تمنّيتُه أن يكون الخونة غرباء من الخارج. لقد حدث هذا سابقاً على مستويات أقل، ولكن بعد ليلة أو ليلتين، تمكّنا من تلقين الغرباء درساً في أهمية إغلاق أفواههم بخصوص أيّ شيء يشهدونه يحدث بين زملائهم من السجناء. لم يقُم بخيانتنا أي فردٍ من أفراد بذرة الأرض، ولا بأي شكل- حتى الآن.

سحلوا آلي إلى مقدمة الغرفة لمعاقبتها، صرخَت على بيث وجيسيكا قائلة: «بالرغم ممّا فعلتماه، سيغتصبونكما، وسيجلدونكما، وعندما ينتهون منكما سيقتلونكما!».

وصرختُ أنا عليهما قائلة: «لقد أطعمَتكما عندما كنتما جائعتين!».

فجلدني «المعلّمون» أنا أيضاً.

لكن العذاب الذي تعرّضَت له آلي وماري سوليفان دام طويلاً. توسّل آرثر سوليفان، والد ماري، إلى «المعلّمين» لعلّهم يتوقفون، وتمكّن من ضرب أحدهم وأوقعه أرضاً. فجلدوه بالطبع. لكنه لم يكسب منهم ولا أقل درجة من الرحمة لابنته. عانت ماري من تشنجات فظيعة، لكنهم لم يتوقفوا عن جلدها. لقد جلدوا المرأتين

حتّى لم يعُد بإمكانها الصراخ أكثر. وأرغمونا على المشاهدة. لم أشاهد. أبقيت رأسي مطأطأً وأغمضتُ عينيّ نصف إغماضة لكي أنجو بنفسي. لقد جلدوني على تصرفي هذا من حين لآخر، ولكن ليس اليوم. فاليوم، انصبّ كلّ اهتمامهم على المرأتين «الآثمتين».

لقد جلدوا آلي وماري إلى أن ماتت ماري.

لقد جلدوهما إلى أن أُصيب دماغ آلي بالتلف. لم تتحدّث جملة واحدة ذات معنى مُذ جلدوها.

لقد أجبروني على حفر قبر ماري لأنني دافعتُ عن آلي. أن أحفره أنا أهون من أن يحفره أبوها. لم يعُد الرجل بكامل قواه العقلية. لقد أجبروه على مشاهدة ابنته وهي تتعذّب حتّى الموت. كلّ ما يفعله الآن هو الطواف حول المكان والتحديق. لقد جلدَه «المعلّمون»، وراح يصرخ من الألم، ولكن لم يشكّل الأمر فارقاً معه عندما انتهوا من جلده. يبدو أنهم ظنوا أن جلدَهم له سيُنسيه فجيعته وكراهيته.

لا أستطيع تحمّل هذا. لا أستطيع. لا يهمني إذا قتلوني. سأتحرر من هذا المكان أو سأموت.

لقد مُنحت بنتا آل فيركلوث غرفة في ما كان سابقاً منزل عائلة كينغ. عندهما الآن غرفة خاصة بهما وحدهما بدلاً من غرفة تتشاركانها مع ثلاثين امرأة أخرى. ما زالتا ترتديان الأطواق، لكنهما الآن مكلّفتان بواجب الطبخ فقط. لم يعُد يتعيّن عليهما الاحتطاب أو العمل في الحقل أو البناء أو جزّ الأعشاب الضارة أو حفر الآبار

أو القبور أو القيام بأي عملٍ من الأعمال الشاقة القذرة التي يتعيّن على بقيّتنا القيام بها. وهما لا تُحسنان الطبخ. بطريقة ما، لم يسبق لهما البتّة طبخ وجبة طعام لائقة. لذا فأنهما لا تطبخان «للمعلّمين». بل تطبخان لنا فقط. بالطبع يكرههما الجميع. لا أحد يكلّمهما، ولكن أيضاً لا أحد يدنو منهما. لقد حذّرونا من الاقتراب منهما. كما أنهما تمتلكان نوعاً من السلطة علينا. يمكنهما تتبيل طعامنا بالبصاق أو الوساخة أو الخراء، ونحن نعلم هذا. ربما هذا ما تفعلانه، ولهذا السبب أصبح مذاق الطعام أسوأ بكثير من السابق. لم أتخيّل أن من الممكن أن يصبح مذاق الطعام أسوأ من السابق. لكن امرأتا آل فيركلوث تمكّنتا بشكل ما من إفساد مذاق حتّى القمامة. قد يقتُل أبناء وبنات آل سوليفان ابنتَي آل فيركلوث إذا سنحت لهم الفرصة. لقد أخذ «المعلّمون» آرثر سوليفان. ولا نعرف مكانه. لقد فقد عقله. ولأن «المعلّمين» لم يتمكنوا من إعادته لصوابه بالجلد، تخلّصوا منه.

لقد علمنا أن وحدة التحكم الرئيسية، الوحدة التي تشغّل أو تتحكم بكل الأطواق في المعسكر المسيحيّ، موجودة في كوخي القديم. لقد احتفظوا بها طوال شهور في إحدى البرقات- أو هكذا سمعنا. لقد توجّب علينا جمع كلّ التلميحات والإشاعات والتعليقات الجانبية التي سمعناها. وكلّها يمكن إساءة فهمها أو قد تكون غير صحيحة. ولكنني أعتقد أنّنا وصلنا للمعلومات الصحيحة بعد طول انتظار.

يعيش مساعدا الكاهن لوك في كوخي، وبين الحين والآخر، كانا يأخذان إحدى النساء إلى الكوخ في الليل. في المرة التالية التي يحصل فيها هذا، سنهرب.

أكثر من يؤخذ إلى هناك من النساء هن: نوريكو، كريستينا شو، وبنتا آل مورا.

تقول نوريكو بمرارة: «يقولان إنهما يحبّان النساء الصغيرات الرقيقات. يا لهما من رجلين قبيحين مترهلين. إنهما يحبانا لأنه يسهل عليهما إيذاءنا. يحبّان ضربنا بقبضتي يديهما، حتّى نصاب بالكدمات، ويجبراننا على التوسل إليهما ليتوقّفا».

تقول نوريكو وكريستينا وبنتا آل مورا إنهن يفضّلن الموت على الاستمرار بالعيش في هذا الوضع. أيّ واحدة منهن ستؤخذ تالياً إلى كوخي ستنحر مغتصبها في الليل. يمكنهن القيام بهذا الآن. لم أتخيّل أن بوسعهنّ فعل هذا قبل بضعة أشهر. ثم سيحاولن إيجاد وتعطيل وحدة التحكم الرئيسية. المشكلة هي أنّنا لا نعرف شكل الوحدة الرئيسية. لم يسبق لأيّ منّا رؤيتها.

كل ما نعرفه -أو ما نعتقد أنّنا نعرفه- سمعناه من السجناء الآخرين الذين سبق لهم ارتداء الأطواق. قالوا بمجرد تعطيل وحدة التحكم الرئيسية فستتعطل الوحدات الأصغر. الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها فهم الأمر هو بمقارنته بأحد الهواتف في بيت آل بالتر في حيّ روبليدو، في الماضي. كان ذلك هاتفاً «لاسلكيّاً» كبيراً قديم الطراز، يتوجب عليك توصيل الوحدة الرئيسية في

مأخذ كهربائي ومقبس هاتف. ثم يمكنك التجوال في أرجاء المنزل والفناء فيما تتحدّث إلى السماعة. ولكن إذا فصلت سلكي القاعدة فستتوقف السماعة عن العمل. قيل لي إن هذا أشبه شيء لطريقة عمل شبكة الأطواق.

لا أعرف شيئاً على وجه اليقين. لكنني شبه مؤمنة أن بإمكاننا فعل ما نعتقد أنّنا نستطيع فعله لكي ننجو. يمكن أن تُقتل المرأة التي تعبث بالوحدة الرئيسية. وقد نُقتل جميعاً. لكن الحقيقة هي أنّنا لا نستطيع الاحتمال أكثر، مهما يكن الثمن. نحن مجرد بشر - معظمنا. قلتُ هذا للأشخاص الذين أثق بهم، الأشخاص الذين ساعدوني في جمع المعلومات التي بحوزتنا. لقد سألت كلّ واحد منهم عمّا إذا كان مستعداً للمجازفة بحياته.

وكلّهم على استعداد. كلّنا على استعداد.

الأربعاء، ٢٨ فبراير، ٢٠٣٥

هبّت علينا عاصفة فظيعة أول أمس- فظيعة حقاً. مع ذلك فقد كانت حدثاً رائعاً: رياح وأمطار وبرد و... انهيارات أرضية. لقد انهار التلّ حيث كانت مقبرتنا سابقاً بكل أشجاره الجديدة والقديمة، لقد انهار ذلك التلّ إلى الوادي. لقد أجبرنا «معلّمونا» على قطع الأشجار القديمة من أجل الحطب والأخشاب والربّ. لم أفهم أبداً لماذا تخيّلوا أنّنا نعبد الأشجار، لكنهم كانوا يعتقدون

ذلك. توسّلنا إليهم لكي يتركوا التلّ وشأنه، قلنا لهم إنّها مقبرتنا، فجلدونا. ولأنهم أجبرونا على ذلك، فقد تعرض التلّ لانهيار أرضي وانهال علينا. دُفنَت يرقة وثلاثة أكواخ، بضمنها الكوخ الذي بنيناه أنا وبانكول وعشنا فيه معاً لستّ سنوات.

ودُفن أيضاً الرجال الذين ناموا لوحدهم في ذلك الكوخ. من المؤسف أنه كانت هنالك امرأتان في كلّ كوخ من بقية الأكواخ. كلّهن نساء من سكّان المخيمات العشوائية. أصبحت ناتيفيداد صديقة لإحداهن، لكنني لم أعرفهن إطلاقاً. على أيّة حال، لقد دُفنّ ومتنَ كلهن. قُتل ستة «معلّمين» وأربع نساء أسيرات وتعطّلت كلّ الأطواق. لقد عزمنا في يوم الأحد الماضي على الهرب أو الموت أثناء المحاولة. والآن، لقد تحرّرنا بفضل الطقس وغباء «معلّمينا».

إليكم ما حدث:

بدأت العاصفة كهبّات ريح قويّة باردة تحمل المطر في عصر يوم الإثنين. أُجبرنا على الاستمرار في العمل خلال العاصفة لبعض الوقت. ولكن لأن «معلّمينا» يميلون لفرض المعاناة على تحمّلها، فقد أعادونا أخيراً إلى غرف السجن لنجلس في العتمة والبرد فيما ذهبوا إلى أكواخنا للتمتّع بالدفء والطعام والنور.

بعد مضي فترة من الوقت، أتى «المعلّم» الأدنى رتبة ومعه بيث وجيسيكا فيركلوث حاملتَين طعام العشاء المقزّز- حساء مكوّناً من الكثير من الكرنب نصف المسلوق ونصف الفاسد مع البطاطا.

وضعنا آلي في مرأى من ابنتَي آل فيركلوث، بحيث تكونان في مواجهتها عندما تدخلان. لقد تحسّنت حالتها قليلاً. لقد اعتنيتُ بها قدر إمكاني. إنّها تمشي مثل امرأة عجوز حدباء، ولا تجيب بأكثر من نعم أو لا، ولا يبدو أنّها تفهم دائماً ما نقوله لها. لا أظن أنّها تتذكّر ماذا فعلَته بها بنتا آل فيركلوث، ولكنها تثق بي. أخبرتُها أن تحدق بهما- تنظر نحوهما طوال الوقت.

وهكذا فعلَت.

ارتعشَت بنتا آل فيركلوث وتعثّرت الواحدة بالأخرى، ثم وضعتا قدور الحساء المقزّز وتراجعتا إلى الخلف. حدّقنا فيهما كلّنا بصمتٍ، لكنني أشكّ أنهما انتبهتا لأي أحدٍ غير آلي.

بعد العشاء، خلدنا للراحة قدر ما يمكننا، ونحن نشعر بالبرد والبؤس والرطوبة ونحن ممددات على الأرضية الخشبية العارية ومتدثرات ببطانياتنا القذرة. نام بعضنا، لكن العاصفة اشتدّت وراحت ترجّ المبنى حتّى بدأ يصدر صريراً. قرع المطر النافذة، وطارت السقوف من الأكواخ، وسقطت الأغصان من الأشجار، وتبعثرت القمامة من المكبّ الذي أجبرنا «المعلّمون» على بنائه. لم يكن عندنا مكبّ نفايات من قبل. كانت عندنا كومة للنبش وكومة للتسميد. كلتاهما ليستا قمامة. لم نتحمل كلفة التبذير. لقد حوّل «المعلّمون» مجتمعنا بأكمله إلى مزبلة.

تارة ترعد وتبرق، وتارة يهطل مطر غزير. استمرت العاصفة طوال الليل وهي تمزّق العالم الخارجي إلى أشلاء. ولكن في وقت

ما قبل بزوغ الفجر، بعد أن نمتُ بفترة قليلة، وإذا بصوتٍ مروّع يوقظني. لم يكن صوت رعد- لم يُشبه أي صوتٍ سمعته في حياتي. كان صوت تهدّم وخسفٍ هادر.

كانت ردّة فعلي تلقائية. قفزتُ من مكاني ونظرتُ من النافذة التي كانت قريبة مني. اتكأتُ على حافة النافذة وتطلّعتُ منها إلى الظلام. بعد لحظة أبرقَت السماء، ورأيت الصخور والتراب محلّ كوخي. صخور وتراب فقط.

استغرق مني الأمر لحظة لأفهم ما يجري. ثم أدركت أنني أتكئ على حافة النافذة ونصف جسدي خارجها. ولم أتشنج ولم أسقط أرضاً. ما من ألمٍ. لم أشعر بذلك العذاب القذر والفظيع الذي جعلنا كلّنا عبيداً.

لمستُ طوقي. كان في مكانه، وكان يمكنه صعقي وتعذيبي. ولكن، لسبب ما، لم يعُد يأبه أنني اتكأت على حافة النافذة. مددتُ يدي إلى ناتيفيداد في العتمة. كانت تنام على جانبٍ منّي، وتنام آلي على الجانب الآخر. لقد وثقَت ناتيفيداد بي، وكانت تعرف كيف تتحلّى بالهدوء.

همستُ لها: «الحرية! لقد تعطّلت الأطواق! لقد تعطّلت الأطواق!».

تركتني أقودها إلى الباب الفاصل بين مهاجعنا ومهاجع الرجال. كنّا نوقظ النساء بالهمس، بينما نشقّ طريقنا بينهنّ بحذرٍ

كي لا ندوس عليهن. عندما وصلنا إلى الباب، تراجعَت ناتيفيداد قليلاً، ثم تركَتني أقودها عبره. لم يُقفل الباب قطّ. كانت الأطواق كافية لإبعاد أي شخصٍ تسوّل له نفسه الاقتراب من الباب. ولكن ليس هذه المرة.

ما من ألم.

أيقظْنا الرجال- أو بالأحرى أيقظنا من لا يزال نائماً منهم. لم نرَ بما يكفي من الوضوح لإيقاظ الرجال الذين نثق بهم فقط. فأيقظناهم جميعاً. لم نستطع فعل هذا خلسة. كنّا هادئتين، لكنهم استيقظوا في ارتباك وفوضى. كان بعضهم مستيقظاً أصلاً، مشوّشين، ويمسكون بي، ثم أدركوا أنني امرأة. ضربتُ واحداً منهم لأنه لم يُفلتني- أحدُ الرجال الغرباء من الشارع.

همستُ له: «الحرية! لقد تعطّلت الأطواق! يمكننا الفرار!».

أفلتني وهرع إلى الباب. عدتُ لجمع النساء. عندما جئتُ بهن إلى مهجع الرجال، رأيت الرجال يهرعون إلى الخارج. لحقناهم عبر الأبواب الخارجية. اجتمع ترافيس وناتيفيداد، مايك ونوريكو، وآخرون من جماعة بذرة الأرض. ثم التقى آل غاما مع آل سوليفان. تجمعنا كلنا معاً، رجالاً ونساء نُحيي بعضنا البعض، ونحن نبكي ونتعانق. لم يستطيعوا لمس بعضهم البعض خلال فترة أسرنا كلها. سبعة عشر شهراً. أبدية!

عانقتُ هاري لأننا كلينا فقدنا كلّ من نحبهم. ثم وقفنا أنا وهو

نراقب الآخرين، وربما راود كلانا نفسَ الشعور بالغبطة المشوبة بالألم. لقد رحلَت زهرا. ورحل بانكول. ولا نعرف أين أطفالنا؟

ولكن ليس أمامنا وقت لنضيّعه بالبهجة أو الحزن.

قلت للجميع وأنا أقودهم نحو الأكواخ: «يتعيّن علينا الدخول إلى الأكواخ الآن. يجب أن نمنعهم من إصلاح الأطواق. يجب أن نحصل على أسلحتهم قبل أن يدركوا ماذا يجري. سيضيّعون الوقت في محاولة جلدنا. أريد أن تتوجه مجموعات من أربعة أفراد أو أكثر نحو كلّ كوخ. الآن. هيا!».

كنا نعرف كيف نعمل سوية. أمضينا سنوات نعمل سوية. تفرقنا وتوجّهنا إلى الأكواخ. أمسكنا أنا وترافيس وناتيفيداد بابنتَي آل مورا واقتحمنا الكوخ الذي كان سابقاً مسكن آل كاردوس قبل أن يبدأ الصراخ في الخارج.

هرع بعض «المعلّمين» من أكواخهم ليروا ما الخطب، فمُزقوا إلى أشلاء على يد الناس الذين استمتعوا بتعذيبهم طويلاً.

حاول بعض الأسرى، في غمرة لهفتهم للهرب، اجتياز السور المصنوع من أسلاك اللازور في الظلام، فقطّع السلك لحمهم حتّى العظم.

لم ترتكب جماعة بذرة الأرض مثل هذا الخطأ الفادح المميت. توجهنا إلى الأكواخ للحصول على الأسلحة، لنخلّص أنفسنا من «المعلّمين» ومن الأطواق اللعينة.

انقضّت مجموعتِي على اثنين من «المعلّمين» في الكوخ، كانا خارج السرير، أحدهما يرتدي قميصاً وسروالاً، والآخر يرتدي سروالاً داخلياً طويلاً. كان بوسعهما إطلاق النار علينا. ولكن لأنهما كانا معتادين على الاعتماد على الأحزمة لحمايتهما، لذا حاولا التقاط الأحزمة وليس الأسلحة.

وقف أحدهما وقال: «ماذا يجري؟». واندفع الآخر باتجاهي أنا وناتيفيداد وهو يصرخ.

تعاركنا معهما، سحلناهما، وخنقناهما. بهذه البساطة. بل كان الأمر أبسط بالنسبة لي. لقد تألمتُ عندما ضربوني. وتألمتُ عندما ضربناهما. لكن الألم لم يهمّني البتة! ما أن وضعتُ يديّ على واحد منهما، حتّى أغمضت عينيّ وقتلتُه. لم أشعر بموتهما. ولم أشعر بهذا القدر من اللهفة والسعادة لقتل أحد.

لم نستطع رؤيتهما في الكوخ المظلم على أيّة حال، ولكننا تأكّدنا من موتهما. لم نُفلتهما إلى أن ماتا، ماتا حقاً. لا تزال السكاكين مخبّأة في جدران وأرضية مهاجعنا، لكن أيدينا قامت بالمهمة.

ثم حصلنا على الأسلحة. استخدمنا كرسيّاً وطاولة سرير جانبية لتحطيم باب خزانة الأسلحة.

والأهم، عثرنا على قطّاعة أسلاك.

عثرَت توري مورا على قطّاعة الأسلاك في جارور كانت تستخدمه نوريكو كاردوس للاحتفاظ بآنية المائدة الفضّية في السابق.

وقد امتلأ الآن بالعُدد اليدوية. قطع كلّ واحد منا طوق الآخر. نحن تحت تهديد خطرٍ حقيقيّ طالما أنّنا نرتديها. كنت خائفة طوال الوقت، أترقّب عذاب التشنّجات الفظيعة التي ستُنهي حرّيتنا وتبدأ مرحلة عذابنا النهائية. سيقتلنا «المعلّمون» إذا استعادوا سيطرتهم علينا ثانية. سيقتلوننا ببطء، ببطء شديد. ستقتلنا الأطواق من تلقاء نفسها إذا اشتغلَت ثانية بطريقة ما بينما نحاول قطعها أو العبث بها. لقد عرفتُ طوال الأشهر الماضية أنه ما من شيء مقاومٍ للعبث أكثر من طوقٍ شغّال.

قطعتُ طوقي ابنتَي آل مورا، وقطعَت توري طوقي. قطع ترافيس وناتيفيداد طوقيهما. ثم أصبحنا أحراراً. بغض النظر عن أي شيء، نحن أحرارٌ حقّاً. تعانقنا كلنا ثانية. ما زال هناك خطر، ما زال هناك عمل، ولكننا أحرار. لقد سمحنا لأنفسنا بالاستمتاع بلحظة الفرج العظيمة تلك.

ثم خرجنا ووجدنا أن جماعتنا وأشخاصاً آخرين قد أتمّوا العمل. لقد قُتل كلّ «المعلّمين». رأيت أن بعض السجناء ما زالوا يرتدون أطواقهم، لذا عدتُ إلى كوخ آل كاردوس لآتي بقطّاعة الأسلاك. عندما أدرك الناس ما كنت أفعله -أقطع الأطواق- شكّل الغرباء وجماعة بذرة الأرض طابوراً ممتداً أمامي. قضيتُ الدقائق اللاحقة في قطع الأطواق. كان الجو بارداً وعاصفاً، ولكن توقف المطر على الأقل. أشرقَت السماء بنور الفجر. نحن أحرار، جميعنا أحرار.

والآن ماذا؟

أخذنا ما يمكننا حملُه من الأكواخ. اضطررنا لذلك. انقضّ الغرباء على المكان، نهبوا كلّ شيء، ومزقوا وحطّموا ما لا يريدونه، وهم يصرخون ويهتفون، مزقوا الستائر، كسّروا النوافذ، ونهبوا الطعام والخمور. إن كمية الخمور التي احتفَظ بها «المعلّمون» مثيرة للدهشة.

أخذنا الأسلحة أولاً. لم نحاول منع الغرباء من العربدة المدمّرة، لكننا حمينا الأغراض التي جمعناها: الأسلحة، والذخيرة، والملابس، والأحذية، والطعام. فهِمَ الغرباء هذا. لقد كنّا مثلهم، نأخذ ما نريده ونحرس ممتلكاتنا. عثر بعضهم على أسلحة أيضاً، ولكن كان هناك اتفاق محترم ضمني بالحذر في ما بيننا. حتّى الأشخاص الذين ثملوا بجنون لم يلاحقونا.

أطلق أحدهم النار على أقفال البوابة وبدأ الناس بالخروج.

أطلق عدّة أشخاص النار على البرقة الوحيدة التي لم تُدفن محاولين الدخول إليها، لكنها كانت مقفلة ومنيعة ضد أيّة محاولة قد نقوم بها. في الحقيقة، لو كان هناك «معلّم» واحد فقط نائماً داخل البرقة، لكان بوسعه منعُنا من الهرب. وقد يتمكّن من قتلنا كلنا.

لقد خسرنا الشاحنتين منذ وقت طويل. تدمّرت إحداهما عندما قال غراي مورا «لا» للعبوديّة للمرة الأخيرة. بينما أُخذت الشاحنة الأخرى لمكانٍ مجهول.

عندما حلّ النهار، أحصيتُ سبعة قتلى على سور اللازورد. أعتقد أن معظمهم نزف حتّى الموت، لكنني رأيتُ اثنين منهما ببطنٍ مشقوقة، وأمعاء مقطوعة، بسبب اندفاعهما غير محسوب العواقب من أجل الحرية. تستحيل رؤية أسلاك اللازورد في عتمة الليل تحت المطر، ويعرف بخطورة الأسلاك حتّى أحطّ مشرّدي الشوارع. عندما كنّا مستعدين للمغادرة، أحضرتُ آلي التي ظلّت واقفة بقرب النافذة داخل المدرسة وتحدّق بنا. قطعتُ طوقها، ثم تذكّرتُ ابنتَي آل فيركلوث. لم أقطع طوقيهما. لم تأتيا إليّ. أُخذ صبيّا آل فيركلوث مع بقية أطفالنا طبعاً. لا بدّ أن آلان فيركلوث، والد بيث وجيسيكا، أخذ ابنتيه وهرب- أو ربما وجدهما آل سوليفان وانتقموا.

تنهدتُ. إما أن البنتين قد ماتتا، أو أخذُهما آلان. من الأفضل ألّا أقول شيئاً. يكفي قتلاً.

جمعتُ ما تبقى حولي من مجتمع بذرة الأرض. اختفت الشمس خلف الغيوم، لكن الريح تلاشت، والسماء بلون رمادي شاحب. كان الجو بارداً، لكننا كنّا نشعر بالدفء لأول مرة، بعد أن ارتدينا ملابس نظيفة.

قلت لجماعتي: «لا يمكننا البقاء هنا. يجب أن نأخذ كلّ ما يمكننا حمله ونذهب. ستُرسل الكنيسة المزيد من رجالها عاجلاً أم آجلاً».

قالت نوريكو كاردوس بحسرة: «هذه منازلنا!».

أومأتُ وقلت: «أعرف. لكنها ضاعت. لقد خسرناها منذ وقت طويل». ثم خطرت ببالي إحدى آيات بذرة الأرض:

حتى تنهضَ
من رمادِها
لا بدّ للعنقاءِ
أوّلاً
أن تحترقَ.

كانت آية ملائمة من بذرة الأرض، لكنها ليست مواسية. لطالما كانت مشكلة بذرة الأرض أنّها ليست عقيدة مواسية.

قلتُ: «لنفتّش الأكواخ للمرة الأخيرة. علينا البحث عن أدلة عمّا فعلوه بأطفالنا. أهم شيء نفعله تالياً هو العثور على الأطفال».

تركتُ مايكل وترافيس لحراسة الأغراض التي جمعناها، وذهب بقيّتنا في مجموعات لتفتيش أنقاض منازلنا.

لكننا لم نعثر على أي شيء يتعلّق بالأطفال. عثرنا على نقود مخبأة هنا وهناك داخل الأكواخ، لم ينتبه لوجودها السجناء عندما قاموا بنهب المكان. وكانت هناك أكداس من المنشورات الدينية، والكتب المقدسة، وقوائم بأسماء «النزلاء» الذين جيء بهم من غاربرفيل ويوريكا وأركاتا وترينيداد وبلدات أخرى مجاورة. وكان هناك مخطط للزراعة الربيعية، وبضعة كتب بقلم الرئيس جاريت، أو بقلم كاتب ظلّ. وكانت هناك أوراق شخصية، ولكن لا شيء

بخصوص أطفالنا، وما من عناوين. لا شيء. لا شيء إطلاقاً. قد يكون هذا متعمّداً. لقد خافوا أن يُكتشف أمرهم. ولكن هل كانوا يخافوننا، أم يخافون أحداً آخر؟

استمر بحثنا إلى الظهيرة تقريباً. عندها عرفنا أنّنا يجب أن نرحل أيضاً. الطرقُ موحلة، ومن غير المحتمل أن يحاول أحدٌ القيادة فيها اليوم، ولكننا بحاجة للرحيل بأسرع وقت لكي نسبقهم. لا سيّما أنني أردت الوصول إلى مستودعاتنا السرية حيث خبأنا لا الضروريات فقط، بل أيضاً نسخاً من السجلات واليوميات، وقد خبأنا في مستودعين منها بصمات أيدي وأقدام أطفالنا. لقد أخذ بانكول بصمات يدَي وقدمَي كلّ طفل ولّده وصنّفها، وأعطى للآباء نسخة، واحتفظ بنسخة. لقد وزّعتُ هذه النسخ بين مستودعين، هما المستودَعان اللذان لا يعرف بشأنهما إلّا قلة منا. لا أعرف ما إذا كانت البصمات ستساعدنا على استعادة أطفالنا. وعندما أسمح لنفسي بالتفكير في الأمر، أعترف أنني أجدني لا أعرف حتّى ما إذا كان أطفالنا لا يزالون على قيد الحياة. كلّ ما أعرفه الآن هو أنني يجب أن أصل إلى هذين المستودعين. إنهما في الجبال جهة البحر، وليس جهة الطريق. يمكننا الاختباء في تلك المنطقة. ثمّة أماكن كثيرة هناك يمكننا الاحتماء فيها إلى نقرر ماذا سنفعل. هناك فرق كبير بين مجرد قول إننا يجب أن نعثر على أطفالنا، وبين إيجاد طريقة للقيام بذلك. من أين نبدأ؟ وبمن نثق؟

لقد أحرقنا أيكورن. لا. لا. لقد أحرقنا المعسكر المسيحيّ.

أحرقنا المعسكر المسيحيّ كي لا يُستخدم كمعسكر مسيحيّ من بعد أبداً. إذا ظلت أمريكا المسيحيّة تريد الأرض التي سلبَتها منّا، فأمامها مهمة عسيرة لإعادة بناء المكان. قمنا بصبّ زيت القناديل ووقود الديزل داخل الأكواخ التي بنيناها من الأشجار التي قطعناها ومن الصخور والخرسانة التي حملناها. قمنا بصبّ الوقود في المدرسة التي صمّمها غرايسون مورا وبذلنا جميعنا قصارى جهدنا لبنائها وتجميلها. قمنا بصبّ الوقود على جثث «معلّمينا». لقد أحرقنا كلّ شيء لم نستطع حمله معنا، وكل شيء لم يحطمه أو يأخذه السجناء الآخرون. قد لا تحترق المباني كُلياً لأنها مبللة بالأمطار، لكنها ستتدمّر وتغدو غير آمنة. سيحترق الأثاث الذي عثرنا عليه أو صنعناه. ستحترق الأجساد المكروهة.

وهكذا، شاهدنا منازلنا تحترق مرّة أخرى. توجهنا إلى التلال، منفصلين عن آخر السجناء الباقين الذين ساروا عائدين باتجاه الطريق السريع أو إلى أي مكان آخر يرغبون بالذهاب إليه. ثم ألقينا نظرة من التلال. لقد رأى معظمنا منازلنا تحترق سابقاً، ولكن لم نكن نحن من أشعل النار فيها. هذه المرة، فات الأوان على النار لكي تغدو ذات النار المُهلكة التي نتذكرها. فقد هلكَت من زمن طويل كلّ الأشياء التي بنيناها وأحببناها. هذه المرة، النار مطهّرة فقط.

١٥

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

عشنا قبلاً
وسنعيشُ ثانية
سنكونُ حريراً،
صخراً،
عقلاً،
نجماً.
سنتشتّتُ،
ونتجمعُ،
نُسبَكُ،
نُسبَرُ.
سنعيشُ
وسنخدمُ الحياةَ.
سنصوّر الربَّ

والربُّ سيُصوّرنا.
مراراً وتكراراً
وإلى الأبد.

تعمّد الصليبيون التفريق بين الأشقاء لأنهم إذا كانوا مجتمعين فقد يسندون بعضهم البعض لممارسة طقوس ومعتقدات وثنية في السرّ. ولكن إذا عُزل كلّ طفل وأُلقي به إلى عائلة أمريكية مسيحيّة صالحة، فسيتغيّر كلّ واحدٍ منهم. سيتكفّل ضغط الأهل وضغط الأقران والزمن بإعادة تشكيلهم كأفراد أمريكيين مسيحيّين صالحين.

وقد حدث ذلك بين الحين والآخر، حتّى بين اليافعين في أيكورن. انظروا لولدَي آل فيركلوث على سبيل المثال. أحدهما صار قسّاً في أمريكا المسيحيّة. بينما رفض الآخر أمريكا المسيحيّة تماماً. وأحياناً يكون لهذا الانقسام نتائج مدمّرة كُلياً. لقد مات بعضنا من جرّاء ذلك. انتحر رامون فيغارو كاسترو. وسببُ انتحاره على حسب قول أحد أخوته بالتبنّي لأنه «كان عنيداً جداً فلم يحاول التكيّف وينسى ماضيه الآثم». كانت أمريكا المسيحيّة في البداية ملجأً للجهلة والمتعصبين أكثر ممّا يلزم. حتّى الأشخاص الذين لم يضرِبوا أو يحرِقوا أشخاصاً آخرين قد يتعاملون فجأة مع الأطفال اليتامى أو المختطَفين ببرود وقسوة نابعين من استعلاء أخلاقي.

قالت أُمّي للبالغين في أيكورن: «أذعنوا. افعلوا ما يُقال لكم ولا تُفصحوا عن أفكاركم. لا تعطوهم مبرراتٍ لإيذائكم. انتظروا

اللحظة المواتية. راقبوا آسريكم. أنصتوا لهم. اجمعوا المعلومات، واستخدموها ضدّهم». لكننا نحن الأطفال لم نسمع أياً من هذا. لقد اختُطفنا ومُنحنا فرادى لأشخاص آمنوا أن من واجبهم تحطيمنا وإعادة بنائنا على صورة المسيحيّين الأمريكيين. وتحطيم الناس بالطبع أسهلُ بكثير من إعادة بنائهم.

لقد وقعت مآسٍ عديدة، وارتُكبت شرور كثيرة باسم الرب.

ومع ذلك، فقد بدأت أمريكا المسيحيّة على أساس محاولة المساعدة والشفاء جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى اعتناق المسيحيّة. قبل زمن طويل من انتخاب جاريت كرئيس، بدأت كنيستُه بإنقاذ الأطفال. لكنّهم في البداية لم يُنقذوا غير الأطفال الذين احتاجوا بالفعل للمساعدة. كانت هنالك عدّة دور لرعاية الأطفال تابعة للمسيحيّين الأمريكيين على امتداد ساحل الخليج حيث بدأ جاريت عمله، وقد تجاوز عمرها عشر سنوات بحلول عام ٢٠٣٢. جمعَت هذه الدور يتامى الشوارع، آوَتهم وأطعمَتهم ورعتهم وربَّتهم ليصبحوا «حصن أمريكا المسيحيّة». ولكن في ما بعد، تولّى المتعصّبون زمام الأمور وبدأوا بسرقة الأطفال من «الوثنيين» وتسبّبوا بأذى فظيع.

تحضيراً لهذا الكتاب، تحدّثتُ مع عدّة أشخاص نشأوا في دور رعاية أطفال تابعة لـ (أ. م) أو تبنتهُم عوائل أعضاء في (أ. م) من دور رعاية تابعة لـ (أ. م). لقد ذكّرني ما قاله هؤلاء الأشخاص بحياتي مع آل ألكسندر. لم يُفترض بدور الرعاية والعوائل المتبنّية أن تكون قاسية. لم تُستخدم الأطواق حتّى في دور الرعاية إلّا لمعاقبة اليافعين،

ولا يُلجأ إليها إلّا بعد فشل التحذيرات والعقوبات المخفّفة. لم تكن دور الرعاية تحت إدارة الساديين أو المنحرفين، بل كانت تحت إدارة أشخاص آمنوا بشدّة بما كانوا يفعلونه- أو على الأقل كانت تحت إدارة عاملين كلّ ما رغبوا به هو إرضاء أرباب عملهم والحفاظ على وظائفهم. أراد المؤمنون أن يؤمن «أطفالهم» كلياً بالرب وبجاريت وأن يكونوا جنوداً مسيحيّين أمريكيين صالحين مستعدين لخوض المعارك ضد كلّ أشكال الوثنية المعادية لأمريكا. وكان من الأسهل إرضاء المرتزقة. لم يرغبوا في أذية أو قتل الأطفال أثناء أداء واجبهم. أرادوا أن يتعلّم الآخرون الدروس المطلوبة، ويجتازوا الاختبارات المطلوبة. أرادوا السلام.

كان آل ألكسندر مزيجاً من المؤمنين والمرتزقة. أرادا منّي أن أؤمن، وإذا لم يحبّاني، فعلى الأقل قاما برعايتي. بحلول وقت دخولي إلى المدرسة -مدرسة أمريكية مسيحيّة بالطبع- كنت قد تعلّمت الهدوء والابتعاد عن طريقهما. عندما نجحتُ بهذا، كافأني كايسي وماديسون بتركي وشأني. توقّفت كايسي عن إخباري أنني أدنى شأناً من كاماريا. توقّف ماديسون عن دسّ يديه المبللتين بالعرق تحت ثوبي. كنت آخذ كتاباً وأقرأه في زاوية هادئة من المنزل أو في الفناء. لم أقرأ في صغري غير قصص من الكتاب المقدس أو قصص أبطال مسيحيّين أمريكيين من أمثال آشا ڤير، ممن قاموا بأعمال عظيمة من أجل الدين. لقد أثّروا بي. وكيف لا؟ حلمتُ بالقيام بأعمال عظيمة أنا أيضاً. حلمتُ أن أجعل كايسي فخورة بي، وأجعلها تحبني

كما أحبت كاماريا. كان والداي البيولوجيان، كلاهما، شخصان ضخمان وقويّان. وبفضلهما كنتُ دائماً أضخم وأقوى من الفتيات في مثل عمري- وهذهِ ضربة أخرى ضدّي، بما أن كاماريا كانت فتاة «صغيرة وناعمة». حلمتُ بالقيام بأفعال بطولية وعظيمة، ولكن كلّ ما فعلتُه في الحقيقة هو الاختباء، والاختفاء، وجعل نفسي غير مرئية.

من المفترض أن يكون الاختباء بهذهِ الطريقة أمراً صعباً على طفلة ضخمة مثلي، لكنه لم يكن كذلك. إذا أنجزتُ أعمالي المنزلية وواجباتي المدرسية، كنتُ أُشجَّع على الاختفاء- أو بالأحرى لم أكن أُشجَّع على القيام بأي شيء آخر. كان هناك أطفال قليلون في حيّ، وكانوا كلّهم أكبر مني في العمر. كنتُ مجرد مصدر إزعاج أو أضحوكة بالنسبة إليهم. فإما أنهم كانوا يتجاهلوني أو يوقعوني في المتاعب. لم تحبّ كايسي وصديقاتها محاولاتي للانضمام إلى أحاديثهن الخاصة بالكِبار. وحتى عندما تكون كايسي بمفردها، فهي لم تهتمّ بأي شيء أقوله لها. كانت إما أن تستغرق في الحديث عن كاماريا دون رغبتي، أو تعاقبني إذا طرحتُ أسئلة عن أي شيء آخر.

كان السكوت جيداً. وكان التساؤل سيئاً. ينبغي على الأطفال أن يُرون ولا يُسمعون. يجب أن يصدّقوا كلّ ما يقوله لهم أهلهم، ويقتنعوا أن هذا فقط ما هم بحاجة لمعرفته. إذا كانت هنالك أيّة وحشية في الطريقة التي نشأتُ بها، فهذه هي. كان الإيمان الغبي جيداً. بينما كان التفكير والتساؤل سيئين. يُفترض بي أن أكون

نعجة في قطيع المسيح- أو في قطيع جاريت. يُفترض أن أكون هادئة ووديعة. ما أن تعلّمت هذا حتّى صارت طفولتي مريحة على الأقل جسدياً.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٤ مارس، ٢٠٣٥

لقد حدث الكثير...

لا، هذا غير صحيح. لم تقع الأحداثُ ببساطة. لقد تسبّبتُ بوقوعها. يجب أن أعود إلى طبيعتي، لأعرف وأعترف على الأقل أمام نفسي عندما أتسبب بوقوع الأحداث. يُقال للعبيد على الدوام إنهم أوقعوا ضرراً، ارتكبوا خطيئة، اقترفوا أخطاء غبية. بينما لا تحصل الأمور الحسنة إلّا بسبب «المعلّمين» أو الربّ. نحن سبب الأشياء السيئة. إما أنّنا اقترفنا خطأً معيّناً أو أن الربّ غير راضٍ عنا عموماً فعاقَب المعسكر كلّه.

إذا سمعتَ مثل هذا الهراء مراراً وتكراراً ولمدة طويلة، فستبدأ بتصديقه. تُثقل كاهلك بلومِ نفسك على كلّ مآسي العالم. أو تقرّر أنك ضحية بريئة. وأن هذا خطأ أسيادك أو الربّ أو الشيطان- أو ربما أن الأحداث تقع من تلقاء نفسها. يحمي العبيد أنفسهم بشتى الطرق.

لكننا لم نعد عبيداً.

لقد فعلتُها: لقد حررت جماعتي. لقد نجونا من العبوديّة معاً، لكنني لم أظن أنّنا سننجو من الحرية معاً. لقد فرّقتُ مجتمع بذرة الأرض وأرسلتُ أفراده في كلّ الاتجاهات. أعتقد أن ذلك كان الأمر الصحيح الذي يجب فعله، ولكني لا أحتمل التفكير فيه. ربما إذا كتبتُ عنه سأبدأ بالتشافي. لا أعرف. كلّ ما أعرفه الآن أنني مزّقت شِلواً من نفسي ترك فجوةً كبيرة داخلي. لقد أبعدتُ كلّ من يهمّني أمرهم. إنهم كلّ ما تبقى لي، وأعرف أنني قد لا أراهم ثانية.

هربنا من المعسكر المسيحيّ يوم الثلاثاء، أحرقنا المعسكر مع سجّانينا وغادرنا. تركنا خلفنا رفات أمواتنا وحلم أيكورن كأول مجتمع لبذرة الأرض. ذهب آل سوليفان وآل غاما كلّ في طريقه. لم نكن سنطلب منهم تركنا، لكنني كنت سعيدة لأنهم تركونا. لم يكن بحوزتنا غير المال الذي خبأناه في المستودعات والمال الذي أخذناه من «المعلّمين». ولن يكفينا هذا المال طويلاً، بما أنّنا الآن مشرّدون وعاطلون عن العمل وسائرون على الأقدام.

لقد طلبتُ من العائلتين اللتين اعتزمتا الإقامة مع أقاربهما أو أصدقائهما أن يجمعوا قدر ما وسعهم من المعلومات حول أطفالنا، وحول شرعية المعسكر، وحول احتمالية وجود معسكرات أخرى. يجب أن نتعاون جميعنا في جمع المعلومات. وطلبتُ منهم أن يتركوا خبراً مع آل هولي. كان آل هولي جيراننا، صحيح أنهم أبعد من آل سوليفان وآل غاما، لكنّهم جيران. وكانوا أصدقاء مقرّبين من آل سوليفان، ولم تكن هناك شائعات عن تعرضهم للاستعباد. يجب

أن نحرص على عدم إيقاعهم في المتاعب، ولكننا إذا التزمنا الحيطة والحذر وتردّدنا عليهم بين الحين والآخر، يمكننا جميعاً تبادل المعلومات.

المشكلة هي أنّنا لم نجرؤ على أخذ أيّ هاتف من المعسكر المسيحيّ. أخذ الغرباء بعض الهواتف معهم، لكننا خشينا أن يتعقبونا بواسطتها إذا استخدمناها. لم نستطع المجازفة خوفاً من إلقاء القبض علينا وإجبارنا على ارتداء الأطواق ثانية. إذا أمسكونا سنُستعبد مدى الحياة أو نُعدم لأننا قتلنا مواطنين أمريكيين مسيحيّين صالحين. وقد يتمّ غضّ النظر عن حقيقة أن هؤلاء المواطنين قد سلبوا منازلنا، وأرضنا، وحريتنا، وأطفالنا، إذا كان هؤلاء المواطنون من أصحاب النفوذ. قد يحصل هذا باعتقادنا. انظروا لما حصل أصلاً! كلنا خائفون.

لقد اتّفقنا -نحن جماعة بذرة الأرض فقط- على مكانٍ معيّن نستخدمه كمخبأ رسائل. يقع هذا المكان بالقرب ممّا بقي من أنقاض متنزه ريدودز في هومبولت. يمكن لأي واحد منا أن يترك هناك معلومات ليقرأها الآخرون، ويستنسخونها، ويتصرفون بناء على ما ورد فيها. إنه مكان جيد لأننا جميعنا نعرف موقعه كما أنه معزول. لا يسهل الوصول إليه. لم نجرؤ على ترك المعلومات أو نجتمع في مكانٍ آخر أكثر ملائمة بالقرب من الطريق السريع أو بالقرب من الطرق المحليّة، وكنا بحاجة إلى وسيلة للتواصل مع بعضنا البعض دون الاعتماد على آل هولي. سنتحرّى منهم،

ولكن من يعلم ما هو شعورهم نحونا الآن. سنتواصل مع بعضنا البعض عن طريق ترك الرسائل في المخبأ السري، أو ربما سنلتقي هناك.

لكنني تعجّلت الحديث. فقد أمضينا بعض الوقت معاً بعد مغادرة المعسكر المسيحيّ.

لقد توغّلنا بين الجبال، بعيداً عن الطرق المعبّدة، جنوباً وغرباً باتجاه موقع أكبر مستودعاتنا حيث علمنا أنّنا سنحظى هناك بملجأ في كهف بارد صغير. لقد استرحنا في الكهف وتشاركنا الطعام الذي حملناه معنا من المعسكر المسيحيّ. ثم استخرجنا الإمدادات التي خبأناها في أكياس بلاستيكية ثقيلة ملحومة حرارياً. حصلنا من المؤونة على عبواتٍ من الطعام المجفف -الفواكه، والمكسّرات، والفاصوليا، والبيض، والحليب- بالإضافة إلى بطانيات وذخيرة. وأهم شيء، لقد أعطيتُ الآباء الحاضرين نسخاً من بصمات أيدي وأقدام الرضّع التي خبأناها في هذا المستودع بالذات. أعطيتُ ابنتَي آل مورا بصمات أخويهما الصغيرين فجلستا تحدقان فيها، كلّ واحدة منهما تمسك بنسخة في يدها. لقد مات والداهما كليهما. لم يبق لهما غير بعضهما البعض وأخويهما الصغيرين، إذا عثرنا عليهما.

تمتمَت دو: «كان يجب أن يكونا معنا. لا يملك أحدٌ الحقّ بأخذهما منا».

طوت أديلا أورتيز نسخة بصمات ابنها ووضعتها داخل قميصها. ثم طوت ذراعيها أمامها كما لو أنّها تهدهد طفلاً. كانت

بصمات لاركِن وبصمات أطفال ترافيس وناتيفيداد في مستودع آخر، لكنني وجدتُ بصمات طفلَي هاري، تابيا وراسل، وأعطيتُها لهاري. جلس يحدق فيها فحسب، ثم قطّب حاجبيه وهو ينظر إليها وهز رأسه. كأنه يحاول أن يجد فيها تفسيراً لسبب كلّ ما حدث له. أو ربما رأى وجهي طفليه ووجه زهرا، الذين فقدهم منذ زمن طويل.

جلسنا متحلّقين حول النار التي تجرأنا أخيراً على إشعالها لنستدفئ. جمعنا الحطب من الخارج في آخر ساعة من النهار، لكننا انتظرنا حتّى حلّ الظلام لإشعال النار. لم يحترق الحطب في البداية لأنه كان مبللاً. وعندما أشعلنا ناراً صغيرة كان دخانها أكثر من حرارتها. أمِلنا ألّا يرى أحد الدخان الخارج من الكهف، أو إذا رآه أحدهم، عسى أن يظنه منبعثاً من أحد مخيّمات المشرّدين العشوائية العديدة المنتشرة بين الجبال. تكون هذه الجبال في الشتاء باردة ورطبة وغير مريحة، ويصعب العيش فيها من دون وسائل الراحة الحديثة، لكنها أيضاً مكانٌ يلجأ إليه الأشخاص العقلاء للابتعاد عن الآخرين.

جلستُ بجانب هاري الذي تابع التحديق في البصمات وهو يهزّ رأسه. ثم بدأ يتأرجح إلى الأمام والخلف. بدت ملامحه في ضوء النار على وشك أن تتصدّع، وتتحطم، غير قادرة على التماسك، بطريقة ما.

جذبتُه نحوي وعانقته فطفق يشتم ويبكي بصوتٍ خافت مجهد. أدركت في لحظة ما أنني كنتُ أبكي أيضاً. أعتقد أنّنا كلينا

شرعنا بالعويل في داخلنا، ولكن بطريقة ما، لم تتجاوز أصواتنا الهمسات والحشرجات. شعرتُ بالعويل يكافح للإفلات من حنجرتي، والصرخات التي ندت منا كلينا على هيئة نداءات صغيرة ممزقة. لا أعرف كم طال جلوسنا معاً، متعانقين، أصابنا الجنون داخل أنفسنا، ننوح ونئنّ على موتانا وخساراتنا، غير قادرَين على كتمان سبعة عشر شهراً من الإذلال والألم ولو لدقيقة واحدة أكثر.

بكينا حتّى نمنا مثل طفلَين متعبَين. قالت لي ناتيفيداد في اليوم التالي أنّها وترافيس قاما بنفس الشيء. وجد الآخرون، فرادى أو مجموعات، راحتهم في البكاء التطهيري أو النوم العميق أو بممارسة الحب المحموم خلسة في الجزء الخلفي من الكهف. لقد انجمعنا أخيراً، نواسي بعضنا البعض، مع ذلك أظن أن كلّ واحد منا كان وحيداً، يصبو للآخرين، ما زال جزءٌ من أنفسنا عالقاً في الحيرة والخوف والألم والعزلة في المعسكر المسيحيّ. كنّا نصبو لنوعٍ من التنفيس، والتواصل البشريّ، وإلى طريقةٍ ما للحزن البشري الطبيعي الذي حُرمنا منه طويلاً. يدهشني أنّنا استطعنا التصرف بعقلانية كما فعلنا.

في الصباح التالي استيقظ لوسيو فيغاروا وأديلا أورتيز في أحضان أحدهما الآخر في الجزء الخلفي من الكهف. حدّق كلّ منهما بالآخر برعبٍ وارتباك أوّلاً، ثم بإحراجٍ شديد، ثم بتقبّل للأمر الواقع. أحاطها بذراعه، وسحب إحدى البطانيات ودثّرها، فاتّكأت عليه.

استيقظ خورخي شو ودايموند سكوت بنفس الوضعية، لكنهما لم يبدوا متفاجئَين أو محُرَجين.

استيقظ مايكل ونوريكو معاً ومكثا مستلقيَين بسكون لوقت طويل، دون أن يقولا شيئاً، أو يفعلا شيئاً. كأنه يكفيهما أنهما استطاعا أخيراً الاستيقاظ بين ذراعَي بعضهما البعض.

استيقظَت بنتا آل مورا معاً، وعلى وجهيهما آثار الدموع التي ذرفتاها ليلة أمس.

بطريقة ما، وجدَت أوبري دوفيتري ونينا نوير إحداهما الأخرى في الليل، بالرغم من أنهما لم تُعيرا بعضهما انتباهاً كبيراً من قبل. ما أن استيقظتا، حتّى سارعتا للابتعاد عن بعضهما بانزعاجٍ واضح.

وحدها آلي استيقظت وحيدة، لململَت نفسها في وضعية الجنين وهي متدثرة في بطانيتها. لقد نسيتُها. أليست خسارتها أكبر منا جميعاً؟

وضعتُها بيني وبين هاري، وأشعلنا ناراً للفطور من الحطب الذي تبقّى من ليلة الأمس. حضّرنا فطوراً من أشياء متنوّعة، وجعلناها أنا وهاري تأكل. استعرتُ مشطاً من دايموند سكوت، التي بحكم طبعها الحريص على الترتيب والنظافة، قد تمكّنت من العثور على مشط عندما تركنا المعسكر المسيحيّ. مشّطتُ شعر آلي، ثم مشّطتُ شعري. بطريقة ما، بدأت أشياء من هذا القبيل تهمّنا

ثانية. بدأنا كلنا بمحاولة ترتيب مظاهرنا لنعود مرّة أخرى كبشرٍ محترمين. عشنا لوقتٍ طويل كعبيدٍ قذرين نرتدي خرقاً قذرة ونتبنّى سلوكيات قذرة في سبيل تجنّب الاغتصاب أو الجلد. وجدتُ نفسي أتوق لحوض استحمام عميق مليءٍ بماء ساخن ونظيف. لقد اعتدنا بفضل «معلّمينا» على القذارة والامتهان لدرجة أنّنا نسينا أحياناً أنّنا نرتدي الأسمال ورائحتنا كريهة. في خضم إرهاقنا وخوفنا وألمنا، صرنا نعتز بتلك اللحظات التي كان بوسعنا فيها الاستلقاء والنسيان، عندما لا يعذبنا أحد، عندما كان عندنا ما نأكله. كانت تلك وسائل الراحة الحيوانية الوحيدة المتاحة لنا. التذكّر ليس آمناً. لأنك قد تفقد صوابك عندما تتذكّر.

كان أسلافي في هذا النصف من الكرة الأرضية عبيداً مملوكين بحسب القانون. عاشوا في الولايات المتحدة كعبيد مملوكين لمدة قرنين ونصف- عشرة أجيال على الأقل. كنتُ أظن أنني أعرف ما يعنيه ذلك. وأدرك الآن أنني لا أستطيع حتّى تخيّل الأشياء الفظيعة التي ارتُكبت بحقهم. كيف نجوا من كلّ هذا وحافظوا على إنسانيتهم؟ يقيناً لم يكن في النية أن يحتفظوا بها، تماماً كما حصل معنا.

قلتُ: «علينا أن نفترق، اليوم أو غداً. علينا الرحيل عن هذا المكان في مجموعات صغيرة». انتهينا من الإفطار، ونظّفنا أنفسنا لكي نبدو بمظهر لائق بعض الشيء. رأيتُ الآخرين وهم يتبادلون الأنظار، ويتساءلون عمّا يجب فعله لاحقاً. لكنني عرفتُ ماذا يجب أن

نفعل. لقد عرفتُ منذ اللحظة التي أُجبرنا فيها على ارتداء الأطواق، أنّنا لن نقدر على البقاء معاً حتّى لو تمكّنا من تحرير أنفسنا.

قلت وسط الصمت المطبق: «ستستمر بذرة الأرض. لكن أيكورن ماتت. نحن كثيرون. سيسهل عليهم ملاحقتنا وأسرنا ثانية أو قتلنا».

سألت أوبري دوفيتري: «ماذا بيدنا فعله؟».

قال هاري بالتر ببرود: «علينا أن نفترق. يجب أن يذهب كلّ واحد منا في طريقه للبحث عن أطفالنا».

همست نينا نوير: «لا». ثم بصوتٍ عال: «لا! لقد خسرتُ الجميع. والآن تريدون مني البقاء بمفردي ثانية؟ لا». والآن راحت تصرخ.

«بلى»، قلتُ لها، ولها فقط، بصوتٍ ناعم قدر إمكاني: «نينا، ستأتين معي. لقد خسرتُ عائلتي أنا أيضاً. تعالي معي. سنبحث عن أختيكِ وعن ابنتي وعن ابن آلي».

همسَت: «أريد أن نبقى جميعنا معاً». ثم شرعَت بالبكاء.

قال هاري: «إذا بقينا معاً فسرعان ما سيعثرون علينا ويأسرونا ويجبرونا على ارتداء الأطواق أو يقتلونا». ثم نظر نحوي وقال لي: «سأذهب معكِ أنا أيضاً. ستحتاجين للمساعدة. و... أنا أريد استعادة أطفالي. أنا خائف حتّى الموت ممّا قد يحدث لهم. هذا كلّ ما أفكر فيه الآن. هذا كلّ ما يهمني».

وضعت آلي يدها على كتفه، تحاول أن تواسيه.

قلتُ: «لا يجدر بأحدٍ المغادرة بمفرده. إن تنقّل المرء بمفرده أمر في غاية الخطورة. ولكن لا تجتمعوا في مجموعات تضم أكثر من خمسة أو ستة أشخاص».

«وماذا عنا؟». قالت دو مورا وهي تمسك بيد أختها. كان من الصعب في تلك اللحظة تذكّر أن لا صلة قرابة بالدم تجمع بينهما. لقد التقى رجل وامرأة، عبدان سابقان، وحيدان وخائفان، ووقعا في الحب، وتزوجا، وصارت ابنتاهما دو وتوري أختين. وهما أختان الآن، يتيمتان ووحيدتان. أنا أحسدهما على قربهما من بعضهما، وأخاف عليهما. ما زالتا صغيرتين، وقد تعرضتا لإساءة المعاملة في المعسكر المسيحيّ لحدٍ يفوق التحمّل. يبدو عليهما الجوع والرعب. وتبدوان كبيرتين في السن بنحوٍ يصعب عليّ وصفه. عرف «معلّمونا» أنهما متقمّصتان خلال تمرد دَي، وهذا دفعهم لإساءة معاملتهما أكثر من السابق، لكن البنتين لم تبلّغا عن بقية المتقمّصين. مع ذلك، بالرغم من شجاعتهما، فمن السهل أن ينتهي المطاف بهما بطوقين حول عنقيهما ثانية. أو قد ينتهي المطاف بهما باللجوء إلى ممارسة الدعارة- لإطعام نفسيهما فقط.

قالت ناتيفيداد: «ستأتيان معنا. نحن نعتزم البحث عن أطفالنا. وسنبحث أيضاً عن أخويكما إذا استطعنا».

عضّت دو شفتيها. قالت: «أنا حبلى. لم تحبل توري. لكنني حبلى».

قلتُ: «من العجيب أنّنا نحن النساء لم نحمل كلنا. كنّا عبيداً. والآن نحن أحرار». نظرتُ إليها. إنّها فتاة طويلة ونحيلة ورقيقة المظهر، بعينين واسعتين، اسم على مسمى[1]. «ماذا ستفعلين يا دو؟».

ابتلعت ريقها وقالت: «لا أعرف».

قال ترافيس: «سنعتني بها. مهما يكن قرارها. سنساعدها. كان أبوها رجلاً طيباً. كان صديقي. سنعتني بها».

أومأتُ برأسي بارتياح. كان ترافيس وناتيفيداد شخصين كُفأين يُعتمد عليهما. سينجوان، وإذا كانت البنتان معهما، فستنجوان أيضاً.

بدأ آخرون بتشكيل أنفسهم في مجموعات. أديلا أورتيز، التي ظنّت أول الأمر أنّها ستنضم إلى ترافيس وناتيفيداد وابنتَي آل مورا، قرّرت في النهاية البقاء مع لوسيو فيغارو وأخته. لا أعرف كيف انتهى بهما الأمر، هي ولوسيو، في حضن بعضهما البعض ليلة البارحة، لكنني أظن أن أديلا تبحث عن علاقة دائمة مع لوسيو. إنه أكبر منها بكثير، وأظن أنّها تأمل أنه سيريدها وسيرغب بالاعتناء بها. لكن أديلا حبلى أيضاً. لا يبدو حملها ظاهراً للعيان، ولكن وفقاً لما قالته لي، فهي تعتقد أنّها حامل في شهرها الثاني على الأقل.

وأيضاً، ما زال لوسيو حزيناً على تيريزا لين. لقد جعله موتها والطريقة التي ماتت فيها هادئاً جداً- لطيفاً ولكن منعزل. لم تكن

(١) Doe: اسم دو يعني ظبية.

هذه طبيعته عندما كنّا نعيش في أيكورن. لقد قُتل أولاده وزوجته قبل أن يلتقي بنا، فكرّس كلّ وقته وطاقته في مساعدة أخته وأطفالها. كان قد بدأ لتوه بالاقتراب من تيريزا عندما انضمت إلينا... والآن، ربما قرر أن من المؤلم جداً الاهتمام بامرأة أخرى، ومن ثم فقدانها.

إنه مؤلمٌ بالفعل. إنه فظيع. وأنا أعرف هذا. لكنني أعرف أديلا أيضاً. إنّها تحتاج أن يحتاجها الآخرون. أتذكّر أنّها كرهَت حملها في البداية، وكرهَت الرجال الذين اغتصبوها جماعياً. لكنها أحبّت الاعتناء بطفلها. كانت أماً حريصة ومحبة، وكانت سعيدة. والآن، ماذا يخبئ لها المستقبل في جُعبته؟ لا أعرف.

ومع ذلك، بالرغم من خوفي على أصدقائي وجماعتي، وبالرغم من توقي للحفاظ على وحدة مجتمعٍ يجب أن يتفرّق، فقد كان ذلك أسهل ممّا تخيلت- أهون مما كان في تصوري. لقد عملنا سوية لستّ سنوات، وتحمّلنا الكثير كعبيد. والآن نحن نقسّم أنفسنا، ونقرر كيف سنذهب كلّ في سبيله. لا أقصد أن الأمر كان سهلاً- لكنه فقط لم يكن بالصعوبة التي توقّعتها. الربّ هو التغيير. علّمتُ هذا طوال ستّ سنوات. هذا صحيح، وأعتقد أنه مهّد الطريق لنا الآن. تقوم بذرة الأرض بإعدادك لتعيش في العالم كما هو، ولتحاول تصوير العالم الذي تُريده. ولكن ما من سهولة في كلّ هذا حقاً.

قضينا بقية اليوم في الذهاب إلى المستودعات الأخرى الواحد تلو الآخر، نرزم الإمدادات التي قمنا بخزنها فيها، ونجمع بقية بصمات أيدي وأقدام الأطفال. ثم قضينا ليلة أخرى معاً. وما أن

ذهبنا لكل المستودعات -وجدنا أحدها منهوباً، لكن البقية على حالها- حتّى قضينا الليلة في كهف ضحل آخر. أمطرت ثانية، وكان الجو بارداً. وهذا من صالحنا، لأنه سيجعل من تعقبّنا أمراً مستحيلاً. في تلك الليلة الأخيرة، غطّطنا في النوم بسرعة بعد أن أكلنا الطعام. لقد كنّا في غاية التعب، لأننا كنّا نسير عبر الجبال طوال اليوم، حاملين أمتعة تزداد ثقلاً مع كلّ محطة وقوف. صباح اليوم التالي وقبل أن نفترق، أقمنا اجتماعاً أخيراً. أنشدنا آيات من بذرة الأرض، على الألحان التي ألّفها غراي مورا وترافيس. أقمنا تأبيناً لموتانا بضمنهم أيكورن الميتة. تحدّث كلّ واحد منا عنها، متذكّراً.

قلتُ لهم في النهاية: «أنتم بذرة الأرض. وستبقون كذلك دوماً. أحبكم. أحبكم جميعاً». توقّفتُ برهة، وأنا أكافح للتشبث بما بقي من رباطة جأشي.

تابعتُ الحديث بطريقة ما. قلت: «لا يقف جميع من في هذه البلاد مع أندرو جاريت. نحن نعرف هذا. سيرحل جاريت، وسنبقى. نحن نعرف كيف ننجو أكثر من أغلب الناس. والدليل على ذلك هو أنّنا نجونا. نحن نمتلك أدواتٍ لا يمتلكها الآخرون، وهم بحاجتها. سيحين الوقت المناسب الذي نشارك فيه ما نعرفه». توقّفتُ برهة، ابتلعتُ ريقي، ثم قلتُ لهم: «اهتموا بأنفسكم. واهتموا ببعضكم البعض».

اتفقنا على زيارة مخبأ الرسائل السرّي المعيّن بالقرب من متنزه ريدوودز في هومبولت كلّ شهر أو شهرين لمدة عام -لهذه المدة

على الأقل. اتفقنا أن من الأفضل ألا تعرف كلّ مجموعة بمكان المجموعات الأخرى- حتّى إذا أُلقي القبض على مجموعة فلا يمكن إجبارها على خيانة الآخرين. اتفقنا أنه من الأفضل ألا نعيش في منطقة يوريكا وأركاتا، لأن هذا هو المكان الذي يعيش فيه أغلب سجّانينا، سواء الذين ماتوا أو الذين ظلوا على قيد الحياة لأنهم لم يكلّفوا بمناوبة الحراسة. هناك كنيسة أمريكية مسيحيّة كبيرة وعدّة منظمات تابعة لها في كلّ مدينة. ربما سنضطر للذهاب إلى تلك المدن للبحث عن أطفالنا، ولكن ما أن نجدهم ونستعيدهم، يجب علينا الذهاب لمكان آخر لنعيش فيه.

ثم أخبرتهم: «غيّروا أسماءكم. في أسرع وقت ممكن. اشتروا لأنفسكم هويات جديدة. ثم استرخوا. فأنتم أناس صادقون. إذا شكّك أيّ أحد فيكم، فهاجموا مصداقيته. اتّهموه بالانتماء إلى طائفة سرية، أو أنه ساحر، أو من عبدة الشيطان، أو سارق. قولوا كلّ ما تعتقدون أن من شأنه تهديد المشكّكين بكم! لا تدافعوا عن أنفسكم فقط. بل هاجموا. واستمروا بالهجوم إلى تزرعوا الرعب في قلوب متهِّميكم. راقبوهم. انتبهوا للغة أجسادهم. ستخبركم ردود أفعالهم بأفضل طريقة للإضرار بهم أو تخويفهم.

لا أظنكم ستضطرون للجوء إلى مثل هذا النوع من الأشياء كثيراً. إن فرصة مصادفتنا لأي أحدٍ يعرفنا في المعسكر المسيحيّ ضئيلة. مع ذلك يجب أن نكون مهيّئين ذهنياً لهذا الأمر إذا وقع. الربّ هو التغيير. اعتنوا بأنفسكم».

ثم مضى كلّ واحد منّا في طريقة. قال ترافيس إن من المستحسن ألّا نسير على الطريق السريع ما لم نتمكّن من الاختفاء بين حشود السائرين. وقال إننا يجب أن نسير بين التلال إذا لم تكن هنالك حشود. سيكون الأمر أصعب ولكن أقل خطورة. وافقتُه.

تعانقنا. تطلّب الأمر الكثير من العناق. تطلّب الأمر المجازفة باحتمالية لقائنا ثانية يوماً ما في ولاية أخرى أو بلد آخر أو أمريكا ما بعد جاريت. تطلّب الأمر دموعاً وخوفاً وأملاً. كان الوداع الأخير فظيعاً. كان اتخاذ قرار الرحيل أسهل ممّا ظننتُ. أما تنفيذه فكان أصعب بكثير. كان أصعب شيء اضطررت لفعله في حياتي.

ثم كنتُ وحدي مع آلي وهاري ونينا. خوّضنا نحن الأربعة في الوحل متّجهين شمالاً. تنقّلنا عبر التلال المألوفة، إلى حدود يوريكا، وأخيراً إلى جورجتاون. أنا من اقترحت أن نتوجه إلى جورجتاون ما أن افترقنا عن البقية.

«لماذا؟»، سألني هاري ببرودٍ ليس من عادته.

قلتُ: «لأن جورجتاون مكان جيد لجمع المعلومات. ولأنني أعرف دولوريس راموس جورج. قد لا تستطيع مساعدتنا، لكنها لن تعترض على وجودنا هناك».

أومأ هاري موافقاً.

سألَت نينا: «ما هو جورجتاون؟».

أخبرتُها: «إنه حي عشوائي كبير. كبير وقذر. ذهبنا إليه عندما

كنّا نبحث عنكِ وعن أختكِ. يمكننا الاختفاء هناك. الناس هناك ليسوا حشريين، ويمكننا الوثوق بآل جورج».

وافقَتني آلي بالقول: «يمكننا الوثوق بهم. إنهم لا يبلّغون عن أحد». كانت هذه أول جملة تقولها طوعاً منذ جلدها. نظرتُ إليها، وكرّرَت قائلة: «يمكننا الوثوق بهم. يمكننا البحث عن جاستن أثناء إقامتنا في جورجتاون».

١٦

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

مصيرُ بذرة الأرض
أن تمدّ جذورَها بين النجومِ.
وتعيشِ وتزدهرَ
في عوالمٍ جديدةٍ.
وتصيرَ كائناتٍ جديدةً،
وتتدبّرَ في أسئلةٍ جديدةٍ.
وأن تثِبَ إلى السماواتِ
مراراً وتكراراً.
وأن تستجليَ رحابةَ
السماواتِ.
وأن تستجليَ رحابةَ
أنفُسِنا.

أوّل ذكرى واضحةٍ لي كانت بخصوص دُمية. كنتُ في الثالثة من عمري تقريباً، أو ربما في الرابعة. لم أعرف من أين أتت الدُمية. وما زلت لا أعرف. لم أكن قد رأيتُ دُمية من قبل. لم يخبرني أحد أن الدُمى خطيئة أو ممنوعة أو حتّى موجودة. أعتقد الآن أن أحدهم ألقى بالدُمية فوق سياجنا وتخلّى عنها. وجدتُها عند شجرة الصنوبر الكبيرة في الفناء الخلفي لمنزلنا.

صُنعت الدُمية على صورة فتاة مراهقة شقراء بعينين زرقاوين. أذكر أنّها كانت منتصبة ونحيلة جداً. ارتدت خرقة بلونٍ زهريّ. أتذكّر كيف تحسّستُ العُقدة في ظهرها حيث عُقدت ثلاثة أطراف من الخرقة على أحد كتفيها وحول الخصر. كانت العقدة كتلة ناعمة الملمس لحدٍّ غريب متناقض مع الملمس البلاستيكي الخشن لجسد الدُمية. وما أن عثرَت عليها أصابعي حتّى بدأتُ بتفحّصها. ثم مضغتُها. ثم تلمّستُ الشعر الأصفر الخشن. كان يبدو كالشعر ولكن عندما تحسّستهُ بدا ملمسه غريباً. وانزعجتُ لأن الساقين لم تتحرّكا. كانتا ممدودتين بصلابة، وقد تشكّلت القدمان في هيئة دائمة من الوقوف على أطراف الأصابع. لم أعرف كيف ألعب بدُمية، لكنني عرفت كيف أنظر إليها، أتحسسها، وأتذوّقها، وأحفظها في ذاكرتي كشيء غريب جديد دخل عالمي.

ثم أتت كايسي، وانتزعَت الدمية مني. وعندما مددتُ يدي لأستعيدها، صفعَتني. لقد تسلّلَت من خلفي، ورأت ما كان بين يديّ، وفي غمرة غضبها المفاجئ، فقدَت أعصابها. كانت مُربيّة

صارمة، ولكنها نادراً ما ضربتني. وإنصافاً لها، كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي أذكرها فيها وهي تهاجمني بهذه الطريقة. وربما أتذكّر ذلك بوضوح لهذا السبب.

لقد أخبرني رجل نشأ في أحد دور رعاية الأطفال التابعة للأمريكيين المسيحيّين في منطقة ساحل الخليج أن مديرة الدار أُصيبت بنوبة غضبٍ مماثلة فقتلَت طفلاً.

كان ضحيّتها فتى في السابعة من عمره مصاباً بمتلازمة توريت. قال لي مُخبري: «لم نعرف نحن الأطفال أي شيء بخصوص متلازمة توريت، لكننا عرفنا أن هذا الطفل لا يمكنه منع نفسه من إطلاق الشتائم وإصدار الأصوات. لم يقصد فعل ذلك. لم يحبه بعض منا. وظن بعض منا أنه مجنون. لكننا كنّا جميعنا نعرف أنه لا يفعل ذلك عن قصد. كنّا نعرف أنه لا يستطيع منع نفسه. لكن مديرة الدار قالت إنه مصاب بمسّ شيطاني، وكانت تصرخ عليه دائماً.

وذات يوم ضربَته، لطمَته بحافة خزانة المطبخ. فضُرب رأسه بالخزانة ومات.

لا أعتقد أنه تم الحكم على المديرة بارتداء الطوق، لكنها طُردت من العمل. آمل أنّها لم تجد وظيفة أخرى واضطُرّت للعمل بالسخرة. لا بدّ لشخص مثلها أن ينتهي به المطاف، بطريقة أو بأخرى، مرتدياً طوقاً».

كانت هناك صرامة لا عقلانية عند بعض الأمريكيين المسيحيّين-

أولئك الذين ارتكبوا أقصى أذى. كانوا على يقين تام من كونهم على حق، مثل مفتشي محاكم التفتيش في العصور الوسطى، لدرجة أنهم سيقتلونك، بل ويعذبونك حتّى الموت، لإنقاذ روحك. لم تكن كايسي سيئة بهذا القدر، لكنها كانت صارمة وذات ذهنية حرفية أكثر من أي إنسان يتمتع بذكاء عادي، وقد دفعتُ أنا ثمن ذلك.

على أيّة حال، انتزعَت الدُمية مني وبدأت تصفعني. وهي تصرخ في وجهي طوال الوقت. كنتُ خائفة للغاية وأصرخ بصوتٍ عالٍ لدرجة أنني لم أعرف ما كانت تقوله. عندما أعود بذاكرتي الآن إلى الماضي، أدرك أن للأمر ولا ريب علاقة بعبادة الأصنام أو الوثنية أو تحريم المنحوتات. لقد ابتدعَت أمريكا المسيحيّة فئات كاملة جديدة من الخطايا ووسعّت نطاق الخطايا القديمة. لم يُسمح لنا بالاحتفاظ بأية صورة من أي نوع. تم حظر التليفزيون والأفلام، ولكن بطريقة ما لم تُمنع أقنعة الأحلام- رغم أنه لم يسمح إلّا بالمواضيع الدينية. لاحقاً، عندما دخلتُ المدرسة، كان التلاميذ الأكبر سنّاً يتبادلون أقنعة علمانية تعرض قصص المغامرات والحروب والجنس. مررتُ بأول تجربة متعة جنسية عندما ارتديتُ قناع أحلام تمّ تغيير عنوانه عمداً. كان ملصق الاسم يحمل عنوان «قصة موسى». بينما في الحقيقة، كانت قصة فتاة تمارس الجنس الجامح مع الكاهن والشمامسة وكل شخص تغويه. كان عمري أحد عشر عاماً عندما اكتشفتُ ذلك القناع. لو عرفَت كايسي بحقيقته، ربما لم تكن ستكتفي بصفعي. لكنني خبّأت القناع القذر جيداً.

ولكن عندما كنتُ في الثالثة من عمري، لم أعرف ما يكفي ممّا كان يجري من حولي لكي أخبّئ الدمية. لكن ردة فعل كايسي أخبرتني بمدى فظاعة الأمر. أجبرَتني على مشاهدتها وهي تحفر حفرة في الفناء الخلفي، وتضع الدمية فيها، وتصبّ عليها الوقود، وتحرقها. ثم قالت إن هذا ما سيحصل لي إذا عصيتُ الربّ وأطعتُ الشيطان. سيكون مصيري نار جهنم، وأن ما فعلَته هي للدُمية، سيفعله الشيطان بي. أتذكّر أنّها أجبرتني على النظر إلى الكتلة البلاستيكية المتفحّمة المشوّهة التي أضحت عليها الدُمية. أجبرتني على حملها، وبكيتُ لأنها لا تزال ساخنة، وأحرَقت يدي.

ثم قالت: «إذا ظننتِ أن هذا مؤلم، فتريّثي حتّى تدخلي جهنم».

بعد سنوات، عندما صرتُ امرأة ناضجة، أرتني ابنة إحدى صديقاتي دميتها. نهضتُ بسرعة وخرجتُ من المنزل. لم أصرخ ولم أقذف بالدمية. ركضتُ فحسب. ذعرتُ من منظر دُمية بيد طفلة- هلعتُ حقاً. فتوجّب عليّ أن أفكّر وأتذكّر لمدة طويلة قبل أن أفهم السبب.

كان هدف أمريكا المسيحيّة هو جعل أمريكا بلداً عظيماً مسيحيّاً، كما يجدر بها أن تكون، وإعدادها لمستقبلٍ قويّ ومستقر لقيادة العالم، وإعداد شعبها لحياة أبدية في الجنة. ولكن عندما أفكّر أحياناً بأمريكا المسيحيّة وبكل ما فعلَته عندما سيطرَت على حيوات الكثيرين، فلا أفكّر بالنظام والاستقرار أو العظمة أو حتّى في أماكن مثل المعسكر المسيحيّ أو دار بيليكان باي لرعاية الأطفال. كلّ ما

أفكّر فيه هو السلوكيات المتطرّفة الأخرى، السلوكيات العديدة الصغيرة الحزينة السخيفة المتطرّفة، التي كانت عماد حياة الأمريكيين المسيحيّين. أفكّر في دُمية الطفلة وأحاول طرد ظلال الذعر التي ما زالت تراودني رغماً عني عندما أرى دُمية.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأربعاء، ٢٨ مارس، ٢٠٣٥

لقد عثرنا على جاستن غيلكريست- أو بالأحرى هو الذي عثر علينا. هذا أفضل ما حدث لنا في الأسابيع التي قضيناها في جورجتاون.

لقد عملنا مع آل جورج مقابل المأوى والطعام، فيما نستعيد صحّتنا، ونحاول معرفة مكان أطفالنا، ونتابع الأخبار، ونجد طرقاً للاندماج في العالم كما هو الآن. ونظراً لأننا كنّا نعمل مقابل المأوى والطعام، فلا يزال بحوزتنا معظم المال الذي حملناه معنا. كما أنني أحصلُ على دخل إضافي من القراءة والكتابة للآخرين. معظم سكّان جورجتاون أُميّون. كما أنني بدأتُ بتعليم القراءة والكتابة للقلّة الراغبين بالتعلّم. وحصلتُ من هذا على دخلٍ إضافي أيضاً بالعملة الصعبة. كما أنني أبيع لوحات مرسومة بقلم الرصاص لأطفال الناس أو أحبائهم. واضطررتُ لتوخّي الحذر بخصوص الرسم. لأن بعض المسعورين من أتباع أمريكا المسيحيّة قد قرروا

أن صورة طفلك قد يُنظر إليها على أنّها مجسّمات محرّمة. وهذا أمر متطرّف للغاية بحيث صعُب تقبّله على الكثيرين بالرغم من أن جاريت يحظى بالشعبية في جورجتاون. لدى العديد من الناس هنا أبناء، وأخوة، وأزواج، أو أقارب ذكور قد تعرّضوا للإصابة أو قُتلوا في حرب أل-كن، مع ذلك، لا يزال الناس هنا يحبون جاريت.

في الواقع، جاريت محبوبٌ ومبغوض هنا في نفس الوقت. تسرُّ الفقراءَ المتديّنين، الجهلة والخائفين والمستميتين لتحسين أوضاعهم، رؤية «رجل دين» في البيت الأبيض. وهذا ما كان عليه جاريت بالنسبة إليهم: رجل دين.

حتى أولئك الأقل تديّناً يؤيدون جاريت. يقولون إن البلد بحاجة إلى يدٍ قويّة لاستعادة النظام، والوظائف الجيدة، والشرطة الشرفاء، والمدارس المجانية. يقولون يجب منحه الوقت وحريّة التصرف لكي يُعيد الأمور لنصابها الصحيح.

ولكن أتباع الأديان الأخرى، وغير المنتمين لأي دين إطلاقاً، يسخرون من جاريت ويقولون إنه منافق. يسخرون منه، ويكرهونه، لكنهم يخشونه أيضاً. إنهم يرونه على حقيقته كطاغية. ويراه البلطجية كواحدٍ منهم. ويحسدونه. لأنه أكبر وأنجح لصّ وقاتل ومُستعبِد.

يريد الفقراء العاملون الذين يحبون جاريت أن يُخدعوا، بل يحتاجون لأن يخدعوا. لأنهم يعيشون على الكفاف، ويعملون لساعات طويلة في وظائف شاقة وقذرة وخطيرة، لذا يحتاجون إلى مُنقذ. وتميل النساء بالأخص الفقيرات إلى التديّن الشديد ويرغبن

جداً برؤية جاريت على أنه المجيء الثاني للمسيح. الدين هو كلّ ما عندهن. إنهن يتعرّضن لسوء المعاملة من قبل أرباب العمل ومن أزواجهن. وينجبن أطفالاً أكثر من قدرتهن على إطعامهم. ويتحمّلن ازدراء الجميع.

مع ذلك، يرغب الأهالي بصورٍ لأطفالهم، حتّى لو قال الجاريتيّون المتطرّفون إنّها خطيئة. وأنا أتقاضى أجراً أقل من المصوّرين الفوتوغرافيين المحليين. كما أنني ألطفُ من المصوّرين الفوتوغرافيين. لأنني لا أرسم وساخة الأطفال، أو قروحهم أو أسمالهم. هذا ليس ضرورياً. لقد جعلتُ الفتيان أوسم ممّا هم عليه، وجعلتُ الفتيات بسيطات الملامح جميلات للغاية من أجل عشاقهنّ أو آبائهن. حتّى أنني نجحتُ بعد عدّة محاولات في رسم الموتى، مسترشدة بالذاكرة المُحبّة لأقاربهم أو أصدقائهم. لا أعرف طبعاً مدى دقة هذه الرسومات، لكنها تُسعد الناس.

أعتقد أنني قادرة على كسب عيشي من الرسم والتعليم والقراءة والكتابة للآخرين، طالما أُلازم الأحياء العشوائية والأقسام الفقيرة من البلدات. وهنالك فائدة إضافية في تعرّفي على سكّان هذه المناطق. يعمل العديد من سكّان العشوائيات في حدائق وبيوت سكّان البلدات والمدن الميسورين. يقوم سكّان العشوائيات بالعديد من الأعمال كالبستنة، وتنظيف المنازل، والطلاء، والنجارة، ورعاية الأطفال، وحتى السباكة والتصليحات الكهربائية. إنهم يخدمون الأشخاص الذين يمتلكون منازل وشققاً يعيشون فيها، ولكنّهم

لا يستطيعون تحمّل نفقات خدم منزليين حتّى لو من دون راتب. يدفع هؤلاء الأشخاص أجوراً زهيدة أو يقدّمون الطعام أو الملابس مقابل العمل. تسنح لسكّان العشوائيات الذين يقومون بمثل هذه الوظائف الفرصة لرؤية وسماع شتى الأمور المفيدة. على سبيل المثال، سيعرف الأجراء اليوميّون إذا ما ظهر أطفال جُدد في منزل ربّ العمل أو المنزل المجاور. وسيخبرونك بكل ما يعرفونه إذا قدّمتَ لهم سعراً مناسباً. تُعرض المعلومات للبيع هنا مثلها مثل أي شيء آخر.

لكن، بالرغم من محاولاتي، فقد وجدنا جاستن ليس عن طريق شراء المعلومات، بل لأنه هرب من عائلته الجديدة وجاء يبحث عنا. إنه يبلغ من العمر أحد عشر عاماً الآن- كبيرٌ بما يكفي ليفرّق بين الحقائق والأكاذيب، وأكبر من أن يُقال له إن المرأة التي ناداها «أُمّي» طيلة ثمانية أعوام من الأحد عشر عاماً، كانت شرّيرة وتعبد الشيطان.

كنتُ قد انتهيتُ للتوّ من رسمة بقلم الحبر والقلم الجاف لامرأة وطفليها، وهم جالسون خارج عُشّتهم المصنوعة من الخشب والبلاستيك. كنتُ في طريقي للعودة إلى غرفتي في الفندق. كانت شوارع جورجتاون ترابيّة ومليئة بالحفر المغمورة بالنفايات -مجاري مفتوحة- وقد تتعثر في الطريق بأي شيء. وكان آل جورج عُقلاء بما يكفي لبناء مجموعة أعمالهم التجارية على تلّ مرتفع بمعزل عن الفوضى والقذارة، ولكن لا يمكنني القيام بعملي إلّا إذا نزلتُ

إلى حيث يسكن أغلبية الناس. لم أشترِ لنفسي الكثير من الأشياء منذ أتيتُ إلى هنا، لكنني استثمرتُ مالي في زوج جزمات جيدة الصنع مقاومة للماء.

كنتُ أفكّر فيما أمشي بالمرأة التي رسمتُها للتوّ مع طفليها، الأوّل يبلغ من العمر ثلاثة أشهر والثاني ثمانية عشر شهراً. لم تبلغ الأم من العمر ٣٠ عاماً بعد، ولكنها تبدو في الخمسين. عندها تسعة أطفال. شعرها أشيب وشحيح، وبلا أسنان تقريباً. شعرتُ كما لو أنني عدتُ في الزمن إلى الماضي. أقصد إلى الماضي البعيد. كانت الحياة في أيكورن شبيهة بحياة القرن التاسع عشر. تساءلتُ، ما هذا؟ القرن الثامن عشر؟ مع ذلك، وعلى عكس ما يجب أن يحصل، وجدتُ نفسي أحسدها.

أنظر أحياناً إلى هؤلاء النساء الفقيرات والبائسات وأجد نفسي أحسدهن بنحوٍ يثير الغثيان. على الأقل أطفالهن معهن. حتّى لو لم يكن عندهن شيء آخر، فعندهن أطفالهن. ثم أنظر إلى الأطفال وأرسمهم، وبالكاد أُطيق ذلك.

كنتُ أصعد التلّ في طريقي للعودة إلى غرفتي في فندق آل جورج، عندما رأيتُ صبياً صغيراً متقرفصاً على جانب الطريق، ورأسه بين يديه. كان مجرّد طفل آخر نحيل يرتدي الأسمال. ظننتُ أنه مصاب بالرُعاف، فدفعني هذا لأجتازه على عجالة. إن التقمّص يجعلني جبانة أحياناً. ولكنه أيضاً يجعلني أقاوم جُبني.

توقفتُ. سألتُه: «هل أنتَ بخير يا عزيزي؟».

وثب حالما سمع صوتي، وهرع صوبي. لم يكن أنفُه نازفاً، لكن شفتيه كانتا مجروحتين ومتورّمتين وعلى خده ندبة من جرح قديم، وهناك ورمٌ كبير أزرق مسوّد على الجانب الأيسر من جبهته. تسمّرتُ بالطريقة التي اعتدتُ فيها على التسمّر عندما أُباغَت بالألم، فغمغم الطفل بشيء لم أفهمه لأن فمه كان متورّماً للغاية. ثم ارتمى عليّ فحسب.

ظننتُ في البداية أنه سيهاجمني. ظننتُ أنه يحمل سكيناً أو شفرة حلاقة من الطراز القديم أو لصقة جلدية تحتوي على سمّ أو مخدّر. الأطفال السراق أو القتلة ليسوا بالأمر الجديد. يعجّ حي جورجتاون العشوائي الكبير بالكثير منهم، رغم أنهم في العادة يهاجمون الصغار أو الضعفاء أو المرضى. ويميلون للتنقّل في مجاميع. ولكن، بطريقة ما، فقد عرفتُ الطفل من قبل أن يلمسني. ميّزتُ وجهه الجريح والمشوّه بالرغم من الألم الذي كان يسببه لي.

إنه جاستن! جاستن! مضروبٌ ومجروح، ولكنه حيّ. عانقتُه، متجاهلة الناس الذين بدأوا يحدّقون ويتهامسون من حولنا. جاستن صغير ونحيل. أحسب أنه ما زال يعوزه المزيد من النموّ. إنه فتى أبيض، أصهب، ومنمّش. باختصار، لا يبدو كشخص يجب أن يعانقني. قد يحدّق الناس في جورجتاون بفضول، لكنهم لا يتدخلون. إنهم يهتمون بشؤونهم الخاصة. وليسوا بحاجة لمتاعب الآخرين.

أبعدتُه عني ونظرتُ إليه. كان متّسخاً ومغطى بالدماء، ويبدو كأنه لم يأكل كفايته مؤخراً. لم تكن الجروح على وجهه وشفتيه

والكدمات على رأسه هي إصاباته الوحيدة. لأنه كان يتحرّك وكأنه مصاب في مكان آخر.

سألني: «هل ماما هنا أيضاً؟».

قلت: «نعم».

قال: «أين».

قلتُ: «سآخذكَ إليها». سرنا معاً باتجاه مجمّع آل جورج.

قال: «هل الطبيب هنا أيضاً؟».

توقفتُ. حدّقت باتجاه المجمّع، ثم نظرتُ للأسفل، بانتظار أن استجمع رباطة جأشي بما يكفي لأُبقي صوتي هادئاً. ثم أجبته: «كلا، يا جاس، إنه ليس هنا».

جاستن الذي عرفته قبل المعسكر المسيحيّ سيقبل بهذه الكلمات كما هي. قد يسأل عن مكان بانكول، لكنه لن يقول ما قال هذا الطفل الأكبر سناً، المجروح، الحصيف.

قال: «أينها المصوِّرة؟».

لم أسمع بهذا اللقب منذ زمن طويل. في الواقع، لم أسمع اسمي منذ فترة. لقد غيّرتُ اسمي إلى كوري دوران عندما أتيتُ إلى جورجتاون. إنه اسم زوجة أبي قبل الزواج. واستخدمته على أمل جذب انتباه أخي إذا صادف وجودُه في الجوار. تم قبول اسمي المزيف هنا، لأنه بالرغم من أنني أتيتُ إلى جورجتاون عدّة مرّات

قبل دمار أيكورن، ولكن لم يعرف اسمي الحقيقيَّ من السكّان الدائمين سوى دولوريس جورج وزوجها. وآل جورج في العادة لا يثرثرون.

أما اللقب، فكل الأطفال في أيكورن كانوا يسمّونني «المصوّرة». وهو لقب بدا مناسباً لشخصٍ يقوم بتعليم الآخرين عقيدة بذرة الأرض. كان ترافيس يُدعى بالمصوِّر أيضاً. وكذلك ناتيفيداد.

قال: «أيتها المصوِّرة؟».

قلتُ: «نعم، يا جاس».

قال: «هل مات الطبيب؟».

قلتُ: «نعم. لقد مات».

قال: «أوه». ثم شرع بالبكاء. لم يبكِ بسبب جروحه، لكنه بكى على زوجي بانكول. أمسكتُ بيده وصعدنا التلّ معاً إلى فندق آل جورج.

عملَت آلي لدى دولوريس جورج، كبقيتنا. لم أقلق أبداً بشأن قدرتي على كسب قوتي. قلقت على هاري بسبب كآبته، ولكن لم تقلقني سعةُ حيلته. عرفت أنه لن يواجه الكثير من المتاعب. لم تمنحني نينا نوير الوقت الكافي لأقلق عليها. وهي ما أن وصلَت إلى جورجتاون حتّى وقعَت على الفور تقريباً في حبّ أحد أبناء آل جورج الأصغر سنّاً. وبالرغم من فقدانها لأختيها الصغيرتين، بالرغم من رفض دولوريس جورج، لكن نينا والولد وقعا في

الغرام وتعلّقا ببعضهما تعلقاً شديداً لدرجة أن دولوريس عرفت أنّها ستخسر ابنها إذا عارضَتهُما. إنّها تأمل أن يحرق الشغف المفاجئ نفسه إلى أن ينطفئ. ولستُ متأكدة من أن ذلك سيحدث.

لكنني قلقت على آلي. إنّها تتعافى. وتتحدّث الآن بقدر ما كانت تتحدّث سابقاً- وهذا يعني، ليس بالكثير. بإمكانها التفكير والتدبير. ولكنها لم تستعد ذاكرتها تماماً. لهذا السبب، أخبرتُ دولوريس جزءاً من قصتها، وعبّرت لها عن أملي بحصولها على عملٍ دائم. كلّفتها دولوريس بأعمالٍ بسيطة في البداية، كتنظيف الأرضيات، وتصليح السلالم، ودهان الدرابزينات... وعندما رأت أن آلي كانت تُحسن العمل ولا تسبّب المتاعب، قالت إنّها تستطيع البقاء قدر ما تشاء. بلا أجر، مقابل المأوى والطعام فقط.

توقّفتُ عند جذع شجرة مقطوع في منتصف الطريق تقريباً لقمة التلّ، جلستُ وأخذتُ يدي جاستن ووضعتُهما بين يديّ. بدا وجهه مشوّهاً، فصعب عليّ النظر إليه، لكنني أجبرتُ نفسي على ذلك. قلتُ له: «لقد آذوا أمّك يا جاس».

بدا مرعوباً. قال: «كيف آذوها؟».

قلتُ: «وضعوا طوقاً حول رقبتها. لقد أجبرونا جميعاً على ارتداء الأطواق. عذبّوها بواسطة الطوق. لا أعرف ما إذا سبق لكَ أن رأيتَ...».

قال: «لقد رأيت. رأيتُ مجموعة من الرجال يرتدون الأطواق

ويعلمون على الطريق السريع وفي يوريكا، يصلّحون الحفر في الشارع، ويجزّون الأعشاب الضارة، أعمالاً من هذا القبيل. رأيتُ كيف يمكن للطوق أن يؤذي المرء ويوقعه أرضاً وهو يتلوى ويصرخ».

أومأتُ. قلتُ: «قد تفعل الأطواق أكثر من هذا. لقد غضب أحدهم من أمّك غضباً شديداً فاستعمل الطوق لمعاقبتها بقسوة. إنّها بخير الآن تقريباً. لكنها لا تزال تعاني من مشاكل في الذاكرة».

قال: «فقدان ذاكرة؟».

قلتُ: «نعم. لقد فقدَت ذاكرتها عن الأحداث التي وقعَت خلال الأسابيع والأشهر التي سبقَت إصابتها. كان ذلك وقتاً صعباً بالنسبة لنا كلنا. وربما كان النسيان أرحم لها. ولكن لا تتفاجأ إذا سألتَها عن شيء ما ولم تتذكّر. هذا ليس بيدها».

فكّر في هذا الوهلة، ثم سألني بصوتٍ هامس: «هل ستتذكّرني؟».

قلتُ: «بكلّ تأكيد. لقد تواصلنا مع العديد من الناس للعثور عليك وعلى الآخرين». ثم أني لم أستطع منع نفسي. وتوجّب عليّ طرح بعض الأسئلة. قلتُ: «يا جاس، هل كنتَ مع بقية الأطفال؟ هل كنتَ مع لاركِن؟».

هزّ رأسه. قال: «لقد أخذونا جميعاً إلى كنيسة في أركاتا. ثم فرّقونا. قالوا إننا سنحصل على عائلات مسيحيّة أمريكية جديدة. قالوا... قالوا إنكم كلكم موتى. صدّقتُهم في البداية، ولم أعرف ماذا أفعل. لكنني رأيتُ كيف كانوا يكذبون متى ما طاب لهم. لم

يقولوا سوى الأكاذيب عنا وعن أيكورن. ثم لم أعُد أعرف ماذا أصدّق». مكتبة .. سُر مَن قرأ

قلتُ: «هل تعرف أين أرسلوا لاركِن أو بقية الأطفال؟».

هزّ رأسه مرّة أخرى. قال: «لقد أجبروني على الذهاب مع عائلة عندهم ولد وبنت أصلاً. كنتُ أول واحد يرحل. لذا لم أعرف أين ذهب بقية الأطفال. أعتقد أنهم ذهبوا مع عائلات أخرى. كان الرجل شمّاساً في العائلة التي تبنّتني. قال إن من واجبه أن يأخذني. أعتقد أن من واجبه أيضاً أن يضربني!».

قلتُ: «هل هو الذي تسبب لك بهذه الجروح في وجهك؟».

أومأ جاستن. قال: «هو وابنه، كارل. قال كارل إن أُمّي تعبد الشيطان وساحرة. كان يكرّر هذا الكلام دائماً. يبلغ من العمر اثني عشر عاماً. ويعتقد أنه يعرف كلّ شيء. ولكن قبل بضعة أيام قال إنها... عاهرة. وضربته. تشاجرنا شجاراً كبيراً، ثم أتى والده وشتمني قائلاً إنني جاحدٌ لقيط أعبد الشيطان. ثم أوسعاني ضرباً كلاهما. حبساني في غرفتي ولكني هربتُ من النافذة. ولم أعرف أين أذهب، لذا توجهت جنوباً، خارج البلدة، باتجاه أيكورن. قال الشماس إن أيكورن تدمرت، ولكن كان يجب أن أرى بنفسي. ثم رأتني امرأة على الطريق وأتت بي إلى هنا. أعطتني بعض الطعام وطبّبت وجهي. كان عندها الكثير من الأطفال، لكنها أبقَتني معها لبضعة أيام. أعتقد أنّها كانت ستسمح لي بالعيش معها. لكنني أردت العودة إلى البيت».

استمعتُ لكل هذا، وتنهدتُ. قلت له: «لقد اختفَت أيكورن حقاً. وعندما تحررنا في النهاية، أحرقنا ما بقي من أيكورن».

قال: «أنتم من أحرقها؟».

قلتُ: «نعم. لم نستطع البقاء هناك. إذا ما بقينا هناك فسيُلقي القبض علينا ونُجبر على ارتداء الأطواق أو نُقتل. لذا حملنا كلّ ما بوسعنا حمله، وأحرقنا ما بقي. لماذا نسمح لهم بسرقة أيكورن واستخدامها؟ فأحرقناها!».

تراجع مبتعداً عني قليلاً، خشيتُ أنني أخفتُه. إنه صبيّ قويّ، لكنه مرّ بالكثير من المصاعب. شعرتُ بالخجل لأنني أظهرتُ مشاعري أكثر من اللازم.

ثم اقترب مني وهمس: «هل قتلتموهم؟». إذن فأنا لم أُخِفه. اكتسى وجهه النحيف والمشوّه بالضرب الشديد بملامح الجديّة والغضب والكراهية أكثر بكثير ممّا يجب على وجه طفل.

أومأتُ فقط.

قال: «وهل قتلتم أولئك الذين آذوا أمي؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «جيد!».

نهضنا وأخذتُه إلى آلي. رأيتُ لقاءهما، ورأيتُ دموع الفرح على وجه آلي، وسمعتُ صراخها. بالكاد تحمّلتُ الأمر، لكنني شاهدتُه.

ثم خطرَت لهاري فكرةٌ عن مكان وجود طفليه. اشتغل سائقاً أو حارساً مرافقاً في إحدى شاحنات آل جورج -وهو عمل يمتلك خبرة طويلة فيه من ممارسته في أيكورن- حتّى أنه استطاع تكوين صداقات مع رجال آل جورج المنغلقين فيما بينهم. لن يصبح واحداً منهم أبداً، لكنهم أحبّوه، ووثقوا بهِ بعدما أثبت لهم جدارته عندما اكتشف وساعد في منع محاولة سرقة. وقد ساعده هذا العمل في الذهاب إلى مناطق أكثر في الولاية ممّا لو كان يسير على قدميه. لكن هذا العمل ألزمه أيضاً بالبقاء في الشاحنة معظم الوقت. لذا لم يستطع البحث عن طفليه بنفسه- لم يستطع السير بين البلدات الصغيرة والنظر إلى الأطفال وهم يعملون أو يلعبون. لكن هذا قد يوقعه في المتاعب، على أيّة حال.

أعطانا جاستن معلومتين حزينتين ولكنهما مفيدتان. أولاً، تم تغيير أسماء كلّ الأطفال. أُطلق على جاستن اسم ماثيو لانديس، كابن آخر من أبناء الشماس لانديس. قد يتذكّر اليافعون أسماءهم الحقيقية، وآباءهم الحقيقيين، لكن الأطفال الرضّع، حبيبتي لاركِن ...

المعلومة الثانية: كان يتمّ التفريق بين الأشقاء دائماً. يبدو هذا كسلوكٍ سادي غير ضروري، حتّى بالنسبة لكنيسة أمريكا المسيحيّة. لم يعرف جاستن سبب القيام بهذا، ولم يشهده يحصل أمامه، لكنه سمع الشماس لانديس يقول هذا لرجلٍ آخر. لذا، فالأطفال الذين أُخذوا من ديارهم ومن أهلهم ومن أوصيائهم، يؤخذ منهم أيضاً أخوتهم وأخواتهم وأسماؤهم.

فكيف سأجد لاركِن بعد كلّ هذا؟

كيف سأجد طفلتي؟ طلبتُ من الأُجراء اليوميين الذين أعرفهم البحث عن طفلة سوداء ببشرة داكنة، لم تبلغ العامين بعد، لكنها قد تكون أضخم من عمرها، فيما إذا ظهرت فجأة في منزل لا توجد فيه امرأة حبلى، أو في منزل لا يسكنه السود، أو في دار رعاية. وقد تظاهرتُ أنني خادمة أجيرة يومية وحللتُ محل خادمتين لكي أتحرّى عن أمر طفلتين قيل لي إنهما مرشّحتان محتملتان. لكن ولا واحدة منهما تشبه لاركِن.

ولكن هل أنّ لاركِن الآن شبيهة بلاركِن التي أعرفها؟ كيف ذلك؟ يكبر الأطفال ويتغيرون بسرعة. كان عمرها شهرين فقط عندما أخذوها مني. أخشى أنني لن أعرفها الآن. ولكني ما زلت أمتلك بصمات يديها وقدميها. وقد استنسختُها لكي أحملها معي دائماً. ذهبتُ إلى الشرطة –قسم شرطة مقاطعة هومبولت– وقدّمت اسمي المزيّف وأخبرتهم قصّة مزيّفة عن اختطاف ابنتي منّي عندما كنت أسير على الطريق السريع. تركتُ عندهم نسخة من بصمات اليدين والقدمين ودفعتُ «رسوم خدمات الشرطة» التي يجب عليك دفعها إذا أردت أية خدمة أخرى بخلاف حالات الطوارئ. لا أعرف ما إذا كان هذا تصرّفاً حكيماً أو ذا نفعٍ، لكنني قمتُ به. أنا أفعل كلّ شيء يخطر ببالي.

لهذا السبب لا ألوم هاري على ما فعله. أتمنّى لو أنه لم يفعل ذلك، لكنني لا ألومه. لأنه عندما يصيبُك اليأس، تلجأ لحلولٍ يائسة.

أتى هاري لرؤيتي قبل يومين.

كان قد عاد للتوّ من رحلة استغرقَت ثلاثة أيام إلى أوريغون ثم إلى تاهو. لقد اعتاد بعد رحلاتٍ كهذه أن يذهب لتناول الطعام ويخلد للنوم.

بدلاً من ذلك، أتى إلى غرفتي لرؤيتي. كنتُ أُصلح طاولة صغيرة متداعية اشتريتها مؤخراً. رسمتُ لوحة لأم وأطفالها الثلاثة فأعطتني الطاولة بدلاً من أجرة اللوحة. كانت غرفتي الصغيرة الشبيهة بخزانة مزوّدة بنافذة ووتد خشبي لفتح وإغلاق النافذة، وسرير رفيّ ضيّق، والكثير من الوساخة، والقليل من الحشرات. اشتريتُ إبريقاً وحوضاً للاغتسال السريع، وبعض الصابون، وكرسياً وطاولة للعمل، ودورقاً مزوّداً بأفضل جهاز متوفّر لتنقية مياه الشرب. وبخاخاً لمكافحة الحشرات.

«يا للفخامة!»، قالت دولوريس عندما دخلَت الغرفة ذات مرة. «لماذا بحقّ الجحيم لا تؤجّرين غرفة محترمة؟ بإمكانكِ تحمّل نفقتها».

قلت لها: «عندما أعثر على ابنتي ربما سأفكّر في أشياء من هذا القبيل. لا أعرف كم سيكلّفني البحث عنها. أو ربما شراؤها. لا أعرف ما الذي سأضطر لفعله». وربما -لم أقُل هذا لها- ربما سأضطر لاختطافها والهرب. ربما سأضطر لأن أدفع لآل جورج مقابل نقلي بالسيارة عبر حدود ولايةٍ أو ولايتين. أي شيء محتمل. ليس بوسعي تبذير النقود.

قالت: «بلى. لم أسمع بأي شيء جديد. لكن جماعتي ما زالوا يتحرّون».

ما زالوا يتحرّون. وكذلك العاملون لحسابهم الخاص من الذين دفعتُ لهم القليل من المال ووعدتُهم بالمزيد -أشخاص من أمثال كوغر مع الأسف- سوى أنهم يتاجرون حتّى بأطفال أصغر عمراً. أشعر بالقذارة في كلّ مرّة أتحدّث فيها مع أحدهم. هؤلاء هم من يستحقون ارتداء الأطواق والحكم بالأشغال الشاقة، مع ذلك لم تشنّ أمريكا المسيحيّة أيّة حملة ضدهم.

على ما يبدو نحن نمثّل الخطر الأعظم على أمريكا جاريت. وبالمناسبة، ما حصل لنا كان غير قانوني. هذا كلّ ما عرفناه. لم تُقرّ قوانين جديدة لتشريع ذلك. ولكن، كما قال دَي تُرنير منذ فترة طويلة، لقد اقتنع الكثير من الناس إن قمع الفقراء والمختلفين فكرة جيدة. هنالك اليوم عدد من القضايا القانونية-الهندوس، اليهود، المسلمون، وآخرون ممن استطاعوا الإفلات من الوقوع في الأسر عندما طاردهم الصليبيون. ولكن هنالك الكثيرون حتّى من بين هؤلاء الأشخاص ممن لم يستعيدوا أطفالهم. تُكال التهم بإساءة المعاملة أو الإهمال، تهمة تلو الأخرى، ضد الآباء أو الأوصياء. في الواقع، قد ينتهي المطاف بالآباء أو الأوصياء القانونيين بارتداء الأطواق بحسب القانون بسبب الأفعال الفظيعة التي يُفترض أنهم ارتكبوها بحقّ أطفالهم. وأحياناً يؤتى بالأطفال مغسولي الأدمغة أو المرعوبين للإدلاء بالشهادة ضد آبائهم البيولوجيين الذين لم

يروهم لأشهر أو سنوات. لا أعرف ماذا أستنتجُ من الأمر الأخير. لم ينقلب جاستن على آلي. بالرغم من كلّ الأشياء التي قيلت له عنها. فأيّ نوعٍ من غسيل الأدمغة هذا الذي يجعل طفلاً ينقلب على أبويه؟

لذا، يبدو أن الطرق القانونية لا تُفضي إلى إعادة الأطفال المخطوفين إلى ذويهم، أو أن ذلك لم يحدث بعد. إنّها حتّى لم تؤدِ إلى إنهاء المعسكرات. يتمّ ذكر المعسكرات في الأخبار على الشبكات أو الأقراص على أنّها مؤسسات مخصّصة لإعادة تأهيل وإصلاح المجرمين الصغار- كالمشرّدين، والسرّاق، والمدمنين، والبغايا. هذا فحسب. لا مشكلة.

أما نحن، فبمفردنا، كما كنّا دائماً.

قال لي هاري: «لقد تركتُ عملي اليوم». جلس على سريري، واتكأ على طاولتي أمامه، وهو ينظر نحوي بجدية مُقلِقة. تابع: «أنا راحل».

وضعتُ جانباً الدروس التي كنتُ أكتبها من أجل تلميذتي- وهي امرأة أرادت أن تتعلم القراءة والكتابة لكي تعلّم أطفالها. لا يستطيع تلاميذي، أو لا يرغبون بتحمّل تكلفة شراء الكتب من أيّ نوع. لذا أكتب لهم الدروس على أوراق يشترونها من متجر آل جورج ويأتون بها إليّ. لقد علّمتُهم التمرن على كتابة الحروف أولاً، ثم الكلمات، على رقعة ترابية ناعمة من الأرض. إنهم يكتبون بواسطة إصبع السبابة لكي يتعلموا الإحساس بشكل الحروف

والكلمات. ثم أعلّمهم الكتابة بعصيّ حادّة ورفيعة لكي يعتادوا على إحساس استخدام القلم.

يبدو أنني أقوم بالتعليم طوال حياتي. لقد علّمتُ أربعة أخوة أصغر منّي. أشعر كما لو أنني ولدتُ لأعلّم. أحب القيام بذلك. لكني لا أعرف ما نفعه. ما نفع أي شيء الآن؟

سألتُ هاري: «ماذا سمعتَ؟».

حدّق في جانب، خارج نافذتي.

مددتُ يدي عبر الطاولة وأمسكت يده. قلتُ له: «خبّرني يا هاري».

نظر نحوي وحاول أن يبتسم قليلاً على ما أظن. وقال: «سمعتُ أن هنالك دار رعاية أطفال كبير تُديره أمريكا المسيحيّة في مقاطعة مارين. وهناك دار رعاية آخر في مقاطعة فينتورا. لا أعرف عنوانها بالضبط، لكنني سأجدهما. في الحقيقة، لقد سمعتُ أن هنالك الكثير من دور رعاية الأطفال التابعة إلى (أ. م). ولكن هذين الدارين هما الوحيدان في كاليفورنيا كما سمعت». توقّف برهة. تابع التحديق من النافذة. ثم قال: «لستُ متأكداً ما إذا كانوا قد أرسلوا أطفالنا إلى واحدٍ من هذين الدارين. قال جاستن إنه لم يسمع أي شيء بخصوص دور رعاية أطفال أو مياتم. قال إن كلّ ما سمعه هو أنهم سيأخذونه وبقية الأطفال لتتبنّاهم عوائل جديدة وتربّيهم تربية صالحة كأمريكيين مسيحيّين وطنيين».

قلتُ: «لكنك ذاهب إلى فينتورا ومارين لكي تتحرّى الأمر؟».

قال: «أنا مضطر».

فكّرت بهذا. ثم هززتُ رأسي. قلت له: «لا أعتقد أنهم سيرسلون الأطفال الصغار بعمر طفليك وابنتي إلى هناك. لا بدّ من أنهم جعلوا عوائل أخرى تتبنّاهم أو تتكفلهم في مكان قريب من هنا. في أسوأ الأحوال سيكونون هنا في دور رعاية المجموعات الصغيرة. يتدفّق الأطفال من جنوب كاليفورنيا إلى دار رعاية الأطفال في فينتورا. ولا بدّ أن دار رعاية الأطفال في مارين يغصّ بالأطفال من منطقة الخليج وساكرامنتو».

قال: «إذن، تابعي البحث عنهم هنا. أريد منكِ ذلك. إذا وجدتِ أطفالنا، سيكون الأمر كما لو أنني أنا من وجدتهم. لن يكونوا في أيدي أشخاص مجانين- الأشخاص الذين قتلوا أمّهم».

قلت: «من المنطقيّ البحث هنا! إذا نقلَت (أ. م) الأطفال، فمن المحتمل أن ينقلوهم من الجنوب إلى الشمال. المكان مزدحمٌ هناك- بوجود كلّ المهاجرين من أمريكا اللاتينية بالإضافة إلى الناس من أريزونا ونيفادا والناس الذين يسكنون هناك أصلاً».

قال: «أنا مضطر للذهاب. أعرف أنّكِ على حقّ، ولكن هذا لا يهمّ. لا أعرف أين أبحث هنا. الأُسر المتبنّية والكافلة وحتى دور رعاية المجموعات الصغيرة لا تجذب الانتباه إلى نفسها. كنّا نتحرّى أمرها، الواحد تلو الآخر، ويمكننا الاستمرار بفعل ذلك لسنوات.

ولكن إذا كان الأطفال في الجنوب، فربما سأستطيع الحصول على عمل في واحدٍ من دور الرعاية الكبيرة، ثم الآخر، وأتحرّى الأمر».

جلستُ أفكّر. قلتُ له: «أعتقد أنك مخطئ. ولكن إذا كنت مصراً على الذهاب...».

قال: «أنا راحل».

قلتُ: «إذن لا يجدر بكَ الذهاب بمفردك. تحتاج لشخص يرافقك لحمايتك».

قال: «لا أحتاجُكِ معي. أريدُك أن تبقي هنا لتتابعي البحث». ثم أخرج من جيب سترته هاتفين محمولين بحجم كفّ اليد بخدمة الدفع المسبق، ودفع واحداً باتجاهي. وهما نسختان رخيصتان من هواتف الأقمار الصناعية بخدمة الدفع المسبق القابلة للتجديد، التي كنّا نستخدمها في أيكورن. وقال: «لقد اشتريتُهما البارحة. ودفعتُ مقابل خمس ساعات من المكالمات المحلية. إنهما هاتفان رخيصان وبسيطان ومجهولان. كلّ ما يمكنك فعله بهما هو الاتصال واستقبال المكالمات، الصوتية فقط. لا شاشة، ولا ولوج للشبكات، ولا رسائل مخزونة. ولكن يمكننا على الأقل التحدّث مع بعضنا».

قلتُ: «ولكنّ فرص نجاتك وحدك في الطريق...».

نهض وسار صوب الباب.

نهضتُ بدوري وناديتُه: «هاري!».

قال: «أنا متعب. يجب أن أحظى بقسط من الراحة. أكاد أن أموت من التعب».

تركتُه يرحل. كانت كآبته سيئة بما يكفي. من الصعب على المرء المقاومة إذا اجتمعَت الكآبة مع الإرهاق ضده. لم يعد على طبيعته منذ موت زهرا. تركتُه يرتاح، على أمل أن أحاول إقناعه في وقت آخر. لن أحاول إجباره على البقاء، لكن رحيله بمفرده كان بمثابة الانتحار. كان يعلم هذا. وسيعترف أنني محقّة بعد أن يرتاح.

ولكن في اليوم التالي -أي اليوم- رحل هاري.

ترك مسكن آل جورج في الصباح الباكر، بعد أن دفع ثمن أجرة نقله بشاحنة متّجهة إلى سانتا باربارا. لم أعرف بهذا إلّا بعدما رأيت دولوريس هذا الصباح. سلّمَتني رسالة تركها لي معها.

كتب في الرسالة: «أنا مضطرّ للرحيل يا لورِن. احتفظي بالهاتف معكِ وامكثي مكانك. سأعود. إذا لم أعثر على الأطفال في الجنوب سأعود لمساعدتكِ في البحث عنهم هنا. لا تقلقي. واهتمي بنفسك».

كان طوال حياته رجلاً ظريفاً، مهذّباً، ذكيّاً، ويتّصف بجدية غير ظاهرية. لقد عرف أحدنا الآخر طوال حياتنا، وشعرنا بالراحة برفقة بعضنا كأننا أخٌ وأخته. كان هو وزهرا صديقيّ المقرّبَين. وقد أنقذنا حياة بعضنا البعض مرّات لا تحصى.

والآن انتهى الأمر. انتهى حقاً. لقد ماتت زهرا. ورحل هاري. رحل الجميع. تعتزم آلي الإقامة في جورجتاون مع جاستن. إنّها تمتلك

الشيء الوحيد الذي يهمّها: ابنها. وتريد نينا نوير الزواج والاستقرار مع الناس الذين سيعتنون بها ويحمونها. أنا لا ألومها، ولكنني أجدُ نفسي لا أحبها كثيراً. قد تكون أختاها في مكانٍ ما ترتديان الأطواق أو تعيشان مع أشخاص يسيئون معاملتهما أو يرهبونهما باسم الربّ. أو ربما كانتا في دار رعاية أطفال شبيه بمستودع أطفال ضخم، ضائعتين بين الحشود، وقد تفرّقتا عن بعضهما البعض إذا صحّ كلام جاستن- وقد ضاعتا مِن كلّ مَن أحبَّهما.

لا يعني هذا أن نينا لا تعبأ بأمرهما. لكنها تظن أنه ليس بوسعها فعل شيء لمساعدتهما. قالت لي أكثر من مرة: «أنا لستُ دان. ربما يعني هذا أنني ضعيفة. ولكن ليس الأمر بيدي. لا أستطيع فعلَ ما فعله. لا أستطيع! وليس من الإنصاف أن تتوقّعي مني ذلك. كان ولداً- رجلاً تقريباً! أريد فقط أن أتزوج وأكون سعيدة!».

إنها في السادسة عشرة من عمرها. كان أخوها في الخامسة عشرة من عمره عندما أنقذها وجاء بها إلينا. ولكن، كما قالت إنّها ليست هو.

١٧
بذرة الأرض: كتُب الأحياء

كلّ الصلواتِ هي إلى الذاتِ.
بطريقة أو بأخرى،
كلّ الصلواتِ مُجابة.
صَلِ،
ولكن حذارِ.
فكلّ مآربك
أحقّقتَها أم لم تحقّقها
ستُحدّد من ستغدو

أتساءلُ كيف ستكون حياتي لو أن أُمّي قد عثرت عليّ. لا أشكّ أنّها كانت ستختطفني من آل ألكسندر- أو تموت وهي تحاول ذلك. ولكن ماذا بعدها؟ كم سيطول الأمر قبل أن تُنحّيني جانباً من أجل بذرة الأرض، طفلتها الثانية؟ أنّها لم تُخرج بذرة الأرض من رأسها. إذا لم تواسِها بذرة الأرض خلال فترة أسرها -وأشكّ في ذلك-

فعلى الأقل أعانتها. لقد مكّنتها من النجاة من دون أن تستسلم أو تخضع حقاً لآسريها. لم أكن لأُساعدها. كنتُ نقطة ضعفها. بينما بذرة الأرض قوتها. فلا عجب أنّها فضّلتها عليّ.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٨ أبريل، ٢٠٣٥

أنا بمفردي.

لقد غادرتُ جورجتاون، وتركتُ تلاميذي صغاراً وكباراً، وتركتُ غرفتي المفروشة بالخردة. أبقيتُ بعضاً من نقودي وأحد مسدساتي مع آلي، لكي يكون عندي ما أستندُ عليه إذا ما تعرضت للسرقة. ذهبتُ أولاً إلى مخبأ الرسائل -على مبعدة مسيرة يومين- لأتحقّق ما إذا ترك أحدهم أية رسالة هناك. أنا هناك الآن. سأنام في كنفِ شجرة خشب أحمر ساحلية حفَر في جذعها الزمنُ والعفن فجوةً تكفي لمنام شخص أو ثلاثة. لقد وجدتُ رسالتين غير موقعّتين من ترافيس وناتيفيداد ومن مايكل ونوريكو. عرّفوا عن أنفسهم في الرسالتين من خلال الإشارة إلى حوادث معيّنة سيتذكّرها ويفهمها أيّ شخص من أفراد المجتمع، ولكنها لن تعني شيئاً للغرباء. وفعلتُ المثل في الرسالة التي تركتُها.

لم يعثر أيّ واحد منهم على أطفاله. وتركوا أرقامهم. اشتروا هواتف جديدة- ذلك النوع الرخيص، المستخدم لإجراء المكالمات

الصوتية فقط، بخدمة الدفع المسبق، مثل هاتفي وهاتف هاري. تركتُ ثلاثة أرقام هاتفية- رقمي، ورقم هاري، ورقماً آخر يمكن التواصل مع آلي من خلاله. ثم كتبتُ رسالة لأولئك الذين قد يأتون لاحقاً.

«لقد عاد جاستن إلينا! إنه بخير. هناك أمل. الربّ هو التغيير!».

الربّ هو التغيير. كتبتُ الكلمات، وجلستُ لأفكّر في هذا. وجدتُ أنني لم أفكر كثيراً في بذرة الأرض خلال الأشهر الماضية. أعتقد أن تعاليمها قد ساعدَتني، وساعدتنا جميعنا على النجاة من المعسكر المسيحيّ. الربّ هو التغيير. لم أفقد إيماني. كلّ ما قلتُه لبانكول قبل زمن طويل -قبل سنتين- ما زال صحيحاً.

لقد دُمر الكثير. لكن هذا لا يزال حقيقياً. بذرة الأرض حقيقية. وما زال المصير غاية بشرية مهمّة كما كان دائماً. ضاعت أيكورن فقط. لقد كانت أيكورن غالية، لكنها ليست أساسية.

أجلس هنا الآن، وأحاول التفكير والتخطيط. يجب أن أعثر على ابنتي، ويجب أن أنشر تعاليم بذرة الأرض، وأجعل بذرة الأرض حقيقية لأكبر عددٍ ممكن أستطيع بلوغه من الناس، ثم يجب أن أرسلهم لنشر بذرة الأرض بين الآخرين.

في الحقيقة، عندما كنتُ أُعلّم الآخرين القراءة والكتابة، استعملتُ بضع آيات بسيطة من بذرة الأرض. هذا ما اعتدتُ على فعله في أيكورن، وفعلتُه تلقائياً في جورجتاون. من الغريب القول

إن لا أحد أبدى اعتراضاً. بدا بعض الأشخاص محتارين، وأحياناً كانوا يعترضون أو يوافقون بحماسة، ولكن لم يشتكِ أحد. حتّى أن بعضهم ظنّوا أنني أقرأ لهم آيات من الكتاب المقدس. ولم أستطع حمل نفسي على تقبّل تركهم يستمرون في هذا الظنّ.

أخبرتُهم: «لا. هذه الآيات من شيء آخر يدعى بذرة الأرض: كتُب الأحياء». وأريتهم واحدة من النسخ القليلة الناجية التي استُعدتها من أحد المخابئ. وبما أنني كنتُ أسمي نفسي كوري دوران، فلم يربط أي أحدٌ بيني وبين المؤلفة صاحبة الاسم الغريب، لورِن أويا أولامينا.

علّمتُهم السطور المألوفة من قبيل:

«كلّ شيء تلمسُه
تُغيّره...».

وأيضاً:

«حتى تصفو علاقتُك مع ربّك
خذ في الاعتبارِ عواقبَ تصرّفاتك».

وأيضاً:

«الإيمان
إما يستهلّ الفعلَ ويرشد
أو لا يفعلُ شيئاً».

وأيضاً:

«الطيبة تُيسّر التغيير».

أحبّ الناس على ما يبدو مقاطع قصيرة من الآياتِ أو آياتٍ إيقاعيّة كاملة، لأن الآيات الإيقاعية سهلة الحفظ. وحفظ الآيات يُسّر عليهم اكتشاف الكلمات المفردة وتعلّم تمييزها في أشكالها المكتوبة. أعتقد أنني بهذه الطريقة لم أتوقف قطّ عن نشر بذرة الأرض. ولكن من دون المصير، ومن دون فهم كامل للنظام العقائدي، فأن ما قمت بتعليمه لا يتجاوز كونه بضعة آيات مبعثرة وأمثال. لا شيء يوحّدها.

يجب أن أجدَ بضعة أشخاص على الأقل على استعداد لتعلّم المزيد، وعلى استعداد لتعليم الآخرين ما تعلّموه. يجب أن أبني... ليس مجتمعاً ملموساً هذه المرة. أعتقد أنني أخيراً فهمتُ مدى سهولة تدمير مثل هذا المجتمع. أحتاج أن أخلق شيئاً واسع النطاق يصعب قتله. لهذا السبب يجب أن أعلّم معلّمين. يجب أن أؤسس ليس فقط مجموعة صغيرة من الأتباع المتفانين، وليس فقط مجموعة من المجتمعات كما تخيّلت سابقاً، بل حركة. يجب أن أخلق أسلوباً جديداً في الإيمان- أسلوباً يمكن أن يتطوّر إلى دين جديد، وقوة توجيهية جديدة، يمكنها مساعدة البشرية على تسخير طاقاتها العظيمة وروحها التنافسية وإبداعها من أجل القيام بمهمّة هائلة حقاً؛ وهي تحقيق المصير.

ولكن يجب أولاً أن أجد ابنتي بطريقة ما.

أنا وحدي، وأعرف أن هذا غباءٌ. إن سفرك وحيداً يعني أن تجعل نفسك عرضة للمخاطر أكثر ممّا يجب. أتمنى لو أنني أقنعتُ هاري بالعمل معي. إنه يجازف بنفسه ويضيّع وقته في جنوب كاليفورنيا وحول منطقة الخليج. لا أعتقد إطلاقاً أن هناك أي احتمال أنهم نقلوا أطفالنا إلى هناك. إنهم هنا. ولا ريب من أنه تمّ تبنيهم، لأن طفليه وابنتي صغارٌ جداً. قد تكبر حبيبتي لاركِن معتقدة أنّها ابنة خاطفيها. عندما اختُطف طفلاه كان واحد منهما في الرابعة من عمره والآخر في الثانية من عمره، لذا سيحصل الشيء نفسه معهما حسب اعتقادي- إذا سمحنا بذلك.

سأبدأ في السير نحو يوريكا غداً. أنا مسلّحة. عندي مسدسي القديم عيار ٤٥ نصف الآلي الذي شاركني رحلتي من روبليدو. لقد خبأتُه في أحد المستودعات، لأنني اعتقدت أنني لن أحتاجَه ثانية. وأيضاً، فعلتُ كلّ ما بدا معقولاً لأبدو بهيئة رجلٍ فقير. أنا ضخمةٌ وبسيطة الملامح. وهو تمويهٌ جيّد على الأقل. هذه ليست حماية حقيقية، لكن هذا أفضل ما بإمكاني فعله. إذا أطلق أحدهم النارَ عليّ، فليس عندي من يُسندني، ومن المحتمل أنني سأُقتل. لكنني لست الوحيدة التي تمشي بمفردها، وربما سيفضّل السرّاق والمجانين ملاحقة الأشخاص الأصغر حجماً ممن يبدو أنهم لن يسببوا الكثير من المتاعب. بالإضافة إلى أن عدد السرّاق والمجانين قد قلّ. أو كان أقل. لقد رأيت في جورجتاون في طريقي إلى هنا الكثير من الرجال في الزيّ العسكري أو جزءاً من الزيّ العسكري.

هؤلاء حاربوا مع جاريت في حرب ألـ-كن الغبية. والآن يواجه الكثير منهم صعوبة في كسب لقمة العيش- وهم مسلّحون في أغلب الوقت.

كما ازداد عددُ تجّار الرقيق بعدما انضم صليبيو جاريت إلى كوغر ورفاقه في لعبة إجبار الناس على ارتداء الأطواق واختطاف أطفالهم. آملُ أن أكون مخفيّة عن عيونهم. أريد أن أبقى متوارية، وأقوم بعملي، وأبدو مجنونة بما يكفي لكي يتركني الناس وشأني. ولكن كرجلٍ، يجب أن ألتزم الحذرَ في كيفية اقتفاء الأدلة القليلة التي أملكها عن الأطفال السود الصغار الذين ظهروا فجأة في عوائل لا يوجد فيها امرأة حبلى. لا أريد ان يُشتبه بي كمتحرّش متربّص بالأطفال، أو خاطفِ أطفال.

آمل أن أحصل على أعمال مقابل الطعام في يوريكا وأركاتا. أعمال من قبيل البستنة، والدهان، والنجارة البسيطة، والاحتطاب... إذا ابتعدتُ عن الأحياء الثريّة، سأكون على ما يرام. لن يحتاج الأثرياء لاستئجاري على أيّة حال. عندهم خدمهم الخاصّون، الذين يعملون مقابل المأوى والطعام. سأعمل عند ما تبقى من الطبقة المتوسطة. سأشتغل بصفتي أجيراً يومياً يعمل مقابل وجبة طعام.

إن حياة العمّال أصعبُ في الجنوب وفي منطقة الخليج. فالناس لا يثقون ببعضهم، ويحيطون أنفسهم بأسوار عازلةٍ إذا كانوا يتحمّلون كلفة الأسوار. ولكن هنا، يُستأجر الرجال، وعلى الأقل يُطعمون بشكل لائق. حتّى أنه يُسمح لهم بالنوم في سقيفة أو مرآب

أو حظيرة. وربما يلقون نظرة -وغالباً ما يفعلون- على أطفال العائلة. وربما يسمعون -وغالباً ما يفعلون- أحاديث يتبيّن لاحقاً أنّها مفيدة. بالنسبة لمعظم العمّال، تتعلّق الفائدة بإرشادهم نحو وظائفَ أخرى أو بعيداً عن المتاعب أو بإطلاعهم على الأماكن التي يخبئ فيها الناس ممتلكاتهم الثمينة. بالنسبة لي، فتتعلق الفائدة بإشاعات حول تبنّي أو تكفّل الأطفال أو دور رعاية الأطفال.

سأتجول لأطول فترة ممكنة في مناطق يوريكا-أركاتا السكنية والبلدات المحيطة. وعدَتني آلي بالاستمرار في جمع المعلومات من أجلي، وقالت إنّها ستدعُني أنام في غرفتها في جورجتاون عندما أحتاج للراحة على سرير حقيقي. وأيضاً، إذا قبضوا علي وأرغموني على ارتداء الطوق، فأن دولوريس ستكفلني مقابل مبلغ مالي بالطبع. إنّها تعرف ما أفعله. ولا تظن أنني أمتلك أدنى فرصة في النجاح، ولكنها تمتلك أولاداً وأحفاداً، لذا تعرف أنني مضطرة لفعل هذا.

قالت لي عندما تحدّثتُ معها: «كنتُ سأفعل نفس الشيء لو كنتُ محلك. سأفعل كلّ ما بوسعي. اللعنة على هؤلاء المدعوين بالمتدينين. إنهم لصوصٌ وقتلة. هذه حقيقتهم. هم من يجب أن يرتدوا الأطواق. ويجب أن يشووا في الجحيم!».

هنالك أوقات أتمنى فيها لو أنني أؤمن بالجحيم- أقصد، بخلاف الجحيم الذي نصنعه لبعضنا البعض.

الأحد، ١٥ أبريل، ٢٠٣٥

لقد قضيتُ أسبوعي الأول في القيام بأعمال روتينية للآخرين. غريبٌ كيف أن كلّ الوظائف مألوفة؛ المساعدة في زراعة الخضروات أو الزهور في الحدائق، قلع الأعشاب الضارة، تشذيب الشجيرات والأشجار الصغيرة، تنظيف القمامة التي تجمَّعت في الشتاء، إصلاح سياجات الحدائق، وما شابه. كلّها أعمالٌ اعتدتُ القيام بها في أيكورن حيث يقوم الجميع بكل شيء. يبدو الناس راضين ومتفاجئين قليلاً لأنني أُحسن العمل. وكسبتُ بعض المال من اقتراحي القيام ببعض الأعمال الإضافية التي كنتُ مستعدّة للقيام بها مقابل أجر. يحذّر الناس أطفالهم من الاقتراب منّي أغلب الوقت، مع ذلك سنحت لي الفرصة لرؤية الأطفال؛ الرضّع بين ذراعي أمهاتهم والأطفال في سن الحبو والأطفال الأكبر سناً وأطفال الجيران. لم أرَ الوجوه التي آلفُها بعد، ولكنني بدأتُ للتو بالطبع. لقد قصدتُ الكثير من العائلات من سود البشرة أو مختلطة الأعراق. لا أعرف أي نوعٍ من الناس يجب أن أتحرّى عنهم، ولكن بدا لي أن من الأفضل البدء مع هؤلاء الناس. وإذا كانوا ودودين، أسألهم عمّا إذا كان عندهم أصدقاء يرغبون باستئجاري. وهذا ما أمّن لي بضعة وظائف لحدٍ الآن.

تبيّن أن مشكلتي هي العثور على مكان أنام فيه. عرض عليّ رجل النوم في مرآبه في أولّ ليلة، إذا وافقت على ممارسة الجنس الفموي معه.

لا أعرف ما إذا كان قد ظنني رجلاً أو عرف أنني امرأة. ولم أهتم. نمتُ تلك الليلة في متنزّه خربٍ نجت فيه بضعة أشجار خشب أحمر. هناك، بين قطيع صغير من المشردين، نمتُ بأمان واستيقظت مبكراً لأتجنّب الشرطة. حذرني الناس في جورجتاون قائلين إن الشرطة تقبض على الناس وتجبرهم على ارتداء الأطواق، كلّما احتاجوا لعدد معيّن من الاعتقالات لتبرير رواتبهم. وهو أيضاً ما يقوم به رجال الشرطة اللئام كلما احتاجوا إلى التسلية.

كان الجوّ بارداً، ولكن عندي ملابس دافئة وخفيفة الوزن، وكيس نوم مريح ورثّ وقديم استخدمتُه في رحلتي من روبليدو. استيقظتُ متوجّعة قليلاً بسبب النوم على الأرض غير المستوية، ولكن بخلاف ذلك، كان كلّ شيء على ما يرام. احتجتُ للاستحمام، ولكنني كنتُ أبدو بهيئة لائقة تقريباً، مقارنة بالقذارة التي كنتُ أراكمها على جسدي في المعسكر المسيحيّ. بيد أنني قرّرت سابقاً أنني سأستحم حينما أستطيع، وأنام تحت سقف حينما أستطيع. لا يمكنني القلق بشأن هذه الأمور حالياً.

سُمح لي بالنوم في سقيفة في يوم الثلاثاء، وكان هذا أمراً طيباً، لأنها كانت تمطر بغزارة.

ثم عدتُ للنوم في المتنزّه يوم الأربعاء، على الرغم من أن المرأة التي استأجرتني للعمل لديها أوصتني بالذهاب إلى الملجأ في مركز أمريكا المسيحيّة في الشارع الرابع.

يا لها من فكرة جهنمية! لقد عرفتُ منذ أسابيع بوجود هذا

المكان، لكنني ابتعدتُ عنه تماماً. يقول الأُجراء اليوميّون في جورجتاون إنهم يتفادون ذلك المكان. يُشاع أن الناس يختفون من ذلك المكان. على أنني أخشى أنني سأُضطر للذهاب إلى هناك ذات يوم. أحتاج لمعرفة المزيد عمّا يفعله أتباع (أ. م) بالأيتام. لكن المشكلة هي أنني لا أعرف كيف يمكنني احتماله. أكره أولئك الأوغاد كثيراً. هناك لحظات أريد فيها قتلهم جميعاً لو كان بيدي. أكرههم.

وأنا مرعوبة منهم. ماذا لو تعرّف عليّ أحدهم؟ هذا غير مرجّح، ولكن ماذا لو حدث ذلك؟ لا أستطيع الذهاب إلى مركز (أ. م) بعد. سأجبر نفسي على الذهاب قريباً، ولكن ليس بعد. أُفضّل أن أطلق رصاصة على رأسي على ارتداء الطوق ثانية.

نمتُ ليلة الخميس في المتنزه، لكنني نمتُ ليلتي الجمعة والسبت في مرآب سيدة عجوز أرادت مني إصلاح سياج حديقتها ودهانه وسنفرة إطارات نوافذها ودهانها. ظلّت جارتها تأتي مراراً وتكراراً «للدردشة». فهمتُ أن الجارة كانت تطمئن من أنني لن أقتل صديقتها، ولم يزعجني ذلك. سارت الأمور في صالحي في النهاية. وانتهى بالجارة نفسها إلى أن تستأجرني لأقتلع الأعشاب الضارة من حديقتها، وأحرثَ تربة الحديقة، وأزرع الخضروات والزهور. وكان هذا حسناً، لأنها كانت مبرّري للذهاب إلى الجزء الذي تقطنه من البلدة. كانت امرأة شقراء متزوجة من رجل أشقر، غير أنني سمعتُ من مصادري في جورجتاون أن عندها طفلين جميلين ببشرة غامقة وشعرٍ غامق.

تبيّن أن المرأة ليست ميسورة الحال إطلاقاً، مع ذلك دفعت لي بضعة دولارات بالإضافة إلى بضعة وجبات من الطعام الطيب مقابل عملي. أُعجبتُ بها، وسُررتُ عندما رأيتُ أن الطفلين اللذين تبنتهما كانا غريبين. أكتب الآن من مرآبها، حيث يوجد ضوء مصباح كهربائي وسرير نقّال. الجو بارد بالطبع، لكنني متدثرة ومتدفئة بما يكفي، ما عدا يديّ. أحتاج لأكتب الآن أكثر من أي وقت مضى، لأنه ليس عندي من أتحدّث معه، لكن الكتابة عمل مضنٍ في الليالي الباردة كهذه.

الأحد، ١٣ مايو، ٢٠٣٥

لقد ذهبتُ إلى مركز أمريكا المسيحيّة. أرغمتُ نفسي أخيراً على الذهاب إلى هناك. كان الأمر أشبه بإجبار نفسي على دخول عشّ أفاعٍ مجلجلةٍ كبير، لكنني قمت بذلك. لم أستطع النوم هناك. حتّى من دون تجربة دَي تُرنير لإرشادي، لم يكن بوسعي النوم في عشّ الأفاعي. لكنني أكلت الطعام هناك ثلاث مرّات إلى الآن، على أمل أن أسمع كلّ ما يمكن سماعه من أحاديث تدور هناك. أتذكّر أن دَي تُرنير أخبرني أنهم قدّموا له سريراً، وطعاماً، وبضعة دولارات، إذا قدّم المساعدة في دهانٍ وترميم بضعة بيوت خُصصت لتكون جزءاً من ميتَم تابع إلى (أ. م). لم يعرف عناوين البيوت. ومن المؤسف أنه لم يعرف يوريكا بالقدر الكافي لكي يعطيني فكرة عن مكان هذه البيوت. من المحتمل أن أطفالنا ما زالوا هناك- هذا إذا

كانوا هناك يوماً. ولكن ربما سأستطيع التوصّل لشيء ما. قد تكون هناك سجلات أسرقها، أو إشاعات، أو ذكريات، أو قصص، قد أسمعها. وإذا أُرسل العديد من أطفالنا إلى هناك، فربما أستطيع إيجاد أحدهم أو اثنين منهم ممن لا يزالون هناك.

لقد أخافتني هذه الفكرة الأخيرة. لأنني إذا وجدتُ طفلاً أو طفلين أو أكثر من أطفالنا، فلا يمكنني تركهم في أيدي أتباع (أ. م). سأُضطرّ، بطريقة أو بأخرى، إلى تحريرهم ومحاولة لمّ شملهم بذويهم. ومن شأن هذا أن يجذب الانتباه إليّ بحيث سأضطر إلى مغادرة المنطقة، وبالتالي بحسب ما أظن سأترك ابنتي لاركِن. هذا على فرض أنني سأستطيع المغادرة، ولم ينتهِ بي الأمر مرتديةً طوقاً آخر.

كان الطعام في مركز (أ. م) مستساغاً- عبارة عن شريحتين من الخبز، ويخنة غنية من البطاطا والخضروات بنكهة اللحم البقري، رغم أنني لم أجد لحماً من أي نوع فيه. تذمّر الناس من حولي بسبب نقص اللحم، لكنني لم أهتم. لقد تعلّمت على مدار الأشهر الماضية أن آكل كلّ ما يوضع أمامي، وبكلّ سرور. وأعتبر نفسي محظوظة إذا لم أتقيّأْهُ، وكان هناك ما يكفي منه ليملأ معدتي. ولكني ذهلت لأنني لم أتقيأ الطعام عندما جلستُ قريبة من أعدائي في مركز (أ. م).

كانت زيارتي الأولى هي الأسوأ. لا أذكرها بوضوح كما يجب. أعرف أنني ذهبتُ إلى هناك. جلستُ وأكلت مع عشرات من الرجال المشردين. وتمكّنتُ من السيطرة على نفسي عندما بدأ أحدهم

بإلقاء العِظات. أعرف أنني قمتُ بكل هذا، وأعرف أنني احتجتُ بعد ذلك إلى المشي لفترة طويلة، طويلة جداً، باتجاه المتنزه لأستعيد صوابي. المشي يساعدني مثل الكتابة.

قمتُ بكل ذلك في غمرة رعبٍ أعمى. لا أعرف كيف بدوتُ للآخرين. أعتقد أنني بلا ريب بدوتُ مختلّة عقلياً لمن يودّ الحديث معي. لم يحاول أحدٌ ذلك، رغم أن بعض الرجال تبادلوا الأحاديث في ما بينهم. وقفتُ في الطابور، وبعدها تحرّكتُ تلقائياً، حذوتُ حذو الجميع. عندما وضعتُ الطعام أمامي، وجدت نفسي أجثم عليه، وأحميه، وأنهشه كصقرٍ اصطاد حمامة. رأيتُ أشخاصاً يفعلون ذلك في المعسكر المسيحيّ. أحياناً تتضور جوعاً هناك لدرجة أنك تُصاب بالجنون قليلاً. ولكني لم أهتمّ للطعام هذه المرة. لم أكن جائعة إلى هذا الحدّ. فقد كان بوسعي إذا رغبتُ في ذلك تغيير ملابسي والذهاب إلى مطعم محترم لأكل وجبة طعامٍ حقيقية. بطريقة ما، كلّ ما في الأمر؛ لو أنني ركّزت على الطعام وملأت به ذهني كما أملأ جسدي، سأستطيع البقاء هادئة ولا أنهضُ وأهرب صارخة من المكان.

لم أشعر قطّ بمثل هذا الرعب في الحرية. لقد تجنّبني الناس. أقصد المجانين، المدمنين، البغايا، السراق، كلّهم تجنبوني. لم أفكّر في الأمر وقتها. لم أفكر في أي شيء. يدهشني أنني ما زلتُ أذكر أي شيء الآن. كنتُ أتحرّك وحولي غمامة من الرعب الأصمّ وعلى استعداد تام للقتل.

لففتُ مسدسي في ملابسي الاحتياطية ووضعته في قعر حقيبتي. فعلتُ ذلك عمداً، حتّى لا يسهل عليّ الوصول إليه. حتّى لا تعتريني الرغبة في استخدامه. لأنني إذا احتجتُه وأنا داخل مركز (أ. م) فهذا يعني أنني ميتةٌ لا محالة. ولم أستطع تركه في أي مكان، ولكن يمكنني إفراغه. استغرقت وقتاً طويلاً في ذلك المساء لإفراغه ولفّه، وشاهدتُ نفسي ألفّه كي لا أصل إليه بسهولة حتّى وأنا في ذروة ذعري.

لقد نجح الأمرُ. كان ضرورياً، وقد نجح.

قبل سنوات، عندما احترق منزلي في حي روبليدو، واحترقَت عائلتي، اضطُررت للعودة. هربتُ في الليل، ولكنني اضطُررت للعودة في اليوم التالي. توجّب عليّ استعادة ما يمكنني من ذلك الجزء الذي انتهى من حياتي، وتوجّب عليّ أن أقول وداعاً. اضطررت لذلك. حتّى تلك اللحظة، وبعدها بفترة طويلة، كانت عودتي إلى حي روبليدو أصعب شيء فعلتُه في حياتي. لكن هذا أسوأ.

عندما ذهبتُ إلى مركز (أ. م) في المرة الثانية بعد عدّة أيام لاحقة، لم يكن الأمر بذلك السوء. كان بإمكاني النظر والتفكيرُ والاستماع. لا أذكر الكلمات التي قيلت أمامي في زيارتي الأولى. حاولت الاستماعَ، ولكني لم أستوعب شيئاً. ولكن في زيارتي الثانية، سمعت الناس يتحدّثون عن الطعام، وعن أرباب الأعمال الذين لا يدفعون الأجور، وعن النساء -كنتُ في قسم الرجال- وعن أماكن في الشمال أو الشرق أو الجنوب توجد فيها فرص عمل،

وعن المفاصل المؤلمة، وعن الحرب... استمعتُ ونظرتُ. ثم رأيتُ نفسي بعد قليل. رأيتُ رجلاً جاثماً على طعامه، يلتقمه في فمه بتركيز حادٍ وفظيع. عندما رفع رأسه، ونظر من حوله، بدت عيناه فارغتين ومخيفتين. كان يترنّح في الطابور بدل أن يمشي. إذا اقترب الغرباء منه، فسيبدو لهم كالجنون والموت. كان بالكاد آدمياً. ابتعد الناس عنه. ربما كان يُضمر شيئاً. كان ضخماً. ومن المحتمل أنه خطير. ابتعدتُ أنا نفسي عن طريقه. لكنه كان أنا قبل بضعة أيام. لم أعرف قطّ ما كانت مشاكله تحديداً، لكنني أعرف أنّها كانت تروّعه كما كانت مشاكلي تروّعني.

لم أسمع أيّ شيء بخصوص الأطفال اليتامى أو صليبيي جاريت. قال رجلان إن عندهما أطفالاً. معظمهم لا يتحدّثون كثيراً، ولكن بعضهم لا يتوقفون عن الكلام: عن منازلهم التي خسروها منذ زمن طويل، والنساء، والنقود، وشجاعتهم ومعاناتهم خلال الحرب... ولكن لا شيء كان مفيداً.

مع ذلك، عدتُ إلى المكان للمرة الثالثة ليلة أمس. نفس الطعام. طبخوا خضروات مختلفة -أيّاً ممّا يتوفر عندهم على ما أعتقد- المكوّن الوحيد الذي لا مفر منه في اليخنة هو البطاطا، لكنْ العشاء يتألف دائماً من يخنة الخضار والخبز. بعد الطعام، هنالك على الأقل ساعةٌ كاملة من الوعظ يجب أن أحتملها. تُغلق الأبواب. طالما أكلتَ، إذن يجب أن تسمعَ. بعدها يمكنك الرحيل أو تحاول الحصول على سرير.

لا أذكر العِظة الأولى حتّى لو توقّفت حياتي على ذلك. أما العِظة الثانية فقد كانت عن شفاء المسيح للمرضى وكيف أنه على استعداد ليشفينا أيضاً إذا سألناه. أما العِظة الثالثة فعن يسوع المسيح هو هو أمساً واليومَ وإلى الأبد[1].

القسّ العَلماني[2] الذي ألقى العظة الثالثة هو مارك.

كان هو، أخي، قس علماني في كنيسة أمريكا المسيحيّة.

طأطأت رأسي، من الخوف والمفاجأة، وأنا أتساءل ما إذا كان قد رآني. كان هنالك قرابة مئتي رجل في كافتيريا الرجال تلك الليلة- رجال من كلّ الأعراق، والإثنيات، ودرجات العقل. جلست في الجزء الخلفي من الكافتيريا، وعلى جهة اليسار من منصة القراءة أو المنبر أو أيّاً يكن اسمه. بعد فترة تطلّعت إلى الأعلى من دون أن أرفع رأسي. لم أرَ أيّة إشارة في لغة جسد مارك تدل على أنه رآني. لكنه ذكر في معرض عظته أن عنده أختاً منغمسة في الخطيئة، أختاً نشأت على الإيمان بالرب، لكنها سمحت لنفسها أن يوقع بها الشيطان. وقال إن أخته هذه قد ألحقت به أذى كبيراً، بسبب تأثير الشيطان عليها، لكنه سامحها. لقد أحبها. وآلمه أنّها لم تستمع له وتجتنب الخطيئة. وآلمه أنه اضطر لتركها. وذرف بضعة دموع وهزّ رأسه بأسف. ثم

---

(١) في إشارة إلى رسالة بولس إلى العبرانيين: [١٣ : ٨]: «يَسُوعُ المَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمسًا وَاليَومَ وَإِلَى الأَبَدِ».

(٢) القس العلماني، قس غير مرسّم. والعلماني أي واحد من عامة المسيحيّين وليس من الإكليروس.

قال في النهاية: «كان يسوع المسيح مخلّصكم البارحة. وهو مخلّصكم اليوم. وسيظل مخلّصكم إلى الأبد. قد تتخلى عنكم أخواتكم. وقد يخونكم أخوتكم. وقد يحاول أصدقائكم جرّكم إلى الخطيئة. لكن يسوع سيبقى دائماً معكم. لذا تمسّكوا بالرب! تمسّكوا به! اثبتوا في الإيمان. كونوا شجعاناً. وأقوياء[1]. كونوا جنود المسيح. سيساعدكم ويحميكم. سيرفعكم، ولن يخذلكم أبداً. أبداً. أبداً».

عندما انتهى، بدأتُ أتسلّل بين الحشود لأرحل. احتجتُ للتفكير. كان عليّ أن أجد طريقة أتواصل بها مع مارك خارج مركز (أ. م). عدتُ في اللحظة الأخيرة، وتركتُ رسالة للقسّ العلماني مع أحد الخدم. كتبتُ فيها: «سمعتُ عِظتك هذه الليلة. لم أعلم أنك هنا. أحتاج لرؤيتك. نلتقي مساء الغد بالقرب من مكان طابور العشاء». ووقعّتُ الرسالة باسم بينيت أو.

أحدُ اخوتنا كان اسمه بينيت أولامينا. أولامينا اسم غير شائع. وقد ينتبه إليه أحد أعضاء (أ. م) ويتذكره من سجلات النزلاء في المعسكر المسيحيّ. وخطر ببالي أيضاً أنه من القسوة أن أوقّع الرسالة بالاسم الذي استخدمه «كوري دوران». لأن كوري في نهاية المطاف هي والدة مارك وليست والدتي. لم أرغب في تذكيره بألم فقدانها أو أُلمح إلى أنّها قد تكون على قيد الحياة. وفكّرت أنني إذا استخدمتُ اسم «لورِن أو.» فربما يقرّر مارك ألّا يأتي. ففي النهاية، لم نفترق

---

(١) في إشارة إلى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس [١٦: ١٣]: «... اثْبُتُوا فِي الإِيمَانِ. كُونُوا رِجَالًا. تَقَوَّوا».

بودٍ. وربما كان من القسوة أيضاً التلميح إلى أن أحد أخوتنا الصغار لا يزال على قيد الحياة. ربما سيعرف أو يخمّن أنني أنا من كتبت الرسالة. ولكنني اضطررت لاستخدام اسم يلفت انتباهه. يجب أن أراه. حتّى لو لم يفعل أي شيء آخر، فمن المؤكّد أنه سيساعدني على إيجاد لاركِن. لا يمكن أنه يعرف ماذا حصل لنا. لا أعتقد أنه سيقبل بالانضمام إلى (أ. م) إذا كان يعرف أنّها مؤلفة من لصوص، وخاطفين، ومستعبِدين، وقتلة. أراد أن يكون قائداً، وأن يكون مهماً، وأن يكون محترماً، لكنه هو نفسه كان أحد المستعبَدين جنسياً. مهما بلغ غضبه مني، لن يتمنى لي الأسر وارتداء الطوق. أو على الأقل لا أظنه كذلك.

في الحقيقة، أنا لا أعرف بمَ أصدّق.

لقد سمح لي رجلٌ عجوز بالنوم في مرآبه هذه الليلة. عملت في اقتلاع الأعشاب الضارة وتنظيف القمامة من أجله اليوم. والآن أنا راضية. نشرتُ بضعة ألواح خشبية مسطحة على الأرض الخرسانية وغطّيت الألواح بالخرق. ونمتُ مرتاحة جداً في كيس النوم خاصتي فوق الألواح. هناك أيضاً مرحاض قذر وقديم بسيفون وحوض بماء جارٍ– رفاهية حقيقية. اغتسلتُ. والآن أرغب بالنوم. ولكن كلّ ما يمكنني فعله، وكل ما يمكنني التفكير به هو مارك في ذلك المكان، مارك مع أولئك الأشخاص. ربما كان هناك حتّى في وقت زيارتي الأولى. ربما التقينا ببعضنا البعض ولم نعرف. أتساءل ماذا كان سيفعل لو أنه تعرّف عليّ؟

١٨

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

حذارِ:

فغالباً ما

نقولُ

ما نسمعُهُ من الآخرين.

ونعتقدُ

بما قيل لنا أن نعتقدَ بهِ.

ونرى

ما سُمحَ لنا برؤيتهِ.

والأسوأ!

نرى ما قيلَ لنا إننا نراهُ.

التكرارُ والخيلاءُ مفتاحان إلى ذلك.

إن سماعَ ورؤيةَ

حتى أوضح الأكاذيبِ
مراراً وتكراراً
وربّما قولها،
عفوياً تقريباً
ومن ثمّ الدفاعُ عنها
لأننا قلناها
وأخيراً نعتنقها
لأننا دافَعنا عنها
ولأننا لا نستطيعُ الاعترافَ
بأننا اعتَنَقنا ودافَعنا
عن كذبةٍ جليّةٍ.
لذا، بلا تفكيرٍ
ومن دون قصدٍ
نحن نجعلُ
من أنفسنا
محض أصداء
ونقولُ
ما نسمعُه من الآخرينَ.

مِن كتاب: المحارب

بقلم: ماركوس دوران

أنا أؤمنُ بقوّة الربّ، البعيدةِ والعميقة. ولكنّني أؤمن بنحوٍ مباشر بقوّة الدينِ نفسِه كمحرّكٍ عظيمٍ للجماهير. أتساءلُ ما إذا كان هذا أمراً مستغرباً على ابن قسٍّ معمداني. أظنّ أن أبي آمن صدقاً أن الإيمان بالربّ كافٍ. لقد عاش مؤمناً بهذا. لكن ذلك لم يُنقذه.

بدأتُ بالتبشيرِ عندما كنتُ صبياً. صلّيت من أجل المرضى ورأيتُ بعضهم يُشفَون بين يدي. مُنحتُ عشوراً[1] من المال والطعام من أناس لم يكن عندهم ما يسدّ جوعهم. قصدني أناسٌ كبار في السنّ بعمر والديّ لطلب المشورة والراحةِ والسكينةِ. كنتُ قادراً على مساعدتهم. عرفتُ الكتاب المقدّس. وكنتُ أتحلّى بأسلوبِ أبي الهادئ المُراعي الواثق. كنت في سنّ المراهقة، لكنني وجدتُ الناس مثيرين للاهتمام. أحببتُهم وفهمتُ كيف أتواصل معهم. لطالما كنتُ مُحاكياً بارعاً، وكنتُ متعلّماً أكثر من أغلب الناس الذين تعاملتُ معهم. في بعض أيّام الآحاد في كنيستي المتواضعة في روبليدو، كان يحضر حوالي مئتي شخص لسماعي أعِظ وأُعلّم وأُصلي وأجمع التبرّعات.

ولكن عندما قرّرَت سلطات المدينة أنّنا لسنا سوى قمامة ويجب كنسنا خارج منازلنا، لم تكن لصلواتي القدرةُ على إيقافهم. كانت

(١) عُشر: دخل الفرد الذي يتبرع بِهِ إلى الكنيسة.

سلطات المدينة أقوى وأغنى. وكانت عندهم أسلحةٌ أكثر وأفضل. كانت عندهم القوة، والمعرفة، والضوابط، لدفننا.

كانت الحكومات في المدينة والمقاطعة والولاية والفيدرالية بالإضافة إلى الشركات الكبيرة الثريّة هي مصادر النقود والمعلومات والأسلحة- قوّة مادّية حقيقية. ولكن في أمريكا ما بعد «البلاء» كانت الكنائس الناجحة مجرد مصادر للتأثير. لقد قدّمت للناس ملاذاً عاطفياً آمناً، وحسّاً مجتمعياً، وطرقاً لتنظيم رغباتهم وآمالهم ومخاوفهم في أنظمة أخلاقية. كانت هذه الأمور مهمة وضرورية، لكنها ليست قوة. إذا أُريد لهذه البلاد العودة لعظمتها، فلن يكون ذلك على يد مبشّرين صغار من المتوفرين بكثرة.

لقد فهم أندرو ستيل جاريت هذا. عندما أسّس أمريكا المسيحيّة ثم انتقل من المنبر إلى السياسة، عندما جمع الدين بالسياسة ورسّخ هذا الارتباط بواسطة المال الذي أخذه من رجال الأعمال الأثرياء، لقد خلق ما كان يجب أن يكون دافعاً لا يُقهر لإصلاح البلاد. وصار معلّمي.

أُحب خالي مارك. هناك أوقات شعرتُ فيها أنني شبه واقعة في حبه. كان وسيماً للغاية، ويمكن للشخص الجميل، سواء أكان ذكراً أم انثى، الإفلاتُ بقول أو فعل أشياء من شأنها أن تدمّر أي شخص بسيط الملامح لو كان في محلّه. لم أتوقف عن حبّه قطّ. وحتى أُمّي على ما أظن أحبّته رغماً عن نفسها.

أنا متأكدة أن ما مرّ به خالي مارك عندما كان عبداً ترك أثراً عليه، ولكني لا أعرف إلى أيّ حدٍّ. كيف يمكنك معرفة كيف سيغدو الرجل لو أنه كبر دون أن يسِمَه الرعب؟ ماذا فعل الوقت الذي عاشته أُمّي كأَمَة مضروبة ومسروقة ومغتصبة بها؟ لطالما كانت امرأة ذات غاية استحواذية وذات شجاعة جسدية عظيمة. وكانت دائماً على استعداد للتضحية بالآخرين من أجل ما تظنه صحيحاً. وقد رأت هذه الصفة في خالي مارك، لكنني لا أظنها رأتها في نفسها بوضوح.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الاثنين، ١٤ مايو، ٢٠٣٥

لقد التقيتُ بأخي في وقت سابق من هذه الليلة.

قضيتُ نهاري في مساعدة ربّ عملي الأخير- إنه رجل عجوز ودود عندَه حكايات كثيرة عن مغامراته كشاب في سبعينيّات القرن العشرين. كان مغنّياً وعازف غيتار في فرقة غنائية. كانوا يجوبون العالم، يعزفون موسيقى صاخبة، ويمارسون الجنس الجامح مع المئات أو ربما الآلاف من الشابّات المتلّهفات. إنها أكاذيب كما أفترض.

زرعنا الحديقة بالخضروات وشذّبنا الأغصان الميتة من أشجار الفواكه. ولا أعني «نحن» بالطبع. كان يقول: «طيب، ما رأيك لو أنّنا فعلنا كذا؟»، أو «هل تعتقد أن بإمكاننا أن نفعل كذا؟». وحاول تقديم المساعدة، وكان هذا حسناً. لقد احتاج للشعور بأنه نافع،

مثلما احتاج إلى شخص يستمع لقصصه الشائنة. أخبرني أنه يبلغ من العمر ٨٨ عاماً. لقد مات ولداه كلاهما. وتعيش حفيدته التي في منتصف عمرها والعديد من أبناء أحفاده الصغار في إدمونتون، ألبرتا، في كندا. كان وحيداً، ما عدا جارة عجوز كانت تزوره بين الحين والآخر. وكانت تبلغ من العمر ٧٤ عاماً.

قال إن بإمكاني البقاء قدر ما أرغب إذا ساعدتُه في الأعمال المنزلية داخل المنزل وخارجه. لم يكن المنزل في حالة جيدة. ظل مهملاً لسنوات. وبالطبع لم يكن بمقدوري القيام بكل التصليحات، حتّى لو كان بإمكانه تحمّل كلفة المواد اللازمة. لكنني قرّرت البقاء لبضعة أيام لأقوم بما يمكنني. لا أجرؤ على المكوث فترة طويلة بما يكفي بحيث يبدأ بالاعتماد عليّ، ولكن يمكنني المكوثُ بضعة أيام.

ظننت أن هذا من شأنه أن يعطيني قاعدة عمل بينما أتعرّف على أخي ثانية.

أنا أحاول التفكير بطريقةٍ أتحدّث بها عن لقائي مع مارك. لقد ساعدني التمشي للعودة إلى بيت الرجل العجوز هذه الليلة على الاسترخاء قليلاً، واستعادة هدوئي بعض الشيء. ولكن ليس بالقدر الكافي.

وجدت مارك بانتظاري بالقرب من طابور العشاء الطويل عندما وصلتُ. بدا وسيماً جداً ومرتاحاً في ملابسه النظيفة، والأنيقة، وغير الرسمية. كان يرتدي بدلة باللون الأزرق الداكن عندما ألقى

العِظة في الليلة الماضية، وبدا جميلاً بنحوٍ مذهل حتّى وهو يخبر قرابة مئتي سارق ومخمور عن مدى فظاعتي.

قلت: «مارك!».

جفل واستدار لينظر إليّ. كان يحدّق في اتجاهي، ولكن من الواضح أنه لم يتعرّف عليّ إلى أن تحدّثت معه. كان يشجّع رجلاً واقفاً أمامي في الطابور على قبول يسوع المسيح كمخلّص لكي يساعده يسوع في مشكلة معاقرة الخمر. بدا أن مركز (أ. م) لديه برنامجٌ صارم لعلاج مشاكل الإفراط في شرب الكحول، وكان مارك يعمل جاهداً على ترويجه.

«فلنذهب إلى تلك الزاوية لنتحدّث»، قلتُ، وقبل أن يستعيد شتات نفسه أو يردّ، استدرتُ ومشيتُ مبتعدة، وأنا على يقين من أنه سيتبعني. وبالفعل تبعني. انزوينا عن الطابور وعن الآذان المتلصصة عندما لحق بي.

قال: «لورِن! يا إلهي! أهذهِ أنتِ يا لورِن؟ ماذا تفعلين بحق الجحيم... ؟».

أخذتُه خلف الزاوية، بعيداً عن أعين الواقفين في الطابور، ثم إلى شارع جانبي صغير متسخ يفضي إلى الخليج. تقدّمتُه ببضع خطوات في ذلك الشارع، ثم توقّفت واستدرت ونظرت إليه.

وقف عابساً، وهو يحدّق بي، وبدا متحيّراً، ومتفاجئاً، وغاضباً تقريباً. لم يكن في ملامحه ما يدلّ على الخجل أو الدفاع. وهذا أمرٌ

طيب. أنا متأكدة من أن ردّة فعله على رؤيتي كانت ستختلف لو كان يعرف ما فعله بي أصدقاؤه في المعسكر المسيحيّ.

«أنا بحاجة لمساعدتكَ»، قلتُ، «أنا بحاجة لمساعدتكَ للعثور على ابنتي».

لم يوضّح هذا أي شيء بالنسبة له إطلاقاً، لكنّه غيّر موقفه الغاضب، وهذا ما أردتُه.

فقال: «ماذا؟».

قلتُ: «لقد أخذوها جماعتك. أخذوها. أنا لا... أنا لا أعتقد أنهم قتلوها. لا أعرف ماذا فعلوا بها. ولكني أظن أن أحدهم قد تبنّاها. أحتاجُ مساعدتك في العثور عليها».

قال: «عمَ تتحدّثين يا لورِن؟ ماذا تفعلين هنا؟ لماذا تحاولين الظهور كرجلٍ؟ كيف وجدتِني؟».

قلتُ: «سمعتُكَ تلقي العِظة البارحة؟».

فما كان منه إلّا أن يقول ثانية، «ماذا؟». وبدا محرجاً هذه المرة، ومتوتراً قليلاً.

قلتُ: «لقد جئتُ إلى هنا على أمل معرفة ماذا فعل مركز (أ. م) بالأطفال الذين أخذهم؟».

قال: «لكن هؤلاء الناس لا يأخذون الأطفال! أقصد أنهم ينقذون الأيتام من الشوارع، ولكنهم لا...».

قلتُ: «كما أنهم «ينقذون» أبناء الوثنيين، أليس كذلك؟ طيب. لقد «أنقذوا» ابنتِي لاركِن وكل الأطفال الصغار في أيكورن! لقد قتلوا زوجي بانكول! وزهرا! زهرا موس بالتر من حيّ روبليدو! لقد قتلوها! وضعوا طوقاً حول عنقي وحول أعناق كلّ جماعتي. قامت (أ. م) بكل هذا! ثم أجبرَنا هؤلاء المسيحيّون الأتقياء على العمل كالعبيد نهاراً واستخدمونا كالعاهرات ليلاً! هذا ما فعلوه. هذه طبيعتهم. والآن، أنا بحاجة لمساعدتك لإيجاد ابنتي!». قلتُ كلّ هذا بسرعة، في همسٍ قاسٍ وقبيح، ووجهي قريب على وجهه، وقد أفلتت مشاعري من زمام سيطرتي تقريباً. لم أقصد أن أُلقي كلّ هذا في وجهه. أنا بحاجته. عزمتُ على إخباره بكل شيء، ولكن ليس بهذه الطريقة.

حدّق في وجهي كما لو أنني أكلّمه باللغة الصينية. ثم وضع يده على كتفي. وقال: «تعالي يا لورِن. تناولي بعض الطعام، واستحمي، ونامي على فراش نظيف. ادخلي. نحن بحاجة لنتحدّث».

وقفتُ متسمّرة. لم أدعهُ يحرّكني من مكاني. «اسمع»، قلت له بصوت أكثر آدمية، «اسمع. أعرف أنني أُلقي بالكثير عليك يا مارك. وأنا آسفة». أخذتُ نفساً عميقاً وتابعتُ الكلام: «ولكن أنت الشخص الوحيد الذي شعرت أن بوسعي إلقاء هذا العبء عليه. أحتاج لمساعدتِك. أنا يائسة».

«تعالي معي». لم يكن يسايرني تماماً. بدا وكأنه في حالة إنكار، ولكنه لم يصرّح بذلك. كان يحاول صرف انتباهي، ويُغريني بوسائل راحة تافهة.

قلتُ: «لو كان ممكناً يا مارك، فلن تطأ قدماي أبداً ذلك المكان المسموم ثانية. والآن بعدما وجدتُكَ، فلن اضطر لفعل ذلك».

قال: «لكن هؤلاء الناس سيساعدونكِ يا لورِن. أنتِ ترتكبين خطأً ما. لا أفهم ما يجري، ولكن لا بدّ من أنكِ مخطئة. نحن نفضّل أخذ العائلات كاملة بدلاً من تفريقهم. لقد عملتُ في الشقق التي نرممها للمساعدة في تخليص الناس من الشوارع. أنا أعرف...».

والآن إنه يسايرني. «هل سمعتَ عن مكان يدعى بالمعسكر المسيحيّ؟»، سألتُه، وسمحتُ للقسوة بالعودة إلى صوتي. فسكتَ للحظةٍ، لكنني عرفتُ قبل أن يتحدّث أن الجواب على سؤالي هو نعم.

قال: «ما كنتُ لأدعوه بهذا الاسم. إنه معسكر لإعادة التأهيل. واحد من الأماكن التي يُرسل إليها أسوأ الأشخاص الذين نتعامل معهم. وهؤلاء أشخاص كانوا سيذهبون إلى السجن لو لم نأخذهم. معظمهم مجرمون صغار: لصوص، مدمنون، عاهرات، هذا النوع من الأشخاص. نحاول الوصول إليهم، وتعليمهم المهارات والانضباط الذاتي، ومنعَهم من أن ينتهي بهم المطاف إلى سجون حقيقية».

استمعتُ وأنا أهزّ رأسي. إما أنه كان ممثلاً بارعاً أو أنه كان مؤمناً بما يقوله. قلتُ له: «المعسكر المسيحيّ سجنٌ حقيقي. كان سجناً طوال سبعة عشر شهراً. وقبل ذلك، كان أيكورن. لقد بنينا أنا وجماعتي أيكورن بأيدينا، ثم أخذَتها منا أمريكا المسيحيّة، سرقَتها منا، وحوّلتها إلى معسكر اعتقال».

لقد وقف في مكانه فحسب، وهو يحدّق بي كما لو أنه لا يعرف بمَ يصدق أو ماذا يفعل.

«في سبتمبر»، قلتُ له، بصوتٍ هادئ وواطئ، «في سبتمبر عام ٣٣، أتوا راكبين سبع يرقات، وحطّموا سياجنا الشوكي، وقتلوا حرّاسنا. عرفت أنّنا لا نستطيع مقاومة قوة كهذه. أرسلت للجميع إشارة بالهرب على وجه السرعة، والتفرّق. أنت تعرف أنّنا كنّا نقوم بتدريبات على حالات الطوارئ- تدريبات على القتال وتدريبات على التفرق والاختباء بين التلال. ولكن لم يكن لكل ذلك أيّة فائدة. لقد أطلقوا علينا قنابل الغاز. ربما تمكّن ثلاثة أشخاص فقط من الفرار: المرأة الخرساء واسمها ماي، وبنتا آل نوير الصغيرتان. لا أعرف. لكنهن الوحيدات اللواتي لم نسمع عنهن أي شيء. قبضوا على بقيّتنا، وأجبرونا على ارتداء الأطواق، أجبرونا على العمل والجنس. أخذوا أطفالنا الصغار. لم يخبرنا أحد بمكانهم. وقُتِل زوجي بانكول، وزهرا بالتر، وتيريزا لين، وآخرون. إذا سألنا عن أي شيء، كانوا يعاقبوننا باستخدام الأطواق. وإذا أمسكوا بنا ونحن نتحدّث، يعاقبوننا. نمنا على الأرض أو على الرفوف في المدرسة. لقد سرق الرجال الأتقياء جماعتك منازلنا. وكانوا يغتصبوننا أيضاً، متى شعروا بالرغبة في ذلك. أنصت إليّ!».

كان قد توقف عن النظر إليّ وبدأ ينظر خلفي، أو ينظر من فوق كتفي الأيمن.

قلتُ: «لقد أتوا بالأشخاص من الشوارع ومن المسافرين

والمجرمين الصغار والعائلات التي تقطن الجبال، وأجبروهم على ارتداء الأطواق أيضاً»، صحتُ: «مارك! هل تسمعني!».

«أنا لا أصدّقك»، قال أخيراً، «لا أصدّق كلّ هذا!».

قلتُ: «اذهب وانظر إلى ما تبقى من أيكورن. انظر بنفسك. أو اذهب إلى واحدٍ ممّا تدعوه بمعسكرات إعادة التأهيل. أراهنك أنه بنفس الفظاعة. تحرَّ أمرها بنفسك».

بدأ يهزّ رأسه. قال: «هذا غير صحيح! أنا أعرف هؤلاء الناس! لن يفعلوا ما تتّهمينهم بهِ».

قلتُ: «ربما لن يفعل بعضهم ذلك. لكن بعضهم فعل. لقد سرقوا كلّ ما بنيناه».

قال: «لا أصدّقكِ»، لكنه صدّقني، وقال: «أنتِ ترتكبين خطأ ما».

«اذهب وانظر بنفسكَ»، كررتُ، «ولكن توخَّ الحذر بطرحك الأسئلة. لا أريدُك أن تقع في مشكلة. هؤلاء أشخاص خطيرون وأشرار. اذهب وانظر».

لم ينبس ببنت شفة لبضعة ثوان. انزعجتُ لأنه كان عابساً، ومرّة أخرى أشاح نظره عني. سألني أخيراً: «هل ارتديتِ طوقاً؟».

قلتُ: «نعم، لسبعة عشر شهراً. أبدية».

قال: «وكيف هربتِ؟ هل انقضَت مدّة حكمكِ؟».

قلتُ: «ماذا؟ أيّ حكم؟».

قال: «أعني هل سمحوا لكِ بالرحيل؟».

قلتُ: «لم يسمحوا لأي أحدٍ بالرحيل قطّ. لقد قتلوا الكثيرين منا. لكنهم لم يطلقوا سراح أي أحد قطّ. لا أعرف ما كانت خطتهم بعيدة المدى من أجلنا، هذا لو كانت عندهم خطة أصلاً، ولكني لا أرى كيف سيتجرؤون على إطلاق سراحنا بعدما فعلوه بنا».

قال: «إذن كيف تحررتِ؟ لا يمكن الفرار إذا وضعوا الطوق حول عنقك. لا فرار من الطوق».

فكّرتُ؛ ما لم يعقد أحدٌ صفقة مع الشيطان ليشتري حرّيته. لكني لم أقل ذلك. بل قلتُ له: «حدث انهيار أرضي. ودُمّر الكوخ الذي كانت وحدة التحكم الرئيسية في داخله- كوخي. تشغّل وحدة التحكم الرئيسية بطريقة ما كلّ وحدات التحكّم الفردية في الأحزمة. وربما كانت تشغّل الأطواق نفسها. لا أعرف على وجه اليقين. على أيّة حال، ما أن تدمّرت ودُفنت، حتّى توقفت الأطواق عن العمل، فدخلنا منازلنا وقتلنا الحرّاس الناجين- أولئك الذين لم يقتلهم الانهيار الأرضي. ثم أحرقنا الأكواخ وجثثهم في داخلها. أحرقناها. كانت ملكنا! لقد بنينا كلّ واحد منها بأيدينا».

قال: «قتلتِ أناساً...؟».

قلتُ: «كانت اسماؤهم كوغر يا مارك. كلّ واحد منهم كان اسمه كوغر!».

استدار -لوى نفسه ليستدير كما لو أنه اضطر لاقتلاع جسده لكي يتحرّك- ثم مضى نحو الزاوية.

صحتُ: «مارك!».

لكنه تابع المشي.

صحتُ: «مارك!». ثم أمسكتُ بذراعه، جذبتُه نحوي وجعلتُه يستدير في مواجهتي. وقلتُ: «لم أخبركَ بهذا قاصدة أذيّتك. أعرف أنني آلمتُك. وأنا آسفةٌ. ولكن هؤلاء الأوغاد أخذوا ابنتِي! أحتاج مساعدتَك لأستعيدها. أرجوك يا مارك».

ضربني. مكتبة .. سُر مَن قرأ

لم أتوقّع ذلك. ولم أرَ الضربة مُقبلة. لم نضرب بعضنا البعض حتّى عندما كنّا صغاراً.

تعثّرتُ إلى الوراء، وأنا مشدوهة أكثر من متوجّعة. ثم ذهب. بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى الزاوية، كان قد اختفى داخل مركز (أ. م).

خفتُ من اللحاق به. قد يبلّغ عني في حالته الذهنية الحالية. كيف سأراه ثانية؟ كيف سأتصل به حتّى لو قرّر مساعدتي؟ بالتأكيد سيقرّر مساعدتي ما أن يحظى ببعض الوقت للتفكير. بالتأكيد سيفعل.

الأحد، ٣ يونيو، ٢٠٣٥

لقد غادرتُ منطقة يوريكا-أركاتا.

عدتُ إلى شجرة الرسائل لأقضيَ هذه الليلة. ابتعتُ مصباحاً يدوياً لكي أحصل على النور حيثما أريده دونما المجازفة بإشعال النار. والآن، أحجب ضوئي وأقرأ الرسائل التي تُركت هنا. ترك خورخي وداي رقماً، ويقول خورخي إنه وجد أخاه ماتيو. في الحقيقة، لقد وجده أخوه، كما حصل مع جاستن. في الطرف الشمالي من غاربرفيل حيث لا تزال هنالك غابة كبيرة من أشجار الخشب الأحمر، وجد ماتيو مجموعة خورخي نائمة على الأرض. كان يبحث عنهم لأشهر. ومثل جاستن، لقد هرب من إساءة المعاملة، بالرغم من أن الإساءة كانت جنسية في حالته. كان مجروحاً ومريراً، لكنه برفقة أخيه ثانية.

لا أخبار من هاري. أفترضُ أن الوقت لا يزال مبكراً على عودته. اتصلت به هاتفياً عدّة مرّات، وما من جواب. أنا قلقة عليه.

كتبت رسالة، لأحذّر فيها الآخرين من مركز (أ. م) في يوريكا. كتبت أن مارك هناك، ولكن لا يجب الثقة به.

إنه ليس محلّ ثقة.

أجبرتُ نفسي على العودة إلى مركز (أ. م) يوم الأربعاء من الأسبوع الماضي -عدتُ بصفتي امرأة عاقلة ولكن رثّة الثياب، بدلاً من رجلٍ قذر مجنون. استغرقتُ وقتاً طويلاً لكي أستجمع الشجاعة

للقيام بذلك-للذهاب. خشيتُ أن مارك قد حذّر أصدقاءه في مركز (أ. م) مني. لم أصدّق حقاً أنه سيفعل ذلك، ولكنه قد يفعل، لقد راودتني الكوابيس عنهم وهم يُمسكون بي حالما أصل. كنت أشعر بهم وهم يضعون الطوق حول رقبتي. وأستيقظ مبتلّة بالعرق وخائفة حدّ الموت.

في النهاية، ذهبتُ إلى متجر لبيع الثياب المستعملة وابتعت تنّورة قديمة سوداء وبلوزة زرقاء. واشتريتُ من متجر صغير رخيص بعض مساحيق الزينة ووشاحاً لشعري. ارتديتُ ملابسي، ووضعتُ زينتي، ووسّخت نفسي قليلاً، كأنني كنتُ أتقلّب على الأرض مع أحدهم.

في مركز (أ. م) وقفتُ في الطابور مع بقية النساء وتناولتُ طعامي في قسم النساء الصغير المعزول. لم يعِرني أحدٌ أي اهتمام، رغم أن طول قامتي كان ملحوظاً بشكل أكبر عندما كنتُ بين النساء فقط. أحنيتُ جسدي قليلاً وأبقيت على رأسي مطأطأً عندما كنت أقف. حاولت أن أبدو كامرأة متعبة ومتسخة بدلاً من متلصّصة، ولكني اكتشفتُ أن التلصّص لم يكن أمراً غريباً على الإطلاق. أغلب النساء، مثلهن مثل أغلب الرجال، كنّ متبلّدات، وغير مباليات، وصامدات. غير أن بعضهن كنّ مجنونات ثرثارات، ومخمورات، أو مرعوبات كالأرانب الصغيرة. كانت هناك أيضاً امرأة سمينة بعين واحدة تطوف الغرفة خلسة وتحاول انتزاع الخبز من يديك حتّى وأنت تأكله. كانت مجنونة، بالطبع، لكن جنونها تحديداً جعلها

بغيضة وربما خطيرة. تركَتني وشأني، لكنها ضايقت عدّة نساء أصغر حجماً إلى أن استلت امرأة ضئيلة وشرسة سكّيناً عليها.

نادت الخادمات على رجال الأمن، فجاء رجال الأمن من غرفة خلفية وأمسكوا بالمرأتين كلتيهما من الخلف.

تضايقتُ جداً لأنهم أخذوا كلتا المرأتين. لقد سُمح للمرأة السمينة المجنونة بفعل ما يحلو لها إلى أن قاومتها إحداهنّ. ثم عوملت الضحية والجانية على أنهما مذنبتان على حدٍّ سواء.

وما ضايقني أكثر أنهم لم يُلقوا بالمرأتين خارجاً. بل أخذوهما. إلى أين؟ لم تعودا بعد ذلك. ولم تعرف أي امرأة تحدّثتُ معها ماذا حصل لهما.

وأكثر شيء أثار اضطرابي هو أنني تعرّفتُ على أحد رجال الأمن. لقد كان في أيكورن. كان أحد «معلّمينا» هناك. رأيته يأخذ أديلا أورتيز ليغتصبَها. كنت أستطيع إغماض عينيّ ورؤيته يجرجرها إلى كوخ يستخدمه. لا بدّ أن هنالك الكثير من الرجال من أمثاله لا يزالون أحراراً وعلى قيد الحياة- رجال لم يكونوا في المعسكر المسيحيّ عندما استعدنا حريتنا، ومن ثم أخذنا بثأرنا. لكنه كان أوّل واحد أراه.

عاد إليّ خوفي وكراهيتي بكامل قوتهما. اختنقتُ. تطلّب مني أقصى درجات ضبط النفس لكي أجلس بهدوء، وآكل طعامي، وأستمرّ بصفتي المرأة المغفلة التي وجب عليّ التظاهر على إنني هي.

أُجبر دَي تُرنير على ارتداء الطوق بعد نشوب عراكٍ قال إنه ليست له يدٌ فيه. لقد نصّب مسؤولو أمريكا المسيحيّة أنفسهم قضاة، ومحلّفين، وجلّادين عندما يختارون ذلك. لم يضيّعوا أقلّ جهدٍ في محاولة أن يبدوا منصفين. لقد سمعتُ في إحدى زياراتي السابقة أن قوات الأمن في أحد مراكز (أ. م) المخصّصة للرجال فقط تتألّف من رجال شرطة متقاعدين أو خارج الخدمة. وإذا صحّ هذا، فهو أمرٌ مرعب. وقد زاد من يقيني في أنني كنت محقّة عندما ذهبتُ إلى الشرطة ولم أخبرهم بالقصة الحقيقية عمّا جرى لي ولأيكورن. بحق الجحيم! لم أستطِع حمل حتّى أخي على تصديقي. فأية فرصة أمامي لإقناع رجال الشرطة إذا كان بعضهم يعمل لصالح (أ. م)؟

بعد العشاء، وبعد انتهاء العِظة، تمكّنتُ من إجبار نفسي على الاقتراب من إحدى الخادمات- وهي امرأة شقراء بندبة طويلة حمراء على جبينها. كانت إحدى الخادمات القليلات اللواتي ضحكن وتحدّثن معنا بينما تغرف اليخنة وتصبّها في الزبديات وتوزّع الخبز. طلبتُ منها إيصال رسالتي إلى القسّ العلماني ماركوس دوران. وصادف أنّها تعرفه.

قالت: «لقد رحل عن هذا المكان. نقلوه إلى بورتلاند».

«أوريغون؟»، سألتُها، ثم شعرتُ بالغباء. بالطبع قصدت بورتلاند، ولاية أوريغون.

«نعم»، قالت الخادمة، «لقد رحل قبل بضعة أيام. عُرضت عليه الفرصة للقيام بالمزيد من التبشير في مركز جديد في بورتلاند،

وكان يرغب في هذا دائماً. يا له من رجل لطيف. نشعر بالأسف لخسارته. هل سمعته يلقي العِظات؟».

«بضعة مرّات»، قلتُ، «هل أنتِ متأكّدة من أنه رحل؟».

قالت: «نعم. لقد أقمنا حفلة على شرفه. سيغدو قساً عظيماً ذات يوم. قسّاً عظيماً. إنه روحانيّ جداً». ثم تنهّدَت.

ربما كانت كلمة «روحانيّ» كلمةً أخرى تعني وسيماً لحدٍّ خياليٍ في أوساطها. عموماً، لقد رحل. بدل أن يساعدني في العثور على لاركِن أو حتّى رؤيتي ثانية، لقد رحل.

شكرتُ الخادمة وتوجّهتُ خارجاً في المساء صوب بيت الرجل العجوز ذي الـ٨٨ عاماً حيث ما زلتُ أُقيم. تركتُ غيارات ملابسي وكيس نومي في مرآبه. أنا أسافر بمتاعٍ قليل لأول مرّة. كانت حقيبتي نصف فارغة. سرتُ تلقائياً من دون أن أفكّر بوجهتي. تساءلت ما إذا كنت سأتواصل مع مارك ثانية، وتساءلت إن كان التواصل معه سينفعني. ماذا سيفعل إذا ذهبتُ خلفه إلى بورتلاند؟ هل سيهرب إلى سياتل؟ ولكن، لماذا يهرب على أيّة حال؟ ما كنت لأؤذيه- لم أكن سأقول أو أفعل أي شيء من شأنه الإضرار بسمعته كقسّ علماني. هل هرب لأنني ذكرت اسم كوغر؟ ربما أخطأتُ عندما أخبرتُه بما حصل لنا ولأيكورن. ربما كان ينبغي أن أخبره بنفس القصة التي أخبرتها للشرطة. «حسناً. كنت أسير شمالاً على الطريق السريع (U. S. 101) صوب يوريكا، عندما هاجمني هؤلاء الأشخاص...».

هل كان من الضروري جداً بالنسبة له أن يغدو مهمّاً في (أ. م) بحيث لم يكترث بالأشياء الشريرة التي ارتكبتها (أ. م)، ولم يهتم حتّى بما فعلته (أ. م) للفرد الوحيد الباقي من عائلته؟

ثم رأيتُ رجلاً يقف أمامي- رجلاً ضخم الجثّة، طويل القامة وعريض المنكبين، يرتدي الزيّ الرسمي لرجال الأمن في مركز (أ. م). توقّفتُ قبل أن أصطدم به. جفلتُ وتراجعتُ إلى الخلف. كانت غريزتي تحثّني على الهرب بسرعة. بدا هذا الرجل مخيفاً بما يكفي لدفع أيّ شخص على الهرب. لكن الحقيقة هي أنني تجمّدتُ من الخوف. لم أستطع التحرّك. حدّقت فيه فحسب.

دسّ يده الضخمة داخل سترة الزي الرسمي، وتخيّلتُ للحظة خاطفة أن يده ستخرج حاملة مسدساً--ليس الأمر وكأن هذا الرجل بحاجة إلى مسدس ليقتلني. لأنّه كان عملاقاً.

لكن يده خرجَت من سترته حاملة ظرفاً- مغلّفاً صغيراً من الورق الأبيض يشبه الظروف التي كانت تُستخدم في الرسائل البريدية. عندما كنّا نعيش في حي روبليدو سابقاً، كان أبي يجلب إلى المنزل أحياناً بريداً ورقياً من الكُلية في مثل هذه المغلّفات.

قال العملاق: «طلب الموقّر دوران أن أعطي هذا الظرف إلى أيّ شخص طويل القامة وأسود البشرة يأتي ويسأل عنه بالاسم». كان صوته ناعماً وهادئاً وهذا ما جعل من مظهره أقلّ تهديداً بطريقة ما. «يبدو أنكِ تستوفين الشروط». ختم كلامه.

أجبرتُ نفسي على مدّ يدي لآخذ الظرف.

حدّق بي العملاق للحظة، ثم قال: «أخبرني أنّكِ أخته».

أومأتُ.

«قال إنكِ قد تأتين مرتدية ملابس الرجال».

لم أردّ. لم أستطع الكلام بعد.

«يقول إنه آسف. وطلب مني أن أخبركِ أن بوسعكِ الحصول على سرير في المركز متى احتجتِه. سأكون في الجوار. إنه صديقي. سأهتم بكِ».

«لا»، قلتُ، بعدما عاد صوتي للعمل أخيراً. «شكراً لكَ». وقفتُ منتصبة، دون أن أعرف متى انحنيتُ من الخوف. مددتُ يدي، فصافحني العملاق. «شكراً لكَ»، كررتُ، وذهب في طريقه، عائداً إلى المركز.

لم أتوقف للتفكير. دسستُ ظرف ماركوس داخل بلوزتي ومشيت. لا يجدر بك أن تقف وتفتح الأشياء في الشوارع المظلمة في هذا الجزء من البلدة. أبقيتُ على أذنيّ مفتوحتين الآن، وراقبتُ محيطي. لقد لحق بي العملاق، واجتازني، ووقف أمامي، ولم أسمع شيئاً. هذا النوع من الإهمال يتجاوز الغباء. إنه انتحاريّ.

مع ذلك كدتُ أن أسترخي ثانية بحلول الوقت الذي كنتُ فيه على مبعدة ثلاثة مربعات سكنية من منزل الرجل العجوز. كنتُ متعبة، وشبعانةً، وأتطلّع للوصول إلى سريري الدافئ المصنوع من الألواح الخشبية، ومتلهّفة لرؤية ما كتبه أخي.

ولكن وسط انشغال فكري بدأتُ أسمع وقع أقدام. استدرتُ بسرعة مباغتة وواجهتُ رجلين كانا يتسللان من خلفي. لم يكن مسدّسي في متناول يدي لأنني خبأتُه في قعر حقيبة الظهر، لكن مطواتي كانت في جيبي. استللتُها وقلبتها لأفتحها قبل أن يستجمع هذان الرجلان شتاتهما ويمسحا بي الشارع. لم يكونا ضخمين، ولكن هناك اثنين منهما.

وضعتُ ظهري قبالة سياج من الخشب الأحمر عائدٍ لأحد ما، وتركتهما يقرران لأي حدٍّ كانا يرغبان في الحصول على ما كانا يظنّان أنني أحمله. في الحقيقة، لم أحمل مسدسي فقط، بل مبلغاً من المال من شأنه أن يسعدهما لأيام، وأيضاً رسالة ماركوس، ولم أكن مستعدّة للتخلّي عن أيّ من ممتلكاتي.

«ضعي الحقيبة على الأرض يا بنت»، قال أحدهما، «ضعي الحقيبة على الأرض وتراجعي إلى الوراء. وسنتركك تذهبين».

لم أتحرّك. ذلك أني لكي أضع حقيبتي على الأرض، فسأضطرّ لأن أُخفض مطواتي وأثق أن هذين الرجلين لن يهاجماني. لم أجرؤ على هذا. لم أُجبهما. لم أكن مهتمّة بالحديث معهما. لقد كرهتُ عندما ناداني أحدهما «يا بنت». هكذا كان يناديني بانكول بكل حبّ. وها أنا الآن أسمع نفس الكلمة تخرج من فم شخص آخر ولكن محمّلة بالاحتقار.

لا أعرف ما إذا كنت أتصرّف بغباء أم لا. أعرف أنني كنت خائفة حدّ الموت. وكنت غاضبة. وبذا حاولت إيقاد نار غضبي.

رأيت أن أحدهما كان يحمل سكّيناً أيضاً. كان سكّيناً قديماً لتقطيع شرائح اللحم. لكنه سكّين- ومصنوعٌ خصّيصاً لتقطيع اللحوم.

انقضّ حامل السكين عليّ. وبعد لحظة، انقضّ الآخر- واحد ليطعنني والآخر ليمسكني.

انبطحتُ على الأرض وطعنتُ من الأعلى حامل السكين في بطنه. وفيما اقتلعتُ السكين لأُحرّره، لم أنظر، لأنني لم أرغب في رؤية ما فعلتُه، وصدَمتُ بجسدي من الخلف ساقي الرجل الآخر -أو حيث يُفترض أن تكون ساقاه. لكنني لم أضرب إلّا إحدى ساقيهِ- بما يكفي لأوقعه، لكنه استعاد توازنه دون أن يسقط. ثم سقط. انهار أرضاً كجذع شجرة فيما سارعتُ بالنهوض على قدميّ.

سقط كلاها، واحدٌ لفّ جسده حول بطنه المبقورة وهو يئنّ، والآخر لم يصدر منه أيّ صوت باستثناء الحشرجة. وقد برز من جسده سكّين شرائح اللحم من تحت عظم القصّ مباشرة.

خراء.

جثوتُ على ركبتيّ، وصار جسدي كتلة مشتعلة من الألم، بسبب طعنتَي السكين في جسدَي الرجلين. ابتعدتُ عنهما وأنا أتلوّى، وزحفتُ على أطرافي الأربعة بعيداً عنهما، وأنا أذرف الدموع من الألم الفظيع، الفظيع جداً. جرجرتُ نفسي حول زاويةٍ وجلستُ هناك لفترة طويلة على الأرضيّة الخرسانية المحطّمة. كنتُ أرتعش من الألم، وألهثُ منه، إلى أن بدأ يخفّ أخيراً. نهضتُ قبل أن يتلاشى

تماماً. توجّهت إلى مرآب الرجل العجوز بأسرع ما يمكنني. اختفى الألم بحلول الوقت الذي دخلتُ فيه المرآب، وتلاشى الغضب قبلها بمدة طويلة. لم يبقَ شيء غير الخوف. رزمتُ أغراضي بأسرع ما يمكنني، حشرتُها في حقيبة الظهر، وتوجّهتُ إلى خارج البلدة. ربما لم أُضطَر للمغادرة. ربما لن يربط أحدٌ أبداً بين المتشرّد في مرآب الرجل العجوز وبين القتيلين أو اللذين على وشك أن يصبحا قتيلين، الملقيين في الشارع القريب. ربما.

لكنني لن أُجازف بوضع طوقٍ حول عنقي.

لذا هربتُ.

ولذا أهربُ. لقد توجّب عليّ العودة لشجرة الرسائل قبل أن أنطلق صوب بورتلاند. سأتوقّف في جورجتاون. سأسلك طريقاً داخلياً لأتجنّب يوريكا. في هذه الأثناء، إليكم ما كتبه أخي في الرسالة التي تركها لي:

«أنا آسف لأنني ضربتُكِ يا لورِن. صدقاً آسف. آمل أنني لم أؤذكِ كثيراً. كلّ ما في الأمر أنني لم أحتمل فقدان كلّ شيء مرّة أخرى. لم أحتمل فحسب. هذا يحصل معي دائماً. أُمّي وأبي، وآل دوران، وحتى أيكورن، حيث ظننتُ أن بوسعي البقاء. ولم أستطع رؤية كيف يمكن لأشخاص مرتبطين بأمريكا المسيحيّة أن يفعلوا ما تقولين إنهم فعلوه. بالكاد تحمّلتُ سماعكِ تقولين هذا. عرفتُ أن هذا كان مجرد خطأ. لا بدّ من أنه كان كذلك.

وكنتُ مُصيباً. فالأشخاص الذين يقومون بالأفعال التي وصفتِها هم مجموعة منشقّة. لقد تبرأ جاريت من كلّ صلة بهم. إنهم يدعُون أنفسهم بصليبيّي جاريت، لكنهم يكذبون. إنهم متطرفون يؤمنون بأن إعادة تأهيل الوثنيين البالغين ووضع أطفالهم الصغار في بيوت مسيحيّين أمريكيين هي الطريقة الوحيدة لاستعادة النظام والعظمة. لو هوجمت أيكورن، فهؤلاء على الأرجح من هاجموها. لقد تحدّثتُ مع أصدقائي في (أ. م)، وقالوا لي إن التحقيق أكثر من اللازم في ما يفعله الصليبيون أمرٌ ينطوي على خطورة. الصليبيون أشبه بمجتمع سريّ، وهم متفانون كُلياً، وقُساة. إنهم أشخاصٌ شجعان. شجعان، ولكنهم مضلَّلون. قيل لي إنهم حقاً يضعون الأطفال الذين ينقذونهم في بيوتٍ صالحة. هكذا يسمّون الأمر- إنقاذ الأطفال. إنهم يأخذون الأطفال إلى منازلهم إذا استدعى الأمر ويربّونهم كأطفالهم أو يجدون آخرين لتربيتهم. المشكلة هي، إنهم مجموعة ممتدّة على نطاق البلاد. إنهم يرسلون الأطفال خارج مناطقهم الأصلية- وغالباً خارج ولاياتهم الأصلية. وهم جادّون في تربية هؤلاء الأطفال كمسيحيّين أمريكيين صالحين. وهم يؤمنون أن السماح بلمّ شملهم بذويهم الوثنيين هو خطيئة ضدّ الربّ وجريمة ضدّ أمريكا.

لقد سمعتُ بكل هذا من عدّة أشخاص نقلاً عن آخرين. لذا لا أعرف مدى صحة هذا. لا أعرف مكان لاركِن، وليست عندي أدنى فكرة عن كيفية العثور عليها. أنا آسف على هذا، وآسف لما حصل لبانكول، وآسف على كلّ شيء.

ربما لن يروق لكِ هذا يا لورِن، ولكن إذا أردتِ حقّاً العثور على ابنتكِ، فعليك الانضمام إلينا- انضمي إلى أمريكا المسيحيّة. لقد أخفقَت طائفتُكِ. لم ينقذكِ ربّ التغيير خاصتك. لمَ لا تعودين إلى حيث تنتمين؟ لو كان أبي وأمي على قيد الحياة فسينضمّان إلينا. كانا سيرغبان أن تصبحي جزءاً من منظمة مسيحيّة صالحة تحاول إصلاح البلاد. أعلم أنكِ ذكية وقويّة وأعند من أن تعرفي مصلحتك. ولكن إذا كان بوسعكِ التحلّي بالصبر أيضاً وتنضميّن إلينا في عملنا، فستحظين بالفرصة الوحيدة المتاحة للحصول على معلومات عن ابنتكِ.

ولكن يجب أن أحذّرك أن الحركة لن تسمح لكِ بالتبشير. إنهم يتّفقون مع القديس بولس في قوله: «لِتَتَعَلَّمِ المَرأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ. وَلكِن لَستُ آذَنُ لِلمَرأَةِ أَن تُعَلِّمَ وَلاَ تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَل تَكُونُ فِي سُكُوتٍ»[1]. ولكن لا تقلقي. هنالك الكثير من الأعمال الأخرى المناسبة للنساء من أجل خدمة الحركة.

لدى بعض أتباعنا أقارب أو أصدقاء من الصليبيين. انضمي إلينا، واعملي بجد، وافتحي عينيك وأذنيك، وربما ستعرفين أموراً قد تساعدكِ في العثور على ابنتكِ- وربما أيضاً ستتعلّمين أموراً قد تساعدكِ في تحقيق حياة صالحة وكريمة كامرأة أمريكية مسيحيّة.

لا أعرف ماذا أقول لكِ أكثر ممّا قلتُ. لقد أرفقتُ لكِ داخل الظرف بضع مئات من الأوراق النقدية بالعملة الصعبة. أتمنى لو أستطيع منحكِ المزيد من المال. أتمنى لو أستطيع تقديم المزيد من

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، الإصحاح الثاني، الآيتان ١١ و١٢.

المساعدة. أتمنى لكِ الخير صدقاً، أيّاً يكن قراركِ، وأنا آسف مرّة أخرى. مارك».

هذا كلّ شيء. لم يكتب كلمة عن ذهابهِ إلى بورتلاند- لا تفسير، ولا وداع، ولا عنوان. هل ذهب فعلاً إلى بورتلاند؟ فكّرتُ في هذا وقررتُ أنه قد رحل إلى هناك فعلاً- أو على الأقل هذا ما صدّقت بهِ الخادمةُ التي أخبرتني أنّه رحل.

ولكن لماذا لم يذكر أخي في رسالته إلى أين هو ذاهب- أو حتّى أنه قد غادر؟ هل ظنّ أنني لن أعرف؟ أم كان يلمّح لي بطريقة باردة ومتعمّدة أنه لا يرغب في التواصل معي. هل كان يقول في الحقيقة: «أنتِ أختي وأنا مُلزم بمساعدتكِ. لذا هاكِ نصيحةً وبعض المال. مؤسفٌ ما تمرّين بهِ من المتاعب، ولكن ليس بيدي فعلُ المزيد. يجب أن أعيش حياتي».

طيّب، يمكنني الاستفادة من المال. أما النصيحة، فقد لعنتُها ولعنتُ أخي لإسدائها لي، كردّة فعلٍ أولى. ثم، تساءلت للحظة ما إذا كان بوسعي الانضمام إلى العدوّ لأعثر على ابنتي. ربما أستطيع.

ثم خطر ببالي الرجلُ الذي رأيتُه في المركز- الرجل الذي رأيته آخر مرّة بصفته أحد «معلّمينا» في أيكورن، والذي اغتصب أديلا أورتيز. ربما كان والد الطفل الذي ستُنجِبه عما قريب. ربما استطاع مارك إقناع نفسه أن الصليبيين متطرفون منبوذون، لكنني أفطَن من ذلك. وسواء اختارت (أ. م) الاعتراف بهذا أم لا، فهي

تمتلك أعضاء مشتركين بينها وبين الصليبيين. كم عددهم؟ وما هي صلاتهم الحقيقية؟ وما هو رأي جاريت الحقيقي بهم؟ هل يسيطر عليهم؟ إذا كان بالفعل يكره ما يفعلونه، فيجب أن يبذل بعض الجهد لإيقافهم عند حدّهم. لا يجدر بهِ أن يسمح لهم أن يجعلوا من جنونهم جزءاً من صورته السياسية.

من الناحية الأخرى، إن امتلاك جانب جنوني هو الطريقة الوحيدة لجعل الناس يخافونك- جانب خطير منك أو من منظمتك لا يمكن التنبؤ بهِ- جانب مستعد لفعل أي شيء لعين.

أهذا ما يجري؟ أنا لا أعرف، وأخي لا يريد أن يعرف.

١٩
بذرة الأرض: كتُب الأحياء

كلّ الأديان في المحصلة النهائية هي عبادةُ سِلعٍ[1]. يمارس الأتباعُ الشعائرَ المطلوبة، ويتبعون قواعد معيّنةً، ويتوقّعون أن يكافؤوا من الغيب بالعطايا المنشودة؛ العمر المديد، الشرف، الحكمة، الذُرّيّة، الصحة، الثراء، النصر على الخصوم، الخلود بعد الموت. كلّ العطايا المنشودة. بينما تقدّم بذرة الأرض عطاياها الخاصة- متّسعاً لمجموعة صغيرة من الناس لبدء حيوات جديدة وطرق جديدة للحياة، بفرص جديدة، وثروات جديدة، ومفاهيم جديدة عن الثراء، وتحديات جديدة لكي ننمو ونتعلّم ونقرر ماذا نريد أن نصبح. بذرة الأرض هي انبلاج فجر نضوج الجنس البشري. إنّها تقدّم الخلود الحقيقي الوحيد. إنّها تمكّن بذور الأرض من أن تصبح بذور حياة جديدة، ومجتمعات جديدة في أراضٍ جديدة. مصير بذرة الأرض أن تمدّ جذورها بين النجوم. وهناك مرّة أخرى، ستنمو، وتتعلّم، وتحلّق.

---

(١) Cargo cult: عبادة السلع أو طوائف البضائع. يصف هذا المصطلح الحركة الدينية التي ظهرت بصورة رئيسية في منطقة ميلانيزيا، يؤمن أتباعها أن البركة تحل بوصول «شحنة» سلع خاصة من مصادر ما ورائية. ظهر هذا المعتقد في أعقاب الاتصالات الأولى بين المجتمعات القبلية مع الحضارة الغربية.

بدأتُ سرّاً في تأليف سيناريوهات أقنعة الأحلام عندما كنتُ في الثانية عشرة من عمري. كنت ما أزال في ذلك الوقت الابنة الخجولة الحذرة لكايسي وماديسون ألكسندر. عرفتُ أنه يُسمح لي باستخدام أقنعة الأحلام ذات السيناريوهات الأمريكية المسيحيّة الصارمة -كقصص آشا فير القديمة- ولكن من غير المحتمل أن يوافق أحد على قيامي بتأليف سيناريوهات جديدة غير خاضعة للرقابة. عرفتُ هذا لأنني عندما كنتُ في التاسعة من عمري، بدأتُ بتأليف حلقات قصصية بسيطة خطّية، لتسلية نفسي وأصدقائي القلائل في مدرسة أمريكا المسيحيّة. كان ذلك ممتعاً. وأحَبّه أصدقائي إلى أن وقعنا جميعاً في المتاعب. استرقَت إحدى المعلّمات السمع وعرفت ما كنتُ أفعله وعاقبتني على الكذب. وعوقب أصدقائي لأنهم لم يبلّغوا عن أكاذيبي. توجّب علينا حفظ إصحاحات كاملة من سفر الخروج، وسفر المزامير، وسفر الأمثال، وسفر إرميا، وسفر حزقيال. وما لم نحفظ عن ظهر قلب كلّ إصحاح معيّن ونُختبر بهِ، لن يُسمح لنا بأي وقت فراغ- لا فسحة ولا استراحة غداء. أُجبرنا على البقاء لمدة ساعة بعد انتهاء المدرسة يومياً. كنّا مُراقَبِين حتّى في الحمامات للتأكّد من أنّنا لن ننغمس في المزيد من الشرور- مثل سرقة دقيقة أو دقيقتين «من الربّ».

ولم يهمّ أنني قلتُ منذ البداية إن قصصي كلّها مختلقة. لم أحاول قطّ إقناع أيّ أحدٍ على أنّها حقيقية. ولم يهمّ أن سيناريوهات أقنعة الأحلام المسموحة لنا كانت هي الأخرى خيالية. كان الأمر كما لو

أن المعلّمين قد اعتقدوا أن كلّ القصص الممكنة قد ابتُدعت أصلاً، وابتداع المزيد يُعدّ خطيئة- أو على الأقل عُدّ خطيئة إذا أنا ابتدعتُ المزيد منها.

ولكن بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه سن البلوغ، كانت معظم السيناريوهات المسموحة لي باهتة وبليدة ومضجرة، باستثناء المواد الإباحية التي تمكّنت من إيجادها. دائماً ما تظهر الشخصيات في تلك السيناريوهات وهي تستجلي زلّاتها، وتعاني بسبب خطاياها، ومن ثم تعود إلى الربّ. لقد قاتَل فيها الأولاد من أجل أمريكا المسيحيّة. وحاربوا ضد الوثنيّين، أو قصدوا الأدغال والصحارى الأجنبية الخطيرة الشريرة كمبشرّين. أما البنات فيظهَرن فيها دائماً وهنّ يطبخن، وينظفن، ويخيّطن، ويبكين، ويصلين، ويرعَين الأطفال أو المسنين، ويذهبن إلى الكنيسة. كانت آشا ڤير استثنائية لأنها قامت بأشياء مثيرة للاهتمام. لقد أنقذَت الناس. وجعلَتهم يعودون إلى الربّ. كانت إحدى القلائل. في الحقيقية، كانت هي الوحيدة بصفتها سوداء وامرأة.

ذات مرّة اخبرتني امرأةٌ طاعنة في السنّ -كانت في التسعينات من عمرها وتعيش في أحد دور رعاية المسنّين التي أنشأتها أمريكا المسيحيّة من أجل الأعضاء المسنّين- أن آشا ڤير هي نانسي درو جِيلي. مرّت سنوات قبل أن أعرف من كانت نانسي درو[1].

(١) Nancy Drew: بطلة سلسلة روايات. وهي متحرية في سن المراهقة، تقوم بحل الألغاز والقضايا الغامضة.

عموماً، كتبتُ سيناريوهات- اضطررتُ لكتابتها بواسطة قلم ستايلوس[1] في مفكّرتي بما أنه لا أحد يثق بطفلة بالعمل على مسجّل سيناريوهات، حتّى خارج أمريكا المسيحيّة. على الأقل كانت المفكّرات الخاصة بنا تمتلك ذاكرة كبيرة وبإمكاني تشفيرها لمسح السيناريوهات إذا حاول أحد آخر الدخول إليها. أو هكذا ظننتُ.

كتبتُ أن عندي والدين مختلفين- والِدين يهتمّان بي ولا يتمنّيان على الدوام لو أنني كنتُ شخصاً آخرَ، كالقديسة كاماريا. لم أعرف وقتها أنّني كنتُ متبنّاة. كلّ ما كان عندي هو شكّ الطفل المعتاد من أنني ربما كنتُ كذلك، وقد يكون عندي، في مكان ما، وبطريقة ما، والدان «حقيقيان» جميلان وقويّان سيأتيان من أجلي يوماً ما.

كتبتُ أن عندي أربعة أخوة وثلاث أخوات. لقد أعجبتني فكرة وجود ثمانية أطفال. لأنني اعتقدتُ أن المرء لن يكون وحيداً في عائلة كبيرة كهذه. أقمنا أنا وأخوتي وأخواتي حفلات ضخمة في أيام الإجازات وأعياد الميلاد وكنا نخوض مغامرات دائماً، وكان عندي عشيق وسيم يحبّني بجنون، وكل الفتيات في المدرسة غيورات مني.

وكنا نعيش في بلدة تجارية كبيرة بدلاً من مدينة سياتل القديمة الخربة المرقّعة ذات الندوب التي سبّبتها هجمات الصواريخ. كنّا مهمّين ونملك الكثير من المال. وكنا نقضي وقتنا في قيادة سياراتنا السريعة في الأرجاء، أو القيام باكتشافات علمية براقة في المختبرات،

(١) Stylus: قلم ستايلوس. أداة على شكل قلم يمكن الكتابة بواسطته على الشاشات التي تمتلك خاصّية اللمس.

أو القبض على عصابات من الجواسيس أو المختلسين أو المخرّبين. ونظراً لأن هذا كان قناعاً، كان بوسعي خوض المغامرات بصفتي أحد أخوتي أو أخواتي أو أيّ من والديّ. هذا يعني أن بإمكاني أن «أجرّب» أن أكون ولداً أو شخصاً بالغاً. ولكن لأن هذا لم يشبه تجربة قناع أحلام حقيقي، لم أحظَ بتوجيه حسّي أبعد من البحث وخيالي. شاهدتُ أشخاصاً آخرين، وحاولت إجبار نفسي على الإحساس بما قد يشعر بهِ شخصٌ يقود سيارة، أو يطلق النار من مسدس، أو يكون الأخ الأكبر الذي يعمل في جنوب المحيط الهادئ كعامل تعدينٍ في أعماق المياه، أو الأخت الكبرى التي تعمل كمهندسة معمارية في القطب الجنوبي، أو الأب الذي يعمل مديراً عاماً في شركة كبرى، أو الأم التي تعمل عالمة بيولوجيا جُزيئية. كان الأب رجلاً ضخماً، وخارقاً، وغنياً، وذكياً و... غير متواجدٍ في أغلب الأوقات. مررتُ بأصعب الأوقات عندما انتحلتُ شخصيّته. لم تساعدني البحوث كثيراً. كان أشبه بقشرةٍ أكثر من الباقين. ما هي طبيعة الأب من الداخل، أفكارِه وأحاسيسِه؟ لم أعرف. ليس مثل ماديسون، بالطبع. أيُشبه آباء أصدقائي العابرين؟ لقد رأيتُ آباء أصدقائي بين الحين والآخر، ولكنني لم أعرفهم. ربما يشبه القسّ، صارمٌ وواثق من نفسه ومحاط في العادة بالكثير من الرجال المحترمين والنساء المبتسمات اللواتي يُشاع أن بعضهن قد نمنَ معه رغم أنهنّ متزوّجات وهو متزوّج أيضاً. ولكن كيف كان يشعر؟ بمَ يؤمن؟ ماذا يريد؟ وممّ يخاف؟

لقد قرأتُ كثيراً. وشاهدتُ الناس واسترقتُ السمع. أخذتُ الكثير من الأفكار من الأطفال الذين سمح لهم آباؤهم بالحصول على أقنعة وكتب لا دينية- التي ندعوها بالكتب السيئة. باختصار، حاولتُ فعل ما كرهَت والدتي البيولوجية فعله، ولكن لم يكن بيدها منع نفسها منه. لقد حاولتُ الشعور بما يشعر به الآخرون، لأعرفهم- لأعرفهم حقاً.

كان كلّ ذلك تفاهة بالطبع. تفاهة غير مؤذية. ولكن عندما قُبض عليّ متلبسة، صار ذلك جُرماً فجأة.

وقعَت حادثةُ سرقةٍ في فصل التاريخ الأمريكي المسيحيّ. لقد سرق أحدهم هاتفاً شخصياً صغيراً تركَته المعلّمة على مكتبها. خضعنا كلنا للتفتيش، وجمعوا أغراضنا، وتفحّصوها بدقّة. تفحّص أحدهم مفكّرتي بدقة شديدة، بالرغم من شفرات التدمير الذاتي، وعُثر على السيناريو.

توجّب عليّ حضور دروس دينية خاصة بالجانحين والخضوع للاستشارة النفسية. كان عليّ الاعتراف بخطاياي أمام كنيستنا المحلية. وكان عليّ أن أحفظ عن ظهر قلب بضع عشرات أو أكثر من إصحاحات الكتاب المقدس. وبينما كنتُ أقضي عقوباتي، بدأتُ أسمع همسات عن كوني متبنّاة بالفعل، وأنني لم أكُن ابنة لأبوين ثريّين ومهمّين وجميلين، بل ابنة أشرّ شيطانَين وثنيَين- قاتلين، سارقين، ومحرّفين لكلمة الربّ. بدأ الأطفال ذلك. كان هناك الكثير من الأطفال في الأرجاء ممن عُرف عنهم أنهم متبنَّون، لذا كان هذا

مكاناً تشيع فيه السخرية منهم واختلاق الأكاذيب حول مدى شرّ آبائهم الحقيقيين. وإذا لم تكن متبنّياً، وغضب أحدهم منك، فقد يصفك باللقيط الوثني، سواء أكنت كذلك أم لم تكن.

بدأ الأطفال بالسخرية مني. ثم بدأ البالغون بالكلام، وقد عرف بعضهم أنني متبنّاة. «حسناً. في النهاية، فكّري أي نوعٍ من النساء كانت أمّها الحقيقية. لا مفرّ من أن يترك هذا أثراً عليها». أو، «تريّثي. ليست تلك بالفتاة الصالحة. كانت جدّتي تقول من شابه أباه فما ظلم». أو، «طيب، وماذا كنتِ تتوقعّين غير هذا؟ إن «فير» تعني الحقيقة، أليست كذلك؟ والحقيقة هي أن الدماء الفاسدة تجري في عروقها!».

أتذكّر أنني استدرتُ في الكنيسة لأواجه العجوز الكريهة التي همسَت بصوتٍ مسموع بالعبارة الأخيرة الغبيّة لصديقتها العجوز. جلسَت العجوزتان مباشرة خلف كايسي وماديسون وخلفي، ذات مساء خلال قدّاس يوم الأحد. نظرتُ إليها، وحدّقَت نحوي بالمقابل، كما لو أنني حيوان دنّس حُرمة الكنيسة.

«اللهَ مَحَبَّةٌ»[1] قلتُ بصوتٍ ناعمٍ قدر إمكاني. ثم قلت «لأَنَّ مَن أَحَبَّ غَيرَهُ فَقَد أَكمَلَ النَّامُوسَ»[2]، وحرصتُ على أن تسمع كلماتي مثلما سمعتُ همساتها القبيحة. دماء فاسدة، بحقّ السماء! أخبرتني

(١) رسالة يوحنا الرسول الأولى [٤ : ٨].

(٢) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية [١٣:٨].

كايسي أن الناس يقولون أشياء من هذا القبيل لأنهم جهلاء، ولكن يجب أن أحترم حتّى الجهلاء، لأنهم كبار في السنّ.

في تلك الليلة بالذات، لكزَتني كايسي بمرفقها لكزة قويّة في اللحظة التي فتحتُ فيها فمي لأتحدّث، ورأيتُ فم العجوزة الجاهلةَ ينِدّ عن تكشيرة تدلّ على النفور والاستنكار.

كنتُ قد بلغت ثلاثة عشر عاماً للتوّ عندما حدث هذا. أتذكّر أنه بعد الكنيسة وقع بيني وبين كايسي شجارٌ محتدم لأنها قالت إنني تعاملتُ بوقاحة مع شخص مسنّ، وقلتُ لها إن هذا لا يهمني. قلتُ لها إنني أريد أن أعرف ما إذا كنتُ متبناة بالفعل، وإذا كنتُ كذلك، فمن كان والداي الحقيقيان.

قالت كايسي إنّها وماديسون كانا الوالدين الوحيدين اللذين يجب أن أقلق بشأنهما، وقالت إنني وثنيّة صغيرة جاحدة لأنني لا أُقدّر ما كان عندي.

وانتهى الأمر.

عندما كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، أخبرتني فتاة عدوّة في المدرسة أن أُمّي لم تكُن وثنيّة فقط بل عاهرةً وقاتلة أيضاً. ضربتُها حتّى قبل أن أفكّر في الأمر- واكتشفتُ أنني لم أعرف مدى قوّتي. فقد كسرتُ فكّها. صرخَت وبكَت ونزفَت. وارتعبتُ- خفتُ حدّ الموت. طُردتُ من المدرسة وكدتُ أُجبر على ارتداء الطوق وأُعاقب بصفتي جانحاً حدثاً. إلّا أن ماديسون والكاهن عملا معاً

لإنقاذ عنقي من الطوق. كانت هذه بداية أسوأ جزء من سنوات مراهقتي. كنتُ ممتنّة لماديسون. لم أحسب أنه سيُقاتل من أجلي. لم أحسب أنه سيقاتل من أجل أي شيء. عندما كبرتُ غدا كظلٍ أكثر حتّى ممّا كان في السابق. كان يصلح الكومبيوترات القديمة للعاملين للفقراء. كان أقرب لعُدّته مني، ما عدا الأوقات التي كان يتحسّس فيها جسدي.

ثم، ذات يوم سبت، وبعدما تم التخلّص من المشاكل التي وقعتُ فيها، وبينما كانت كايسي تحضر اجتماعاً نسوياً في الكنيسة، وضّح لي ماديسون إلى أي حدٍّ يجب أن أكون ممتنّة له، لأنه أنقذني من الطوق. ثم قرأ لي مقالاً عن الأطواق- كيف تؤذي، وكيف بإمكانها «تهدئة» حتّى أعنف المجرمين، ومع ذلك تتركه قادراً على القيام بعملٍ مفيد، وكيف أن حامل وحدة التحكم يشبه «محرّك دمىً افتراضي» بالنسبة للمحكومين. ورغم الألم الشديد الذي يسبّبه الطوق، إلّا أنه لا يخلّف أثراً، ولا يسبّب ضرراً دائماً، مهما تكرّر استخدامُه.

أعطاني ماديسون عدّة مقالات أخرى. وبينما اقتربتُ لآخذها، مدّ يديه المبللتين بالعرق وتحسّس صدري.

«إظهار بعض الامتنان لن يضرّكِ بشيء»، قال لي عندما ابتعدتُ عنه. قال: «لقد أنقذتُكِ من شيء وحشي حقاً. لا أعرف. أنتِ جاحدة جداً. ربما لن أنقذك في المرة القادمة». توقّف برهة ثم تابع، «هل تعلمين أن ماما أرادت التخلّي عنك ليكون مصيرُك الطوقَ.

إنّها تعتقد أنكِ آذيتِ تلك الفتاة عمداً». توقّف ثانية ثم تابع، «يجب أن تكوني لطيفة معي يا آشا. ليس عندكِ أحدٌ غيري».

ظلّ يلاحقني. مرّت أوقات فكّرتُ فيها أنني يجبُ أن أنام معه لأنتهي من الأمر فقط. لكنني عدتُ إلى المدرسة وكان باستطاعتي الابتعاد عن المنزل أغلب الوقت. كان رجلاً فظيعاً سكّيراً. ولكن من حسن حظي أنه كان ضئيل الحجم، وأدركتُ بعد فترة أنه كان يخشاني قليلاً. كانت هذه صدمة. فقد كبرتُ وأنا خجولة وخائفة من الجميع تقريباً- حانقة، ولكن خائفة. كان يجب استفزازي بغتة وبحِدّةٍ لدفعي على إبداء أيّة ردّة فعل غير الجدال. لهذا السبب شعرتُ بالاستياء الشديد عندما كسرتُ فكّ تلك الفتاة. ليس فقط لأنني لم أعرف أن بإمكاني أذيّة أحدٍ إلى هذه الدرجة، بل لأنني لم أكن إطلاقاً من نوعية الأشخاص الذين يؤذون الناس.

ولكن بطريقة ما، لم يعرف ماديسون بهذا.

لم يكن يتركني وشأني، لكنه على الأقل لم يستخدم القوة الجسدية لإجباري. ظلّت يداه الرطبتان تتسلّلان إلى جسدي، واستمرّ بالتوسل، وكان يراقبني. لقد تبعتني عيناه كثيراً لدرجة أنني خفتُ أن تنتبه كايسي وتُلقي باللوم عليّ. حاول اختلاس النظر عندما كنت أستحم- أمسكتُه متلبساً مرتين. وحاول اختلاس النظر عندما كنت أغيّر ملابسي في غرفتي.

عندما بلغتُ الخامسة عشرة، لم يعُد بوسعي الانتظار لأخرج من ذلك المنزل وأبتعدُ عنهما كليهما إلى الأبد.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الخميس، ٧ يونيو، ٢٠٣٥

لقد عدتُ إلى جورجتاون. أحتاج لبعض الراحة، والاطمئنان على آلي، والاستحمام، ولأجلب بعض الأغراض التي تركتُها معها، ولأجمع قدر ما يمكنني من المعلومات. ثم سأتوجه إلى أوريغون. أحتاج لمغادرة المنطقة لفترة، وبدا أن الخيار الأصوب هو الذهاب إلى حيث يقطن مارك. لن يرغب في رؤيتي. يريد أن يكون جزءاً من أمريكا المسيحيّة بالرغم من أنه يعرف أن أيدي أمريكا المسيحيّة أبعد ما يكون عن النظافة. إذا لم يكن يرغب في وجودي في الجوار لأذكّره بنوعية الناس الذين يختلط بهم، إذن يجدر به مساعدتي. ما أن أستعيد ابنتي، لن يضطر لرؤيتي مجدداً أبداً– ما لم يرغب هو في ذلك.

من الصعب الآن تقبّل حتّى وسائل الراحة في جورجتاون. يبدو أنني لا أطيق نفسي إلّا وأنا أتحرّك، وأعمل، وأبحث عن لاركِن. يجب أن أخرج من هنا.

قالت آلي إنني يجب أن أمكث لغاية الأسبوع القادم. قالت إنني أبدو بحالة مزرية. أفترضُ أنني بالفعل بدوتُ كذلك عندما وصلتُ. ففي النهاية، كنتُ أتظاهر بأنني رجلٌ مشرّد. لقد استحممتُ وعدتُ لهيئتي كامرأة عادية. ولكنها قالت إنني أبدو أكبر في العمر حتّى وأنا نظيفة. «أكبر عمراً بكثير»، على حد قولها.

«لقد استعدتِ ابنك الحبيب جاستن»، قلتُ لها، فأشاحت بنظرها، ونظرَت إلى جاستن الذي كان يلعب كرة السلّة مع أولاد جورجتاون. لقد علّقوا سلّة حقيقية بلا قعر عالياً على جدار أحد الأكواخ. بُنيت أكواخ جورجتاون الأولى من جذوع الأشجار والحجر والطين. إنّها ثقيلة ومتينة- ثقيلة جداً لدرجة أن قلة منها قد انهارت وقُتِل بضعة أشخاص عندما وقع زلزال. ولكن لن تضرّها في شيء إطلاقاً سلّة مثبتة على الحائط بالمسامير وبضعة ضربات من كرة سلّة مسروقة للتوّ. أحضر كرة السلّة يوم أمس أحدُ الرجال الذين يعملون في تنظيف بنايات المكاتب في يوريكا، قال إنه وجدها في الشارع.

«كيف حال جاستن؟»، سألتُ آلي. كانت قد هيّأَت لنفسها زاوية للعمل خلف الفندق. عملَت هناك في صناعة أو إصلاح الأثاث، وإصلاح أو شحذ العُدد اليدوية، وكانت تقرأ وتكتب للناس. لم تعلّمهم القراءة والكتابة كما فعلتُ. ادّعَت أنّها لا تتحلّى بالصبر الكافي لهذا النوع من التعليم- رغم أنّها كانت تعلّم الأطفال كيفية العمل بالأخشاب، وتصلّح ألعابهم المكسورة مجاناً. استمرّت بعملها في التصليحات لصالح آل جورج، لكنها لم تعُد تعمل في التنظيف، أو خدمة الآخرين. ما أن رأت دولوريس جورج جودة عملها، حتى سُمح لآلي بالقيام بالعمل الذي تحبّه لكسب لقمة العيش لنفسها ولجاستن. كانت أعمال التصليحات التي انكبّت الآن على القيام بها للآخرين مقابل مبلغ إضافي من النقود لشراء ملابس وكتب من أجل جاستن.

«أتمنى لو تقبلين بالبقاء هنا لتقومي بتعليمه»، قالت لي، «أخشى أنه يقضي وقتاً أطول من اللازم مع أولاد يسطون على البيوت ويسرقون الناس. إذا كان هناك شيءٌ سيدفعني لمغادرة جورجتاون يوماً ما، فسيكون هذا».

أومأتُ برأسي، متسائلة أيّ نوعٍ من الأمور التي كانت تتعلّمها ابنتِي لاركِن. ثم خطر ببالي السؤال البغيض إياه الذي يخطر ببالي بين الحين والآخر: هل ما زالت على قيد الحياة أصلاً لتتعلّم أي شيء؟ أدرتُ ظهري إلى آلي وحدّقتُ في الغابة الشاسعة الفوضوية من الأكواخ والسقائف والخيام والعشش التي كوّنت جورجتاون.

«لورِن؟»، قالت آلي بصوتٍ أنعمُ من أن أطمئن له.

نظرتُ إليها، وكانت تصنفر رجل الكرسي من دون أن تنظر نحوي. انتظرتُ.

«هل تعلمين... كان عندي ابنٌ قبل جاستن؟». قالت.

قلتُ: «أعلم». لقد دفعها أبوها هي وأختها جيل لممارسة البغاء وقتَل أيضاً طفلها في نوبة غضب عندما كان سكراناً. لهذا السبب غادرَت هي وجيل المنزل. انتظرتا حتّى نال الثملُ من أبيهما ونام. فأضرمتا النار في الكوخ وبداخله أبوهما ثم هربتا. النار ثانية. يا لها من صديقة مُطَهِرة. ويا لها من عدوّة رهيبة.

«لم أعرف حتّى من كان والد ابني الأول»، قالت، «لكنني أحببتُه- ولدي الصغير. لا يمكنكِ معرفة كم أحببتُه. لقد طلع مني،

وعرفني، وكان لي». تنهدت، ورفعَت ناظريها من رجل الكرسي وقالت: «كان لي، طوال ثمانية أشهر».

حدّقتُ في جورجتاون ثانية، وقد عرفتُ إلامَ كانت ترمي من حديثها، لكنني لم أرغب بالسماع. كان سماعه في رأسي سيئاً بما يكفي.

«رغبتُ بالموت عندما قتَل أبي طفلي. تمنّيت لو أنه قتلني أيضاً». توقّفت برهة ثم قالت: «جيل هي التي ساعدتني على الصمود، مثل ما ساعدتِني أنتِ على الصمود عندما كنّا في المعسكر المسيحيّ». ثم سكتَت ثانية لفترة أطول هذه المرة.

ثم قالت: «ربما لن تجديها ثانية يا لورِن».

لم أنبس ببنت شفة، ولم أتحرّك.

قالت: «ربما ماتت».

استدرتُ لأنظر إليها بعد فترة. كانت تحدّق بي، وتبدو حزينة.

«أنا آسفة»، قالت، «لكنها الحقيقة. وحتى لو كانت على قيد الحياة، فربما لن تعثري عليها أبداً».

«لقد عرفتِ مصير ابنكِ»، قلتُ لها، «عرفتِ أنه مات، ولا يتعذب في مكان ما، ولا يعتدي عليه مجانين يعتقدون أنهم مسيحيّون. أما أنا فلا أعرف شيئاً. لكن جاستن عاد، والآن لقد عاد ماتيو شقيق خورخي».

قالت: «أعلم. ولكنكِ تعلمين أن هذا أمر مختلفٌ. كلا الصبيين كبيران بالعمر بما يكفي لكي يعرفا هويتهما. و... وهُما كبيران بما يكفي للنجاة من سوء المعاملة والإهمال».

فكّرتُ في ذلك، وفهمتُه، وأشحتُ عنه.

«ما زالت أمامكِ حياة»، قالت.

قلتُ: «لا أستطيع التخلّي عن ابنتي».

قالت: «لا تستطيعين الآن. ولكن ربما سيحين الوقت...».

لم أقل شيئاً. بعد فترة رأيتُ أحد الرجلين اللذين كنت أحصل منهما على المعلومات قبل أن أبدأ العمل في يوريكا. ذهبتُ إليه للتحدّث معه، لأرى ما إذا كان قد سمع أي شيء. لكنه لم يسمع بشيء جديد.

الأحد، ١٠ يونيو، ٢٠٣٥

يبدو أنني سأحظى برفيقة سفر في رحلتي إلى الشمال. لا أعرف ما شعوري حيال ذلك. أرسلَتها آلي لي. إنّها امرأة كان يجب أن تكون غنيّة وآمنة في كنف أسرتها في مقاطعة ميندوسينو جنوباً، ولكن طبقاً لكلامها، فأن عائلتها لم تعُد ترغب بوجودها. لقد أرادوا أخاها، لكنهم لم يريدوها قطّ. لقد أنجبَتها أمّ بديلة، سابقاً عندما كان استئجار الأرحام لا يزال أمراً غير معتاد، ورغم أنّها كانت تشبه أُمها ولا تشبه الأم البديلة، فأن والديها لم يتقبّلاها- بالأخصّ بعد

ولادة أخيها على الطريقة القديمة من جسد أُمّه. اختُطفت عندما كانت في الثامنة عشرة من العمر، من أجل الحصول على فدية، لكن أهلها لم يدفعوا الفدية. كانت تعرف أن والديها يمتلكان المال، ومع ذلك لم يدفعا الفدية. كان شقيقها مثل أميرٍ، ولكن بطريقة ما، لم تكن هي أميرة قطّ. أبقاها الخاطفون معهم لفترة من أجل الجنس. ثم خطرت ببالها فكرة أن تتظاهر بالمرض. كانت تدسّ إصبعها في فمها عندما لا ينظرون إليها. ثم تتقيأ. في النهاية، وبسبب تقزّزهم وخوفهم، أطلق الخاطفون سراحها بالقرب من منطقة كلير ليك. وعندما حاولَت العودة إلى المنزل، اكتشفَت أن أُسرتها قد غادرَت المنطقة، وانتقلَت إلى ألاسكا، قبل اندلاع حرب أل-كن. والآن، بعد مرور أكثر من سنة على اختطافها، إنها في طريقها إلى ألاسكا للعثور على عائلتها. لم تُفزعها حقيقة أن الحرب لم تنتهِ رسمياً بعدُ. إنّها لا تملك شيئاً ولا أحداً باستثناء عائلتها، وكانت ذاهبة إلى الشمال. أخبرَتها آلي أن ترافقني، حتّى نبلغ بورتلاند على الأقل. «لكي تحمي إحداكما الأخرى»، قالت عندما جمعَتنا ببعضنا البعض: «ربما ستعيشان كليكما لفترة أطول».

كان اسم الفتاة بِلين روس. كانت تنطقه بَي-لِين، وكانت تريد أن تُدعى باسم لِين. نظرَت نحوي- حدّقَت في ملابس الرجال النظيفة والرخيصة التي كنتُ أرتديها، وشعري القصير، وجزمتي.

«أنتِ لستِ بحاجتي»، قالت. إنّها طويلة، ونحيفة، وشاحبة، بأنف حادٍ، وشعر أسود. لا تبدو قويّة، ولكنها تبدو مثيرة للإعجاب

بطريقة ما. فهي لم تنكسر بالرغم من كلّ ما حدث لها. ما زالت تتمتّع بالكبرياء.

«هل تعرفين كيف تستخدمين مسدساً؟»، سألتُها.

أومأت برأسها. قالت: «أنا رامية ماهرة».

قلتُ: «إذن فلنتحدّث».

ذهب كلانا إلى غرفة آلي وجلسنا إلى طاولة من خشب الصنوبر صنعَتها آلي. كانت طاولة بسيطة وأنيقة. مسّدتُ سطح الطاولة بيدي. وقلتُ: «لا ينبغي أن تعيش آلي في مكانٍ كهذا. إنّها ماهرة في عملها. ينبغي أن تمتلك متجراً في بلدة ما».

«لا أحد ينتمي لمكانٍ كهذا»، قالت لِين، «أيّة فرصة أمام طفلٍ يترعرع هنا؟».

«وأيّة فرصة أمامكِ؟»، سألتُها.

أشاحت بوجهها. ثم قالت: «هذا الأمر يتعلّق فقط بسفرنا معاً إلى بورتلاند».

أومأتُ برأسي. وقلتُ: «آلي محقّة. ستكون حظوظنا أحسن إذا سافرنا معاً. لأن المسافرين الوحيدين يُعدّون أهدافاً سهلة».

قالت: «لقد سافرتُ وحدي من قبل».

قلتُ: «كنتُ مضطرّة للسفر وحدي. وأعرف أنه عندما يسافر الشخص وحيداً، فيجب عليه التصدّي لهجوماتٍ ربما لم تكُن

ستحدث أبداً لو أنه لم يكن وحيداً، وبالأخص إذا كان هو ورفيق سفره مسلّحين».

تنهّدَت وأومأَت برأسها. قالت: «أنتِ مُحقّة. أعتقد أن لا مانع عندي من السفر معكِ. لن يطول سفرنا».

هززتُ رأسي. وقلتُ: «هذا صحيح. لن تُضطري إلى تحمّلي لفترة طويلة».

عبسَت في وجهي. وقالت: «وماذا تريدين أكثر من هذا؟ سنذهب إلى بورتلاند، وهذا كلّ شيء. لن نرى بعضنا ثانية».

قلت: «ولكن في الوقت الحالي أحتاج لأن أعرف أنكِ شخص يمكنني ائتمانه على حياتي. أحتاج لأن أعرف من أنتِ، كما تحتاجين لمعرفة من أنا».

قالت: «أخبرَتني آلي أنكِ من مجتمع مسوّر في الجنوب».

قلتُ: «من حيّ روبليدو، نعم».

قالت: «أيّاً يكن. لقد دُمّر مجتمعكِ، وأتيتِ إلى هنا لتأسيس مجتمع جديد. وقد دُمّر أيضاً، وانتهى بكِ المطاف هنا». هذه طبيعة آلي، تحكي فقط الخطوط العريضة لحياتي.

قلتُ: «لقد قُتل زوجي. واختُطفت ابنتِي. ودُمّر مجتمعي. وأنا الآن أبحث عن طفلتي– وعن كلّ الأطفال من مجتمعي السابق. لم يُعثر سوى على اثنين منهم لحد الآن– اثنين من الأولاد الكبار. أما ابنتي فقد كانت طفلة رضيعة».

قالت: «نعم»، ثم أشاحت بوجهها، وأردفت: «قالت آلي إنكِ تبحثين عن ابنتكِ. مؤسف. آمل أن تجديها».

بينما كنتُ على وشك الغضب من هذه المرأة، خطر لي أنّها كانت تمثّل. وما أن خطرت ببالي هذه الفكرة، حتّى لاحقَتها أفكار أخرى. كان الكثير ممّا أظهرته لي مزيّفاً. لم تكذب في كلامها. لكن أسلوبها هو الكاذب-مليء بأمارات التضليل. لم تكن ملولة أو غير مُبالية كما أرادت أن تتظاهر. كانت فقط تحاول الابتعاد. قد يكون الغرباء خطيرين وقساة. لذا حريّ بالمرء أن يُبقي على مسافة بينه وبينهم.

المشكلة كانت، بالرغم من أن هذه الفتاة عوملت معاملة سيئة للغاية، إلّا أنّها لم تكن انعزالية. لم يكن سلوكها طبيعياً. بدت وكأنها منزعجة طوال الوقت- كأنها مصابة بحكّة، وكانت تبثّ انزعاجها لي من خلال لغة جسدها. فعرفتُ من خلال مراقبتها عن كثب، أن هناك خطباً آخر.

سألتُها: «هلّا نسافر معاً؟ بالمناسبة، أنا عادة أسافر متنكرة بهيئة رجل. فأنا ضخمة نوعاً ما، وشكلي يوحي بأنني مسترجلة بما يكفي لئلّا أُثير الريبة».

قالت: «لا مانع عندي».

نظرتُ إليها، منتظرة.

هزّت كتفيها. وقالت: «سنسافر معاً. طيب».

تابعتُ النظر إليها.

تململَت في كرسيّها بقلق. وقالت: «ما الخطب؟ ما بكِ؟».

مددتُ يدي وأمسكتُ بيدها قبل أن تجفل وتبتعد. قلتُ لها: «أنا متقمّصةٌ. وأنتِ أيضاً».

انتزعَت يدها من يدي وحدّقَت بي شزراً، وقالت: «بالله عليكِ! نحن سنسافر معاً فقط. وربما حتّى هذا لن يحصل. فأبقي على اتهاماتكِ لنفسك!».

قلتُ لها: «مثل هكذا أسرار هي التي تتسبّب بمقتل رفاق السفر. ما دمتِ على قيد الحياة، فمن الواضح أن بوسعكِ التعامل مع الألم المباغت غير المتوقّع. ولكن صدّقيني، تحتاج متقمّصتان على طريق السفر أن تعرفا كيف تساعدان بعضهما».

نهضَت وهرعَت خارجة من الغرفة.

بحثتُ عنها، متسائلة عمّا إذا كانت ستعود. لم أهتم إن كانت ستعود أم لا، لكن ردّة فعلها القويّة فاجأتني. كان الناس في أيكورن في السابق يتفاجؤون دائماً عندما أكتشفُ أنهم متقمّصون عندما يأتون إلينا. ولكن بعدما يتضح أنهم متقمّصون، وبعدما يتيقنون أن لا أحد سيؤذيهم، يسير كلّ شيء على ما يرام. لم أكشف متقمّصاً آخر من دون أن أبيّن له أنني أيضاً متقمّصة. وقد أدرك معظم الذين كشفتهم بنفسي أن على المتقمّصين أن يتعلّموا تدبّر أمورهم من دون إعاقة بعضهم البعض. كان المتقمّصون الذكور حسّاسين- لأنهم احتقروا ضعفهم المضاعف أكثر من الإناث

المتقمّصات، لكن لا أحد منهم، سواء أكانوا رجالاً أو نساء، فرّ من المكان.

كانت بِيلين روس ثريّة غير محبوبة. عاشت محميّة من العالم أكثر ممّا كنتُ عليه في روبليدو. تعلّمَت أن الناس داخل أسوار منزل أبيها كانوا من نوع ما، وكل الذين خارج الأسوار من نوعٍ آخر. تعلّمَت أنّها يجب أن تحمي نفسها من هذا النوع الآخر. على المرء ألّا يسمح لهم برؤية ضُعفِه. ربما كان هذا هو الأمر. وإذا صحّ ذلك، فلن تعود. ستذهب لرزم أغراضها وتغادر المنطقة بأسرع ما يمكنها. لن تبقى في مكانٍ يعرف فيه أحدهم سرّها الخطير.

حدث كلّ هذا يوم الجمعة. لم أرَ لِين ثانية لغاية البارحة- يوم السبت. التقيتُ بالرجال الذين كانوا يزوّدونني بمعلوماتٍ مفيدة سابقاً- بالأخص أولئك الذين ذهبوا إلى بورتلاند. ابتعتُ لهم المشروبات واستمعتُ لما كان في جعبتهم من أخبار، ثم تركتُهم وابتعتُ خرائط لشمال كاليفورنيا وأوريغون. اشتريتُ فواكه مجفّفة، وفاصوليا، ودقيق ذرة، ولوزاً، وبذور عباد الشمس، ولوازم إسعافات أولية، وذخيرةً لبندقيتي ومسدسي. اشتريتُ هذه الأشياء من متجر آل جورج، رغم أن أسعارهم أعلى من معظم المتاجر في يوريكا. ولكني لن أذهب إلى يوريكا ثانية. سأسلك طريقاً داخلياً لبعض الوقت صوب الطريق السريع 5. وربما سأسافر على طول الطريق السريع (I-5) إذا بدا أن ذلك تصرف حكيم بعدما أصل إلى هناك وأُلقي نظرة. لقد أصبح الطريق السريع (I-5) مخيفاً وخطيراً

في بعض أجزاء كاليفورنيا- أو على الأقل كان كذلك في سنة ٢٠٢٧ عندما قطعتُ بضعة أميال منه. في كلّ الأحوال، سيأخذني الطريق السريع (I-5) مباشرة إلى بورتلاند. سيطول سفري إذا استدرتُ عائدة إلى الساحل وسافرتُ شمالاً على الطريق السريع (U. S. 101). كما أن الطريق السريع (U. S. 101) يبدو موحشاً. وتحاذيه بلدات أقل عدداً وأصغر حجماً.

لقد أخبرني رجل من مدينة سايلم، أوريغون: «البلدات الكبيرة أحسن. لأنه يمكنك أن تكون مجهول الهوية فيها. قد تكون البلدات الصغيرة لئيمة وشكّاكة عندما يظهر الغرباء فيها. إذا حصلت سرقة أو أي حادث من هذا القبيل، سيتهمّك أهاليها وسيضعون طوقاً حول عنقك، أو يسجنونك، أو حتّى يطلقون النار عليك ويقتلونك. أما المدن الكبيرة فشرّيرة. ستأكل لحمك وتبصق عظامك. أنت تافهٌ، وإذا متّ في بالوعة، فلن يهتم بك أحدٌ غير قِسم الصرف الصحي. وربما حتّى هؤلاء لن يهتموا».

قال رجل من مدينة بيكرسفيلد، كاليفورنيا: «يجب أن تفكر أن الحرب لا تزال قائمة. وقد تشتعل في أي وقت، بغضّ النظر عن محادثات السلام. لا يعرف أحد ماذا يعني المزيد من الحرب بالنسبة للناس المسافرين على الطرق السريعة. المزيد من الأسلحة، كما أظن. المزيد من المجانين، والمزيد من الرجال الذين لا يعرفون أي شيء آخر غير القتل».

كان مُصيباً على الأرجح. إنه على حدّ وصفه «مشرّد منذ أكثر

من عشرين عاماً»، ولا يزال على قيد الحياة. هذا وحده جعل من رأيه جديراً بالأخذ بنظر الاعتبار. قال لي إنه لم يواجه أيّة مشاكل في تنقّله ذهاباً وإياباً إلى بورتلاند، حتّى خلال الحرب في السنة الماضية، وهذا خبر حسن. لقد قلّ عدد الناس المسافرين على الطريق مقارنة بسنوات الـ ٢٠٢٠، ولكنهم أكثر عدداً من فترة ما قبل الحرب. أتذكّر عندما أملتُ أن يكون قلة عدد المسافرين علامة على تحسّن الأوضاع. أعتقد أن الأوضاع قد تحسّنت بالنسبة لبعض الناس.

جاءَتني لِين بينما كنتُ أنتهي من التبضّع في متجر آل جورج. ومن دون أن تنبس ببنت شفة، ساعدَتني في حمل أغراضي إلى غرفة آلي، وهناك، شاهدَتني وأنا أرزمها في صمتٍ مستمرّ. لم يكن هذا بيدها.

سألتُها: «هل رزمتِ أغراضَك؟».

هزّت رأسها نافية.

قلتُ لها: «اذهبي وتجهّزي».

أمسكَت بذراعي وانتظرَت إلى أن حازت على اهتمامي بالكامل. قالت: «أولاً، أخبريني كيف عرفتِ. لم أرَ أحداً يكتشفني بهذه الطريقة».

أخذتُ نفساً عميقاً. سألتُها: «كم عمرك؟ أتسعة عشر عاماً؟».

قالت: «نعم».

قلتُ: «ولم تكتشفي أحداً قط؟».

هزّت رأسها نافية مرّة أخرى. قالت: «كدتُ أجزم أنه ليس هنالك من آخرين. ظننتُ أن كلّ من كُشف أمره قد وُضِع في طوقٍ أو قُتل. ارتعبتُ من أن ينتبه أحد. ثم انتبهتِ أنتِ. كدتُ أرحل من دونكِ».

قلتُ: «هذا ما ظننتُه. ولكن لم يكن عندي ما أقوله لكِ ولا يضايقك أكثر».

قالت: «وهل أنتِ حقاً.. حقاً... مُصابة بذلك؟».

قلتُ: «أنا متقمّصة. نعم». أشَحتُ بنظري عنها للحظة وقلتُ: «كان أحد أسعد أيام حياتي عندما عرفتُ أن ابنتِي قد لا تكون كذلك. لا يمكنكِ أن تكوني متأكدة مئة بالمئة عندما يتعلّق الأمر بالأطفال، لكني لا أعتقد أنّها كانت كذلك. كان عندي صديق لديه أربعة أطفال متقمّصين. قال إنه أيضاً لا يعتقد أنها متقمّصة». وأين أطفال غراي مورا الآن؟ ماذا يحدث للصِبية الصغار المفقودين؟ أهناك من هو أضعف من متقمّصين ذكور صغار تحت رحمة رجال وصِبية آخرين؟

«أربعة أطفال متقمّصين؟». سألت لِين، «أربعة؟».

أومأتُ برأسي.

قالت لِين: «أعتقد... أعتقد أن حياتي كانت ستختلف تماماً لو أن أخي كان متقمّصاً أيضاً، بدلاً من أن يكون طبيعياً ومثالياً. كان الأمر كما لو أنني مجذومةٌ بينما هو سليم. أتفهمين قصدي؟ كانت هناك فكرة سابقة تقول إن المجذومين أنجاسٌ ولا يحبّهم الربّ».

أومأت. قلتُ: «من كان مدمن الباراسيتكو في عائلتك؟».

قالت: «كلاهما- كلا والديّ».

قلتُ: «أوه. وكنتِ أنتِ الدليل على سوء سلوكهما، تذكيراً دائماً. أفترضُ أنهما لم يستطيعا مسامحتكِ على هذا».

فكّرَت في هذا لوهلة. ثم قالت: «أنتِ محقّة. يلومك الناس على الأشياء التي يفعلونها بك. لامني الرجال الذين اختطفوني لأنهم تكبّدوا الكثير من المتاعب للوصول إليّ، ثم لم يحصلوا على فدية. لا أتذكّر كم مرّة ضربوني لهذا السبب- كأن ما حصل ذنبي».

قلتُ: «هذه الأيام، إسقاط اللوم على الآخرين يكاد يكون فنّاً من الفنون».

قالت: «لكنكِ لم تقولي لي كيف عرفتِ».

قلتُ: «من لغة جسدك. كلّ شيء حولك. إذا صادفتِ آخرين ستبدئين بملاحظتهم. يتطلّب الأمر بعض الممارسة فحسب».

قالت: «يعتقد البعض أن التقمّص قوة- مثل نوعٍ من الإدراك الخارق للحواس».

نفضتُ كتفيّ. قلتُ: «أنا وأنتِ نعرف أن هذا غير صحيح».

بدت أسعد بقليل. قالت: «متى نغادر؟».

قلتُ: «فجر يوم الإثنين. لا تقولي شيئاً لأحد».

قالت: «بالطبع!».

قلتُ: «هل متاعكِ يكفيكِ؟».

كرّرَت ولكن بنبرة مختلفة: «بالطبع لا. ولكن لا بأس. أستطيع الاعتناء بنفسي».

قلتُ: «سنسافر معاً قرابة شهر. الفكرة هي أن نهتمّ بأنفسنا وببعضنا البعض. ماذا تحتاجين؟».

جلسنا بهدوء معاً لبعض الوقت. وتصارعَت بصمتٍ بين كبريائها ومزاجها.

قلتُ: «من الأفضل تجنّب البلدات أحياناً. بعض البلدات تخاف وتكره المسافرين. إذا لم يعتقلوا المسافرين أو يضربوهم، فسيطردونهم. وأحياناً في نهاية اليوم، لا تكون هناك بلدات قريبة. والصيام والسير لمسافات طويلة لا يتوافقان. والآن لنذهب لنشتري لكِ بعض المتاع. أفترض أنّكِ سرقتِ ما بحوزتكِ الآن».

قالت: «شكراً لكِ على هذا الافتراض».

ضحكتُ وسمعتُ نبرة المرارة في ضحكتي، قلت: «نحن نفعل كلّ ما ينبغي علينا فعله لنعيش. ولكن لا تسرقي ما دمتِ معي». ثم أضفتُ بعض القسوة على صوتي وقلتُ: «ولا تسرقي مني».

قالت: «هل تصدقينني إذا أعطيتكِ كلمتي أنني لن أسرق منكِ؟».

قلتُ: «وهل تعطينني كلمتَكِ؟».

تطلّعت إليّ باستعلاء، وقالت رافعةً أنفها الطويل النحيف: «أنتِ تحبّين أن تملي على الناس ما يجب أن يفعلونه، أليس كذلك؟».

نفضتُ كتفي. قلت: «أحبّ أن أبقى على قيد الحياة، وأحبّ أن أبقى حرّة. نحن نحتاج للثقة ببعضنا البعض». راقبتُها الآن، لحاجتي إلى رؤية كلّ ما يمكن رؤيته.

قالت: «أعرف. كلّ ما هناك... كنتُ أمتلك الكثير من الأشياء. اعتدتُ أن أمنح الملابس والأحذية والطعام وأشياء من هذا القبيل إلى عائلات خدَمِنا في الكريسماس. قبل خمس سنوات تقريباً، امتنعَت أُمّي عن رؤية أي أحد باستثناء أفراد الأُسرة، واعتاد أبي على ترك خدم المنزل في مسؤوليتي. والآن أنا أفقر حتّى من خدم منزلنا. ونعم، لقد سرقتُ كلّ ما أمتلكه. كنتُ مثالية جداً عندما كنتُ أعيش في منزلي. لم أكن لأسرق شيئاً. والآن، أشعر أنني ملتزمة أخلاقياً فقط لأنني سارقة بدلاً من عاهرة».

قلتُ: «ما دمنا معاً لن تكوني أيّاً من الاثنين».

قالت: «... طيب».

وسمحت لنفسي أن أسترخي قليلاً. بدت وكأنها تعني ما تقوله. قلتُ: «إذن فلنذهب لنبتاع لكِ ما تحتاجينه. هيا».

الأربعاء، ١٣ يونيو، ٢٠٣٥

نحن في طريق السفر ولم نواجه أيّة متاعب. سألتني لِين ما إذا كان عندي أي شيء لتقرأه عندما توقفنا للاستراحة ليلة البارحة، وأعطيتُها إحدى النسختين الباقيتين من (كتاب الأحياء الأول). لسنا على عجالة، والنهار طويل، لذلك لا نحتاج لأن نغذّ السير إلى أن يحلّ الظلام فلا يمكن القراءة.

سافرنا جنوباً إلى طريق سريع داخل الولاية سيأخذنا إلى الطريق السريع الداخلي (I-5). لم تعترض لِين على هذا. سألَتني: «لماذا لا نسير بمحاذاة الساحل؟».

أخبرتُها: «أريد تجنّب يوريكا. لقد هاجمني قطّاع الطرق في آخر مرّة كنتُ فيها هناك».

عبسَت، وأومأَت، ثم قالت: «رباه. أتمنى ألّا نتعرّض لمثل هذه الأمور».

قلتُ لها: «أفضل طريقة لتفادي هذه الأمور هو الاستعداد لمواجهتها. تقبّلي حقيقة أنّها ربما ستحدث، وافتحي عينيك وأذنيك».

قالت: «أعلم».

إنها رفيقة سفر جيدة. إنّها تتذمّر، لكنها تقوم بواجبها في الحراسة. أحدُ أكثر الأشياء المخيفة في البقاء وحيداً هو عدم وجود أحدٍ للحراسة أثناء نومك. عليك أن تنام على أغراضك، تستخدمها كوسادة، أو على الأقل تُبقيها داخل كيس نومك معك، وإلا

سيسرقها أحد منك ويهرب. يشكّل السراق العنيفون الخطر البديهي والأكبر، لكن اللصوص المتسلّلين قد يؤذونك أيضاً. لسبب واحد، لأنه يمكنهم أن يجبروك على الانضمام إليهم. إذا سرقوا نقودك، أو إذا لم تكن معك نقود كافية لتعويض الضروريات التي سرقوها منك، عندها يجب أن تسرق لتعيش. إن تجربتي بارتداء الطوق جعلتني أسرق على مضض- ولا يعني هذا أنني كنتُ يوماً سارقة مندفعة.

عموماً، لِين رفيقة سفر جيدة. وهي قارئة نهمة ذات عقل نشيط. وتقول إن أحد الأشياء التي تفتقدها برحيلها عن المنزل هو قدرتها على الولوج إلى مكتبات العالم عن طريق الكومبيوتر. إنّها واسعة الاطلاع. لقد أكملَت على عجلٍ قراءة كتاب (بذرة الأرض: كتاب الأحياء الأول) في ليلة واحدة. المشكلة هي، لا يجب قراءة هذا الكتاب على عجالة.

«أعرف أنكِ كتبتِ هذا الكتاب»، قالت عندها انتهَت منه- بعد بضع ساعات فقط. «أخبرتني آلي أنكِ كتبتِ كتاباً عن شيء يُدعى بذرة الأرض. هل هذا هو اسمكِ الحقيقي؟ لورِن أويا أولامينا؟».

أومأتُ. لم أكترث أنّها عرفَت. فقد افترشنا أرضاً بعيدة عن الطريق، كانت الأرض متوارية بين تلّين، لكي نحظى بالخصوصية. لا زلنا في أرضٍ آلفها؛ تلال، مزارع متناثرة، مجتمعات صغيرة، غابات أشجار يانعة، وأراض فسيحة. إنّها منطقة جميلة. عبرناها مراراً وتكراراً عندما عشنا في أيكورن. يقطنها عدد أقل ممّا يجب من الناس، لأنه خلال أسوأ سنوات الـ ٢٠٢٠، تعرّض العديد

من الناس هنا إلى الحرق أو السرقة أو الاختطاف أو القتل. كانت المجتمعات الصغيرة ضعيفة وقد اجتاحتها العصابات كالجراد. سعى كثير من الناجين إلى السكن في مناطق أقل عرضة للجرائم- مثل كندا، وألاسكا، وروسيا. لهذا السبب كان هنالك الكثير من الممتلكات المهجورة لينبشها أمثالنا بحثاً عن مواد البناء، والنباتات المفيدة، والعُدّد القديمة. مع ذلك، لا تعزّيني أُلفةُ المنطقة الآن. ثم طرحت لِين سؤالاً مألوفاً، وبطريقة ما، وجدتُ العزاء في ذلك.

قالت: «لماذا كتبتِ هذا الكتاب؟».

«لأنها الحقيقة»، أجبتُ. ومن لحظتها إلى أن استلقَت للنوم، تحدّثنا عن بذرة الأرض، وما تعنيه، وما يُمكن أن تعنيه، وكيف يمكن لأي شخص أن يتقبّلها حتّى لو سمع بها بالصدفة. لم تسخر، لكنها أيضاً لم تفهم تماماً بعدُ. وجدتُ نفسي أتطلّع لتعليمها.

الأحد، ١٧ يونيو، ٢٠٣٥

أخذنا اليوم للاستراحة. نحن في مدينة ردينغ- أو بالأحرى في متنزّه غرب ردينغ. ردينغ مدينة كبيرة. لقد أقمنا خيمة أخيراً في مكانٍ يُفترض التخييم فيه للعامّة، ونحن نأكل طعاماً دسماً وطيباً اشتريناه من المدينة. كما سنحت لنا فرصة للاستحمام وغسل ملابسنا. يتحسّن مزاجي دائماً عندما لا تفوح مني رائحة كريهة ولا أضطر لتحمّل رائحة الجسد الكريهة لرفيقتي في السفر. مهما

فاحت مني رائحة كريهة إلّا أنني، بطريقة ما، أستطيع شمّ روائح الآخرين.

أكلنا يخنة ساخنة من البطاطا، والخضروات، ولحم البقر المقدد، تعلوها طبقة رائعة من جبنة الشيدر. تبيّن أن لِين لا تعرف الطبخ. تقول إنّ أمها تعرف كيف تطبخ لكنها لا تطبخ أبداً. لم تُضطر لذلك. الخدم يطبخون، وينظفون، ويصلّحون الأغراض. كما عُيّن معلّمون لتعليم لِين وأخيها- غالباً لتوجيههما لطريقة استخدام الدورات الدراسية على الكومبيوتر، والتأكّد من أنهما يقومان بالعمل المطلوب. وقد منحهما أبوهما، وعلاقاتهما عن طريق الكومبيوتر، والخدم الكبار في السنّ، أغلب ما يعرفانه عن العالم. أما مهارات المعيشة الاعتيادية الأخرى، كالطبخ والخياطة، فلم تكن من ضمن الأجندة قطّ.

سألتُها: «ماذا تعمل أمك؟».

نفضَت كتفيها وقالت: «لا شيء في الحقيقة. إنّها تعيش في غرفتها الافتراضية- في عالمها المتخيّل. يمكن لتلك الغرفة أن تأخذها إلى أي مكان، فلماذا إذن تخرج منها؟ كانت تزداد سُمنة وتفقد صحتها الجسدية والعقلية، لكن الـ «في-روم»[1] كانت كلّ ما يهمّها».

(١) v-room :virtual room. الغرفة الافتراضية أو الـ «في-روم».

عبستُ. قلتُ: «لقد سمعتُ عن هذا الشيء- عن أشخاص مدمنين على أقنعة الأحلام أو على القصص الخيالية للعوالم الافتراضية. لكنني لا أعرف أي شيء عن الموضوع».

قالت: «وماذا تريدين أن تعرفي؟ أقنعة الأحلام تفاهة- ألعاب أطفال رخيصة. إنّها محدودة للغاية. ولكن كان في وسعها وهي في تلك الغرفة الذهاب إلى أي مكان، وأن تكون أي شخص، وتكون مع أي شخص. إنّها أشبه برحمٍ ذي مُخيّلة. يمكنها زيارة الصين في القرن الرابع عشر، والأرجنتين في اليوم الحاضر، وغرينلاند في أي مستقبل بعيد مُتخيّل، أو أحد العوالم البعيدة التي تدور حول ألفا سينتوري[1]. يمكنها خلق نسخة من أيٍّ ممّا يخطر على بالكِ. أو يمكنها زيارة أصدقائها، سواء أكانوا واقعيين أم متخيلين. كان أصدقاؤها الواقعيون أثرياء وعاطلين أيضاً- أغلبهم نساء وأطفال. وكانوا مثلها مدمنين على الـ «في-روم» الخاصة بهم. إذا لم يسايرها أصدقاؤها الواقعيون في هذا بقدر ما تريدُ منهم، كانت تخلق نسخاً أكثر التزاماً منهم. بحلول الوقت الذي اختُطفتُ فيه، لم أعرف ما إذا كانت لا تزال تتواصل مع أشخاص حقيقيين من لحم ودم. لم تعُد تطيق الأشخاص الحقيقيين الذين يمتلكون ذواتاً حقيقية خاصة بهم».

فكّرتُ في هذا لوهلة. كان أسوأ من كلّ ما سمعته عن هذا النوع المعيّن من الإدمان. سألتها: «وماذا عن الطعام؟ وماذا عن الاستحمام، أو قضاء الحاجة؟».

---

(١) Alpha Centauri: أو رجل القنطور، أقرب نظام نجمي إلى الشمس.

قالت: «كانت تخرج من الغرفة لتناول وجبات الطعام. وكان عندها حمام خاصٌّ بها. كان الحمام وحده بحجم غرفة نومي. ثم بدأت تأكل طعامها في غرفتها. بعد ذلك، مرّت أشهر بكاملها لم أرَها فيها. حتّى عندما كنتُ آخذ بنفسي الطعام إليها، كنتُ أتركه هناك. لأنها كانت تقبع داخل الفقاعة الافتراضية داخل الغرفة، حتّى أنني لم أكن أستطيع رؤيتها. وإذا دخلتُ إلى الفقاعة -يمكنكِ الدخول إليها ببساطة- ستصرخ في وجهي. لم أكن جزءاً من عالمها المتخيّل المثالي. من الناحية الأخرى كان أخي كذلك. كان يُسمح له بزيارتها مرّة أو مرتين في الأسبوع والمشاركة في خيالاتها. أمرٌ لطيف، أليس كذلك؟».

تنهّدتُ وسألتها: «ألم يعترض والدك على هذا؟ ألم يحاول مساعدتها أو مساعدتكِ؟».

قالت: «كان منشغلاً بجمع المال ومضاجعة الخادمات وأطفالهن - وبعضهم كانوا أطفاله أيضاً. لم يكن معزولاً عن الخارج، ولكن كان عنده عالمٌ متخيّل خاصّ بهِ». تردّدَت، ثم تابعَت: «هل ترينني طبيعية؟».

لم يسعني تجنّب رؤية إلام كانت ترمي من هذا. قلتُ لها: «نحن ناجون يا لِين. أنا ناجية. وأنتِ ناجية. ومعظم سكّان جورجتاون ناجون. وكل أفراد أيكورن كانوا ناجين. لقد تعرّضنا لشتى أنواع المصاعب. كلنا مجروحون. ونحن نتعافى بأفضل ما يمكننا. و، لا، نحن لسنا طبيعيين. لا ينجو الناس الطبيعيون ممّا نجونا منه. لو كنّا طبيعيين لكنّا أمواتاً».

دفعها هذا للبكاء. احتضنتُها. لا شكّ أنّها كبَتَت أكثرَ من طاقتها على التحمّل في السنوات الأخيرة. متى كانت آخر مرّة احتضنَها فيها أحدهم وتركها تبكي؟ عانقتُها. وبعد فترة، استلقَت، وظننتُ أنّها خلدَت للنوم. لكنها تكلمّت.

قالت: «إذا كان الربّ هو التغيير، إذن... من يحبّنا؟ من يهتم بنا؟ من يرعانا؟».

قلتُ: «نحن نرعى بعضنا البعض. نرعى أنفسنا والآخرين». ثم اقتبستُ:

«الطيبةُ تُيسِّر التغييرَ.
والحبُّ يهدّئ الخوفَ»

وهنا، فاجأَتني. قالت: «نعم، لقد أحببتُ هذه الآية»، ثم أكملَتها:

والهاجسُ الإيجابيُّ
الحلو والعارِم
يُسكّن الألم،
ويُصرّف الغيظَ
ويُشركُ كلّاً منّا
في أعظمِ
وأعتى
معاركِنا المُختارة.

ثم قالت: «ولكن ليس عندي أيّ هاجس سواءٌ أكان إيجابياً أم غيره. ليس عندي شيءٌ».

قلتُ: «وماذا عن ألاسكا؟».

قالت: «لا أعرف ماذا أفعل سوى هذا، ولا أعرف إلى أين أذهب سوى إلى هناك».

قلتُ: «إذا وصلتِ إلى هناك، ماذا ستفعلين؟ هل ستعودين إلى كونكِ مدبّرة منزل والديكِ؟».

حدّقَت فيّ. ثم قالت: «لا أعرف ما إذا كانا سيسمحان لي بالعودة. قد لا أتمكّن من عبور الحدود على أيّة حال، لا سيّما مع الحرب. على الأرجح سيطلق حرس الحدود النار عليّ». قالت ذلك بلا خوف، وبلا عاطفة، وبلا أية مشاعر إطلاقاً. كانت تخبرني بطريقة ما أنّها ستقدِم على الانتحار. لم تكن لتقتل نفسها، لكنها ستتّخذ الترتيبات اللازمة ليقتلها الآخرون– لأنها لم تعرف ماذا تفعل سوى ذلك. لأن لا أحد أحبها أو احتاجها في أي شيء إطلاقاً. كان الناس يستغلّونها ثم يتخلّصون منها، من والديها إلى خاطفيها، لم تكن تهمّ أحداً. ولا حتّى نفسها. مع ذلك فقد نجَت بنفسها من الجحيم. فهل كافحَت لتبقى على قيد الحياة على سبيل العادة، أم لأن هناك جزءاً منها لا يزال يأمل في وجود ما يستحق الحياة؟

لا يجبُ السماح لها بالرحيل لكي يقتلها البلطجية، أو حرس الحدود، أو الجنود. لا يمكنني السماح لها بفعل ذلك. وأيضاً، أعتقد

أنّها تُريد أن يمنعها أحد من الذهاب. لن تطلب ذلك من أيّ أحد، وستكافح للحفاظ على طريقتها الخاصة لتدمير الذات. هذا ديدن البشر. ولكن يجب أن أفكّر في ما يمكنها فعله بدلاً من الموت- ما يجب أن تفعله. يجب أن أفكّر في ما يمكنها أن تقدّمه لبذرة الأرض، وما يمكن أن تقدّمه بذرة الأرض لها.

٢٠

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

أأنتَ بذرةُ الأرض؟
هل تؤمنُ؟
لن ينقذَك الإيمانُ.
وحدها الأفعالُ
المُسترشدةُ، المصوَّرةُ
بالإيمانِ والمعرفةِ
ستنقذُكَ.
الإيمانُ
إما يستهلّ الفعلَ ويرشدُ–
أو، لا يفعلُ شيئاً.

التقيتُ خالي مارك عندما بلغت تسعة عشر عاماً من عمري. كان في وقتها هو القسّ المبجّل ماركوس دوران، رجلٌ نحيف

في منتصف العمر، ولا يزال وسيماً، وقد صار أشهر قسّ في اللغتين الإنجليزية والاسبانية في كنيسة أمريكا المسيحيّة. حتّى أنه قد سرت بعض الأقاويل عن ترشّحه لمنصب رئاسة البلاد، لكنه بدا غير مرتاح حيال هذا. ولكن، بحلول ذلك الوقت، كانت الكنيسة مجرّد طائفةٍ بروتستانتية أخرى. لقد مات أندرو ستيل جاريت منذ سنوات، وقد تحوّلت الكنيسة من كونها مؤسسة يعرفها الجميع وإما يحبونها أو يكرهونها أو يخافونها، إلى منظمة صغيرة تقف، بنحو ما، موقفاً دفاعياً، تثار حولها الكثير من الأسئلة مقابل القليل من الأجوبة.

تركتُ المنزل. رغم أن الفتاة التي تترك المنزل وهي غير متزوجة كانت بنظر أعضاء الكنيسة مثل عاهرة تقريباً، لكنني غادرت المنزل ما أن بلغت ثمانية عشر عاماً.

قالت كايسي: «إذا ذهبتِ، لا تعودي. هذا منزلٌ محترم ويخاف الربّ. لا تأتي حاملة قذارتكِ وخطاياكِ إلى هنا!».

حصلتُ على عمل في رعاية الأطفال في منزلٍ مات فيه الأب. تعمّدتُ البحث عن عملٍ لن يضعني تحت رحمة رجل آخر- رجل قد يشبه ماديسون، أو أسوأ من ماديسون. كنت أعمل مقابل السكن والطعام وأجرة زهيدة. اعتقدتُ أن عندي ما يكفيني من الملابس والكتب لتساعدني على قضاء بضع سنوات من العمل هناك، أُقدّم المساعدة في تربية أطفال امرأة تعمل في مجال العلاقات العامة لصالح شركة تجارية زراعية كبيرة. التقيتُ بالأطفال -بنتين وصبيّ- وأحببتهم. اعتقدتُ أنني سأعمل وأدّخر مرتّبي، لكي

يكون عندي ما يكفيني من النقود عندما أُغادر لأبدأ بها عملاً جديداً- ربّما مقهى صغير. لم أعلّق آمالاً عظيمة. كلّ ما أردته هو الابتعاد عن آل ألكسندر اللذين باتا لا يُطاقان يوماً إثر يوم.

لم يكن هناك حبّ في بيت آل ألكسندر. هناك فقط التعوّد على البقاء معاً، وأيضاً، كما أفترضُ، الخوف من وحدة أعظم. وهناك الكنيسة- التعوّد على الكنيسة بدروس الكتاب المقدّس، ومجموعات التبشير الرجالية والنسائية، والأعمال الخيرية، والتدريب على الجوقة. انضممتُ إلى جوقة اليافعين لأهرب من ماديسون. وتبيّن أن الجوقة منحتني العزاء بثلاث نواحٍ. أولاً، اكتشفتُ أنني أحبّ الغناء حقاً. كنتُ خجولة جداً في البداية بحيث كنتُ بالكاد أفتح فمي، ولكن ما أن اعتدتُ على الأغاني، حتّى انغمستُ فيها، وأحببتُها. وثانياً، كان التمرين مع الجوقة عذراً آخر للخروج من المنزل. ثالثاً، كان الغناء في الجوقة طريقة أتجنّب فيها الجلوس إلى جانب ماديسون في الكنيسة. كان طريقة أتجنّب فيها يديه الصغيرتين القذرتين المبللتين بالعرق. كان يتحسس جسدي في الكنيسة. لقد فعل ذلك حقاً. كانت كايسي تجلس في الوسط، كان يذهب إلى حمام الرجال ويعود ليجلس إلى جانبي واضعاً معطفه أو سترته على حجره لكي يخفي يديه اللتين تتحسّسان جسدي.

أعتقدُ أن كايسي أدركَت ما كان يحدث. في الأيام التي سبقَت مغادرتي المنزل، صرنا أنا وهي عدوّتين لدودتين. لم تقل ولا واحدة منّا أيّ شيء بخصوص ماديسون. لكننا قضينا الكثير من الوقت في

كرهِ بعضنا البعض. لم نتبادل الحديث ما لم نكن نُضطر لذلك. قد ينتهي أي حديث لم يمكننا تفاديه بالشجار والصراخ. ثم تشتمني بالقول إنني عاهرة صغيرة، لقيطة جاحدة، ساحرة وثنية... لا أعتقد أنني وإياها قد تبادلنا أي حديث اعتيادي طوال السنة السابعة عشرة من عمري.

عموماً، انضممتُ إلى الجوقة. واكتشفتُ أنني أمتلك صوت ألتو[1] استمتع الناس بسماعه. حتّى أنني اكتشفتُ أن الكنيسة لم تكن بهذا السوء إذا لم أضطر للجلوس بين الشيطان والبحر الأزرق العميق[2].

حاولتُ بسبب الغناء البقاء مع الكنيسة بعدما غادرتُ منزل كايسي وماديسون. حاولت حقاً. ولكني لم أُفلح.

بدأت الشائعاتُ فوراً: كنتُ أمارس الجنس مع عدد من الرجال. كنت حبلى. لقد أجهضتُ. لقد لعنتُ الربّ وانضممتُ إلى أُمّي الحقيقية مع الطائفة الوثنية. لقد نشرتُ الأكاذيب عن ماديسون... توقّف الجميع عن الحديث معي، حتّى الأشخاص الذين كبرتُ معهم، والأشخاص الذين ظننتهم أصدقائي. وراح الرجال الذين لم يكونوا يكترثون بي عندما كنتُ أعيش في المنزل يتقرّبون خلسة مني بدعواتٍ مهموسة ولمسات غير مرغوبة، ثم

(١) Alto Voice: الصوت الأنثوي الذي يتدرج على السلم الموسيقي من F3 إلى F5.

(٢) between the devil and the deep blue sea: يُقال عندما تضطر للاختيار بين أمرين كلاهما شرّ، كأن يُقال: بين نارين أو بين حجري الرحى.

تتعالى أصواتهم بتنديدات غاضبة عندما لا أعطيهم ما يظنون الآن أن من حقّهم الحصول عليه منّي.

لم أستطع تحمّل الأمر. تركتُ الكنيسة بعد بضعة أشهر من مغادرتي المنزل. ولم تمانع ربّة عملي. لم تكن تذهب إلى الكنيسة. لقد تربّت على عقيدة التوحيد، ولكن يبدو أنّها الآن لا تمتلك أيّة اهتمامات دينية. كانت تحبّ قضاء أيام الآحاد مع أطفالها. الأحد هو يوم عطلتي. وما أفعله في هذا اليوم من شأني فقط.

ولكن ما أدهشني، أنني افتقدتُ والديّ بالتبني. افتقدت الكنيسة. افتقدت الحياة التي نشأتُ فيها. افتقدت كلّ شيء. وكنت وحيدة للغاية. كنتُ أقضي أيامي في شقاء. أحياناً أكاد لا أرغب في البقاء على قيد الحياة.

ثم سمعتُ أن القسّ المبجّل ماركوس دوران كان قادماً إلى المدينة، وأنه سيلقي العِظة في الكنيسة الأمريكية المسيحيّة الأولى في سياتل. كانت تلك كنيسة كبيرة، وليست مثل كنيسة حيّنا الصغيرة. عندما قرأتُ أن القس المبجّل دوران كان قادماً، عرفتُ لحظتها أن عليّ الذهاب لرؤيته. عرفتُ أنه قسّ عظيم. كانت عندي أقراصٌ فيها عِظات يلقيها على آلاف الحضور في كاتدرائيات ضخمة تابعة لـ (أ. م) على ساحل الخليج وفي واشنطن العاصمة، وكانت عنده كنيسة كبيرة في نيويورك. كان يافعاً وناجحاً جداً، وكنتُ معجبة به. ربّاه، كم كان وسيماً. لم يكن متزوجاً، على عكس كلّ المبشّرين الذين عرفتهم. لا بدّ أن هذا كان صعباً. لقد طاردَته النساء. وألحّ

عليه القساوسة الآخرون لكي يتزوّج، ويتحمّل مسؤولياته كبالغ، ويتقبّل مسؤوليات أُسرة. نظر الرجال إلى وجهه الوسيم واعتقدوا أنه مثليّ جنسياً. هل كان كذلك؟ لقد سمعتُ شائعات. ولكنّني أعرفُ الناس بطبيعة الشائعات.

خيّمتُ طوال الليل خارج الكنيسة الكبيرة لأضمن أنني سأدخل لحضور القداس. ما أن انتهى عملي ليلة السبت، حتى حملتُ بطانية ملفوفة، وبعض الشطائر، وقنينة ماء، وذهبتُ لأحصل على مكانٍ خارج الكنيسة. لم أكن الوحيدة. بالرغم من أن القداس كان سيُبثّ مجاناً، ولكن عندما وصلتُ هناك وجدتُ عشرات الأشخاص مخيّمين حول الكنيسة. وقد واصل المزيد من الناس القدوم. كان أغلب النائمين في الخارج تلك الليلة نساء وبنات- لا أعني أن أحداً نام حقاً. وكان هنالك بعض الرجال الذين إما كانوا يحاولون التقرّب من النساء أو يبدون كما لو أنهم يأملون في الاقتراب من المبجّل دوران. ولكن لم يحصل أيّ تمادٍ. لقد غنّينا وتحدّثنا وضحكنا. قضيتُ وقتاً رائعاً. كان هؤلاء الأشخاص غرباء عني، لكنني استمتعتُ بوقتي برفقتهم. أحبوا صوتي وأقنعوني بالغناء بمفردي. لا يزال الغناء الفردي صعباً بالنسبة لي، ولكني فعلتُ ذلك في الكنيسة سابقاً، لذا أعدتُ نفسي إلى ذهنية الغناء في الكنيسة. ثم انغمستُ في الغناء، وأخبرَتني وجوه الآخرين أنّهم أحبوا غنائي.

عندها خرجَت امرأة من المنزل الكبير الجميل القريب من الكنيسة وأقبلَت مباشرة نحوي. توقّفتُ عن الغناء، لأنه خطر لي

فجأة أنني كنت أزعج الناس. فقد كان الوقت متأخّراً. وكنا تقريباً نقيم حفلة في الشارع وعلى سلالم الكنيسة. لم يفكّر ولا واحد منا أنّنا ربما كنّا نوقظ الناس النائمين. توقّفتُ عن الغناء في منتصف كلمة وحدّق الجميع بي، ثم حدّقوا بالمرأة المقبلة نحوي. كانت امرأة في منتصف العمر، سوداء ببشرة فاتحة اللون، ووجه منمّش وشعر أحمر، ذات جسم ممتلئ، ترتدي قفطاناً طويلاً أخضر. أقبلَت نحوي مباشرة كما لو أنني الوحيدة في المكان.

سألَتني: «هل اسمكِ آشا ألكسندر؟».

أومأتُ برأسي وقلت: «نعم يا سيدتي. أنا أعتذر على الإزعاج».

وضعَت ظرفاً في يدي وابتسمَت وقالت: «لم تزعجيني يا عزيزتي. صوتكِ جميل. اقرئي الرسالة. أعتقد أنكِ سترغبين في الإجابة عليها».

كُتب في الرسالة: «إذا كان اسمكِ آشا فير ألكسندر، فأنا أرغب في الحديث معكِ. عندي معلومات حول والديك البيولوجيين. ماركوس دوران».

حدّقتُ في وجه المرأة الصهباء وأنا مصدومة، فابتسمَت وقالت: «إذا كنتِ مهتمّة، تعالي معي». ثم استدارَت وعادت تمشي باتجاه منزلها.

لم أكن متأكدة من أنه ينبغي عليّ اللحاق بها.

«ما الخطب؟»، سألَتني إحدى صديقاتي الجديدات. كانت تجلس متدثرة بلحافها على سلالم الكنيسة، وهي تقلّب بنظرها بيني

وبين المرأة الصهباء المغادرة. جميعهم كانوا يقلّبون أنظارهم بيني وبين تلك المرأة.

قلتُ: «لا أعرف. أمورٌ عائلية». ثم هرعتُ للّحاق بالمرأة.

لقد كان هناك، ماركوس دوران، في ذلك المنزل الكبير. كان المنزل يعود لقسّ الكنيسة الأولى. وكانت المرأة الصهباء زوجته. ربّاه! كان القسّ المبجل دوران أوسم بكثير شخصياً ممّا كان يظهر على الأقراص. كان رجلاً رائع المظهر.

«كنتُ أراقبكِ وأصدقاءك وأستمع لغنائك. لقد تعرّفتُ عليكِ. أبواكِ بالتبنّي هما كايسي وماديسون ألكسندر». لم يكن هذا سؤالاً. كان ينظر إليّ كأنه يعرفني، وكأنّه سعيدٌ لرؤيتي صدقاً.

أومأتُ برأسي.

ابتسم ابتسامة حزينة. ثم قال: «أظن أنّ هنالك صلة قرابة تجمعنا. يمكننا أن نجري اختبار جينات لاحقاً للتأكّد إذا أردتِ، ولكني أعتقد أن أمّك هي أختي غير الشقيقة. لقد ماتت هي وأبوك». توقّف برهة، وتطلّع نحوي بنظرة غريبة ملتبسة. وتابع قائلاً: «آسف لإخبارك بهذا. كانا شخصين طيّبين. فكّرتُ أنكِ ينبغي أن تعرفي بشأنهما إذا رغبتِ».

سألته: «هل أنت متأكّد من أنهما ميتان؟».

أومأ برأسه وقال ثانية: «أنا آسف».

فكّرتُ في هذا، ولم أعرف ما شعوري. لقد مات أبواي. طيب،

لقد ظننتُ أنهما ميّتان، بالرغم من خيالاتي. ولكن... ولكن فجأة صار عندي خالٌ. فجأة صار أحد أشهر الرجال في البلاد خالاً لي.

سألني: «هل ترغبين أن أحدّثكِ عن والديكِ؟».

قلتُ: «أجل! أجل من فضلك. أريد أن تقول لي كلّ شيء عنهما».

وهكذا بدأ بإخباري عنهما. حسب ما أتذكّر الآن، لقد تحدّث عن أُمّي عندما كانت فتاة صغيرة عندها أربعة اخوة تعتني بهم، وتحدّث عن الدمار الذي لحق بروبليدو، وتحدّث عن أيكورن. لكنه لم يكذب إلى أن بدأ بالحديث عن أيكورن. قال إن أيكورن كانت مجتمعاً جبليّاً صغيراً- مجتمعاً حقيقياً، وليس حيّ عشوائيات. لكنه لم يقُل شيئاً بخصوص بذرة الأرض، ديانة أيكورن. وتابع قائلاً إن أيكورن قد دُمّرت مثل روبليدو. وقد التقى والداي هناك، وتزوّجا هناك، وقُتلا هناك. وعُثر عليّ وأنا أبكي وسط أنقاض المجتمع.

لم يعرف بما حدث إلّا بعد مرور سنوات، وبحلول ذلك الوقت، كان عندي منزل وأبوان جديدان- منزل أمريكي مسيحيّ صالح، بحسب اعتقاده. كان يتابع أخباري، وكان في نيته أن يتحدّث معي عندما أصبح أكبر في السن، لكي يخبرني عن تاريخي، ولكي يخبرني أنني ما زلتُ أملك فرداً حيّاً من عائلتي البيولوجية.

قال لي: «أنتِ تشبهينها جداً. لا أكاد أصدّق كم تشبهينها. وصوتكِ يشبه صوتها. عندما سمعتكِ تغنّين، توجّب عليّ النهوض من مكاني وإلقاء نظرة».

نظر نحوي بدهشة، ثم أشاح بوجهه عني ومسح دمعة.

أردتُ أن ألمسه، وأواسيه. وكان هذا غريباً، لأنني لم أكن أحبّ لمس الناس. شعرتُ بالوحدة الشديدة طوال حياتي. لم تحبّ كايسي لمس الناس- أو على الأقل لم تحبّ أن تلمسني. كانت تقول إن الجو حارٌّ أو إنّها مشغولة أو تتذرّع بأي شيء. كانت تتصرّف كما لو أنه سيكون من القذارة بنحوٍ ما احتضاني أو تقبيلي. وبالطبع، من القذارة أن تلمسني يدا ماديسون الصغيرتان المبلّلتان بالعرق. لكن هذا الرجل، خالي... خالي!... جعلني أرغب في التواصل معه. لقد صدّقت كلّ شيء أخبرني به. لم يخطر ببالي ألّا أصدّقه. كنتُ منبهرة، ومشوّشة، وشعرتُ بالإطراء، واغرورقَت عيناي بالدموع تقريباً.

توسّلتُ إليه لكي يخبرني بالمزيد عن والديّ. لم أعرف شيئاً عنهما، وكنتُ متعطشة لأيّة معلومة قد يقدّمها لي عنهما. قضى وقتاً طويلاً معي، وهو يجيب عن أسئلتي ويهوّن عليّ. وسمح لي القسّ وزوجته الصهباء بقضاء ما تبقى من الليلة في منزلهما. فجأة، صارت عندي عائلة.

لقد تخبّطَت أُمّي في السنوات الأولى من حياتها، لأنها عرفت من عمرٍ مبكّرٍ ما تُريد فعله، ولكنها لم تعرف كيف تفعل ذلك، فراحت ترتجل فيما تمضي في طريقها. لقد جنّدَت الناس في أيكورن، لأنها ظنّت أنّها تستطيع تحقيق هدفها من خلال خلق مجتمعات تابعة لبذرة الأرض يكبر فيها الأطفال ويتعلّمون «حقائق» بذرة الأرض

ثم يذهبون لتصوير مستقبل البشر طبقاً لهذه «الحقائق». كانت هذه هي محاولتها الأولى لزرع البذور، على حدّ تعبيرها.

لكن حظّها العاثر جعلها تستهلّ عملها في نفس الوقت الذي استهلّ فيه أندرو ستيل جاريت عمله، وكان هو الأقوى، على الأقلّ على الأمد القصير. الشيء الوحيد الذي كان من حسن حظها هو أنه كان أقوى بكثير منها لدرجة أنه لم يتنبه إليها قطّ. لقد دمّر إنجازَها الأول صليبيّو جاريت المتعصبون، الذين يحركهم كأحد أصابع يده، ولكن ما من دليل على الإطلاق على أن جاريت انتبه لها. كانت مجرد نملة داسها بالصدفة.

لو كانت أي شيء أكثر من ذلك، لما كانت ستنجو.

ولكن من المثير للاهتمام رؤيتها وقد ضيّعت على ما يبدو اتجاهها بعد ما حصل لأيكورن، إلى أن عثَرت على بِيلين روس. لقد كتبَت عن رغبتها في إيجادي، ومن بعدها أن تعاود العمل على بذرة الأرض- ولكن كيف ستعاود العمل؟ بتأسيس أيكورن أخرى؟ مجتمع جديد أكثر خفية وتستراً؟

إن أيكورن جديدة ستكون بلا شكّ ضعيفة كسابقتها. فبالإمكان محوها عن وجه الأرض بإشارة واحدة من إصبع السلطة. إذن ما العمل؟ لقد احتاجَت لفكرة مختلفة، وفي الحقيقة كانت عندها فكرةٌ مختلفة. لقد عرفَت أن عليها تعليم معلّمين. لم ينجح جمع العائلات. لذا كان عليها جمع الأشخاص الفرادى، أو على الأقل المستقلّين-

أشخاص يتعلّمون منها، ثم ينتشرون للتبشير والتعليم بوصفهم، حواريّيها في الحقيقة. بدلاً من ذلك، ظلّت تبحث عني عفوياً. لا أعرف ما إذا كان قد بقي الكثير من ذلك البحث باستثناء ردّة الفعل، بحلول الوقت الذي ظهرَت فيه بِيلين روس في الصورة. تساءلتُ ما إذا كانت آليسون غيلكريست -آلي- قد خمّنَت هذا فجمعَتها مع لِين فقط لكي تزعزعها.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الثلاثاء، ١٩ يونيو، ٢٠٣٥

لقد صرنا ثلاثة أشخاص على الطريق، بنحوٍ ما. لقد مررنا بوقتٍ شيّق لكي نصبح ثلاثة، ولستُ مرتاحة تماماً إلى الطريقة التي سَيّرتُ فيها الأمور. لم يكن ما توقعتُه بالضبط، لكنني وجدتُه مثيراً للاهتمام. لقد شددنا الرحال ثانية، نحن شمال بلدة تجارية برّاقة جديدة تدعى هوبارتفيل. اشترينا المؤن من حيٍّ عشوائي يتعذّر تجنبه خارج أسوار بلدة هوبارتفيل. ثم سرنا حول البلدة ومضينا في طريقنا. من الجيد أن نعود للسير ثانية. فقد قضينا ثلاثة أيام في مكان واحد.

حتى قبل ثلاثة أيام، كنّا نسير من دون أن نُقيم علاقاتٍ مستمرّةً على طريق السفر- وهو سلوكٌ غريب بالنسبة لي. عندما سافرتُ مشياً من لوس أنجلوس إلى مقاطعة هومبولت في سنة

٢٠٢٧، كنتُ أجمع الناس وقد كوّنتُ مجتمعاً صغيراً. ظننتُ وقتها أن بذرة الأرض ستولد من خلال مجتمعات صغيرة متعاونة. وحالما تأسّسَت أيكورن، دعوتُ آخرين للانضمام إلينا. هذه المرة، لم أشعر أنني أستطيع دعوة أي شخص باستثناء لِين.

لأنني في نهاية المطاف كنتُ هذه المرة في طريقي إلى بورتلاند فقط للبحث عن ابنتي وإرغام أخي على مساعدتي في العثور عليها سواء أكان يرغب في ذلك أم لا.

وهل كان هذا هدفاً واقعياً أكثر من نيّة لِين على المسير إلى ألاسكا والالتحاق بعائلتها؟ ربما لم يكن هدفاً انتحارياً بنفس القدر، ولكن... لم يكن أكثر عقلانية.

إن ما منعني من التواصل مع الناس هو قلقي وخوفي من أن هذا ربما يكون صحيحاً. لقد أطعمتُ بضعة مجموعات مُتعَبة مكوّنة من أطفال وأهاليهم، لأنه يصعُب عليّ رؤية أطفال جائعين من دون أن أفعل شيئاً إطلاقاً. مع ذلك لم أستطِع فعل الكثير. ففي النهاية، ما جدوى وجبة طعام؟ لقد فعلتُ أكثر من هذا في أيكورن. وأملتُ أن أفعل المزيد مع بذرة الأرض. ما زال الأمل يحدوني... لأن أفعل أكثر. حتّى خلال السبعة عشر شهراً التي قضيتُها في المعسكر المسيحيّ، لم أنسَ بذرة الأرض قط، بالرغم من أنه مرّت أوقات ظننتُ فيها أنني لن أنجو لأعلّمها للآخرين أو أستخدمها لتصوير مستقبلنا.

ولكن كلّ ما تمكّنتُ من فعله في هذه الرحلة هو إطعام طفل

وأمّه هنا، وطفل وأبيه هناك، ثم أتركهم يمضون في طريقهم. ولم يرغبوا دائماً في الذهاب.

«كيف تعرفين أنهم لن يكمنوا لنا ويسرقونا لاحقاً؟». سألَتني لِين ونحن نمشي على الطريق السريع (I-5) بعدما تركنا خلفنا أباً وطفليه الصغيرين الهزيلين وهم يأكلون ما أظن أنه أول وجبة طعام جيدة منذ فترة طويلة.

قلتُ: «لا أعرف. هذا غير مرجّح، ولكن قد يحدث».

قالت: «إذن لماذا المجازفة؟».

نظرتُ إليها. التقَت عيناها بعينيّ للحظة، ثم أشاحت النظر. وقالت بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «أعرف. ولكن ما جدوى وجبة طعام؟ أعني، سرعان ما سيجوعون ثانية».

قلتُ: «نعم، سيكون من السهل الإطاحة بجاريت إذا أولى نصف اهتمامه بأجسام وعقول الأطفال بقدر ما يتظاهر بالاهتمام بأرواحهم».

قالت: «لقد صوّت أبي لصالحه».

قلتُ: «هذا لا يفاجئني».

قالت: «قال أبي إن جاريت سيُعيد النظام والاستقرار، وينهض بالبلد. أتذكّر ذلك. أقنع أُمّي بالتصويت له أيضاً، ولا يعني هذا أنّها كانت مهتمّة أصلاً. كانت ستصوّت لصالح الرجل الذي «يظهر وجهه على القمر» إذا طلب أبي منها ذلك، فقط لكي يدعها

وشأنها. كنتُ لا أزال أعيش في المنزل خلال انتخابات سنة ٢٠٣٢. لم أخرج خارج أسوارنا قطّ. ظننتُ أن أبي كان يعرف عما يتحدّث، لذلك صوّتُّ لصالح جاريت أيضاً. لكنني لم أبلغ سن التصويت، لذلك لم يهمّ الأمر. صوّت كلّ الخدم البالغين لصالحه أيضاً. وقف أبي بجانب الهاتف الوحيد في المنزل المسموح للخدم باستخدامه. وراقبهم فيما يتمّ مسح بصمات أصابعهم وشبكيات عيونهم. ثم راقبهم وهم يصوّتون».

قلتُ: «أتساءل ما إذا كان اختطافكِ هو السبب الذي دفع والدكِ للتخلي عن جاريت».

قالت: «يتخلى عنه؟».

قلتُ: «يتخلّى عنه وعن الولايات المتحدة. فقد غادر البلاد في نهاية المطاف».

أومأَت بعد لحظة ثم قالت: «نعم. بالرغم من أنني ما زلتُ أجد صعوبة في التفكير في ألاسكا كدولة أجنبية. أعتقد أن هذا سيكون سهلاً الآن، بعد الحرب. ولكن هذا لا يهمّ. لا شيء من هذا يهمّ. أعني، هؤلاء الناس -الرجل الذي أطعمتِه للتو مع أطفاله- إنهم مهمّون، ولكن لا أحد يهتم بهم. هؤلاء الأطفال هم المستقبل، هذا ما لم يتضوروا جوعاً إلى أن يموتوا. ولكن أي نوعٍ من الرجال سيكونون إذا كبروا؟».

قلتُ: «هذا هو جوهر بذرة الأرض. أردتُ أن نفهم ما يمكننا

أن نصبحه، وما يمكننا أن نفعله. أردتُ أن أمنحنا وجهة، غاية، شيئاً كبيراً بما يكفي، ومعقّداً بما يكفي، وصعباً بما يكفي، وفي النهاية، جذرياً بما يكفي لنصبح أزيد ممّا نحن عليه. نحن نواصل السقوط في نفس الحفرة، هل تفهمين؟ أعني، نحن نتعلّم المزيد والمزيد عن الكون المادي، والمزيد عن أجسادنا، والمزيد عن التكنولوجيا، ولكن بطريقة ما، عبر التاريخ، نحن نستمرّ في بناء إمبراطورياتٍ من شتّى الأنواع، ثم ندمّرها بطريقة أو بأخرى. نحن نستمر بخوض حروب غبية نبرّرها، ونتحمّس لها، ولكن في النهاية، كلّ ما تفعله هو أنها تقتل أعداداً هائلة من البشر، وتشوّه الآخرين، وتُفقِر الكثيرين، وتنشر الأمراض والجوع، وتمهّد السبيل لحرب أخرى. وعندما نلقي نظرة على التاريخ ونرى كلّ ذلك، نكتفي بنفض أكتافنا بلا اهتمام ونقول، حسناً، هكذا تجري الأمور. لطالما جرت الأمور بهذه الطريقة».

قالت لِين: «بالفعل».

كرّرتُ: «بالفعل. يبدو أن هناك أسباباً بيولوجية قويّة تفسّر لماذا نحن على هذه الشاكلة. لأنه إذا لم توجد تلك الأسباب، لما تابعت الحلقات تكرار نفسها. الجنس البشري نوع من أنواع الحيوانات بالطبع. ولكن بوسعنا فعل شيء لم تملك أيّة فصيلة حيوانية القدرة على فعله. يمكننا الاختيار: يمكننا الاستمرار في البناء والتدمير إلى أن ندمّر أنفسنا أو ندمّر قابلية عالمنا على احتوائنا. أو يمكننا أن نصنع من أنفسنا شيئاً أكبر. يمكننا أن نكبر. يمكننا مغادرة العشّ. يمكننا

تحقيق المصير، وأن نبني لأنفسنا دياراً بين النجوم، ونغدو مزيجاً يجمع بين ما نريد أن نكونه وبين ما تتحدّانا بيئاتنا الجديدة أن نكونه. ستُعيد عوالمنا الجديدة تشكيلنا فيما نحن نعيد تشكيلها. وسيطوّر الناس الجدد الذين سينبثقون من كلّ هذا طرقاً جديداً للتكيّف. يجب عليهم ذلك. هذا ما سيكسر الحلقة القديمة، حتّى وإن كان ذلك فقط من أجل بدء حلقة جديدة مختلفة.

إن جوهر بذرة الأرض هو التهيئة لتحقيق المصير. وعن تعلّم العيش في شراكة مع بعضنا البعض في المجتمعات الصغيرة، وفي نفس الوقت، تحقيق شراكة مستدامة مع بيئتنا. والتعامل مع التعليم والقدرة على التكيّف باعتبارهما ضروريات مطلقة، مثلما يفترض بهما أن تكونا. إنّها عن...». ثم نظرتُ إلى لِين، ورأيتُ ابتسامة صغيرة على وجهها، فانتهيتُ بالقول: «إنها عن أكثر بكثير من ذلك. ولكن هذهِ هي الخطوط العريضة».

قالت: «يا لها من عِظة غريبة».

قلتُ: «أعرف».

قالت: «يجب أن تفعلي ما يفعله جاريت».

«ماذا!»، سألتُ باعتراض لأنني لا أريد فعل أي شيء يفعله جاريت.

قالت: «عليكِ التركيز على ما يُريده الناس، أخبريهم أن نظامك سيساعدهم على بلوغ ما يريدونه. احكي قصصاً شعبية من شأنها

أن توضّح مقاصدك، وعِديهم بالقمر والنجوم- في حالتكِ حرفياً. ولماذا يريد أي أحدٍ الذهاب إلى النجوم على أيّة حال؟ هذا سيكلّف الكثير من المال والوقت. وسيجبرنا على خلق تكنولوجيات جديدة بالكامل. وأشكّ أن أي شخص عاش أثناء بداية المسعى سيطول به العمر ليرى النتائج. قد يحبّ بعض العلماء ذلك. سيعطيهم فرصة للعمل على مشاريعهم الأثيرة. وسيرى بعض الناس أنّها مغامرة رائعة. ولكن لا أحد سيدفع المال مقابل ذلك».

ابتسمتُ الآن. وقلت: «بالضبط. قلتُ نفس الشيء طوال سنوات. قد يرغب بعض الناس في القيام بذلك من أجل أطفالهم- ليمنحوهم فرصة لبدايةٍ جديدة للقيام بالأمور على النحو الصائب هذه المرة. لكن هذه الفكرة وحدها لن تكفي. لن تستقدم ما يكفي من الناس أو المال أو المثابرة. إن تحقيق المصير هو عبارة عن مشروع؛ أو بالأحرى مئات أو ربما آلاف المشاريع، طويلة الأمد، ومكلفة، وغير مؤكّدة. وما من ضمانات على أي شيء. من ناحية أخرى، فأن السياسيين مفكّرون على المدى القصير، وانتهازيون، أحياناً يملكون ضمائر، ومع ذلك انتهازيون. أما رجال الأعمال فمتعطّشون للربح، سواء أكان على المدى البعيد أو القريب. في الحقيقة، إن الاستعداد للسفر إلى النجوم وإرسال سفنٍ محمّلة بالمستعمرين هو عملٌ سيكون حتماً طويلاً جداً، وغير ممدوح، ومكلفاً، وصعباً، لدرجة أنني أعتقد أن الدين وحده هو القادر على القيام به. سيجد الكثيرون طرقاً لربح المال منه. ومن شأن هذا أن يحرّك العجلة. ولكن سيتطلّب الأمر شيئاً

بشرياً في جوهره بقدر ما هو غير عقلاني في الأساس كالدين لكي يحافظ على تركيزهم ويحافظ على استمراريته جيلاً بعد جيل، إذا تطلّب الأمر. وأعتقد أنه سيتطلّب ذلك. لقد فكّرتُ بهذا، كما ترين».

فكّرَت لِين بهذا لوهلة ثم قالت: «إذا كان هذا ما تؤمنين به، فلماذا لا تخبرين الناس أن يذهبوا إلى النجوم لأن الربّ يريد منهم ذلك- ولا تقولي لي إن ربك لا يريد شيئاً. أنا أفهم ذلك. لكن معظم الناس لن يفهموا».

قلت: «لقد فهم الناس في أيكورن هذا».

قالت: «وأين هم الآن؟».

لقد آلمني هذا كصفعة على الوجه. قلتُ: «لا أحد يعرف أكثر منّي مدى فظاعة خذلاني لجماعتي».

أشاحت لين بوجهها في خجل ثم قالت: «لم أقصد ذلك. أنا آسفة. أقصد إن ما تقولينه ليس شيئاً سيفهمه الناس ويتحمّسون له- أو على الأقل لن يحدث ذلك بسرعة. هل انضم الناس إلى أيكورن من أجل بذرة الأرض أم على أمل إطعام أولادهم؟».

تنهّدتُ وأومأتُ. ثم قلت: «لقد انضموا لإطعام أولادهم، والعيش في مجتمع لن ينظر لهم باحتقار لأنهم فقراء أو لن يستعبدهم لأنهم ضعفاء. استغرق بعض البالغين سنوات لكي يتقبّلوا بذرة الأرض. أما الأطفال فقد تقبّلوها على الفور. فكّرتُ أن الأطفال سيكونون هم المعلّمين المبشّرين».

قالت: «ربما كانوا سيصبحون كذلك. لو سنحت لهم الفرصة. ولكن هذه الطريقة لم تنجح. فماذا أنتِ فاعلةٌ الآن؟».

قلتُ: «بوجود صليبيّي جاريت المنفلتين؟ لا أعرف». لم يكن هذا صحيحاً تماماً. كانت عندي بعض الأفكار، ولكني أردتُ أن أعرف ما بجعبة لِين من أفكار. لقد برهنَت أنّها مثيرةٌ للاهتمام وحصيفةٌ لحدّ الآن.

قالت: «أنتِ تجيدين الحديث مع الناس. إنهم يحبونكِ. بل، يثقون بكِ. لماذا لا تبشّرين كأي قسّ؟ بشّري على طريقة جاريت. هل سمعتِ خطاباته؟ معظمها عبارة عن عِظات دينية. يواجه الصحفيون صعوبة كبيرة في معارضة أي شيء يريده لأنه يقف في صف الرب. خمّني في صف مَن يضعهم ذلك؟».

قلتُ: «أتظنين أنه يجدر بي القيام بذلك؟».

قالت: «بالطبع يجدر بكِ القيام بذلك إذا كنتِ تؤمنين بما تقولينه».

قلتُ: «لستُ ديماغوجية».

قالت: «هذا مؤسف جداً. لأن هذا يترك الساحة خالية للديماغوجيين- أمثال جاريت في العالم. ولطالما كان هناك من أمثال جاريت. وربما سيبقون دائماً».

مشينا في صمتٍ لفترة. ثم قلتُ: «وماذا عنكِ؟».

قالت: «ماذا تقصدين؟ أنتِ تعرفين إلى أين أنا ذاهبة».

قلتُ: «ابقي معي. أو اذهبي إلى مكان آخر».

قالت: «أنتِ ذاهبة إلى أوريغون لرؤية أخيكِ والعثور على ابنتكِ».

قلتُ: «نعم. وأيضاً سأجعل من بذرة الأرض ما يُفترض بها أن تكون عليه- الطريقة التي ستتمكّن بها نحن البشر من النضوج أخيراً».

قالت: «هل في نيتك المحاولة ثانية؟».

قلتُ: «لا أملك خياراً آخر حقاً. ليست بذرة الأرض شيئاً أؤمن بهِ فقط. إنّها هويتي. إنّها سبب وجودي».

قالت: «قلتِ في كتابكِ إننا لا نملك غاية، بل قوّة كامنة».

ابتسمتُ. إنّها تمتلك ذاكرة فوتوغرافية أو ما يقرب من ذلك. لكنها لم تتوانَ عن استخدامها دون وجه حق لتفوز بالجدال. اقتبستُ:

«نحنُ لا نولدُ من أجلِ غايةٍ

بل مع قوّةٍ كامنةٍ».

قلتُ: «نحن نختار غايتنا. لقد اخترتُ غايتي قبل أن أبلغ من العمر ما يكفي لأفقه- أو هي التي اختارتني. الغاية أساسية. لأننا نضيع من دونها».

اقتبسَت بشيء من التباهي:

الغايةُ

توحّدُنا:

إنها تصوّبُ أحلامَنا،

وتوجّهُ خططَنا،

وتعزّزُ مساعينا.

الغايةُ،

تُعرّفُنا،

تُصوّرُنا،

وتهبُنا

العَظَمةَ.

ثم تنهّدَت وقالت: «يبدو هذا رائعاً. ولكن مع ذلك هنالك الكثير من الأشياء التي تبدو رائعة. فماذا ستفعلين؟».

قلتُ: «أنا لستُ جاريت. ولكنكِ على الأرجح محقّة فيما يتعلّق بضرورة تبسيط وتوجيه رسالتي. يمكنكِ مساعدتي في فعل هذا».

قالت: «لماذا؟».

قلتُ: «لأنه سيُبقيك على قيد الحياة».

أشاحَت بنظرها ثانية. وبعد فترة طويلة من الصمت، قالت بمرارة بالغة: «وماذا يدفعُكِ للظنّ أنني أريد البقاء على قيد الحياة؟».

قلتُ: «أعرف أنكِ تريدين. ولكن إذا بقيتِ معي، سيتوجّب عليك إثبات ذلك».

قالت: «ماذا؟».

قلتُ: «في الحقيقة، إذا بقيتِ معي، ستبذلين قصارى جهدكِ للبقاء على قيد الحياة. لن تصبح أفكار بذرة الأرض شائعة عمّا قريب. لن يحبها جاريت إذا عرف بشأنها».

قالت: «إذا كان عندكِ عقل، لن تُلفتي الانتباه إلى نفسك. ليس الآن».

قلتُ: «لا أعتزم جذب جماهيرٍ غفيرة ولا أعتزم الظهور في الشبكات. ليس قبل أن يصبح جاريت غير مرحّب به على أيّة حال. لكنني أعتزم التواصل مع الناس ثانية».

قالت: «كيف؟».

وعرفتُ. كنتُ أتساءل فيما نتحدّث، وأبحث عن أفكار. لقد ساعدتني تعليقات لِين على التركيز. مثلما ساعدَتني تجربتي الأخيرة. فقلتُ: «سأتواصل مع الناس في منازلهم. المبشّرون الذين يقرعون الأبواب ليسوا بالأمر الجديد في مدنٍ صغيرة مثل يوريكا على سبيل المثال. لا يمكن القيام بذلك في لوس أنجلوس. وربما لن يمكننا القيام بذلك في بورتلاند أيضاً. لقد أصبحَت بورتلاند مدينة كبيرة جداً. ولكن قد ينجح الأمر في طريقنا إلى هناك، وفي البلدات الكبيرة حول بورتلاند. في المدن الصغيرة والبلدات الكبيرة. لأن الناس في المدن الكبيرة جداً والبلدات الصغيرة جداً قد يكونون -أو سيكونون- مُرتابين وشرسين».

قالت لِين: «البلداتُ الحرّة فقط، كما أفترضُ».

قلت: «بالتأكيد. إذا تمكّنتُ من دخول بلدة تجارية، قد يُحكم عليّ بلبس الطوق بتهمة التشرّد. قد يكون حكماً مؤبّداً. إنهم يتقاضون منك مقابل المعيشة أكثر ممّا يدفعون لك مقابل عملك، وبالتالي لن يتخلّص المرء من الدَين أبداً».

قالت: «هكذا سمعتُ. هل تريدين طرق أبواب الناس لتخبريهم عن بذرة الأرض؟ سمعتُ أن شهود يهوه يقومون بذلك. أو كانوا سابقاً. ولا أعرف ما إذا ما زالوا مستمرّين في هذا».

قلتُ: «لقد اشتدّت خطورة الأمر. ولكن هناك آخرين قاموا بذلك أيضاً. مثل المورمونيين وجماعات أخرى أقلّ شهرة».

قالت: «جماعات مسيحيّة».

قلت: «أعلم». وفكّرتُ للحظة ثم تابعتُ: «هل تعلمين أنني كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما بدأتُ بجمع الناس وتأسيس أيكورن؟ ثمانية عشر عاماً فقط. أصغر منكِ بسنة».

قالت: «أعلم. أخبرَتني آلي».

تابعتُ: «ومع ذلك اتّبعني الناس. ولم يفعلوا ذلك فقط لأنهم اقتنعوا بأنني سأساعدهم في الحصول على ما يريدونه. لقد اتّبعوني لأنني كنت أسعى نحو مكانٍ ما. لم يكن عندهم هدف أبعد من النجاة، والحصول على عمل وطعام وغرفة. أن يعيشوا. ولكنني أردتُ ما هو أزيد من ذلك لنفسي ولجماعتي، واعتزمتُ الحصول

على ذلك. وأرادوا المزيد أيضاً، ولكنهم لم يعتقدوا أن بوسعهم الحصول على ذلك. لم يعرفوا حتّى ما «ذلك» الذي أرادوه».

تمتمَت لِين: «يا لروعتكِ!».

قلتُ: «لا تكوني حمقاء. كان هؤلاء الناس على استعداد لاتباع فتاة في الثامنة عشرة من العمر لأنها بدت وكأنها تسعى لمكانٍ ما، وبدت كأنها على علم إلى أين تتجه. انتخب الناس جاريت لأنه بدا وكأنه على علمٍ إلى أين يتّجه أيضاً. حتّى الأثرياء من أمثال أبيك كانوا مستميتين لإيجاد أي أحد يعرف إلى أين هو متّجه».

قالت: «لقد أراد أبي شخصاً يحمي استثماراته ويُلزِم الفقراء أماكنهم».

قلتُ: «وعندما أدرك أبوكِ أن جاريت لن يستطيع أو لن يرغب في القيام بأيّ من الأمرين، ترك البلد. سيتخلّى آخرون عن جاريت أيضاً، ولكن بطرقٍ مختلفة. ولكنهم سيظلّون يريدون اتّباع أشخاص يبدون على علمٍ بوجهتهم».

قالت: «أنتِ؟».

تنهدتُ، وقلتُ: «ربما. ولكن على الأرجح سيكونون أشخاصاً علّمتهم. لا أمتلك بالفعل المهارات المطلوبة. وأيضاً، لا أعرف كم سيستغرق الأمر حتّى تصبح بذرة الأرض طريقة للحياة، ويصبح المصير هدفاً تكافح البشرية لتحقيقه. أخشى أن هذا وحده سيستغرق حياتي وحياتكِ. لن يكون سريعاً. لكننا، أنا وأنتِ، سنزرع أول بذرة».

أزاحت لِين شعرها الأسود عن وجهها. وقالت: «لا أؤمن ببذرة الأرض. لا أؤمن بأيّ من هذا. إنّها مجرد تفاهات ساذجة. ستلقين حتفكِ بقرعكِ أبواب الغرباء، وسينتهي الأمر».

قلتُ: «هذا محتمل».

قالت: «لا أريد أن أكون جزءاً من هذا».

قلتُ: «بلى، أنتِ تريدين. إذا عشتِ فستنجزين ما هو أخير وأهم من أي أحدٍ عرفتِه في حياتكِ. وإذا متِّ، ستموتين وأنتِ تحاولين إنجاز ذلك».

قالت: «قلتُ لكِ إنني لن أكون جزءاً من هذا. هذا سخفٌ. هذا مستحيل».

قلتُ: «وهل أمامكِ أشياء أهم لتفعليها؟».

ساد الصمت.

لم نتحدّث ثانية إلى أن وصلنا إلى طريق يؤدي إلى التلال. استدرتُ لأسلكَها، متجاهلة أسئلة لِين. إلى أين كنتُ ذاهبة؟ لم أعرف إطلاقاً. ربما سألقي نظرة فقط على ما يوجد في نهاية الطريق، ثم أعود أدراجي على الطريق السريع. أو ربما لن أعود أدراجي.

كان هناك منزل كبير بطابقين مشيّد من الخشب مخفيّ بين التلال بعيداً عن الطريق. كان بحاجة ماسة إلى الدهان. كان أبيض اللون يوماً ما. والآن هو رمادي. كانت هناك امرأة على جانب المنزل تجزّ العشب الضار من حديقتها الكبيرة. تابعتُ طريقي من دون أن

أخبر لِين بما أنوي فعله وتوجّهت نحو المرأة وسألتها ما إذا كانت تسمح لنا بجزّ العشب الضار من حديقتها مقابل وجبة طعام.

قلتُ لها: «سنُحسن العمل. وسنرضيكِ. وإلا لا طعام».

حدّقَت فينا كلينا بخوف وريبة. بدت وحيدة، ولكن ربما لم تكن كذلك. كان من الواضح أنّنا نحمل السلاح، ولكننا لم نشكّل أي تهديد. ابتسمتُ وقلتُ لها: «بضعة شطائر ستكون موضع ترحيبٍ شديد. وسنعمل بجهدٍ مقابلها». كنتُ أرتدي ملابس رجالية فضفاضة. وقصصتُ شعري قصيراً. أخبرتني لِين أنني أبدو كرجل حسن الهيئة. وكنّا نظيفتين لحدٍ معقول.

ابتسمَت المرأة بالرغم من نفسها ابتسامة صغيرة حذِرة. وسألتني: «هل تعتقد أن بوسعكَ تمييز الأعشاب الضارة من الخضروات؟».

ضحكتُ وقلت: «نعم يا سيدتي». وفكّرتُ حتّى وأنا مغمضة العينين. لكن لِين شكّلت قضية أخرى. لأنها لم تقُم طوال حياتها بأي عمل من أعمال البستنة إطلاقاً. لقد استأجر أبوها أشخاصاً للعمل في حدائقهم وبساتينهم. كانت يداها نحيفتين ناعمتين لم تخشوشنا بالعمل وليست عندها أيّة معرفة بالنباتات. أخبرتُها أن تراقبني أعمل لفترة. أشرتُ للجَزَر، والخضروات المنوّعة، والأعشاب، ثم علّمتها جزّ العشب الضار على يديها وركبتيها. لأنها بهذه الطريقة ستكون أكثر سيطرة على النباتات التي تنتزعها من الأرض. اعتمدتُ على ذاكرتها وحسّها السليم. وإذا كانت غاضبة مني، ستحرص على إعلامي بذلك لاحقاً. لأنه لم يكن من أسلوبها

إطلاق العنان لغضبها على الملأ. في الحقيقة، كان عندنا الكثير من الطعام في حقيبتينا، ولم نكن بحاجة إلى المال بعد. لكنني أردتُ أن نبدأ في التواصل مع الناس على الفور. ما الذي يمنعنا من أن نتوقف ليوم واحد في طريقنا إلى بورتلاند ونترك خلفنا بضع كلمات في هذا المنزل الرمادي القديم؟ سيكون هذا تمريناً جيداً على الأقل.

عملنا بجدٍ ونظّفنا الحديقة. تمتمَت لِين وتذمّرت، ولكنها لم تخلّف عندي انطباعاً بأنها كانت تعاني حقاً. في الحقيقة، بدت مهتمّة في ما تفعله وراضية بفعله، بالرغم من أنّها اشتكت من الحشرات والديدان، ومن رائحة الأعشاب، ومن رائحة الأرض الرطبة، ومن تعرّضها للأوساخ...

أدركتُ أن لِين لم تتحدّث قطّ عن قيامها بأي عمل، بالرغم من أنّها تحدّثت عن تجاربها مع عائلتها ومع الخدم، وعن تجاربها مع المختطفين والعيش بمفردها، وعن قيامها بالنبش والسرقة. لا بدّ من أنّها قامت بأعمال صغيرة مقابل الطعام، ولكن يبدو أن العمل لا يزال أمراً جديداً بالنسبة لها. يجب أن أحرص على أن تكتسب المزيد من الخبرة في العمل بحيث حتّى إذا قررَت السفر بمفردها فستستطيع العناية بنفسها.

في وقت لاحق من اليوم، وبعد ان انتهينا من العمل في الحديقة، أعطتنا المرأة -التي قالت إن اسمها هو نِيّا كورتيز- صحناً فيه ثلاثة أنواع من الشطائر؛ بيض، وجبن محمّص، ولحم خنزير. وهناك أيضاً صحن من الفراولة، وصحن من البرتقال، وإبريق من شراب

الليمون المُحلّى بالعسل. جلست نِيّا برفقتنا على شرفتها، وأعطتني انطباعاً أنّها وحيدة، وخجولة، ولا تزال خائفة بعض الشيء منا. يا له من مكان موحش، ذلك المنزل القديم، المخبوء وسط التلال المعشوشبة.

قلتُ: «يا له من ريف جميل. أنا أمارس الرسم أحياناً. هذه التلال المنحدرة، والأعشاب الشقر، والأشجار الخضر، تجعلني أرغب بالجلوس والرسم طوال اليوم».

سألتني نِيّا بابتسامة صغيرة: «هل ترسم حقاً؟».

فأخرجتُ دفتر الرسم من حقيبتي وشرعتُ بالرسم. لم أرسم التلال المنحدرة بل رسمتُ وجه نِيّا الممتلئ اللطيف. كانت في أواخر الأربعينات أو بداية الخمسينات من العمر، وتمتلك شعراً بنّياً غامقاً مجزّعاً بالشيب. كان شعرها ملموماً على هيئة ذيل حصان طويل وكثيف، يتدلى إلى خصرها تقريباً. لقد ساعدَتها سمنتها على تفادي التجاعيد، وقد سفعت الشمس بشرتها الملساء بلونٍ بُنيّ جميل متناسق- وجه جميل غير معقّد. كانت عيناها صافيتين كصفاء عيني طفل، وملوّنتين بنفس لون شعرها البُنّي الغامق. يمنحني رسم الناس عذراً ممتازاً لدراستهم، لكي أدعُ نفسي تستشعر الإحساس الذي يبدو لي أنهم يشعرون به. هذا هو التقمّص في نهاية المطاف، وهو يراودني سواء أرغبتُ بهِ أم لم أرغب. لذا من الأفضل أن أستفيد منه. إن رسم شخص ما يساعدني، بنحوٍ ما وبطريقة لا يُعول عليها تماماً، على أن أصبح

ذلك الشخص، وبصراحة، يساعدني في التلاعب بذلك الشخص. نحن نتعلّم من كلّ شيء.

لقد كانت امرأة وحيدة، أعني نِيّا. وبدأَت تُبدي اهتماماً غير مريح نحوي بصفتي رجلاً. ولكي ألجم هذا الاهتمام، التفتُّ نحو لِين، التي كانت تراقب ما يحدث باهتمامٍ حادٍّ وذكي.

سألتُها: «هلا لففتِ شطيرتين من أجلي؟ أرغب بإنهاء الرسم طالما الضوءُ مناسب».

رمقتني لِين بنظرة جانبية، واستخدمَت مناديل ورقية لفّت فيها شطيرتين. أما نِيّا فقد نظرت إلى لِين وكأنها قد نستها تقريباً. ثم، وفي لحظة ارتباك، نظرت إلى يديها- أداتي العمل، تلكما اليدان. وبدت أكثر تحفّظاً، وأكثر تقيّداً عندما نظرَت نحوي ثانية.

لم أتعجّل في الرسم. وقد كان بإمكاني الانتهاء منه أسرع من ذلك بكثير. لكن العمل عليه، وإضفاء التفاصيل، منحني فرصة للحديث عن بذرة الأرض من دون أن أبدو كداعية. اقتبستُ الآيات كأنني أتلو أمامها شعراً ما إلى أن لفتَت انتباهها إحدى الآيات. لم يكن بوسعها إخفاء ذلك عني. إنصافاً لها، كانت هذه الآية:

كي تصوّر الربَّ
بالحكمةِ والتدبّرِ،
وكي تنفعَ عالَمَك

وأهلَكَ
وحياتَكَ
ضع في حسبانِكَ العواقبَ
قلّل الضررَ
اطرح الأسئلةَ
ابحث عن الأجوبةِ
تعلَّمْ
وعلِّمْ.

كانت ذات يوم معلّمة في مدرسة حكومية في سان فرانسيسكو. وقد أُغلقت المدرسة بعد مرور خمسة عشر عاماً منذ بدأت بالتدريس. كان هذا في بداية العشرينيات بعدما أسلمَت الروح وأغلقت الأبواب أعداد كبيرة من المدارس الحكومية في أرجاء البلاد. انتهى حتّى التظاهر بوجود شعب متعلّم. هزّ السياسيون رؤوسهم وقالوا من المؤسف أن التعليم العام تجربة فاشلة. بدأت بعض الشركات بتعليم أطفال عُمّالها على الأقل بالقدر الكافي لتمكينهم من أن يصبحوا الجيل القادم من عمّالهم. ثم عادت المدن التجارية إلى الواجهة. وقدّمت الأمان، والعمل، والتعليم. كان هذا حسناً، ولكن الشركة التي تعلّمك تمتلكك إلى أن تسدّد الدَين المستحقّ عليك. أنت شخص تعمل بالسخرة، وإذا لم تستفد منك الشركة، فستقايضك مع فرع آخر من الشركة- أو مع شركة أخرى. أنت، مثلك مثل تعليمك، تصبح سلعة للبيع أو الشراء.

لا تزال هناك بضع مدارس حكومية في البلاد، تتقدّم ببطء، وتفعل ما بوسعها، ولكن بينها وبين سجون المدينة قواسم مشتركة أكثر من تلك التي بينها وبين المدارس الخاصة أو الدينية أو التابعة للشركات، حتّى ذات المستوى دون المتوسط. لذا وقعَت على عاتق الآباء الذين يتحلّون بالمسؤولية مهمةُ الحرص على تعليم أطفالهم بطريقة أو بأخرى. أولئك الآباء الذين لم يكونوا سيئين. كان من المؤمّل، عاجلاً أم آجلاً، أن الضغوط الاجتماعية والقانونية والدينية ستُجبر حتّى الآباء السيئين على القيام بواجبهم تجاه ذريتهم.

قالت نِيّا: «وهكذا، صار الناس الفقراء الأمّيون أو شبه الأمّيين مسؤولين مالياً عن التعليم الابتدائي لأطفالهم. أما إذا كانوا مدمنين على الكحول أو المخدرات أو يعملون في الدعارة أو إذا أنفقوا كلّ ما عندهم فقط لإطعام أطفالهم وربما الحفاظ على سقف فوق رؤوسهم، فهذا مؤسف جداً! ولم يفكّر أحدٌ أي نوع من المجتمعات سنبني باتخاذ هذه القرارات الغبية. وقد سعد الناس الذين استطاعوا تحمّل كلفة تعليم أطفالهم في المدارس الخاصة برؤية الحكومة وقد توقّفت أخيراً عن إهدار أموال ضرائبهم بتعليم أبناء الآخرين. بدا أنهم يعتقدون أنهم يعيشون في المريخ. لأنهم تخيّلوا أن البلد الذي يعجّ بالفقراء وغير المتعلّمين والعاطلين عن العمل لن يؤذيهم!».

تنهّدَت لِين وقالت: «هذا يشبه طريقة تفكير أبي. أفترضُ أنني عقابه- ولا يعني هذا أنه كان مهتماً!».

رمقتها نِيّا بنظرة تدلّ على اهتمام بارد: «ماذا؟ أبوكِ؟».

شرحَت لِين، وراقبتُ فيما تحررت نِيّا من جمودها رغماً عن نفسها تقريباً. ثم تنهّدت وقالت: «فهمتُ. أفترض أنه كان سينتهي بي المطاف مشرّدة أنا أيضاً، لكن خالتي وخالي كانا يمتلكان هذا المنزل والأرض الزراعية المحيطة به. هذا منزل عائلة أمي. أتيتُ للعيش هنا ورعايتهما عندما انتهت وظيفتي. كانا مسنّين ومعتلّين. ولكن حتّى وهُما على تلك الحال كانا يؤجران الأرض إلى المزارعين المجاورين. وبعد أن ماتا تركا لي المنزل والأرض وبقية الممتلكات. عندي حديقة خضروات، وبعض الدجاج والماعز والأرانب. وأجّرت الأرض. هكذا أعتاش».

حاولتُ تجاهل طعنة حادّة من الحسد والحنين إلى الماضي.

قالت لِين: «أحببتُ حديقتكِ». وحدّقَت في الصفوف الطويلة والمنظّمة من الخضروات والفواكه والأعشاب.

سألتها نِيّا: «أحقاً؟ لقد سمعتكِ تتذمّرين أثناء العمل فيها».

احمّرت لِين خجلاً، ونظرت إلى يديها، وقالت: «لم أقُم قطّ بهذا النوع من العمل سابقاً. لقد أحببته، ولكنه عملٌ مجهد».

ابتسمتُ وقلت: «إنها مبتدئة بأقل تقدير. أما أنا فقد قمتُ بمثل هذا العمل طوال حياتي».

سألتني نِيّا: «هل كنتَ بستانياً؟».

قلتُ: «لا، كانت مجرّد مسألة أن آكل أم لا آكل. قمتُ بالعديد

من الأعمال، بضمنها التدريس- رغم أنني لستُ مؤهلاً أكاديمياً للتدريس. لكنني متعلّم، وفكرة ترك الأطفال أُمّيين فكرة إجرامية».

وفيما ابتسمَت لبهجتها بسماع أحدٍ يتفق مع أفكارها، ناولتُها اللوحة. كتبتُ على الطرف الأيمن الأسفل من اللوحة آية من بذرة الأرض تقول: «*كلُّ شيءٍ تلمسُه تُغيّره...*» وعلى الطرف الآخر كتبتُ الآية التي أحبّتها: «*كي تصوّر الربّ...*».

قرأَت الآيات ونظرَت إلى اللوحة لفترة طويلة، طويلة جداً. كانت لوحة مرسومة بأدق التفاصيل، وليست مجرد رسم تخطيطي، وشعرتُ تقريباً بالسرور منها. ثم نظرَت نحوي وقالت بصوتٍ ناعم لا يكاد يُسمع: «شكراً لكَ».

طلبَت منا قضاء الليلة، وعرضَت علينا النوم في حظيرتها، ممّا برهن أنّ خوفها منا لم يتبدّد كُلياً بعد. قضينا الليلة هناك، وفي اليوم التالي أنجزتُ من أجلها بعض الأعمال المتفرقة في المنزل. كان بوسعي سرقتها في غفلة منها لو أردتُ، لكنني قرّرتُ أن ما أريده منها، لا يمكنني سرقته. يجب أن تمنحني إياه بنفسها.

أخبرتُها في ذلك المساء أنني امرأة. لكنني أخبرتها أولاً عن لاركِن. جلسنا في مطبخها. كانت تطبخ. طلبَت مني الجلوس والحديث معها. قالت إنني عملتُ بجد، واستحققتُ استراحة.

لم أُشِح قطّ بنظري عنها وأنا أخبرها. كان من المهم ألّا تشعر بالحماقة أو الخوف أو الغضب عندما تتلقّى الخبر. لا مفرّ من

الشعور بالقليل من الارتباك وبعض الحرج، ولكن لا يجب أن يزيد عن ذلك.

بدَت وكأنها على وشك البكاء عندما سمعَت ما حدث لابنتِي لاركِن. لا بأس بهذا. كانت لِين في غرفة المعيشة، تستمتع بقراءة كتب حقيقية مصنوعة من الورق. لن ترى أيّة دموع تذرفها نِيّا- في حالة كانت نِيّا حسّاسة تجاه هذا النوع من الأشياء. لا يمكنك أن تكون متأكداً تماماً ممّا قد يراه شخص آخر كنوعٍ من الإهانة أو اقتحام الخصوصية.

سألَت نِيّا: «ماذا حصل... لوالدة الطفلة؟».

لم أُجِب حتّى استدارت ونظرت نحوي. قلتُ لها: «إن طريق السفر خطير كما تعرفين. يختفي الناس هناك. لقد قطعتُ الطريق مشياً من منطقة لوس أنجلوس إلى مقاطعة هومبولت في العام ٢٠٢٧، لذا أعرف ذلك. أعرف ذلك تمام المعرفة».

قالت: «هل اختفت في الطريق؟ هل قُتلت؟».

قلتُ: «اختفت في الطريق لتتفادى التعرّض للقتل». توقّفتُ برهة ثم تابعتُ: «إنها أنا يا نِيّا».

صمتٌ. حيرةٌ.

قالت: «ولكن...».

قلتُ: «لقد وضعتِ ثقتكِ بنا. والآن أنا أضع ثقتي بكِ. أنا رجلٌ عندما أسافر على الطريق. يجب أن أكون كذلك. لأن امرأتين

على الطريق عبارة عن لقمتين سائغتين للجميع». انتهى الأمر. لم أُصحّح لها، لم أبتسم للمقلب الذي لعبتُه عليها. كنتُ أكشف لها عن ضعفي، وأطلب منها أن تتفهّم وتحفظ سرّي. وهذا منصف، كما أملتُ. شعرتُ أنه منصف.

طرفت بعينيها، ثم راحت تحدّق بي. تركَت القدور على النار وتقدّمت نحوي لتلقي نظرة فاحصة. ثم همسَت: «لا أكاد أصدّقك».

ابتسمتُ وقلتُ: «بلى، يمكنكِ تصديقي. لقد أردتُ أن تعرفي الحقيقة». أخذتُ نفساً عميقاً ثم قلتُ: «ولا يعني هذا أن الرجل في مأمن على الطريق. لقد قتل الأشخاص الذين اختطفوا طفلتي زوجي ومسحوا مجتمعي عن وجه الأرض- كل هذا باسم الرب، بالطبع».

جلسَت إلى الطاولة برفقتي وقالت: «الصليبيون. لقد سمعتُ بهم بالطبع- سمعتُ أنهم ينقذون الأطفال اليتامى المشرّدين و... ويحرقون السحرة. بحقّ السماء. ولكنني لم أسمع قطّ أنهم... يقتلون الناس و... يسرقون أطفالهم». ولكن يبدو أن ما فعله الصليبيون لم يُنسِها تماماً ما فعلتُه أنا. فقالت: «ولكن.. أنا لا أستطيع تجاوز هذا فحسب. ما زلتُ أشعر.. ما زلتُ أشعر كما لو أنكِ كنتِ رجلاً. أقصد...».

قلتُ: «كل شيء على ما يرام».

تنهّدَت، وأرجعَت رأسها إلى الوراء، ونظرَت نحوي بابتسامة حزينة. وقالت: «لا. ليست الأمور على ما يرام».

بلى، أنّها محقّة. ليست الأمور على ما يرام. لكنني نهضتُ من مقعدي وتوجّهتُ نحوها وعانقتُها واحتضنتها. كانت مثل لِين، بحاجة لأن يعانقها ويحتضنها أحد، وبحاجة للبكاء بين ذراعَي شخص ما. لقد ظلّت وحيدة لفترة طويلة جداً. ودهشتُ عندما أدركتُ أنني ربما كنتُ سآخذها إلى السرير تحت ظروف أخرى. لقد قضيتُ سبعة عشر شهراً في المعسكر المسيحيّ من دون أن تراودني الرغبة في أن أكون برفقة أحد. اشتقتُ لبانكول- أحياناً أشتاق إليه بشدة لدرجة أنني أشعر بألم جسديّ تقريباً. ولم تراودني سابقاً الرغبة في ممارسة الحبّ مع امرأةٍ. والآن، أجد نفسي أرغب في ذلك تقريباً. وكانت هي أيضاً ترغب في ذلك تقريباً. ولكن هذه ليست العلاقة التي احتجتُ أن تربط في ما بيننا.

أعتزم رؤيتها ثانية، هذه المرأة اللطيفة، التي تعيشُ وحيدة في هذا المنزل الكبير الفارغ المتهالك. أحتاج لأشخاصٍ مثلها. لم أُدرك مدى احتياجي لأشخاص مثلها حتّى قابلتُها. كانت لِين محقّة بخصوص ما ينبغي عليّ فعله، رغم أنّها مثلي لم تعرف كيف يجب أن يتمّ ذلك. ما زلتُ لا أعرف كفاية. ولكن ليس هنالك من كُتيّب إرشادي لمثل هذه الأمور. أعتقد أنني سأظل أتعلّم ماذا أفعل وكيف أفعله حتّى يوم مماتي.

تحدّثنا ثلاثتنا عن بذرة الأرض على العشاء ثانية. تحدّثنا عنها من وجهة نظر تعليمية في الأغلب. بحلول الوقت الذي خلدنا فيه إلى النوم، صار بوسعي الحديث عن بذرة الأرض من دون أن أقلق

من أن نِيّا ستشعر بالضيق أو تراني كداعية. قضينا يوماً آخر معها وأخبرتها المزيد عن أيكورن، وعن أطفال أيكورن. وعانقتُها ثانية عندما بكت. قبّلتُ فمها الذي كان وحيداً، ثم أبعدتُها عني.

رسمتُ لوحتين إضافيتين، وكتبتُ آيات على كلّ واحدة منهما، وجعلتُها تعرض عليّ من تلقاء نفسها أن أسمح لها برعاية أيّ طفل أعثر عليه من أطفال أيكورن إلى أن يتم التواصل مع ذويهم. لم أقترح ذلك قط، لكنني فعلتُ كلّ ما في وسعي لأمهّد الطريق أمامها لكي تقترح ذلك بنفسها. كانت تخاف من أطفال الشوارع، لأنهم لصوص وغالباً عنيفون. لكنها، نظرياً على الأقل، لم تكن خائفةً من أطفال أيكورن. لأنهم على صلة بي، وقد تلاشى خوفها مني تماماً بعد مرور ثلاثة أيام. بطريقة ما، كان ذلك القبول الكامل والثقة التامة آسرَين جداً. لذا صعب عليّ تركها.

بحلول الوقت الذي غادرنا فيه، كانت بنحوٍ ما معي، مثلها مثل لِين. ستُبقيها الآيات واللوحات والذكريات معي لفترة من الوقت. ستوجّب عليّ زيارتها قريباً -لِنَقُل في غضون سنة- للتمسّك بها، وأعتزم القيام بذلك. آمل أن أُحضر لها عن قريب طفلاً أو اثنين لتحميها وتعلّمها- سواء أكانوا أطفالاً من أيكورن أم لم يكونوا كذلك. كانت في حاجة إلى غاية مثلما كنتُ بحاجة لأن أعطيها غاية.

قالت لي لِين صباح هذا اليوم بعدما انطلقنا في طريق السفر ثانية: «كان ذلك مذهلاً. لقد استمتعتُ برؤيتكِ تعملين».

نظرتُ نحوها وقلت: «شكراً لكِ على عملكِ معي».

ابتسمَت ثم توقّفَت عن الابتسام وقالت: «أنتِ تغوين الناس. يا إلهي، أنتِ تفعلين هذا طوال الوقت، أليس كذلك؟».

قلتُ: «يسحرني الناس. أنا أهتم بهم. لو لم أكن كذلك، لما كانت بذرة الأرض تعني أي شيء إطلاقاً بالنسبة لي».

قالت: «هل حقاً ستجلبين أطفالاً لتلك المرأة المسكينة لكي تعتني بهم؟».

قلتُ: «آمل ذلك».

قالت: «إنها بالكاد تستطيع العناية بنفسها. يبدو ذلك المنزل وكأنه سيسقط مع أول عاصفة تهبّ عليه».

قلتُ: «نعم. سأرى ما يمكنني فعله بخصوص ذلك أيضاً».

قالت: «هل بحوزتكِ نقود كافية لمثل هذا الأمر؟».

قلتُ: «كلا، طبعاً. ولكن أحدهم عنده ما يكفي من النقود. لا أعرف كيف سأفعل ذلك يا لِين، ولكن العالم مليء بالمحتاجين. ليسوا كلّهم بحاجة إلى نفس الأشياء، ولكنهم كلّهم بحاجة إلى غاية. حتّى الأثرياء بحاجة إلى غاية».

قالت: «وماذا عن لاركِن؟».

قلتُ: «سأجدُها. إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. سأجدها. لقد أقسمتُ على هذا».

مشينا بصمتٍ لفترة. كان هناك أشخاص آخرون يسيرون في جماعات، منهم مَن يجتازوننا ومنهم من يسيرون أمامنا أو خلفنا وتفصل بيننا وبينهم مسافة بعيدة. كان الطريق السريع العريض محطّماً وقديماً ويمتدّ طويلاً أمامنا، لكنه بطريقةٍ ما لا يمثل تهديداً. ليس الآن.

بعد فترة أمسكَت لِين بذراعي واستدرتُ لأنظر إليها. كان السفر برفقة أحدٍ ما أمراً جيداً. لأنه من المستحسن أن يكون عندي عينان ويدان إضافيتان. ومن المستحسن سماع صوتٍ آخر يقول اسمي، ودماغٍ آخر يتساءل، ويطالب، بل وحتى يسخر.

سألَتني: «ماذا تريدين مني؟ ماذا تريدين مني أن أفعل؟ عليكِ أن تخبريني بهذا».

قلت لها: «ساعديني في التواصل مع الناس. استمري بالعمل معي ومساعدتي. أمامنا الكثير ممّا يتعيّن علينا فعله».

الخميس، ٢١ يونيو، ٢٠٣٥

كما اعتاد أبي على الاقتباس من الكتاب المقدس للملك جيمس، «قَبلَ الكَسرِ الكِبرِيَاءُ، وَقَبلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ»[١]. لقد أحبّ أن يتوخّى الدقة في اقتباساته.

---

(١) سفر الأمثال [١٦: ١٨].

أنا مصابة بالكدمات والجروح بسبب كبريائي، ولكنّي على الأقل لم أُكسر.

بما أن الأمور سارت بنحوٍ جيد مع نِيّا فقد قررتُ البارحة أن بإمكاني الاستمرار في تجنيد الناس على طريقنا إلى بورتلاند. مررنا ببلدة بجانب الطريق بدت كبيرة لدرجةٍ أن لا يهلع الناس من منظر الغرباء فيها، فتوقّفت لسؤال امرأة كانت تكنس شرفتها الأمامية، ما إذا كانت تسمح لنا بالعمل في باحتها مقابل وجبة طعام. ومن دون سابق إنذار، فتحَت بابها الأمامي واستدعت كلبين كبيرين، وأمرتهما بمطاردتنا. بالكاد تمكّنا من الخروج من باحتها في الوقت المناسب لتفادي التعرّض للعضّ. من المثير للاهتمام أنّنا كلانا لم نشهر السلاح ولم نُصدر أي صوت. تبيّن أن لِين كانت مثلي تخاف بشدة من الكلاب. أرتني ليلة البارحة ندوباً سبّبها لها كلب سمح له مالكوها السابقون بالاقتراب منها.

عموماً، شتمتنا المرأة صاحبة الكلبين، وقالت إننا «لصّتان، قاتلتان، وثنيّتان، وساحرتان». وهدّدت بطلب الشرطة.

قالت لِين: «حدث كلّ هذا لأنك طلبتِ منها عملاً. حمد لله لأنكِ لم تحاولي الحديث معها بخصوص بذرة الأرض!». كانت تنظّف خدشاً طويلاً وعميقاً في ذراعها. تسبب بهِ مسمار ناتئ من البوابة الخشبية للمرأة. رأيتُ الكلبين في الوقت المناسب لأدفع لِين خارج البوابة، وأُلقي بنفسي خلفها، ثم أُغلق البوابة بإمساك لوحٍ خشبي سُفلي وشدّه. لم أُفلت قبضتي إلّا في اللحظة الحاسمة

لتفادي الكثير من الأسنان الطويلة والحادة. اللعنة! عندها عضّ الكلب إحدى الألواح الخشبية في السور من شدة سخطه لأنه لم يتمكّن من الوصول إليّ. كشطت يداي وأُصبت بكدمة في وركي. أصيبت لِين بخدش طويل، وقد تألَّمت ونزفَت بحيث خفتُ عليها. في وقت لاحق، عالجتُ جروحنا بمضاد للكزاز. وهذه علاجات تكلّف أكثر ممّا يجب، ولكننا كلتينا لم نعد نواكب تطعيماتنا. لذا من المستحسن ألّا نجازف.

قلتُ فيما تابعنا السير هذا الصباح: «أتساءل ما الذي حدث لتلك المرأة بحيث صارت على استعداد للقيام بشيء من هذا القبيل».

قالت لَين: «لقد فقدَت عقلها. هذا كلّ شيء».

قلتُ: «نادراً ما يكون هذا هو السبب فقط».

ثم في وقتٍ مبكر من هذا اليوم، طاردَتنا فلاّحة تحمل بندقية، فقررتُ التوقف عن المحاولة ليوم أو يومين. أخبرنا صاحب متجرٍ أن صليبيّي جاريت ينشطون في هذه المنطقة. كانوا يلاحقون المشردين، ويستهدفون السحرة والوثنيين، ويروّعون سكّان المنطقة عموماً من خلال تحذيرهم من مخاطر وشرور عابري السبيل الغرباء.

من المثير للاهتمام رؤية إلى أيّ حدٍّ كان صاحب المتجر غاضباً. قال إن الصليبيين يضرّون بالعمل. إنهم يضعون الأطواق على زبائنه من المسافرين على الطريق السريع أو يطاردونهم، كما أنهم يرعبون

الزبائن المحليّين، حتّى أنه خسر العديد من زبائنه المعتادين- أولئك الذين يعيشون على مبعدة من متجره. فاضطروا للتسوّق من المتاجر القريبة قدر الإمكان من منازلهم، بغضّ النظر عن جودة البضائع وأسعارها.

قال الرجل: «يقول جاريت إنه لا يستطيع السيطرة على صليبييه، في المرة القادمة سأصوّت لصالح الشخص الذي سيضع هؤلاء الأوغاد في المكان الذي ينتمون إليه، السجن!».

٢١

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

كي تنجوَ
تعلّم من الماضي
العاداتِ القديمةَ،
الصراعاتِ.
دع القادة والمفكّرين
يساعدونك.
يلهمونك،
يحذّرونك،
يُقوون من عزيمتِك.
ولكن حذارِ:
الربّ هو التغيير.
الماضي ماضٍ
وما فات فات
ولكي تنجو

اعرف الماضي.
دعهُ يلمسُك.
ثم تخلّ عن الماضي.

لا أعرف ما إذا كان خالي مارك كان سيخبرني يوماً بالحقيقة عن أمي. لا أعتقد أنه كان ينوي ذلك. لم يتراجع قطّ عن القصة التي أخبرني بها عن كونها ميتة، ولم أشكّ قطّ في أنه كان يكذب. لقد أحببتُه، وصدقته، ووثقت به كلياً. عندما عرف كيف كنت أعيش، دعاني لأعيش معه لأكمل دراستي. قال لي: «أنتِ فتاة ذكية، وأنتِ فرد من عائلتي - الفرد الوحيد الباقي من عائلتي. لم أستطع مساعدة أملِ. فدعيني أساعدكِ».

وافقتُ. من دون حتّى أن أفكّر في الأمر. تركتُ عملي وذهبتُ للعيش في أحد منازله في نيويورك. استأجر مدبّرة منزل ومدرّسين واشترى دورات دراسية على الكومبيوتر لكي يحرص على أن أتلقى تعليماً جامعياً ما كان ليوفّره لي كايسي وماديسون حتّى لو كان باستطاعتهما ذلك. كانت كايسي تقول: «أنتِ فتاة! يكفيكِ أن تعرفي كيف تحافظين على نظافة وترتيب بيتك وكيف تعبدين ربّك!».

حتى أنني عدتُ إلى الكنيسة بسبب خالي مارك. عدتُ جسدياً على الأقل إلى كنيسة أمريكا المسيحيّة. عشتُ في منزله الثاني شمال نيويورك، وداومتُ على الذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد، لأنه أراد

مني الذهاب، ولأنني اعتدتُ على الذهاب. لقد شعرتُ بالراحة في فعل ذلك. عدتُ للغناء في الجوقة وقمتُ ببعض الأعمال الخيرية الروتينية، كالمساعدة في رعاية المسنّين في أحد دور رعاية المسنين التابعة للكنيسة. كان القيام بمثل هذه الأشياء مرّة أخرى أشبه بالعودة إلى ممارسة عادات قديمة مريحة.

بيد أن الحقيقة هي أنني فقدتُ كلّ إيماني السابق. لقد تخلّت عني الكنيسة التي ترعرعتُ فيها فقط لأنني غادرتُ بيتاً لم يتعلّم أصحابه أن يستلطفوني. ناهيك عن أن يحبوني. يا له من سلوك حسن من مسيحيّين أمريكيين صالحين، يحاولون بناء بلد قويّ وموّحد.

بل قررتُ بعد الكثير من التفكير والتمحيص والقراءة في كتب التاريخ، أن أعيش حياة كريمة وأعامل الآخرين معاملة طيبة. من الأفضل ألّا أقلق بشأن الأمريكيين المسيحيّين، أو الكاثوليكيين، أو اللوثريين، أو أياً يكن. لأنه على ما يبدو فأن كلّ طائفة تظن نفسها تعرف الحقيقة والحقيقة الوحيدة وأن أتباعها فقط مَن سينعمون بالجنة بينما مصير البقية جميعهم العذابُ الأبديّ في الجحيم.

لكن الكنيسة لم تكن مجرّد ديانة. كانت مجتمعاً- مجتمعي أنا. لم أرغب في التحرّر منها. لأن ذلك كان سيجعلني -أو لقد جعلَني- في غاية الوحدة. لأن كلّ شخص بحاجة لأن يكون جزءاً من شيء ما.

بحلول الوقت الذي حصلتُ عليه على شهادة الماجستير في التاريخ، وجدتُ نفسي على أيّة حال غير قادرة على تحشيد أي إيمان لا بالجنة ولا بجنهم بالمعنى الحرفي للكلمتين. فكّرت أن أفضَل ما

يمكننا فعله هو الاهتمام ببعضنا البعض وتنظيف فوضى كلّ أشكال الجحيم التي صنعناها هنا على الأرض. بدت تلك مهمة جسيمة على عاتق أيّ شخص أو مجموعة، وهي واحدة من الأشياء الجيدة التي بذلَت أمريكا المسيحيّة قصارى جهدها فيها.

ذهبتُ للعيش في منزل خالي مارك شمال نيويورك. وما أن حصلتُ على الماجستير حتّى بدأتُ بدراسة الدكتوراه. وبدأتُ أيضاً بكتابة سيناريوهات أقنعة الأحلام. لقد وظفتني شركة (دريمّاسك انترناشونال) بسبب السيناريوهات القويّة العديدة التي اشتغلتُ عليها من أجلهم.

والآن، بفضل خالي مارك، صار عندي مسجّل سيناريوهات أقنعة الأحلام الذي لطالما تقتُ للحصول عليه عندما كنتُ صغيرة. والآن أتمتّع بحرية اختلاق أي شيء أرغب بهِ. قمتُ بعملي تحت اسم آشا ڤير. لم أرغب بأية صلة تجمعني بآل ألكسندر، وأيضاً لم أرغب في أن أُطلق على نفسي لقب دوران، لأنني لم أشعر بالراحة بالمتاجرة بصلة القرابة التي تجمعني بخالي مارك. اعتقدتُ آنذاك أن «دوران» هو لقب عائلة أمي. أما لقب عائلة أبي «بانكول» فلم يعنِ لي شيئاً، إذ أن خالي مارك لم يخبرني بالكثير عن تايلور فرانكلين بانكول- عدا أنه كان طبيباً ومسناً جداً عندما وُلدتُ. آشا ڤير كان اسماً مُرضياً بما فيه الكفاية بالنسبة لي. وهو يربطني كطفلة بفترة شيوع قناع أحلام معيّن، لكن هذا لم يهمّني. بالإضافة إلى أنّ المسؤولين في شركة (دريمّاسك) أحبّوا ذلك.

اشتغلتُ من المنزل على أقنعة الأحلام ودراسة الدكتوراه، وكنتُ متساهلة جداً بخصوص الشهادة التي حصلتُ عليها قبل أن أبلغ ٣٢ عاماً. استمتعتُ بالعمل، واستمتعتُ برفقة خالي مارك عندما كان يأتي إليّ ليهرب من جمهوره وينعمَ بشعور قريب من الدفء العائلي. كنت سعيدة. لم أجد شخصاً رغبت بالزواج منه. في الحقيقة، لم أرَ زواجاً رغبتُ في أن أكون جزءاً منه. لا بدّ أن هناك زيجاتٍ صالحة في مكان ما، ولكن بالنسبة لي، كان الزواج عبارة عن شخصين يتحمّلان بعضهما، ويصبران على بعضهما، لأنهما كانا خائفين من الوحدة أو لأن كلاًّ منهما كان بمثابة عادة لا يستطيع الآخر التخلّص منها. أعلم أنه ليست زواجات الجميع عقيمة وقبيحة مثل زواج كايسي وماديسون. أعلم ذلك على المستوى العقلي، ولكن على المستوى العاطفي، لم أستطع الهرب من استياء كايسي البارد والمرير، ومن يدي ماديسون الصغيرتين المبلّلتين بالعرق.

من الناحية الأخرى، قال خالي مارك من دون أن يُصرّح تماماً إنه يفضّل الرجال جنسياً، لكن كنيسته ترى المثلية خطيئة، فاختار العيش بحسب هذه العقيدة. لذا لم يكن عنده أحدٌ في حياته. أو على الأقل، لم أعرف بوجود أحد. يبدو هذا كئيباً وهو مكتوب على هذه الصفحة، ولكن كلّ واحد منا يختار حياته. وكان عندنا بعضنا البعض. لقد كنّا عائلة. وبدا هذا كافياً.

في هذه الأثناء، كانت أُمّي تصبّ اهتمامها على طفلتها الأخرى، طفلتها الكبرى الأحبّ إلى نفسها؛ بذرة الأرض.

بطريقة ما لم نُعر اهتماماً -أو على الأقل لم أُعر أنا اهتماماً- لحركة بذرة الأرض المتنامية. لقد كانت هناك. وستظل هناك طوائف على الدوام بالرغم من جهود أمريكا المسيحيّة والمذاهب الأخرى. ولم تكن بذرة الأرض طائفة اعتيادية بالتأكيد. فقد موّلت الاكتشافات والبحوث العلمية، والإبداعات التكنولوجية. وأسّست مدارس ابتدائية وفي النهاية كُليّات، وقدّمت منحاً دراسية للطلّاب الفقراء الموهوبين. كان يتوجّب على الطلاب الذين يتم قبولهم الموافقة على قضاء سبع سنوات في تدريس وممارسة الطب، أو يجب عليهم بطريقة ما استخدام مهاراتهم لتحسين الحياة في المجتمعات العديدة التابعة لبذرة الأرض. كان الهدف في النهاية هو مساعدة المجتمعات على الانطلاق صوب النجوم والعيش في العوالم البعيدة التي يجدونها تدور حول تلك النجوم.

«هل تعرف أي شيء عن هؤلاء الناس؟»، سألتُ خالي مارك ذات مرّة بعد أن قرأتُ وسمعتُ فقرات في الأخبار عنهم.

قلتُ: «هل هم جادّون؟ الهجرة إلى النجوم؟ ربّاه! لماذا لا ينتقلون إلى العيش في القطب الجنوبي إذا كانوا يرغبون بحياة الشقاء؟». وتفاجأتُ عندما تجهّم وأشاح بوجهه. توقعتُه سيضحك.

قال: «إنهم جادّون. إنهم أشخاصٌ مساكين، سخيفون، مضلَّلون، يعتقدون أن حل كلّ المشاكل البشرية يكمن في السفر إلى ألفا سينتوري».

ضحكتُ. وقلت: «هل ستأتي الصحون الطائرة من أجلهم؟».

نفض كتفيه وقال: «إنهم أشخاص مثيرون للشفقة. انسَي أمرهم».

وبالطبع، لم أنسَهم. تركتُ بحوثي المعتادة على الشبكات وبدأت بالبحث عنهم. لم أكن جادّة. ولم أخطط لفعل شيء بما عرفته، لكنني شعرتُ بالفضول، وفكّرت أنني ربما سأحصل منهم على فكرةٍ من أجل سيناريو جديد لقناع أحلام. عرفتُ أن بذرة الأرض كانت طائفة غنية وترحّب بالجميع ومستعدة للاستفادة من الجميع. كانت تمتلك أراضيَ ومدارس ومزارع ومصانع ومتاجر ومصارف، والعديد من البلدات. ويبدو أنّها تمتلك الكثير من الأشخاص المعروفين، من محامين وأطباء وصحفيين وعلماء وسياسيين، وحتى أعضاء في الكونغرس.

وهل كانوا جميعهم يطمحون بالسفر إلى ألفا سينتوري؟

لم يكن الأمر بهذه البساطة بالطبع. ولكن بصراحة، كلما قرأت عن بذرة الأرض ازداد بُغضي لها. لأنه هنالك الكثير ممّا يلزم القيام به هنا على الأرض- هناك الكثير من الأمراض والمجاعة والفقر والمعاناة، وها هي ذي منظمة غنية تهدر الأموال الطائلة والوقت والجهد على الهراء. محظ هراء!

ثم عثرتُ على (كتُب الأحياء) وحصلتُ على صورٍ ومعلومات تخصّ لورِن أويا أولامينا.

ولكن حتّى بعدما قرأتُ عن أُمّي ورأيتها لم ألاحظ شيئاً. لم أنظر إلى صورتها ليخطر ببالي «أوه، أنّها تشبهني». كانت تشبهني بالفعل-

أو بالأحرى، أنا أشبهها. لكنني لم ألاحظ. كلّ ما رأيته امرأة طويلة في منتصف العمر ببشرة غامقة وعينين ساحرتين وابتسامة لطيفة. بدت بطريقة ما كشخص قد أميلُ إلى الإعجاب به والثقة به- وهذا ما أخافني. ممّا دفعني إلى كرهها والتشكيك بها فوراً. فقد كانت زعيمة طائفة دينية في نهاية المطاف. ومن المفترض بها أن تكون مُغوية. لكنني لن أدعها تغويني.

وكان كلّ هذا ردّ فعلي على صورتها فحسب. لا عجب أنّها كانت غنية جداً، لا عجب أنّها استطاعت جذب الأتباع إلى مثل هذا الدين السخيف. لقد كانت خطيرة.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الأحد، ٢٩ يوليو، ٢٠٣٥

بورتلاند

لقد جمعتُ المزيد من الأشخاص. ليسوا أشخاصاً قادرين على السفر معي أو الاجتماع في قرى يسهل استهدافها. إنهم أشخاص يقيمون في منازلهم- أو يحتاجون إلى منازل ليقيموا فيها.

على سبيل المثال تعيش إيسيس دورتي نورمان في متنزه بين النهر وبين أطلال فندق قديم محترق ومُنهار. تسكن في عُشّة هناك- خشب مغطى بأغطية بلاستيكية. يمكن العثور عليها هناك في الليل. لأنها تعمل في النهار في تنظيف منازل النساء الأخريات. بهذه

الطريقة تطعم نفسها وتحافظ على نظافة ملابس البالة التي ترتديها. إنّها تعيش حياة شاقة، لكنها تجعل منها حياة كريمة قدر إمكانها. تبلغ من العمر ٤٣ عاماً. قبل ستة أعوام تركها الرجل الذي تزوّجَته عندما كان عمرها ٢٣ عاماً، من أجل فتاة تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، ابنة أحد خدمه.

قالت إيسيس: «كانت فتاةً في غاية الجمال. وعرفتُ أنه لن يستطيع إبعاد يديهِ عنها. لم أستطع حمايتها منه مثلما لم أستطع حماية نفسي منه، ولكن لم يخطر ببالي قطّ أنه سيُبقيها ويطردني».

لقد طردها. وقضت ستة أعوام مشردّة ويائسة. قالت إنّها فكّرت في قتل نفسها. لكن الخوف منعها- الخوف من ألّا تموت، فتعيش مشوّهة، لتموت ببطء ميتة طويلة من الألم والجوع. قد يحدث ذلك. بورتلاند مدينة شاسعة ومكتظة. ليست مثل لوس أنجلوس أو منطقة الخليج، لكنها مدينة ضخمة. يتجاهل الناس بعضهم دفاعاً عن النفس. أجد هذا مفيداً ومخيفاً في نفس الوقت. التقيتُ بإيسيس عندما قرعتُ باب أحد المنازل التي كانت تعمل فيها. وإلا لما تجرأت على الحديث معي. على أيّة حال، صمّمَت على أن تحضّر لي وجبة طعام وتأتي بها لي عندما انتهيتُ من تنظيف الباحة الخلفية.

بدت حذِرة عندما أحضرَت الطعام لي. ثم نظرَت إلى الباحة وأثنَت على عملي في تنظيفها. تبادلنا الحديث لبعض الوقت. ثم رافقتُها في السير إلى كوخها- وهذا ما جعلها متوترة. فقد كنتُ أتظاهر مجدداً أنني رجل. أجدُ أنّ السير في الشوارع كامرأة مشرّدة

أمراً صعباً وخطيراً. قد تتدبّر أخريات أمورهن بنحو حسن. أما أنا، وبطريقة ما، فلا أستطيع.

تركتُ إيسيس من دون أن أدخل كوخها. من الأفضل ألّا أضغط على الناس. وكما تقول لِين، من الأفضل إغواؤهم. قابلتُ إيسيس عدّة مرّات بعد ذلك. تحدّثتُ معها، وقرأتُ لها بعض الآيات، واستحوذتُ على اهتمامها. عندها طفلان يعيشان مع والدة أبيهما، لذا رغماً عن نفسها كانت تهتمّ بما يحمله المستقبل. أعتزم إيجاد منزل حقيقي من أجلها من خلال الحصول على عملٍ في رعاية الأطفال داخل المنازل. قد يستغرق هذا بعض الوقت، ولكنني أعتزم ذلك.

من الناحية الأخرى، التقيتُ بجول وإيرما إلفورد، اللذين استأجراني عندما وصلتُ إلى بورتلاند للعمل على دهان المرآب والسور والقيام ببعض الأعمال في الفناء. عملنا أنا ولِين معاً، قمنا بجزّ الأعشاب الضارة وحصاد المحاصيل والحراثة وتنظيف الفناء الخلفي حيث بدأت الأدغال بالنمو. وعندما انقشع الغبار، بدأنا بدهان المرآب. وتوجّب علينا الانتظار لليوم التالي لدهان السور. وُعِدنا بالحصول على أجرٍ بالعملة الصعبة، وهذا ما حسّن من مزاجنا. لِين شخص يطيب العمل معه. إنّها تتعلّم بسرعة، وتتذمّر بلا هوادة، وتقوم بعملٍ متقن، مهما استغرق من وقت لإنجازه. وهي تستمتع بالعمل في معظم الوقت. أما التذمّر فهو أحد ميزاتها الفريدة.

ثم دعانا جول وإيرما إلى مائدتهما لتناول الطعام برفقتهما. رسمتُ إيرما على عجلٍ لأسترعي انتباهها، وأضفتُ آية تهدف إلى التواصل معها من خلال اهتماماتها البيئية التي سمعتُها تعبّر عنها. وكانت الآية هي:

لا شيءَ دخيلٌ
في الطبيعةِ.
كل ما هو موجودٌ
طبيعة.
إنها الأرضُ
وكلّ ما عليها.
إنها الكونُ
وكلّ ما فيهِ.
إنّها الربّ،
لا تهدأ سورتُه أبداً.
إنّها أنتَ
أنا
نحنُ
هُم،
نصارعُ ضدّ التيارِ
أو ننجرفُ.

كما بدت إيرما متأثّرة بالمقطع التالي من كلمة التأبين، ربما بسبب وفاة والدتها في العام الماضي:

نمنح موتانا
إلى البساتين
والرياض.
نمنح موتانا
إلى الحياة.

كنّا بمثابة بدعة غير متوقعّة أثارت فضول آل إلفورد. سمحا لنا بالاستحمام في حمّامها الخلفي وغيّرنا ملابسنا بملابس أنظف من حقيبتينا. ثم أجلسانا، وأطعمانا وجبة ضخمة، وبدءا يطرحان الأسئلة علينا. ما هي وجهتُنا؟ هل كنّا نمتلك بيوتاً؟ وهل عندنا عائلات؟ كلا؟ حسناً، منذ متى ونحن مشرّدتان؟ وأين نلجأ عندما يكون الطقس قاسياً؟ ألم نشعر بالخوف ونحن «في الخارج»؟

في البداية، أجبتُ بالنيابة عنا كلينا، بما أن لِين لم تبدُ ميّالة للكلام، وغالباً ما أجبتُ بآيات من بذرة الأرض كأيّة محادثة عادية. فلم تستغرق إيرما وقتاً طويلاً حتّى سألتني: «من أين هذه الاقتباسات؟»، ثم، «هلّا أرى؟ لم أسمع بذلك قطّ من قبلُ»، وأيضاً، «هل هذا من البوذية؟ لا، ليس كذلك. كدتُ أعتنق البوذية عندما كنتُ شابة». عمرها ٣٧ عاماً. وقالت: «إنها آيات قصيرة وبسيطة جداً. ومباشرة جداً. لكن بعضها جميل».

قلتُ: «أردتُ أن يكون كلامي بسيطاً. يسهل على الناس فهمه. لا ينجح الأمر دائماً، لكنني جادّة في مسعاي».

كانت إيرما منتهى آمالي. قالت: «هل كتبتِ هذا؟ أنتِ؟ حقاً؟ إذن أخبريني من فضلكِ، في الصفحة رقم ٤٧...».

إنهما شخصان في منتصف العمر هادئان، بلا أبناء، اختارا العيش في حيّ متواضع من الطبقة المتوسطة، بالرغم من أنهما يمكنهما تحمل كلفة منعزلٍ مسوّر خاصٍ بهما. لكنهما مهتمّان بالعالم حولهما وقلقان من الاتجاه الذي يسلكه البلد. كان بوسعي رؤية ثروتهما من الأشياء الصغيرة الجميلة الثمينة التي وزّعاها في أرجاء المنزل- أنتيكات من الفضة والكريستال، كتب ورقية قديمة بأغلفة جلديّة، لوحات، وأيضاً من أجل إضفاء لمسة عصرية كان هناك نظام اتصالات شبكيّ يغطي الأرض، والذي يتضمّن بحسب كلام لِين، أحدث الغرف الافتراضية. بوسعهما التمتّع بكل المناظر والأحاسيس المتأتية من زيارة أيّ مكان على وجه الأرض أو أي مكان متخيّل مُبرمج، كلّ ذلك من دون مغادرة المنزل. إضافة إلى أنهما كانا مهتمّين بالحديث معنا.

مع ذلك توجّب علينا توخي الحذر. قد يكون آل إلفورد ضجِرين ومتعطّشين لكلّ من التجديد والغاية، ولكنهما ليسا أحمقين. توجّب عليّ أن أكون أكثر صراحة معهما ممّا كنتُ عليه مع أشخاص من أمثال إيسيس. أخبرتُهما عن قصتي، وأخبرتُهما بما أحاول فعله. لقد اعتقدا أنني شجاعة وساذجة وسخيفة و... مثيرة للاهتمام. وبدافعٍ من

الشفقة والفضول، سمحا لنا بالنوم في دار الضيافة الصغير في الجزء الخلفي من منزلهما.

في اليوم التالي، وبعد أن انتهينا من دهان السور، وجدا المزيد من الأعمال البسيطة لنقوم بها، وكانا يتحدّثان معنا بين الحين والآخر. وقد سمحا لنا بالحديث معهما. لم يفقدا اهتمامهما قطّ.

«ماذا ستطلبين منهما أن يفعلا؟»، سألتني لِين في تلك الليلة فيما كنّا نخلد إلى النوم في دار الضيافة مرّة أخرى. وأردفت: «تعرفين أنكِ قد تمكّنتِ منهما، حتّى إذا لم يدركا هذا بعد».

أومأتُ. وقلت: «إنهما متعطشان للقيام بشيء. وهما متلهفان للحصول على غاية حقيقية. أعتقد أنهما سيقدمان اقتراحات بنفسيهما. سيشعران بالارتياح إذا قدّما بنفسيهما الاقتراحات أولاً. لأنهما سيشعران بالسيطرة. في وقت لاحق، أريد منهما إيواء آلي. سيكون دار الضيافة هذا مثالياً من أجلها هي وجاستن. سيُسعدان بوجودها عندما يريان ما يمكنها فعله ببضعة عِصِيّ من الخشب وأدوات بسيطة. وأعتقد أنني سأُعرّف آلي بِإيسيس. عندي إحساس أنهما ستنسجمان».

قالت لِين: «لقد أغواكِ آل إلفورد».

أومأتُ. وقلتُ: «فكّري بكل الناس الذين قابلناهم ولم يسبّبوا لنا غير المتاعب. يسعدني لقاء أشخاص متلهفين ومتحمسين بين الحين والآخر».

وبالطبع، عثرتُ على أخي مرّة أخرى. أجد أنني لا أرغب في الحديث بهذا الشأن.

كان مارك يبشّر في أحد الملاجئ الكبيرة في بورتلاند، ويساعد في صيانة الملجأ، ويدرس في أحد المعاهد الدينية الأمريكية المسيحيّة. يريد أن يكون قسّاً مرسّماً. لم يُسعد برؤيتي. تابعتُ حضور عظاتِه وبقيتُ أتركُ له رسائل كتبتُ فيها أنني أرغب بلقائه. استغرق الأمر أسبوعين إلى أن استسلم أخيراً.

قال على سبيل التحية: «أفترضُ أنني إذا انتقلتُ إلى ميشيغان، فستأتين خلفي».

التقينا في العمارة السكنية التي فيها شقّته- وكانت العمارة أشبه بمهجع كبير. التقينا في غرفة طعام كبيرة في نهاية البهو، لأنه لم يُسمح له باستقبال الضيوف في شقّته. كانت غرفة بسيطة ونظيفة بإضاءة خافتة، مليئة بطاولاتٍ وكراسٍ خشبية غير متناسقة، ولا شيء آخر. كانت جدران غرفة الطعام مطليّة بلون رماديّ مخضرّ قاتم، والأرضية مكسوة بقرميد بلونٍ رماديّ، وقد اهترأت الأرضية في بعض المناطق لحدّ ظهور الخشب تحتها. كنّا وحدنا هناك، نشربُ ما قيل لنا إنه شاي ساخن بالتفاح والقرفة. عندما اشتريتُ كوباً من الماكنة، وجدتُ طعمه يشبه الماء الفاتر المحلّى قليلاً. كانت المصابيح في الغرفة قليلة، وضعيفة ومتباعدة، وقد بُذلت أقصى الجهود لكي يبدو المكان موحشاً وكئيباً قدر الإمكان.

«خدمة الربّ أهمّ»، قال أخي، وأدركتُ أنني كنتُ أتطلّع في الأرجاء حتّى جعلتُ من انتقاداتي غير المعلنة واضحة للعيان.

قلتُ: «أنا آسفة. إذا كنتَ ترغب حقاً في البقاء هنا، إذن كما تريد. لكنني... أتمنى لو تخصص بعض الاهتمام لابنة أختك».

قال: «لا تكوني متعالية! لقد أخبرتُكِ بما يجب عليكِ فعله لإيجادها!».

الانضمام إلى (أ. م). ارتعشتُ. قلتُ: «لا أستطيع. أنا لا أستطيع. إذا كان كوغر هنا، هل يمكنك الانضمام إليه ثانية– أقصد بداعي العمل فقط؟ هل تقدر أن تكون أحد أعوانه؟».

قال: «ليس ذلك سيّان!».

قلتُ: «ذلك سيّان بالنسبة لي. ما فعله بكَ كوغر، فعله بي صليبيّو (أ. م). الفرق الوحيد أن ما فعلوه بي استمر لفترة أطول. ولا تقل لي إن الصليبيّين منشقّون. ليسوا كذلك. إنهم جزء من (أ. م) مثلهم مثل الملاجئ. لقد رأيت أحد الرجال الذين اغتصبونا وجلدونا في أيكورن. كان يعمل حارساً مسلّحاً في ملجأ يوريكا».

نهض مارك من مكانه. دفع كرسيّه وكاد يطيح بهِ من شدة توقهِ للابتعاد عني. وقال: «لقد سنحت لي الفرصة أخيراً لأحصل على ما أريده. لن تفسدي هذا!».

قلتُ وأنا ما زلتُ جالسةً: «لا يتعلّق هذا الأمر بكَ. أتمنى لو كان عندكَ طفل يا مارك. لو كان عندكَ طفل، ربما كنتَ ستفهم

شعوري، أنا لا أعرف مكانها، ولا أعرف ما إذا كانت تُعامل معاملة طيبة، ولا أعرف حتّى... حتّى ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. لو كنتُ فقط أعرف!».

وقف فوقي لفترة طويلة جداً، ينظر إلى الأسفل نحوي كما لو أنه يكرهني. ثم قال: «لا أعتقد أنكِ تشعرين بأي شيء!».

حدّقتُ فيه بدهشة وقلتُ: «مارك، إن ابنتي...».

قال: «تظنين أنه يفترض بكِ أن تهتمي، لذلك تتظاهرين بالاهتمام. وربما تريدين ذلك، ولكنكِ لا تهتمين حقاً».

أظن أنني فضّلتُ ضربه لي. لم أستطع إبداء أيّة ردة فعل سوى الجلوس والتحديق فيه. ذرفتُ الدموع، لكني لم أدرك ذلك وقتها. لقد تسمّرتُ في مكاني وأنا أحدّق فيه فحسب.

بعد فترة، استدار أخي ومضى، والدموع تتلألأ على وجهه.

أردتُ أن أكرهه وقتها. لم أستطع، ولكنني أردتُ ذلك.

«الأخوة!». تمتمت لِين عندما أخبرتها بما حدث. كانت بانتظاري في دار ضيافة آل إلفورد. استمعَت لما قلتُه لها، وأفترض أنّها سمعتُه وفقاً لتجربتها الخاصة.

قلتُ: «إنه يحتاج لأن يجعل من كلّ شيء ذنبي. ما زال لا يقدر على أن يسمح لنفسه بالاعتراف بما ارتكبته أمريكا المسيحيّة بحقّي. لن يستطيع البقاء معهم إذا ارتكبوا مثل هذه الأمور، لذا قرّر أنهم أبرياء، وأن كلّ ما حدث ذنبي بطريقة ما».

سألت لِين باعتراض: «لماذا تختلقين له الأعذار؟».

قلتُ: «لا أفعل ذلك. أعتقد أن هذا هو شعوره حقاً. اغرورقت عيناه بالدموع عندما تركني ومضى. لم يرغب في أن أرى ذلك، ولكنني رأيتُ. عليه أن يبعدني وإلّا لن يكون بوسعه تحقيق أحلامه. تعلّمه أمريكا المسيحيّة أن يكون الشيء الوحيد الذي أراد أن يكونه- قسّاً. مثل والدنا».

تنهّدَت وهزّت رأسها. ثم قالت: «إذن ماذا ستفعلين؟».

قلتُ: «أنا... لا أعرف. ربما يقدّم آل إلفورد اقتراحاً ما».

قالت: «هما، نعم... سألتني إيرما أثناء غيابكِ ما إذا كنتِ على استعداد للحديث مع مجموعة من أصدقائها. إنّها ترغب في إقامة حفلة، وأفترض أنّها تريد التباهي بكِ».

قلتُ: «أنتِ تمزحين!».

قالت: «قلتُ لها إنني أظن أنكِ ستوافقين».

نهضتُ وسرتُ نحو النافذة ونظرتُ إلى شجرة كمثرى، معتمة في سواد الليل. ثم قلتُ: «أتعلمين، لو كان بوسعي فقط العثور على ابنتِي، لظننتُ أن حياتي تسير بنحوٍ رائع».

الأحد، ١٦ سبتمبر، ٢٠٣٥

أخيراً تمكّنتُ من إقناع مارك بمقابلتي مرّة أخرى.

قد يكون هو القريب الوحيد الذي بقي عندي على وجه الأرض. ولا أريده أن يصبح عدوي.

قلتُ له: «قُل لي فقط إنكَ ستساعد ابنتِي لاركِن إذا عثرتَ عليها يوماً ما».

سألني ببرود معيّن: «وهل تظنين أنني سأفعل ما هو أقل من ذلك؟».

قلتُ: «أتمنى لكَ الخير يا مارك. أنا دوماً أتمنى لكَ الخير. أنتَ أخي، وأنا أحبّك. بالرغم من كلّ ما حصل، لا يمكنني إلّا أن أحبّك».

تنهّد. جلسنا ثانية في غرفة الطعام الشاسعة الكئيبة في عمارته السكنية. كان هنالك أشخاص آخرون متوزعين في أرجاء الغرفة هذه المرة، يأكلون وجبة غداء متأخرة أو وجبة عشاء مبكرة. معظمهم من الرجال، شباناً ومُسنّين، منفردين أو في مجموعات صغيرة. حدّق بي بعضهم باستنكار على ما يبدو: «لا يمكنكِ معرفة ما تعنيه لي أمريكا المسيحيّة». قال مارك بصوتٍ ناعم. وبدا أقلّ بُعداً.

قلتُ له: «بالطبع أفهمك. أنا هنا لأنني أفهم تماماً. ستصبح قسّاً أمريكياً مسيحيّاً، وسأصبح أختك الوثنية. يمكنني تحمّل هذا. ولكن ما لا يمكنني تحمّله هو أن أصبح عدوّتكَ. لم أتقصد حدوث ذلك».

قال بعد مرور فترة: «نحن لسنا أعداء. أنتِ أختي. وأنا أيضاً أحبّكِ».

تصافحنا. لا أعتقدُ أنني قد صافحتُ أخي من قبل، ولكنني أحسستُ أن هذا القدر من اللمس هو الذي كان بمقدوره تحمّله، على الأقل في الوقت الحالي.

جاء آلي وجاستن للعيش في بورتلاند. اتصلتُ بآلي هاتفياً وأخبرتها بأن تستخدم بعضاً من المال الذي تركتُه معها لكي تدفع لآل جورج أجرة نقلها بالسيارة. وافق آل إلفورد على السماح لهما بالعيش في دار الضيافة. بينما أقمنا أنا ولِين في غرفتين فوق مرآب أحد المؤيدين– أحد أصدقاء آل إلفورد.

هكذا صرت أنظر إلى هؤلاء الناس؛ كمؤيدين. نحن نتحدّث إلى مجموعات في منازلهم. ونجري نقاشات ونعلّم حقائق بذرة الأرض. أقول «نحن» لأن لِين بدأت تضطلع بدورٍ أنشط. ذات يوم ستقوم بالتعليم وحدها، وربما ستدرّب شخصاً لمساعدتها. فيما أكتب هذه الكلمات، أفتقدها كما لو أنّها قد رحلَت بالفعل، كما لو أنه قد صارت عندي شابة أخرى مشكّكة لأدرّبها.

من خلال آل إلفورد وأصدقائهم، وأصدقاء أصدقائهم، تلقّينا دعوات للحديث في المنازل أو القاعات الصغيرة في أرجاء البلدة. وجدتُ أنه في كلّ مجموعة هناك شخص واحد، أو ربما اثنان، جادّان، ويسمعان في بذرة الأرض شيئاً يمكنهما تقبّله ويريدانه ويحتاجانه. أمثال هذين الشخصين هم الذين سيجعلون من مدارسنا الأولى أمراً

ممكن الحدوث. في أيكورن، لم يكن من قبيل الصدفة أن الكنيسة والمدرسة هما ذات الشيء. لم يكونا في نفس البناية فحسب. بل كانا ذات المؤسسة. إذا كان على مصير بذرة الأرض أن يحمل معنى أبعد من فردوس خرافي بعيد، فيجب ألا تكون بذرة الأرض مجرّد نظام عقائدي بل طريقة حياة. يجب تربية الأطفال عليها. ويجب تذكير البالغين بها مِراراً، وإعادة توجيه تركيزهم عليها، وحثّهم صوبها. يجب أن يفهم كلاهما كيف أن سلوكهما الحالي يُساهم أو لا يساهم في تحقيق المصير. بحلول الوقت الذي يمكننا فيه إرسال أطفال بذرة الأرض إلى الكلية، يجب أن يكونوا مكرّسين ليس للدراسة فقط بل ولتحقيق المصير. إذا كانوا كذلك، فستصبح أيّة دراسة يختارونها وسيلةً لتحقيق المصير.

الأحد، ٣٠ سبتمبر، ٢٠٣٥

وجدتُ بيتاً مُحتملاً من أجل ترافيس وناتيفيداد. اتصلتُ بهما هاتفياً عدّة مرّات، ولكن ما من إجابة. قلقتُ عليهما إلى أن تواصلتُ معهما ليلة البارحة. إنهما يعيشان في مخيّم عشوائي على مبعدة بضعة أميال من ساكرامنتو. ذهبا إلى هناك بناء على شائعةٍ تقول إن بعضاً من أطفال أيكورن قد شوهدوا هناك. كانت الشائعة كاذبة، ولكنهما أنفقا كلّ نقودهما. فاضطرا إلى المكوث هناك والقيام ببعض الأعمال الزراعية. وكان هذا صعباً، لأن الأجر كان أكثر بقليلٍ من كلفة مسكن وطعام في أكواخ صغيرة فظيعة.

سيأتيان إلى هنا برفقة ابنتَي آل مورا وطفل آل مورا الجديد. لا يمكنني إعادة أطفالها إليهما، ولكن يمكنني أن أحرص على حصولهما على عملٍ يعيلهما ومكان لائق للعيش فيه. سيعيشون جميعهم في منزل كبير من المُعتزم أن يصبح مدرستنا الأولى. تعود ملكية هذا المنزل إلى أحد أنصاري- ذلك الذي قال تلك الكلمات السحرية: «ما الذي يمكنني القيام بهِ؟ إلامَ تحتاجين؟».

ما الذي لا نحتاج إليه!

المنزل عبارة عن هيكل كبير فارغ سيتوجّب على عائلتَي دوغلاس ومورا العمل عليه بجدٍّ. إنه يحتاج إلى الدهان، والترميم، والتشجير، والتسوير، يحتاج إلى كلّ شيء. ولكنه يحتوي على غرفة معيشة في الطابق العلوي تكفي عائلة كبيرة، وغرفة للتدريس والعمل في الطابق السفلي. سيكون هذا بمثابة بداية جديدة على عدّة أصعدة. وأيضاً، لدى أصحاب المنزل أقارب يعلمون في كلٍّ من حكومة المدينة والولاية. إنهم من نوعية الأشخاص الذين تعلّم صليبيو جاريت أن يتركوهم وشأنهم.

وأيضاً، لقد دُعينا أنا ولِين للتبشير في عدّة منازل في منطقة سياتل في الشهر المقبل.

الثلاثاء، ١٣ نوفمبر، ٢٠٣٥

أخيراً تمكّنتُ من إقناع هاري بالمجيئ إلى الشمال. لقد صادف

آل فيغارو وانضمّ إليهم في رحلة السفر. يؤسفني قول إنه لم يعثر على تابيا وروس، لكنه عثر على ثلاثة أيتام. وجدهم على قارعة الطريق شمال سان لويس أوبيسبو. لقت أُمّهم حتفها عندما صدمتها شاحنة. رأى الحادث يقعُ وهرع مباشرة إلى الأطفال. يتزايد عدد المركبات على الطريق خلال النهار في الوقت الحالي. أضحى السير أشدّ خطورة.

بالرغم من فظاعة حادثة الشاحنة التي صدمَت الأمّ ولاذت بالفرار، غير أنني أشعر أن هذا منح هاري ما يحتاجه- أطفالاً ليحميهم، أطفالاً يحتاجونه، ويركضون إليه ليمسكوا بيديه عندما يخافون. لطالما قال هو وزهرا إنهما يرغبان في أُسرة كبيرة. إنه أبٌ صالح. لقد هيّأتُ له وظيفةً في التدريس في سياتل. أعتقدُ أنه سيتفوّق في هذا العمل إذا سمح لنفسه.

سيأتي خورخي شو وعائلته. عثرتُ عل عملٍ من أجل خورخي وداي في بورتلاند.

والآن يجبُ أن أبحث عن مكانٍ من أجل آل فيغارو.

أعتقد أنني قد فعلتُها أخيراً. أعتقدُ أن حياتي أخيراً قد علّمتني ما يكفي لتمكيني من خلق بداية حقيقية لغرس بذرة الأرض. ربما يكون من المبكّر قول هذا، لكن الأمر يبدو حقيقياً. أعتقد أنه حقيقيّ.

لقد سمحتُ لآل إلفورد بإتاحة (كتاب الأحياء الأول) مجاناً على الشبكات. لم أنتظر قطّ أيّ ربحٍ ماليّ من الكتاب. كان خوفي الوحيد هو أن يأخذه أحدهم ويغيّره، ويجعل منه أداة لاهوتٍ آخر، أو يستغله لصالح نوع جديد من الديماغوجية. يقول جول إلفورد إن أفضل طريقة لتجنّب ذلك هو بجعله متاحاً على كلّ الشبكات وعليه اسمي. وبالطبع، حقوق النشر والتأليف هي ضمانتي القانونية إذا ما حاول أحدهم إساءة استخدامه لحدٍّ خطير.

قال لي جول: «لا أعتقد أنّكِ تدركين أهمية ما عندكِ».

نظرتُ إليه بدهشة وأدركتُ أنه كان يؤمن بما يقوله.

ثم تابع قائلاً: «كما أنكِ لا تدركين عدد الناس الذين سيريدونه. لقد استهدفتُ على وجه الخصوص الشبكات التي ترمي إلى إثارة اهتمام الجامعات الأمريكية والمدن الصغيرة الحُرّة التي تقع فيها العديد من تلك الجامعات. سينتشر على نطاق العالم، لكنه سيجذب المزيد من الانتباه لنفسه في تلك الأماكن».

كان يبتسم، فسألتُه: «ماذا تتوقّع أن يحدث؟».

قال: «ستبدئين بسماع ردود الناس. وقريباً ستثيرين الانتباه إليكِ أكثر ممّا تتخيّلين». ثم قال بجدية: «وما ستفعلينه بهذا الاهتمام مهم. فحذار». لقد وثقَت بي إيرما أكثر من جول. لا يزال جول يراقبني- يراقبني باهتمام شديد. يقول إن الأمر أشبه بمشاهدة ولادة.

الأحد، ٣٠ ديسمبر، ٢٠٣٥

لقد كنتُ في طريق السفر.

ليس السفر بالأمر الجديد عليّ، ولكن هذا مختلفٌ. هذه المرّة، بفضل الكتاب، صرتُ أُدعى من قبل الجامعات ومجموعات أخرى، يُدفع لي المال لأُسافر، يُدفع لي المال لأتحدّث- والأمر أشبه بدفع المال إلى الثلج مقابل أن يكون بارداً.

وكنتُ أسافر عن طريق الجو. أطيرُ! لقد قطعتُ مشياً على الأقدام معظم الساحل الغربي، والآن أنا أطيرُ فوق المناطق الداخلية للبلاد وفوق معظم الساحل الشرقي. لقد طرتُ إلى نيوارك في ديلاوير، وإلى كلاريون في بنسلفانيا، ومن ثم إلى سيراكيوز في نيويورك. سأذهب تالياً إلى توليدو في أوهايو، وآن آربُر في ميشيغان، وماديسون في ويسكونسن، وآيوا سيتي في آيوا.

قال لي جول قبيل مغادرتي: «أنتِ تُبلين حسناً كونها جولتكِ الأولى. لقد أصبتُ الظنّ عندما قلتُ إنكِ ستثيرين الانتباه. الناس مستعدّون لشيء جديد ومبشّر بالأمل».

كنتُ خائفة حدّ الموت، قلقة من الطيران، وقلقة من الحديث أمام عدد كبير من الغرباء. ماذا لو جذبتُ النوع الخاطئ من الانتباه؟ كيف ستتعامل لِين مع التجربة؟ لقد قلقت على لِين، التي بدت أكثر خوفاً مما كنتُ عليه، بالأخص من الطيران. لقد أنفقتُ مالاً أكثر ممّا يلزم على شراء ملابس لائقة من أجلنا كلتينا.

ثم أقلّنا جول وإيرما إلى المطار في سيارتهما الضخمة. إحدى الطرق التي يدلّلان فيها نفسيهما هي بحصولهما على سيارة من أحدث طراز مسلّحة ومدرعة- إنها يرقة مدنيّة في الحقيقة. هذه المركبة تكلّفتها أكثر من تكلفة منزل جميل في حيّ جيد، وهي ذات منظر مخيف بما يكفي لترويع أي شخص غبي يقضي وقته في تسليب المركبات.

قالت لي إيرما عندما عرضَت عليّ الأسلحة: «لم نضطر قطّ لاستخدام الأسلحة. لا أحبها. إنّها تخيفني. لكنني سأخاف أكثر إذا كنّا عُزّلاً من السلاح».

والآن، نقوم أنا ولِين بإلقاء المحاضرات وعقد ندوات تخصّ بذرة الأرض. يُدفع لنا أجرنا بالعملة الصعبة، ونُطعم جيداً، ويُسمح لنا بالإقامة في فنادق جيدة وآمنة. ويُرحب بنا، ويُستمع إلينا، ونُحمل على محمل الجدّ من قبل أشخاص متعطشين لشيء يؤمنون به، هدف صعب ولكن يستحق العناء لينخرطوا فيه ويعملوا على تحقيقه. وتعرّضنا أيضاً للسُخرية، وجُودِلنا، وقوبلنا بصيحات الاستهجان والتهديد بنيران الجحيم- أو نيران البنادق. لكن ديانة جاريت وجاريت نفسه قد باتا أقل شعبية هذه الأيام. لأن كليهما على ما يبدو مضرّان بالعمل، ومسيئان لدستور الولايات المتحدة، ومؤذيان لنسبة كبيرة من الشعب. لطالما كانا كذلك، ولكن الآن يزداد عدد الناس المستعدّين لقول ذلك علناً. لقد أرهب الصليبيون بعض الناس لإسكاتهم، لكنهم أغضبوا الآخرين.

كما أنني وجدتُ عدداً متزايداً من الناس ممن يتمتّعون الآن

برفاهية القلق حيال المستوى القذر الذي انزلقت إليه البلاد. في سنوات الـ ٢٠٢٠، عندما كان هؤلاء الأشخاص مرضى أو جياعاً، أو يحاولون البقاء دافئين، لم يكن أمامهم الوقت أو الطاقة للنظر لما هو أبعد من وضعهم البائس. ولكن الآن، بعد ما صاروا أكثر قدرة على تلبية احتياجاتهم الملّحة، فقد بدأوا بالنظر من حولهم، وشعروا بعدم الرضا من بطء وتيرة التغيير، بالأخص بعد أن زاد جاريت من بطئها بسبب حربه وصليبيّيه. أعتقد أن الأمر كان سيختلف لو أنّنا كسبنا في الحرب.

على أيّة حال، لقد وجد بعض هؤلاء الناس المستائين ما يريدونه ويحتاجونه في بذرة الأرض. إنهم أولئك الذين يأتونني قائلين: «ماذا بوسعنا أن نفعل؟ نحن مؤمنون. والآن، كيف يمكننا تقديم المساعدة؟».

وهكذا بدأتُ بالوصول إلى الناس. لقد وصلتُ إلى عددٍ كبير من الأشخاص من يوريكا إلى سياتل إلى سيراكيوز، لدرجة أنني أظن أنه حتّى لو قُتلت غداً، فسيجد بعض هؤلاء الأشخاص طرقاً للاستمرار في التدريس والتعليم، والسعي لتحقيق المصير. ستستمر بذرة الأرض. وستكبر. وستجبرنا على أن نصبح أشخاصاً أقوياء، هادفين، متكيّفين، كما يُفترض بنا أن نكون إذا أردنا أن نكبر كفاية لتحقيق المصير.

أعرف أن الأخطاء ستقع بين الحين والآخر. فالأديان ليست أكثر كمالاً من أيّة مؤسسة بشرية أخرى. لكن بذرة الأرض ستحقّق هدفها

الأساسي. ستجبرنا على أن نصبح أزيد ممّا قد نكون عليه لولاها. وعندما تنجح، ستقدّم لنا نوعاً من التأمين على حياة الأجناس. أتمنى أن أعيش لأرى ذلك النجاح. أتمنى أن أصبح أحد أولئك الذاهبين لكي يمدّوا الجذور بين النجوم. ليس بيدي إلّا الأمل في أن تذهب ابنتِي لاركِن- أو ربما أبناؤها أو حتّى أبناء مارك.

ما دمتُ على قيد الحياة، فلن أتوقف مهما حدث، عن العمل، والتبشير، وتوجيه الناس نحو المصير. لطالما عرفتُ أن نشر بذرة الأرض هي غايتي الحقيقية الوحيدة.

الخاتمة

بذرة الأرض: كتُب الأحياء

بذرةُ الأرضِ هي النضوجُ.
إنّها اختبارُ أجنحتِنا،
ومغادرةُ كنفِ أمِّنا،
لنغدوَ رجالاً ونساء.

لقد كنّا أطفالاً،
نتصارعُ من أجل الأثداءِ المُترعةِ
والعناقِ الحامي
والحِجرِ الناعمِ.
يفعلُ الأطفالُ هذا.
لكن بذرةَ الأرضِ هي النضوجُ.

النضوجُ حلوٌ ومرٌّ.
إنه يُخيف.

إنه يُمكّن.
نحن الآن رجالاً ونساءً.
بذرةُ الأرضِ.
ومصيرُ بذرةِ الأرضِ
أن تمدّ جذورَها بين النجوم.

لقد كان خالي مارك في النهاية، عائلتي الوحيدة.

لم أرَ كايسي وماديسون ثانية قطّ. أرسلتُ لهما المال عندما صارا مُسنّين ومعوزين، واستأجرتُ أشخاصاً لرعايتهما، ولكني لم أعُد من أجلهما ثانية. لقد قاما بواجبهما تجاهي وفعلتُ المثل من أجلهما.

عندما قابلتُ أُمّي أخيراً، كانت لا تزال هائمة على وجهها. كانت فاحشة الثراء- أو على الأقل كانت بذرة الأرض فاحشة الثراء. ولكن لم يكن عندها منزل خاص بها- بل ولا حتّى شقة مستأجرة. كانت تتنقّل للسكن بين منازل أصدقائها وأتباعها العديدين، وبين العديد من مجتمعات بذرة الأرض التي أسّسَتها أو شجّعت عليها في الولايات المتحدة وكندا وألاسكا ومكسيكو والبرازيل. واستمرّت بالتعليم والتبشير وجمع التبرعات ونشر نفوذها السياسي. لقد قابلتُها أثناء زيارتها لمجتمع بذرة الأرض في جبال آديروندداك في نيويورك- كان المجتمع يدعى باسم التنّوب الأحمر.

في الواقع، لقد ذهبَت إلى التنّوب الأحمر لكي ترتاح. لقد قضَت عدّة أشهر في السفر والتبشير المتواصل، وكانت بحاجة إلى مكان

يمكنها فيه أن تحظى بالهدوء للتفكير. أعرف ذلك لأن هذا ما أخبرني بِهِ الناس مراراً وتكراراً كلّما حاولتُ الوصول إليها. لقد حافظ المجتمع على خصوصيتها جيداً لدرجة أنني خشيتُ لفترة أنني لن أتمكّن أبداً من رؤيتها. سمعتُ أنّها كانت تسافر سابقاً برفقة قندلفت أو اثنين، وأحياناً مع حارس أمنٍ شخصي، أما الآن فيبدو أن جميع أفراد المجتمع قد قرروا حراستها.

كنتُ قد بلغتُ ٣٤ عاماً بحلول ذلك الوقت، ورغبتُ في لقائها بشدة. لقد أخبرني أصدقائي ومدبّرة منزل خالي مارك أنني أُشبه تلك المرأة الكاريزمية الخطيرة زعيمة الطائفة الوثنية. لم أُعر الأمر انتباهاً، إلى أن اكتشفتُ ذات يوم أثناء إجرائي بحثاً عن حياة لورِن أويا أولامينا، أنّها أنجبت طفلة، وقد اختُطفَت هذه الطفلة من مجتمع يدعى أيكورن، وهو أول مجتمعات بذرة الأرض.

ووفقاً لما جاء في سيرة أولامينا الرسمية، فقد دُمّر هذا المجتمع على يد صليبيّي جاريت في أحد سنوات الـ ٢٠٣٠. واستعبَد الصليبيون أفراد المجتمع من الرجال والنساء لأكثر من سنة، بينما اختُطف كلّ الأطفال غير البالغين. ولم يُعثر على معظمهم ثانية.

لقد أنكرَت كنيسة أمريكا المسيحيّة هذا، ورفعَت دعوى قضائية ضد أولامينا وبذرة الأرض في سنوات الـ ٢٠٤٠، عندما تناهت إلى علم الكنيسة تهمةُ أولامينا. كانت الكنيسة لا تزال قويّة، بالرغم من أن جاريت كان ميتاً في وقتها. سرت شائعات تقول إن جاريت أفرط في شرب المشروبات الكحولية حتّى الموت بعد انقضاء مدة ولايته

الوحيدة كرئيس. وقد عمل بجدٍ تحالف من رجال الأعمال الغاضبين والمعارضين لحرب ألـ-كن والمدافعين عن التعديل الدستوري الأول ضد إعادة انتخابه في ٢٠٣٦. لقد ربحوا من خلال فضح حوادث حرق الساحرات السابقة التي قام بها الأمريكيون المسيحيّون. وقد شارك جاريت بنفسه باستهداف الناس وحرقهم أحياء ما بين العام ٢٠١٥ و٢٠١٩. وقد اتُّخذ من «البلاء»، الذي كان في وقتها ورماً خبيثاً متنامياً، عذراً وغطاءً على حدٍ سواء لهذه الحوادث. لقد أحرق جاريت وأصدقاؤه أشخاصاً بتهمة الدعارة وتجارة المخدرات والإدمان. كما أحرقوا في ذروة حماسهم بعض الأبرياء- أشخاصاً لم تكن لهم أيّة علاقة بتجارة الجنس أو المخدرات. وعندما حدث ذلك، غطّى جماعة جاريت «أخطاءهم» بالإنكار والتهديد والمزيد من الترويع، وأحياناً برشوة العائلات المفجوعة. لقد بحث خالي مارك عن هذا بنفسه قبل بضعة سنوات، ويقول إن هذا صحيح- صحيحٌ ومؤسف وخاطئ، وغير مهمّ في نهاية المطاف. يقول إن تعاليم جاريت صحيحة حتّى لو ارتكب الرجل نفسه الأخطاء.

على أيّة حال، رفعت كنيسة أمريكا المسيحيّة دعوى قضائية ضد أولامينا بسبب ادعاءاتها «الباطلة». ورفعَت هي دعوى مضادة. ثم فجأة، ومن دون تفسير، أسقطَت (أ. م) الدعوى وتمّت التسوية بين الطرفين، بعد أن دفعَت لها مبلغاً من المال لم يُفصَح عن قدره ولكن يُقال إنه ضخمٌ. كنت آنذاك لا أزال طفلة أعيش في بيت آل ألكسندر عندما حدث كلّ هذا، ولم أسمع عنه شيئاً. بعد مضي سنوات، عندما

بدأتُ في البحث عن بذرة الأرض وأولامينا، وعرفتُ ما حدث، لم أستوعب الأمر.

فاتصلتُ هاتفياً بخالي مارك وسألته بصراحة ما إذا كان هناك أيّ احتمال أن هذه المرأة قد تكون أمي.

رأيتُ على شاشة هاتفي الصغيرة وجه خالي مارك يتجمّد، ثم كأنه يترهل. بدا فجأة أكبر بكثير من سنواته الـ ٥٤. قال: «سأتحدّث معكِ بهذا الشأن عندما أعود إلى المنزل». ثم قطع الاتصال. لم يردّ على اتصالاتي بعدها. هو الذي لم يسبق له قطّ أن رفض اتصالاتي الهاتفية. على الإطلاق.

ولأنني لم أعرف ماذا أفعل، أو إلى أين أتّجه، بحثتُ في الشبكات لأرى أين ستتواجد لورِن أولامينا للحديث أو إلقاء المحاضرات. دُهشت عندما عرفت أنّها كانت «تستريح» في مجتمع التنوب الأحمر، على بعد أقل من مئة كيلومتر من مكاني.

فجأة شعرتُ بالحاجة لرؤيتها.

لم أحاول الاتصال بها هاتفياً، ولم أحاول التواصل معها بواسطة اسم خالي مارك المعروف، أو باستخدام اسمي كصانعة العديد من أقنعة الأحلام لمشهورة. لقد ذهبتُ ببساطة إلى التنّوب الأحمر، واستأجرتُ غرفة في دار الضيافة، وشرعتُ في محاولاتي للوصول إليها. لا تكترث بذرة الأرض بالرسميات. بوسع أي شخص زيارة مجتمعاتها واستئجار غرفة في دار الضيافة. يأتي الضيوف

لزيارة أقاربهم الذين كانوا أعضاء، أو يأتون لحضور الاجتماعات أو الطقوس الأخرى، أو حتّى يأتون للانضمام إلى بذرة الأرض واتخاذ الترتيبات اللازمة لبدء السنة الأولى تحت الاختبار المطلوبة منهم.

أخبرتُ مدير دار الضيافة أنني أظن أنني قريبة أولامينا وسألتُه ما إذا كان بوسعه إخباري كيف يمكنني ترتيب موعد للقاء بها. سألتُه لأنني سمعتُ الناس تناديه بلقب «المصوِّر» وعرفتُ من خلال قراءاتي أن هذا لقبٌ يدلّ على الاحترام أشبه بلقب «الكاهن» أو «القسّ». إذا كان هذا الرجل هو الكاهن الراعي لهذا المجتمع، فربما بوسعه تقديمي إلى أولامينا بنفسه.

ربما كان بوسعه ذلك، لكنه رفض. لقد أخبرني أن «المصوِّرة» أولامينا متعبةٌ جداً، ولا يجب مضايقتها. وإذا أردتُ مقابلتها، فيجدر بي حضور أحد الاجتماعات التي تقيمها أو أن أتّصل هاتفياً بمقرّها الرئيسي في يوريكا، كاليفورنيا، لترتيب موعدٍ لمقابلتها.

اضطررتُ للمكوث في المجتمع لمدة ثلاثة أيام قبل أن أعثر على شخصٍ يقبل بحمل رسالتي إليها. لم أرَها. لم يخبرني أحدٌ حتّى بالمكان الذي أقامت فيهِ داخل المجتمع. لقد قاموا بحمايتها مني بلباقة، وبحزم. ثم، فجأة، انهار الجدار المحيط بها، عندما قابلتُ أحد معاونيها وحمل رسالتي إليها. مكتبة .. سُر مَن قرأ

كان رسولي شاباً نحيلاً بشعر بُنيّ قال إن اسمه هو إديسون بالتر. قابلتُه في غرفة الطعام في دار الضيافة ذات صباح حيث جلس كلّ منا بمفرده، نأكل خبز البيغل ونشرب عصير التفاح. انقضضتُ

عليه مستغلّة الفرصة بصفتهِ شخصاً لم أُلّح عليه بعد. لم أمتلك أدنى فكرة وقتها ما كان يعنيه اسم بالتر بالنسبة لأمي أو أن هذا الرجل كان ابناً بالتبني لصديقها المقرّب. لقد سُعدت فقط لأن أحدهم سمعني أخيراً، ولم يغلق باباً آخر في وجهي.

قال لي: «أنا معاونها في هذه الرحلة. إنها تقول إنني مستعد تقريباً للانطلاق بمفردي، وهذه الفكرة تخيفني للغاية. بأي اسم أقدّمكِ إليها؟».

قلت: «آشا ڤير».

قال: «أوه! هل أنتِ آشا ڤير ذاتها التي تصنع أقنعة الأحلام؟».

أومأتُ برأسي.

قال: «عملُكِ جميل. سأخبرها. هل تريدين أن تضعيها في أحد أقنعتكِ؟ أتعرفين أنكِ تشبهينها جداً؟ مثل نسخة أنعم منها». ثم مضى. كان يتحدّث بسرعة ويتحرّك بسرعة، ولكن بطريقة ما من دون أن يبدو مستعجلاً. لم يبدُ مثل أولامينا إطلاقاً، ولكنه كان يحمل بعض الشبه. وجدتُ أنني أحببتُه فوراً- تماماً كما حصل في البداية عندما وجدتُ نفسي أحبّها. إنه طائفيّ آخر محبوب. أحسستُ أن التنوب الأحمر، المجتمع الجبلي النظيف والجميل، لم يكن سوى عشّ أفاعٍ ملوّنة مغوية- مكاناً مسموماً.

ثم عاد إديسون بالتر وأخبرني أنه سيأخذني إليها. كانت في العقد السادس من العمر- تذكّرتُ من قراءاتي أن عمرها ٥٨ عاماً.

لقد وُلدت في عام ٢٠٠٩، قبل حلول «البلاء». يا إلهي! كم كانت كبيرة في السنّ. مع ذلك فلم تبدُ مسنة، رغم أن شعرها الأسود كان مجزعاً بالشيب. بدت ضخمة وقويّة. وبالرغم من ملامحها اللطيفة المرحبّة إلّا أنّها كانت مخيفة بعض الشيء. كانت أطول مني، وربما أنحف مني بقليل. لم تبدُ... قاسية تماماً، بل بدت وكأنها قد تصبح قاسية مع أقل تغيير في ملامحها. بدت كشخصٍ لا يجدر بي إغضابه. وبلى، حتّى أنا كان بوسعي رؤية ذلك. لقد كانت تشبهني.

وقفنا أنا وهي ننظر إلى بعضنا البعض لفترة طويلة جداً. وبعد انقضاء بعض الوقت، تقدّمَت صوبي، أخذَت يدي اليسرى، وقلّبتها لتنظر إلى شامتين صغيرتين تحت مفاصل أصابعي مباشرة. كانت ردّة فعلي الأولى أن أسحب يدي بسرعة، ولكنني لم أفعل.

حدّقَت في الشامتين لبعض الوقت، ثم قالت: «هل عندكِ علامةٌ أخرى- وحمة داكنة اللون هنا؟»، ثم لمسَت مكاناً معيّناً مغطى بقميصي على كتفي الأيسر بالقرب من رقبتي.

هذه المرة تراجعتُ خطوة إلى الوراء لأبتعد عن لمستها. لم أقصد فعل ذلك، لكنني لا أحبّ أن يلمسني أحد. ولا حتّى امرأة غريبة قد تكون أمي. قلتُ لها: «نعم. عندي وحمة».

همسَت: «نعم». ثم تابعَت التحديق بي. بعد لحظة قالت: «اجلسي. اجلسي هنا بقربي. أنتِ طفلتي، ابنتي. أعرف ذلك».

جلستُ على كرسي بدلاً من مشاركتها الجلوس على الكنبة.

كانت منفتحة ومرحّبة، وهذا ما جعلني، بطريقة ما، أرغب أكثر في الابتعاد عنها.

سألتني: «هل عرفتِ بالأمر للتوّ؟».

أومأتُ برأسي، حاولتُ الكلام، ووجدتُ نفسي أتخبط وأتلعثم. قلتُ: «لقد أتيتُ إلى هنا لأنني ظننتُ... ربما... لأنني بحثتُ عن معلومات عنكِ، وراودني الفضول. أقصد، قرأتُ عن بذرة الأرض، وقال الناس إنني أشبهكِ. و.. حسناً.. أعرف أنني متبناة، لذا تساءلتُ».

قالت: «إذن كان عندك والدان بالتبني. هل كانت معاملتهما طيبة معكِ؟ كيف كانت حياتكِ؟ ماذا...؟». توقّفَت، وأخذَت نفساً عميقاً، وغطّت وجهها بيديها للحظة، وهزّت رأسها، ثم أطلقَت ضحكة قصيرة وقالت: «أريد أن أعرف كلّ شيء! لا أصدّق أنّها أنتِ. أنا...». ثم انسابت الدموع على وجهها العريض غامق اللون. انحنت نحوي، وعرفتُ أنّها رغبَت في معانقتي. كانت تعانق الناس وتلمسهم. لأنها لم تتربَّ على يد كايسي وماديسون ألكسندر.

أشحتُ بوجهي عنها وتململتُ في مكاني في محاولة للتأقلم مع كرسي، ومع طبيعتي، ومع هويتي الجديدة. سألتُها: «هل يمكننا إجراء اختبار بصمة وراثية؟».

«نعم. اليوم. الآن». ثم أخرجَت هاتفها من جيبها واتّصلَت بشخص. لم تمرّ أكثر من دقيقة حتّى أقبلَت امرأة ترتدي بالكامل ثياباً باللون الأزرق، حاملة علبة بلاستيكية صغيرة. سحبَت المرأة

عينة دماء من كلتينا، وفحصَتها بواسطة جهاز تشخيص محمول في علبتها. لم تكن وحدة التشخيص أكبر من حجم هاتف أولامينا. وفي أقل من دقيقة خرجَت نتيجة البصمتين الوراثيتين. كانت البصمتان تقريبيّتين وغير مكتملتين، ولكن حتّى أنا استطعتُ رؤية الاختلافات العديدة بينهما ورأيتُ أيضاً العديد من النقاط المتطابقة تماماً بينهما.

قالت المرأة: «أنتما قريبتان. بإمكان أي شخص أن يخمّن ذلك من النظر إليكما فقط، لكن الاختبار يؤكّد ذلك».

قالت أولامينا: «نحن أمّ وابنتها».

«نعم»، وافقتها المرأة التي ترتدي الثياب الزُرق. كانت بعمر أُمّي تقريباً أو أكبر منها- امرأة بورتوريكية بالحكم من خلال لكنتِها. لم يخالط الشيب شعرها الأسود، لكن وجهها كان متجعداً ومسنّاً. قالت: «لقد سمعتُ يا حضرة المصوّرة أنه كانت عندك ابنة مفقودة. لقد عثرتِ عليها الآن».

قالت أمي: «بل هي التي عثرَت عليّ».

قالت المرأة: «الربّ هو التغيير»، ثم جمعَت مُعدّاتها. عانقَت أُمّي قبل أن تغادرنا. ثم نظرَت نحوي لكنها لم تعانقني. «مرحباً بكِ»، قالت لي بلكنة إسبانية طفيفة. ثم قالت ثانية «الربّ هو التغيير»، وغادرَت.

همسَت أُمي: «صوّروا الرب»، في إجابة بدَت تلقائية ودينية في نفس الوقت.

ثم تحدّثنا.

قلتُ لها: «كان عندي والدان. كايسي وماديسون ألكسندر. أنا... نحن لم ننسجم. لم أرَهما ثانية منذ أن بلغت الثمانية عشر عاماً. قالا لي: «إذا غادرتِ المنزل من دون زواج، فلا تعودي ثانية!»، لذا لم أعُد. ثم عثرتُ على خالي مارك، وأخيراً...».

نهضَت من مكانها، وحدّقَت فيّ، حدّقَت بنظرة ثاقبة تجمّدَت على وجهها. لقد أخرسَتني تلك النظرة، وتساءلتُ ما إذا كانت هذهِ هي حقيقتها- امرأة باردة، متباعدة، عديمة الإحساس. هل كانت تتظاهر أنّها حنونة ومنفتحة لخداع أتباعها؟

«متى؟»، سألَتني مطالبة، وكانت نبرتها باردة كبرود ملامحها. قالت: «متى عثرتِ على مارك؟ متى عرفتِ أنه خالك؟ كيف عرفتِ؟ أخبريني!».

حدّقتُ بها. فحدّقَت هي بي بالمقابل للحظة، وبدأَت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. مضَت نحو النافذة، ووقفَت قبالتها لعدة ثوانٍ، محدّقة في الجبال. ثم عادَت لتنظر إليّ بعينين لا يمكنني وصفهما إلّا بعينين هادئتين.

قالت: «أخبريني عن حياتكِ أرجوكِ. ربما تعرفين شيئاً عن حياتي لأنه كُتب الكثير عني. لكنني لا أعرف شيئاً عن حياتكِ. أخبريني أرجوكِ».

ولم أرغب في ذلك بنحوٍ غير منطقي. أردتُ الهرب منها. كانت

واحدة من أولئك الأشخاص الذين يشدّونك، تجعلك تحبّها حتّى قبل أن تتعرّف عليها، وعندها فقط ستدعُك ترى حقيقتها. لقد تمكّنَت من إقناع الملايين بأنهم سيحلّقون إلى النجوم. كم أخذَت منهم من الأموال فيما يقبعون بانتظار السفينة التي ستطير بهم إلى ألفا سينتوري؟ ربّاه! لم أرغب في حبّها. أردتُها أن تكون ذات الشخصية القبيحة التي لمحتُها على حقيقتها. لقد رغبتُ في احتقارها.

ولكن بدلاً من ذلك أخبرتُها بقصّة حياتي.

ثم تناولنا العشاء معاً، أنا وهي فقط. أحضرَت صينية الطعام امرأة ربما كانت خادمة أو حارسة شخصية أو ربّة المنزل.

ثم أخبرتني أُمّي بقصة ولادتي، وحدثتني عن أبي وعن اختطافي. ليس استماعي إلى ما قالته شبيهاً بقراءة حكاية غير شخصية. لقد استمعتُ وبكيتُ. لم يكن بيدي منع نفسي.

سألتني: «بمَ أخبركِ مارك؟».

ترددتُ ولم أعرف ماذا أقول. في النهاية قلت الحقيقة فقط لأنني لم أستطع اختلاق كذبة مناسبة. أجبتُ: «قال إنّكِ ميتة- قال إن أبي وأمي ميّتان».

نخرَت.

قلتُ: «لقد... لقد رعاني. لقد حرص على أن أكمل دراستي الجامعية، وأعيش في مكان لائق. أنا وهو... حسناً، نحن عائلة. لم يكن عندنا أيّ أحدٍ قبل أن نجد بعضنا البعض».

نظرَت نحوي فحسب.

قلتُ: «لا أعرف لماذا أخبرني أنّكِ ميتة. ربما كان... وحيداً. لا أعرف. نحن على وفاق منذ البداية. ما زلتُ أعيش في أحد منازله. أستطيع شراء منزل خاصّ بي، ولكن كما قلتُ لكِ، نحن عائلة». توقّفتُ برهة عن الكلام، ثم قلتُ شيئاً لم أعترف بهِ من قبل: «أتعرفين، لم أشعر أن أحداً أحبّني قبل أن ألتقيه. وأفترض أنني لم أُحبّ أحداً إلى أن أحبني. لقد جعل... من الآمن أن أحبه في المقابل».

قالت: «لقد أحببناكِ أنا وأبوكِ. حاولنا لسنتين إنجاب طفل. قلقنا بسبب سنّه. وقلقنا من الوضع الذي كان عليه العالم- من كلّ الفوضى. لكننا أردناكِ بشدة. وعندما وُلدتِ، أحببناكِ أكثر ممّا تتصورين. عندما أخذوكِ، وقتلوا والدكِ... شعرتُ لفترة أنني ميتة. لقد حاولت بجدٍّ ولفترة طويلة العثور عليكِ».

لم أعرف بمَ أُجيب. نفضتُ كتفيّ بضيقٍ. لم تعثر عليّ. لقد عثر خالي مارك عليّ. تساءلتُ إلى أيّ حدٍّ بالضبط كانت جادّة في بحثها عني.

قالت: «لم أعرف حتّى ما إذا كنتِ لا تزالين على قيد الحياة. لقد أردتُ تصديق أنكِ حيّة، ولكني لم أعرف. وتورّطتُ في دعوى قضائية مع أمريكا المسيحيّة في الأربعينيات، وحاولتُ إجبارهم على إخباري بما حصل لكِ. زعموا أن كلّ السجّلات التي تخصّك أُتلفت قبل سنوات في حريق اشتعل في دار رعاية الأطفال في بيليكان باي».

هل قالوا ذلك حقاً؟ ربما. قد يقولون أي شيء تقريباً لتجنّب التخلي عن أي دليل على عمليات الاختطافات- ولتجنّب إعادة طفل أمريكي مسيحيّ إلى زعيمة طائفة وثنية. مع ذلك قلتُ: «قال لي خالي مارك إنه عثر عليّ عندما كنتُ في الثانية أو الثالثة من عمري. لكنه عندما رأى أنني في رعاية والدين أمريكيين مسيحيّين صالحين، فكّر أن من الأفضل لي البقاء معهما، في مأمن». لم يجدر بي قول هذا. لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك. نهضَت من مكانها وبدأَت تسير ثانية- بخطوات سريعة وغاضبة، تذرع الغرفة جيئة وذهاباً. قالت: «لم يخطر ببالي قطّ أن بوسعه فعل هذا بي. لم أحسب أنه يكرهني لدرجة فعلِ شيءٍ من هذا القبيل. لم أحسب قطّ أن بإمكانه كره أي أحد لهذه الدرجة. لقد أنقذتُه من العبوديّة! اللعنة! لقد أنقذتُ حياته التافهة».

قلتُ: «إنه لا يكرهك. أنا واثقة من ذلك. ما خبرتُه يكره أحداً. لقد ظنّ أنه يفعل الصواب».

همسَت: «لا تدافعي عنه. أعرف أنكِ تحبينه، ولكن لا تدافعي عنه أمامي. أنا أيضاً أحبه، ولكن انظري إلى ما فعله بي وبكِ».

قلتُ: «أنتِ زعيمة طائفة. وهو مسيحيّ أمريكي. لقد ظن...».

قالت: «لا يهمّني! لقد تحدّثتُ معه مئات المرّات منذ عثوره عليكِ، ولم يخبرني بشيء. لا شيء!».

قلتُ: «ليس عنده أطفال. ولا أعتقد أنه سيحظى بأطفال أبداً. كنتُ بمثابة ابنة له. وكان بمثابة أب لي».

توقّفَت عن السير وراحت تحدّق بي بشدةٍ تكاد تكون مخيفة. حدّقَت بي وكأنها كرهتني.

وقفتُ، بحثتُ عن سترتي، ووجدتُها، وارتديتها.

قالت: «لا! لا! لا تذهبي!». اختفى منها كلّ غضبها وصلابتها. قالت: «لا ترحلي أرجوكِ. ليس بعد».

لكنني كنتُ بحاجة إلى الرحيل. إنّها شخص مهيمن، وكنت بحاجة للابتعاد عنها.

قالت عندما توجّهتُ إلى الباب: «طيب. ولكن يمكنكِ العودة إلى هنا في أي وقت. تعالي غداً. تعالي متى شئتِ. لقد ضيّعنا الكثير من الوقت الذي يجب علينا تعويضه. بابي مفتوح لكِ دائماً يا لاركِن».

توقفتُ ونظرتُ إليها، أدركتُ أنّها نادتني بالاسم الذي سمَّت بِهِ ابنتَها قبل وقتٍ طويل. فنظرتُ إليها وقلتُ لها: «اسمي آشا، آشا ڤير».

بدت مرتبكةً. ثم ترهّل وجهها كما حصل مع خالي مارك عندما اتصلتُ بِهِ لأسأله عنها. بدت مجروحة وحزينة جداً لدرجة أنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالأسف حيالها. ثم همسَت: «آشا. بابي مفتوح لكِ دائماً يا آشا».

أتى خالي مارك في اليوم التالي، وهو ممتلئ بالخوف واليأس.

وما أن رآني حتّى قال: «أنا آسف. كنت سعيداً جداً عندما وجدتُكِ بعد أن تركتِ والديكِ. وكنت مسروراً جداً لأنني

استطعتُ مساعدتكِ في إكمال تعليمك. أظن... أنني كنتُ وحيداً لفترة طويلة بحيث لم أستطع تحمّل مشاركتكِ مع أي شخصٍ».

لقد رفضَت أُمّي مقابلته. أتى إليّ باكياً تقريباً لأنه حاول مقابلتها ورفضَت. لقد حاول عدّة مرّات، ومراراً وتكراراً، وكانت تُرسل إليه أشخاصاً يخبرونه أن ينصرف.

عدتُ إلى المنزل معه. غضبتُ منه، لكنني بطريقة ما، غضبتُ منها أكثر. لقد أحببتُه أكثر من أي شخصٍ آخر بغضّ النظر عمّا فعله، وكانت تؤذيه. لم أعرف ما إذا كنتُ سأراها ثانية. لم أعرف ما إذا كان ينبغي عليّ ذلك. لم أعرف حتّى ما إذا كنتُ أريد ذلك.

عاشَت أُمّي حتّى بلغت ٨١ عاماً.

لقد حافظَت على وعدها. لم تتوقف عن التدريس. لقد استنفدَت نفسها كثيراً من أجل بذرة الأرض، في الحديث والتدريب والتوجيه والكتابة وتأسيس المدارس التي تأوي الأيتام وكذلك التلاميذ الذين عندهم آباء ومنازل. وجدَت مصادر للمال ووجّهتها لمجالات دراسية من شأنها تقريب تحقيق مصير بذرة الأرض. أرسلَت الطلّاب الشباب الواعدين إلى جامعات تساعدهم في تحقيق إمكانياتهم الفردية.

كل ما فعلَته، فعلَته من أجل بذرة الأرض. رأيتها بين الفينة والأخرى، لكن بذرة الأرض كانت «طفلتها» الأولى، وبشكلٍ من الأشكال «طفلتها» الوحيدة.

كانت تخطّط للقيام بجولة محاضرات عندما توقّف قلبها عقب عيد ميلادها الحادي والثمانين. لقد رأت أوّل مكوك يغادر من أجل أول سفينة فضائية مجمّعة جزئياً على القمر وجزئياً على المدار. لم أكن على متن المكوك بالطبع. ولا خالي مارك، وكلانا كان بلا أطفال.

لكن جاستن غيلكريست كان على متن تلك السفينة. ولم يجدر بهِ ذلك بالنظر إلى عمره بالطبع، لكنه كان على متن السفينة. ومن المفارقة أن ابن جيسيكا فبركلوث قد ذهب أيضاً. إنه عالِم أحياء. وكذلك ذهبت ابنتا آل مورا وأطفالها وكل من بقي من آل دوغلاس. هؤلاء بالأخص كانوا عائلتها. كلّ أفراد بذرة الأرض كانوا عائلتها. في حين لم نكن أنا وخالي مارك من عائلتها حقاً. لم تكن بحاجة إلينا حقاً، لذا لم نسمح لأنفسنا أن نكون بحاجة إليها. إليكم آخر ما كتبَته في يومياتها، وما يبدو أنه ينطبق على قصتها الطويلة والضيّقة.

من يوميات لورِن أويا أولامينا

الخميس، ٢٠ يوليو، ٢٠٩٠

أعرفُ ما فعلتُه.

لم أمنحهم الجنّة، لكنني ساعدتهم على منح أنفسهم الجِنان. لا يمكنني منحهم الخلود كأفراد، لكنني ساعدتهم لكي يمنحوا جنسنا البشري فرصته الوحيدة للخلود. لقد ساعدتُهم على بلوغ المرحلة التالية من النمو. إنهم الآن شباب، يغادرون العشّ. سيكون

من الصعب عليهم العيش هناك. يصعب على الصغار دائماً مغادرة كنف أمهاتهم. سينطوي ذلك على خسائر- وربما خسائر جمّة. لا أحب التفكير في ذلك، ولكنني أعرف أنّها الحقيقة. مع ذلك، فهناك، بين النجوم في العوالم الحية التي نعرفها والعوالم الأخرى التي لم نحلم بها بعدُ، سينجو البعض ويتغيّرون ويزدهرون بينما سيعاني البعض الآخر ويموتون.

لطالما كانت بذرة الأرض حقيقية. لقد جعلتُها حقيقية، وأعطيتُها جوهراً. لا يعني هذا أنني امتلكتُ خياراً في هذه المسألة. لأنك إن أردتَ شيئاً- أردتَه بحقّ، طلبتَهُ بشدّةٍ لدرجة أنك تحتاجه كاحتياجك الهواء لتتنفس، عندها، إن لم تكن قد مُتّ، فأنت حائزٌ عليه. لمَ لا؟ فقد استحوذ عليك. ما من منجى. وحتى إن كان الخلاص ممكناً، فيا له من خلاصٍ قاسٍ ومُريع.

المكاكيك مركبات فضائية ضخمة وبدينة وقبيحة وعتيقة المظهر. تبدو كما لو أنّ عمرها مئة سنة. لكنها بالطبع مختلفة تماماً عن المكاكيك الأولى من الداخل. غلافها بحدّ ذاته مختلف كُلياً. ولكن، عدا عن كونها أكبر حجماً، فأن مكاكيك الفضاء هذا اليوم لا تختلف كثيراً عن تلك التي كانت موجودة قبل مئة عام. لقد رأيتُ صوراً للمكاكيك القديمة.

لقد حُمّلت المكاكيك هذا اليوم بحمولات من البشر، وهم في حالة نوم عميق في طور الكمون؛ وهي عملية تعليق للوظائف الحركية التي يبدو أنها الطريقة الأفضل من نوعها. وبالإضافة إلى

البشر، هنالك أيضاً حمولة من أجنّة بشرية وحيوانية مجمّدة، وبذور نباتات وأدوات ومعدّات وذاكرات وأحلام وآمال. وهي حمولة جديرة بأن تودي بالمكاكيك -بالرغم من كبر حجمها وجدارتها بالفضاء- إلى أن تسقط أرضاً تحت وطأتها، فالذاكرات وحدها قد تضعُ عليها حملاً زائداً. بالإضافة إلى المكتبات الأرضية. كلّ ذلك سيتمّ تفريغه على أول سفينة فضائية على الأرض، سفينة كريستوفر كولومبوس.

اعترضتُ على الاسم. فهذه السفينة ليست طريقاً مختصراً نحو الثروات والإمبراطورية. ولا شأن لها باختطاف العبيد والاستيلاء على الذهب وتقديمه إلى ملوك أوروبيين. ولكن لا يستطيع المرء الانتصار في كلّ معركة. على المرء اختيار معاركه. وإن الاسم لا يمثّل شيئاً.

لم أكن لأقبل بمشاهدة أوّل رحلة مغادرة على الشاشة أو في غرفة افتراضية أو من خلال نسخة شخصية تحت قناع أحلام. لو اضطررتُ لذلك، فسأسافر إلى أقصى الأرض سيراً على الأقدام لأشاهد المغادرة. فهذه هي حياتي التي تطير على متن هذه المركبات الكبيرة القبيحة. هذا هو خلودي. من حقي أن أشاهدها، وأسمع دويها، وأشمّ رائحتها.

سأرحل على متن أول سفينة مغادرة بعد موتي. كنتُ سأذهب على متن هذه الرحلة وأنا حيّة، لو لم أعتقد أنني سأمثّل عبئاً. لا يهم. دعهم يستخدمون رمادي ذات يوم لتخصيب محاصيلهم. دعهم

يفعلون هذا. لقد اتّخذت الترتيبات اللازمة. سأذهب، وسيمنحونني إلى بساتينهم ورياضهم.

أنا أشاهد الآن برفقة أصدقائي وأبنائهم. لاسي فيغارو، مايرا شو، إديسون بالتر وابنته جان، وهاري بالتر المُبتسم، وقد انحنى ظهره وشاب رأسه. لقد استغرق هاري وقتاً طويلاً ليبتسم ثانية بعد أن فقد زهرا وأطفاله. إنه رجل يستحق أن يبتسم. إنه يقف واضعاً إحدى ذراعيه حول حفيدته وذراعه الأخرى حولي. إنه في مثل عمري. إحدى وثمانون سنة. مستحيل. إحدى وثمانون! الربّ هو التغيير.

لقد رفضَت ابنتي لاركِن القدوم. توسّلتُ إليها لكنها رفضَت. إنّها تتولى رعاية مارك. لقد أجرى للتوّ عملية زراعة قلب أخرى. لقد تمكّن من سرقة ابنتي تماماً وكُلياً. لن أسامحه، أبداً.

أشاهد الآن فيما ترفع السفن، الواحدة تلو الأخرى، حمولاتها من الأرض. أشعر بالوحدة مع أفكاري، حتى أمدّ ذراعيّ وأعانق أصدقائي واحداً واحداً، وأنظر في وجوههم الحبيبة، هذا وقور، وذلك مبتهج، وكلّهم قد بللت الدموع وجوههم. سيغادرون كلّهم قريباً على متن هذه المكاكيك نفسها، ما عدا هاري. ربما سيأنس رماد هاري برمادي يوماً ما، فإن مصير بذرة الأرض في نهاية المطاف هو أن تمدّ جذورها بين النجوم، وليس أن نُعبّأ بالسموم الحافظة، ونُعلّب في صناديق بتكاليف باهظة، بحسب الموضة السائدة الآن، ثم نُدفن بلا فائدة في مقبرة. أعرف ما فعلتُه.

«وَكَأَنَّمَا إِنسَانٌ مُسَافِرٌ دَعَا عَبِيدَهُ وَسَلَّمَهُم أَموَالَهُ، فَأَعطَى

وَاحِدًا خَمسَ وَزَنَاتٍ، وَآخَرَ وَزنَتَينِ، وَآخَرَ وَزنَةً. كُلّ وَاحِدٍ عَلَى قَدرِ طَاقَتِهِ. وَسَافَرَ لِلوَقتِ. فَمَضَى الَّذِي أَخَذَ الخَمسَ وَزَنَاتٍ وَتَاجَرَ بِهَا، فَرَبحَ خَمسَ وَزَنَاتٍ أُخَرَ. وَهكَذَا الَّذِي أَخَذَ الوَزنَتَينِ، رَبحَ أَيضًا وَزنَتَينِ أُخرَيَينِ. وَأَمَّا الَّذِي أَخَذَ الوَزنَةَ فَمَضَى وَحَفَرَ فِي الأَرضِ وَأَخفَى فِضَّةَ سَيِّدِهِ. وَبَعدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَتَى سَيِّدُ أُولئِكَ العَبِيدِ وَحَاسَبَهُم. فَجَاءَ الَّذِي أَخَذَ الخَمسَ وَزَنَاتٍ وَقَدَّمَ خَمسَ وَزَنَاتٍ أُخَرَ قَائِلًا: يَا سَيِّدُ، خَمسَ وَزَنَاتٍ سَلَّمتَنِي. هُوَذَا خَمسُ وَزَنَاتٍ أُخَرُ رَبِحتُهَا فوقَهَا. فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نِعِمَّا أَيُّهَا العَبدُ الصَّالِحُ وَالأَمِينُ! كُنتَ أَمِينًا فِي القَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الكَثِيرِ. اُدخُل إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ثُمَّ جَاءَ الَّذِي أَخَذَ الوَزنَتَينِ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ، وَزنَتَينِ سَلَّمتَنِي. هُوَذَا وَزنَتَانِ أُخرَيَانِ رَبِحتُهُمَا فوقَهُمَا. قَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نِعِمَّا أَيُّهَا العَبدُ الصَّالِحُ الأَمِينُ! كُنتَ أَمِينًا فِي القَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الكَثِيرِ. اُدخُل إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ثُمَّ جَاءَ أَيضًا الَّذِي أَخَذَ الوَزنَةَ الوَاحِدَةَ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ، عَرَفتُ أَنَّكَ إِنسَانٌ قَاسٍ، تَحصُدُ حَيثُ لَم تَزرَع، وَتَجمَعُ مِن حَيثُ لَم تَبذُر. فَخِفتُ وَمَضَيتُ وَأَخفَيتُ وَزنَتَكَ فِي الأَرضِ. هُوَذَا الَّذِي لَكَ. فَأَجَابَ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا العَبدُ الشِّرِّيرُ وَالكَسلاَنُ، عَرَفتَ أَنِّي أَحصُدُ حَيثُ لَم أَزرَع، وَأَجمَعُ مِن حَيثُ لَم أَبذُر، فَكَانَ يَنبَغِي أَن تَضَعَ فِضَّتِي عِندَ الصَّيَارِفَةِ، فَعِندَ مَجِيئِي كُنتُ آخُذُ الَّذِي لِي مَعَ رِبًا. فَخُذُوا مِنهُ الوَزنَةَ وَأَعطُوهَا لِلَّذِي لَهُ العَشرُ وَزَنَاتٍ. لأَنَّ كُلَّ مَن لَهُ يُعطَى فَيَزدَادُ، وَمَن لَيسَ لَهُ فَالَّذِي عِندَهُ يُؤخَذُ مِنهُ».

إنجيل متّى: ٢٥، [١٤-٣٠].



«وحدهُ التغيير الحقيقةُ الباقية».

❊❊❊

يردُ (مثَل الوزنات) في الكتاب المقدّس، في حكاية مفادها أن تاجراً قام قبل سفره بتوزيع ثروته المكوّنة من ثمان وزنات من الفضة على عبيده الثلاثة، وكالتالي: للأول خمسٌ وللثاني اثنتان، وللثالث وزنة واحدة. فأما العبدان الأوّلان فقد اجتهدا وتاجرا وضاعفا وزناتهما، وأما الثالث فقد دفنها في الأرض. فلمّا عاد السيّد من سفره ليسوّي حسابه مع عبيده، رأى أن العبدين الأولين قد ضاعفا وزناتهما وبرهنا على أمانتهما، فقال لكلّ منهما: «نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الأَمِينُ!». أما الثالث فقد وصفه بالشرير والكسلان، وعاقبه بأن أخذ وزنته ووهبها للذي له عشر وزنات، «لأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزْدَادُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ». الوزنات هي المواهب التي أنعم الله بها على الإنسان، كالصحة، والذكاء، والثراء، والعِلم. والإنسان مُحاسبٌ على وزناتهِ يوم الحساب لأنه وكيلٌ عليها، وكلّ ما عنده من خير إنما هو من عند الله. وواجب الإنسان أن يُثمر ويُكثر ويملأ الأرض. لأن الكسل باب الهلاك.

تتابع هذه الرواية المنشورة سنة ١٩٩٨ قصة لورِن أولامينا، وهي تحاول العيش في أمريكا في ظل نظام شمولي، في ثلاثينيات القرن الحالي. تدرك أولامينا أن بذرة الأرض هي الحلّ الوحيد لإصلاح العالَم.

المترجمة



أوكتاڤيا بَتلر

مثَل الوزنات





www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com